

شَوْح

لِأَعْيَانِ النَّبِيِّينَ

حَمِيدٌ عَبْدُ الْجَلِيلِ

إِشْرَافٌ وَتَقْدِيمٌ

مَرْكَزُ الدَّارِ السَّائِغَاتِ التَّحْصِينِ فِي الْأَمْرِ الْمَهْدِيِّ



شرح دعاء الندبة

حميد عبد الجليل

إشراف وتقدير



مركز الدراسات والبحوث الإسلامية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي

اسم الكتاب: شرح دعاء التلبية
تأليف: حميد عبد الجليل
إشراف وتقديم: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي
رقم الإصدار: ٣٢٨
الطبعة: الأولى ١٤٤٧هـ
عدد النسخ: طبعة محدودة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

العراق- النجف الأشرف

هاتف: ٠٧٨٠٩٧٤٤٤٧٤

٠٧٨١٦٧٨٧٢٢٦

www.m-mahdi.com

info@m-mahdi.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المركز:

الدُّعَاءُ مِفْتَاحُ الرَّجَاءِ، وَسِلَاحُ الْأَرْوَاحِ السَّامِيَةِ، وَوَسِيلَةُ الْعَبْدِ إِلَى مَوْلَاهُ حِينَ تَنْقَطِعُ بِهِ السُّبُلُ، وَتَضْيِقُ بِهِ الدُّنْيَا بِمَا رُحِبَتْ. لَيْسَ الدُّعَاءُ مَجْرَدَ أَلْفَاظٍ تُرَدَّدُ أَوْ عِبَارَاتٍ تُسْتَعَاد، بَلْ هُوَ مِعْرَاجُ الْقَلْبِ إِلَى السَّمَاءِ، وَسَبِيلُ الْإِنْسَانِ إِلَى كَشْفِ الضَّرِّ وَجَلْبِ الْخَيْرِ، وَتَوْثِيقِ الصَّلَةِ بِالْخَالِقِ (جَلَّ شَأْنُهُ)، يَكْفِي أَنْ الصَّلَةَ الْوَثِيقَةَ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَالَّتِي تَجْعَلُ الْبَارِي (جَلَّ وَعَلَا) يَعْأُ بِالْعَبْدِ هُوَ الدُّعَاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَعْأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧).

هَذَا، وَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا تَمَيَّزَ بِهِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ ثَرَاؤُهُ بِنُصُوصِ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي غَطَّتْ مَخْتَلِفَ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ، فَلَا تَجِدُ حَاجَةَ فِي حَاجَاتِ الدُّنْيَا إِلَّا وَلِلْمَعْصُومِ فِيهَا دُعَاءٌ خَاصٌّ، حَتَّىٰ إِنَّكَ لَنْ تُعَدِمَ أَدْعِيَةَ فِي أَسْطِ الْحَاجَاتِ إِلَىٰ أَعْظَمِهَا، الْأَمْرَ الَّذِي أَغْنَانَا عَنْ اخْتِرَاعِ الْأَدْعِيَةِ مِنْ جِهَةٍ، وَضَمِنَ لَنَا مِفْتَاحًا لِفَتْحِ أَبْوَابِ الْإِجَابَةِ.

وَمِنَ اللَّافِتِ لِلنَّظَرِ، أَنَّ أَدْعِيَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَىٰ طَلْبِ الْحَوَائِجِ وَبَطْرِيْقَةِ التَّعَبُّدِ الْمُحَضِّ، وَالَّذِي لَا هَدْفَ وَرَاءَهُ سِوَىٰ تَحْصِيلِ الثَّوَابِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ، كَلَّا، وَإِنَّمَا اشْتَمَلَتِ الْأَدْعِيَةُ عَلَىٰ مَعَارِفٍ مُتَنَوِّعَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالذِّينِ وَمِفَاهِيمِهِ وَمِفَاصِلِهِ، وَبِالرَّجُوعِ إِلَى الظُّرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ آنَذَاكَ، قَدْ نَكَشَفْنَا أَنَّ كَمَا كَبِيرًا مِنْ بَثِّ تِلْكَ الْمِفَاهِيمِ ضَمِنَ الْأَدْعِيَةَ كَانَ مَقْصُودًا

٤ شرح دعاء الندبة

لهم عليه السلام، ومن هنا، فإنَّ (الفهارس الموضوعية) قد كشفت أنَّ الأدعية الواردة عنهم عليه السلام قد غطَّت الكثير من المفاهيم الدينية بأسلوب الدعاء.

هذا، وقد سَطعت في تراثنا أدعية عميقة المعنى، بليغة المبنى، جمعت بين الخضوع والخشوع، والاعتراف بالعجز، والإقرار بقدرته الله وعظمته، حتَّى غدت مدارس روحية وفكرية قائمة بذاتها، كما في أدعية الصحيفة السجادية، وعموم أدعية المعصومين عليه السلام.

ومع هذا العمق الروحي والبياني، تبرز الحاجة الماسة إلى (شروح الأدعية)، فهي التي تُجلي أسرار العبارات، وتبين المقاصد العقائدية والفقهية والتربوية الكامنة خلف كلِّ فقرة.

فالدعاء - في كثير من الأحيان كما أشرنا - يحمل في طياته إشارات إلى التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، والإمامة، كما يربط المضمون الروحي بالمواقف العملية، والتكليف الشرعي اليومي.

لذا فإنَّ شروح الأدعية تُعدُّ جسوراً معرفية بين المتلقي ونصوص الدعاء، تُعينه على التدوَّق الواعي، وتُكسبه فهماً نفسياً وروحياً وفقهياً عميقاً، فيتحوَّل الدعاء من طقس شكليٍّ إلى مدرسة في العقيدة والتزكية والسلوك.

ومن بين تلك الأدعية ذات المضامين العالية، هو دعاء الندبة المبارك، الذي عدَّه العلماء أحد أهمِّ الأدعية التي ينبغي للمؤمن التزامها زمن الغيبة الكبرى للإمام المهدي عليه السلام، وهو ممَّا يُقرأ في متنوع المناسبات الدينية والأعياد الإسلامية المهمة، بدءاً من يوم الجمعة، مروراً بعيدي الفطر والأضحى، وانتهاءً بيوم الغدير عيد الله الأكبر.

هذا الكتاب الذي بين يديك، جهد مبارك قام به سماحة الشيخ حميد عبد الجليل الوائلي، عمد فيه إلى متابعة كلمات الدعاء المبارك، وشرحها

مقدمة المركز..... ٥

بالتفصيل، وتنقيط الإفادات العقائدية والفقهية وغيرها، ولم يأل جهداً في تتبع ما
يُمكن أن يُثار من إشكالات أو شبه في أيِّ فقرة منه، ضمن مباحث ونقاط
متعددة، ممَّا نأمل أن يملأ فراغاً في مكتبة شروح الأدعية عموماً، والأدعية
المهدوية خصوصاً، نسأل الله تعالى أن يُوفِّق أئحانا الفاضل لما فيه مرضاته، وأن
يجعله له ولنا ذخراً في يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.
ونحن، إذ نُقدِّم هذا الكتاب للقارئ الكريم، ندعو جميع الكُتَّاب
والمتقِّين، إلى أن يُشَمِّروا عن ساعد الجدِّ في شرح وبيان الأدعية والروايات
والزيارات المهدوية، وبمتنوع الطُّرق المنهجية، وسنكون مستعدين لمتابعة
كتاباتهم وتحقيقها وصولاً إلى إخراجها وطباعتها فنشرها، خدمةً لمذهب أهل
البيت عليهم السلام، ومولانا الإمام الحجَّة بن الحسن عليه السلام.

مركز الدراسات التخصصية

في الإمام المهدي عليه السلام

(١٤٤٧هـ)

إهداء

سَيِّدِي يَا حِجَّةَ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ بَضَاعَةٌ مَرْجَاةٌ..
﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨).

(يوسف: ٨٨)

شكر وامتنان

قال الإمام الرضا عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْمُنْعِمَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ وَعَلَيْكَ»^(١).

أتقدّم بالشكر الجزيل، والثناء الجميل لكلّ مَنْ كان عوناً في هذا العمل، سواء بالتشجيع ورفع الهمة وتقوية العزيمة، أو بالدعاء والسؤال والحثّ على المواصلة، رغم العوائق العديدة والمشاكل الكثيرة، إلا أنّهم كانوا نعم السند طيلة هذه الفترة وهي ليست بالقليلة، راجياً الله وَعَلَيْكَ أَنْ يشملنا جميعاً بلطف رعايته وجميل عنايته، وأن نكون مصداقاً لمن يُصنَع على عينه.

* * *

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ٢ / ص ٢٧ / باب ٣١ / ح ٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف:

هذا الشرحُ رحلةٌ في أعماق (دعاء الندبة)، ذاك الدعاء الذي لا يُتلى إلا وفيه حزنٌ قلب، أو دمعٌ عين، أو حنينٌ روحٍ ظمأى إلى الإمام الغائب المنتظر عليه السلام، فهو نداءً من زمنٍ مكلوم، وصدىً لعقيدةٍ لا تموت، وبوحٍ أرواحٍ اختزلت وجدانها في نداء: أين الحسين؟ أين ابن الحسن؟

وقد أثرنا أن نفتح هذا الشرح بتمهيدٍ نُلقي فيه الضوء على قيمة الدعاء في ذاته، لا بوصفه التماساً لحاجةٍ فحسب، بل باعتباره سرَّ العروج، ولسان الولاية، ومدار الوصل بين الأرض والسماء، ثم نُخصِّص الحديث للدعاء المهدي، بما هو صوتُ الغيبة الناطق، ومرآة الانتظار الصادق، ومجمع حنين الوالihin حين تكتحل أرواحهم بذكر الإمام الذي غاب جسده وبقيت أنفاسه تنبض في قلوب أوليائه.

ثم نمضي مع الدعاء في مراحل الثلاث، فنبدأ بفصلٍ تتكشف فيه أنوار النبوة، إذ يستعرض مقام الأنبياء عليهم السلام بوصفهم جسوراً ممتدة بين الخلق والخالق، ويبيِّن كيف كانت المشاركة الإلهية مع كلِّ نبيٍّ عهداً من نور، مَنْ وفى به رفعه الله تعالى، وكيف تجلَّى هذا الوفاء في صفوتهم، محمد عليه السلام، الذي اصطفاه الله عجل على العالمين، وختم به الرسالات، وأودع فيه جوهر الدين الذي لا يزول.

حين تتأمل دعاء الندبة، تكتشف أن بداياته ليست استهلالاً مجرداً، بل إطلالة على شرف النبوة من بابها الأعلى: من باب العهد الإلهي، والمشاركة

المقدّسة، والميثاق الذي لم يُعقد على ورق، بل خُطَّ على صفحات الأرواح الطاهرة. فالله تعالى لم يجعل النبوة عطيةً مجردة من الشرط، بل قرنها بعهدٍ بينه وبين المصطفى من عباده، يُبايعون فيه على طهارة النفس، وصدق السير، وتحمل التكاليف الجسام، فيكونون للسماء أمناء، وعلى الأرض خلفاء.

ثمّ ينعطف الدعاء نحو ذرّيّة النبوة، أهل بيت العصمة عليهم السلام، فيجري ذكرهم جري الماء في العروق، متفرّعين عن دوحة المصطفى صلى الله عليه وآله، ومتصلين بسلالة الخليل إبراهيم عليه السلام، مشرّعين بآيتي التطهير والموثّدة، مبينين فيهم أنّ السبيل إلى الله تعالى، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يكون إلا بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّ نور الإمامة استمرّ من فاطمة الزهراء عليها السلام، وأنّ الكيد الذي وُجّه للنبي صلى الله عليه وآله، كان من حيث أرادوا ضرب أهل بيته عليهم السلام، وأنّ البلاء الذي جرى على الأوصياء بعد النبي هو صفحة سوداء في تاريخ البشرية، يستنهض الدعاء فيها وجدان المؤمن ليواسيهم لا بدمعة فحسب، بل بوعي متّقد وفاءً لحقّهم واعترافاً بمظلوميّتهم.

ثمّ تأتي ذروة الدعاء، فصل الندبة للإمام المهدي عليه السلام، حيث يتجلّى المأمول الموعود، فيستعرض في فقراته وصف الإمام، وآثاره، وامتداد نسبه، وموقعه من الوعد الإلهي، ويرتسم في كلّ عبارة مشهد الشوق إلى اللقاء، واللهفة إلى ظهوره، حتّى ليُخيّل للقلب أنّ الإمام عليه السلام بيننا، ولكنّ الحجاب كثيف. ويتحوّل الدعاء إلى ضربٍ من الفداء القلبي، حيث يُعلن المؤمن استعدادَه للبذل والنصرة، ويتوسّل إلى الله تعالى بأقدس الوسائط، من النبي إلى الزهراء إلى الأئمة عليهم السلام، ليُعجّل فرج الإمام ويقرّ به عيون المنتظرين، ثمّ يُختم الدعاء بأدعية الطاعة والتوفيق، وكأنّ المأمول ليس فقط أن يظهر الإمام، بل أن نكون نحن أهلاً لظهوره، مستعدين للقائه، قادرين على حمل رايته.

مقدمة المؤلف..... ١٣

إنَّ (دعاء الندبة) ليس مجرد نصٍّ يُقرأ، بل مشهدٌ عقائديٌّ شامل، وسفرٌ وجدانيٌّ لا يحدهُ الزمان، وقد سعينا في هذا الشرح أن نستنطق كلماته، لا بعيون اللغة وحدها، بل بعيون الولاء، لنكشف للقلوب عن كنزٍ من كنوز الغيبة، وسرٍّ من أسرار الانتظار، والله المستعان.

* * *

تمهيد:

أهمية الدعاء عموماً

والدعاء المهدوي خصوصاً

يُعتَبَرُ الدُّعَاءُ مِنْ أَهَمِّ الأَرْكَانِ الَّتِي يَسْتَنْدِ إِيْهَا الْإِنْسَانُ فِي مَسِيرَتِهِ نَحْوَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَعْْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ (الفرقان: ٧٧)، وورد في الرواية: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»^(١)، وبعد هذا لا يمكن لنا بأيِّ حالٍ من الأحوال إغفال الدُّعَاءِ أو القفز عليه رضوخاً لبعض الإشكالات التي تُثار هنا أو هناك.

فمع وضوح دعوة القرآن الكريم والروايات الشريفة إلى التزام منهج الدعاء في حياة الإنسان المؤمن، لا ينبغي الإصغاء لمثل تلك المقولات، ولكن ظهرت عندنا بعض النظريات التي ترفض هذا المنهج.

الدعاء سبيل إلهي رغم مخالفة البعض:

تتعدّد ألسنة الداهيين إلى رفض الدُّعَاءِ وأهمّيته في نظام الارتباط مع الله سبحانه وتعالى، وتأثيره على الحياة الدنيويّة والأخرويّة معاً أو أحدهما. فطائفة من هؤلاء يذهبون إلى أنّ الدعاء يصطدم مع نظام الأسباب والمسببات الذي خُلِقَ الكون على أساسه وجرت مقادير الأمور على نظامه، فما دام لكلِّ شيءٍ سبب، وأنَّ هذا السبب لا يختلف ولا يتخلّف، فالدعاء على هذا الأساس يكون من قبيل الأمور العبيّية، فليس هو لا حاجة له وحسب، بل قد يستلزم التصرّف العبيّي، والذي قد يجرُّ في بعض الأحيان إلى الابتلاء بالمحذور الشرعي ومخالفة الأحكام الإلهيّة الموضّحة في محلّها.

(١) الدعوات للراوندي (ص ١٨ / ح ٨).

والجواب عن هذه الإشكالية يتضح من خلال عدّة زوايا:

فمن زاوية نقول: إنّ هذا النظام الأسبابى ليس حتمياً، بمعنى أنّه ليس بنحو لا يختلف ولا يتخلف، وإنّما هو بنحو الاقتضاء، أي بمعنى أنّ لو جرت مقادير الأمور دون دخول عناصر أُخرى لها التأثير في التغيير لكان الأمر مبرماً ويجري النظام كما هو. وعلى سبيل المثال فإنّ موادّ البناء تتجج جداراً يتحمّل الصدمات ويُعطي الفيء والوقاية من الشمس ويستتر الجالس تحته إذا كان البناء ضمن الموازين والنسب المعتبرة، ودون تدخل ظرف جويّ حاكم ومتحكّم في التأثير على البناء وإزالته أو إضعافه، أمّا مع وجود هذا الحاكم من زلازل وآلات عملاقة وظروف جويّة وغيرها من العناصر المؤثّرة، فإنّ البناء وإن كان بحسب اقتضائه لا يختلف ولا يتخلف إلاّ أنّه تخلف الآن لوجود القاهرة الحاكم عليه.

ومن زاوية أُخرى فإنّ هذا الكون الخاضع لنظام الأسباب والمسبّبات هو بجملته مخلوق لله تعالى القادر الحكيم، وهو الذي سنّ أثر الدعاء في التغيير، كما دلّت عليه الآيات على ما يأتي، فالذي خلق الأشياء وأوجد لها، وسنّ نظام السببية، هو نفسه الذي أمر بالدعاء وحثّ عليه، ويبيّن من خلال جملة وافرة من آيات ذكره وأحاديث أوليائه أنّ الدعاء يمتلك من القدرة الهائلة على تغيير وتبديل حتّى ما أبرم إبراماً، فمن يُدعِن أنّ الخالق لنظام الأسباب والمسبّبات هو الله لا بدّ أن يُدعِن أنّه هو بنفسه تعالى خالق لنظام الدعاء وآثاره وأمر به. وبعبارة واضحة: إنّ الدعاء نفسه يُعبّر عن مفردة من مفردات نظام الأسباب والمسبّبات، وليس هو مخالفاً لها أو خارقاً لنظامها.

هذا إذا كان حديثنا عن الأثر التكويني المترتب على الأشياء وتغييرها بالدعاء، أمّا إذا تحدّثنا عن الآثار المترتبة على الذنوب والمعاصي والتي هي بطبيعة الحال متأخّرة زماناً عن فعل المعصية، فالذنوب الصادر من العاصي في الدنيا

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدوي خصوصاً..... ١٩

يُعاقَب عليه في الآخرة، وبعد صدور الذنب يكون هناك مجال واسع لأن يستغفر ويتوب ويدعو الله تعالى أن يمحو الآثار العقابية المترتبة على معصيته، فهو وإن استحقَّ العقاب إلا أن منجزيته متأخرة، والدعاء يُحدث أثره في الزمان الواقع بينهما، وهذه الصورة أوضح حالاً في كون الدعاء يُؤثِّر في رفع الأثر المترتب وإن كان تكوينياً على المعصية من الصورة المتقدمة.

فإذا قلنا في الأولى بالإمكان، وقادنا الدليل إلى الوقوع، فمن باب أولى هنا نقول به، خصوصاً بعد أن نصَّت جملة من الروايات على ذلك كما سيأتي.

طائفة أخرى تقول: إن الدعاء لا أثر له، ليس لعدم المقتضي فيه، كلاً، بل الدعاء قادر على التغيير، ولكن المؤمن الموحد الذي يؤمن بأن كل ما يقع عليه من ابتلاءات وامتحانات ومصائب هي لأجل رفع مرتبته وزيادة حظّه في القرب من الله تعالى، فيكون الدعاء بعد هذه المعرفة خدشاً في توحيد الموحد، وهبوطاً في مرتبة إيمانه، فالله ﷻ العالم بحال المؤمنين يُغنيهم عن سؤاله ورفع ما وقع عليهم بسببهم أو بسبب غيرهم، فمن كان موحداً عالي الدرجة مؤمناً مكتمل الإيمان لا يدعو.

والجواب عن هذا الإشكال له عدّة مقامات نقتصر منها على واحد، وبيانه: أن مرتبة التوحيد وسموها وعلو الإيمان ودرجته نابع من أصل العبودية والخضوع، فمتى ما تجلّت العبودية بأبرز صورها ارتقى التوحيد وارتفع الإيمان إلى أعلى درجاته، وبعد أن أمر الله تعالى وحثّ وأكد على الدعاء كان لزاماً على المؤمن أن يأخذ به سبيلاً ليرفع مرتبته وإن كان لا يرجو أثره المادي - ولو تنزلاً -، فالمدار في كون الإيمان يسير في سلم التكامل للوصول إلى أعلى درجة منه هو العبودية التي يُمثّل الدعاء حجر الزاوية فيها.

وقد يُستشهد لهؤلاء المستشكلين بجملة من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ

٢٠ شرح دعاء الندبة

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ (النجم: ٣٩)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ (الزلزلة: ٧)، فهاتان وغيرهما من الآيات تُؤيِّد ما ذهب إليه أصحاب هذا القول إن لم يُستدل لهم بها، ووجه الدلالة أن السعي والعمل وحدهما من يرتهن وضع الإنسان بهما، ولا يُؤثِّر غيرهما فيه.

والجواب عنه واضح، فإن الدعاء هو أيضاً من السعي والعمل الذي لا يضيع وإن كان بمقدار الذرَّة، فضلاً عن الآيات الكثيرة التي سوف نقرؤها والتي نصَّت على أثر الدعاء، وأنه من المؤثرات العمليَّة في تغيير حياة الإنسان. هذا، وهناك إشكالات أُخر وإن اختلفت حدودها الوسطى ككون الله عالماً بالغيب، فإنه يقتضي عدم الدعاء، وكونه تعالى قادراً يقتضي عدمه أيضاً، وهكذا.

إلا أننا لا نخوض في تفصيلها فضلاً عن ردّها بعد أن بيَّنا فيما تقدّم المفصل الأساس الذي يتكئ عليه الراضون للدعاء وردّه.

وفي قبال هذا الرفض المطلق تأتي مقولة أُخرى تتكئ على جملة من النصوص القرآنيَّة في الالتجاء إلى الدعاء وقبوله بشكل مطلق بعيداً عن أي أسباب ومقومات أُخرى.

وهو قول لا يمكن المصير إليه.

لأننا نعتقد أن هناك نظاماً قائماً على أساس الأسباب والمسببات، وأن هذا النظام التكويني يتأثر بالدعاء بشكل واضح، حاله حال تأثير الأشياء الأخرى في النظم التكوينيَّة، فلا يمكن أن نلغي هذا النظام ونعتمد على الدعاء فقط. فكما أن للدعاء قسطاً من التأثير في مجريات العالم كذلك لبقية الأسباب أقساطها الوافرة في التأثير، والوسطية هي قوام الأشياء - فهي نظريَّة أهل البيت عليهم السلام في نظام الارتباط مع الذات والصفات والآثار المرتبطة بهما -، فالدعاء له أثره كما أن العمل له أثره، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العقلاء.

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدوي خصوصاً ٢١

فالدعاء يبقى صاحب الأثر البالغ في تقوية الارتباط الروحي والاجتماعي وتغيير كثير من الحياة على كل المستويات، فالدعاء هو المادة الأساسية للغذاء الروحي للإنسان، إذ كما يحتاج الإنسان إلى غذاء الجسم، فكذا العقل، هو بحاجة إلى غذاء الروح، والدعاء يُنمي الروح ويُنشّطها، وبالتالي ينشط الجسم والعقل، لذلك نرى علماء النفس يُؤكّدون أنّ المجتمع الذي يعيش حالة الدعاء تقل فيه نسب الجرائم والعدوان^(١)، فالدعاء كممارسة عملية ليس مقصوراً على الأفراد الذين لهم ارتباط وحياني بالسماء، إنّما هو حالة روحية يعيشها أفراد - البشر دونما استثناء - تُوجد فيهم آثاراً مختلفة، وتؤهلهم لمراحل متقدمة من الرقي الروحي الإنساني، وإذا ما رجعنا إلى الأديان السماوية فإننا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه الكريم الدعاء مكرراً^(٢)، وأكدت الروايات على أنّ مَنْ أُعطي الدعاء فقد أُعطي الإجابة^(٣).

بل إنّ الله سبحانه وتعالى أكّد في بعض آياته أهمية الدعاء، إذ قال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴿٧٧﴾﴾ (الفرقان: ٧٧)، فهذه الآية الكريمة تُقرّر مبدأ الأهمية والاهتمام من الله سبحانه وتعالى بالناس أجمعهم، وأنه متفرّع على الدعاء.

(١) أضواء على دعاء كميل للسيد عزّ الدين بحر العلوم (ص ٨).

(٢) قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ (الأعراف: ١٩٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ (الزمر: ٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ (إبراهيم: ٣٩).

(٣) عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «مَنْ أَعْطِيَ ثَلَاثًا لَمْ يُمْنَعْ ثَلَاثًا: مَنْ أَعْطِيَ الدُّعَاءَ أُعْطِيَ الْإِجَابَةَ... وَقَالَ: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [غافر: ٦٠]. الكافي (ج ٢ / ص ٦٥ / باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه / ح ٦).

فلا بدَّ أن يلتفت الإنسان إلى الأسباب التي تجعل الله تعالى لا يعبا به^(١) ويزيلها، لأنَّ عدم إزالتها يعني عدم وجود طريق يسلكه إلى الله سبحانه وتعالى. من هنا تأتي حقيقة الدعاء وماهيته وماذا يُشكّل في المنظومة الدنيّة من أهميّة. ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

الدعاء لبُّ التوحيد ومُخُّ العبادة:

التوحيد الذي ينشده الكلُّ، والذي يعتمد على مؤشّرات عباديّة وقُربيّة يُستكشف من خلالها - أي المقدمات - مقامات الموحّدين، إذ يُمثّل الدعاء في هذه المنظومة التوحيدية اللبُّ.

الدعاء حالة إشعار النفس الإنسانية بالافتقار وضرورة اللجوء والإلتجاء إلى الوجود الغنيّ المفيض، وهذه الحقيقة عينها حقيقة التوحيد^(٢)، فيمكن أن نقول: إنَّ حقيقة الدعاء هو التوحيد بعينه، لأنَّ الدعاء^(٣) يُعبّر عن حالة الانكسار

(١) سنذكر في نماذج توحيدية في الدعاء المهدي أن هناك أشراطاً وأسباباً لاستجابة أو لرفض الدعاء تحدّثت عنها الروايات فضلاً عن الآيات الشريفة.

(٢) في من لا يحضره الفقيه (ج ١ / ص ٢٨ و ٢٩ / ح ٥٨): «وَلَمَّا تَأَجَّى اللَّهُ مُوسَىٰ بِنَ عِمْرَانَ [عَلَىٰ نَبِيِّنا وَ[عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ مُوسَىٰ: «يَا رَبِّ، أَبْعِدْ أَنْتَ مِنِّي فَأُنَادِيكَ، أَمْ قَرِيبٌ فَأُنَادِيكَ؟»، فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَلًا إِلَيْهِ: «أَنَا جَلِيسٌ مَنْ ذَكَرَنِي...»، وَأَيُّ تَوْحِيدٍ أَعْلَىٰ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ جَلِيسًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟!»

(٣) قَسَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الدَّعَاءَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ إِلَى ثَلَاثَةِ وَجُوهِ:

ضرب منها: توحيده...، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠).

والضرب الثاني: مسألة العفو والرحمة وما يقرب منها، كقولهم: (اللَّهُمَّ اغفر لنا).

والضرب الثالث: مسألة الحظّ من الدنيا، كقولهم: (اللَّهُمَّ ارزقني مالاً وولداً).

راجع: أضواء على دعاء كميل للسيد عزّ الدين بحر العلوم (ص ١٤).

تمهيد: أهميّة الدعاء عموماً والدعاء المهدوي خصوصاً ٢٣

والتذلل واللجوء والعبودية إلى ذلك الوجود الكريم المفيض الغني القادر، وإذا دققنا النظر في الآية الكريمة الأنفة الذكر نلاحظ أنّها تلمح إلى هذا المعنى، إذ تُعبّر أنّ الله لا يعبد بالعباد ما لم يكن صاحب دعاء، بينما الآيات القرآنية الكريمة الأخرى تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ (النساء: ١١٦)، فبملاحظة الآيتين وإرخاء العنان لبصر القلب ليجول في الأحاديث الشريفة^(١) يجد المرء هذه الحقيقة، وهي أنّ الدعاء لبُّ التوحيد، ماثلة أمام عينيه.

جاء في كتاب الدعاء من (الكافي) عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ»^(٢)، وفي (فلاح السائل) عن أبي عبد الله عليه السلام: «الدُّعَاءُ عَمُودُ الدِّينِ»^(٣)، وفي (الدعوات) عن النبي ﷺ: «الدُّعَاءُ مَخُّ الْعِبَادَةِ»^(٤).

فهذه الأحاديث الشريفة خصوصاً الأخير منها تُعبّر عن هذه الحالة التي ذكرناها، فعمود الدين وأفضل العبادة، بل محطها هو الدعاء، ونحن نعلم أنّ المخ هو لبُّ العقل - ليس المراد به المادّي، بل ذاك الذي تُعبّر عنه بعض الروايات بروح العقل وجوهره، فالدعاء على هذا المعنى يُمثّل جوهر العبادة التي هي عمود الدين -.

(١) ففي الكافي (ج ٢ / ص ٤٦٦ / باب فضل الدعاء والحثّ عليه / ح ١) بسنده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»، قال: «هُوَ الدُّعَاءُ»، فالإمام هنا يُعبّر عن العبادة بأنّها الدعاء، وأنّ التكبر عنها يوجب دخول جهنّم.

وفي نصّ آخر في الكافي (ج ٢ / ص ٤٦٧ / باب فضل الدعاء والحثّ عليه / ح ٧) بسنده عن عبّيد بن زرارة، عن أبيه، عن رجل، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، وهو مطلق يشمل العبادات الجوارحية أو الجوانحية.

(٢) الكافي (ج ٢ / ص ٤٦٦ / باب فضل الدعاء والحثّ عليه / ح ١).

(٣) فلاح السائل (ص ٢٨).

(٤) الدعوات للراوندي (ص ١٨ / ح ٨).

فعلى هذا تكون حقيقة الدعاء في الشريعة هي روح العبادة، وهو محمها، والعبادة بلا مخ كإنسان من غير عقل.

فأرقى حالات الإنسان وهي العبودية التي تجمل بها رسول الله ﷺ، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الحديد: ٩)، لا تكون إلا بذلك المخ، ولا تقف إلا على هذا العمود، وهو الدعاء. فحقيقة الدعاء بكلمة واحدة أنه روح التوحيد، وحقيقة الإيثار، وقلب الإسلام.

فهل يمكن للإنسان أن يصل إلى الله سبحانه وتعالى دون هذه الحقيقة ودون الاعتقاد عليها؟

كيف يقوم الدعاء بعملية التأثير؟

إن لكل ظاهرة من ظواهر الوجود مجموعة من القوانين تحكمها، وظاهرة الدعاء من بين هذه الظواهر، فلا بد أن تكون هناك مجموعة من القواعد تضبط هذه الحقيقة، وتجعلها مؤثرة وفاعلة.

وإذا رجعنا إلى الروايات الشريفة وجدنا أنها تُعطي للدعاء خصائص لا تُعطيها لغيره من وسائل القرب الإلهي، فتصفه بعض الروايات بأنه مفاتيح النجاة، وأنه نور السماوات والأرضين، وأنه سلاح الأنبياء^(١)، وهذه الأوصاف

(١) أمالي الطوسي (ص ٦ / ح ٥ / ٥)، حيث ورد فيها: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَتِحَ لِأَحَدٍ بَابٌ دُعَاءٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ بَابٌ إِبْرَاهِيمَ، فَإِذَا فَتِحَ لِأَحَدِكُمْ بَابٌ دُعَاءٍ فَلْيَجْهَدْ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ع يَقُولُ: «الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ بَعْدَ مَا أُبْرِمَ إِبْرَامًا، فَأَكْثَرُ مِنَ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ، وَنَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ إِلَّا بِالدُّعَاءِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بَابٌ يُكْتَرُ قَرَعُهُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ». الكافي (ج ٢ / ص ٤٧٠ / باب أن الدعاء يردُّ البلاء والقضاء / ح ٧).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً ٢٥

وغيرها إنما تريد أن تُعبّر عن حالة يتمتّع بها الدعاء، وعن خصوصية يمتاز بها، وهي أن له قدرة وفاعلية، على حدّ تعبير بعض الروايات: إنه يردّ القضاء المبرم^(١)، فهذه المعاني الروائية تريد أن تفتح لنا ولأبصارنا نافذة نطلّ من خلالها على تلك الحقيقة النورانية التي يمتلكها الإنسان، والتي لها القدرة على تغيير كلّ شيء، والتأثير في كلّ شيء إلى حدّ أنّها تُغيّر ما قُدّر وأُبرم. وعملية التأثير لا تكون إلاّ في ضمن شرائط وعوامل بعضها غيبي لا سبيل لمعرفة إلاّ من المعصوم.

المعرفة للإمام ﷺ موجبة لدعاء غير محجوب:

ذكرت جملة من الأحاديث أنّ المعرفة والإيمان لا يكونان في فرد ما لم يؤمن بالإمام ﷺ، وأنّ ادّعاء الإيمان لا يصحّ من شخص ما لم يكن هذا الادّعاء مقروناً منه بالاعتقاد والإيمان به ﷺ، على حدّ تعبير الآية: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤).

فتكون معرفة الإمام والإيمان به هي الأرضية الأولى التي ينطلق منها الفرد لترتّب الآثار على هذا الإيمان.

ومن بين تلك النصوص ما ورد عن ابن أذينة، قال: حَدَّثَنَا غَيْرٌ وَاحِدٍ عَنْ أَحَدِهِمَا عَلَيْهِمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَعْرِفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْأُمَّةَ كُلَّهُمْ وَإِمَامَ زَمَانِهِ، وَيَرُدَّ إِلَيْهِ وَيُسَلِّمَ لَهُ...»^(٢).

→ وَعَنْ السَّكُونِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعَمُودُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». الكافي (ج ٢ / ص ٤٦٨ / باب أن الدعاء سلاح المؤمن / ح ١).

(١) عَنْ حَمَّادِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ سَمِعْتُهُ [أبي عبد الله ﷺ] يَقُولُ: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ، يَنْقُضُهُ كَمَا يُنْقَضُ السَّلْكُ وَقَدْ أُبْرِمَ إِبْرَامًا». الكافي (ج ٢ / ص ٤٦٩ / باب أن الدعاء يردّ البلاء والقضاء / ح ١).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٨٠ / باب معرفة الإمام والردّ إليه / ح ٢).

وَعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «إِنَّمَا يَعْرِفُ اللَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَعْبُدُهُ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ إِمَامَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا يَعْرِفُ الْإِمَامَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ فَإِنَّمَا يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ، هَكَذَا وَاللَّهُ ضَالًّا»^(١).

فالإيمان بمقتضى هذه النصوص الشريفة مرهون بالإمام المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن الإمام هو السالك بالعباد في كل الطُّرُق، فمن يرد أن يثبت إيمانه ويعظم وينمى لا بدَّ له من قائد يقوده، ولا بدَّ أن يكون هذا القائد عارفاً بتلك الطُّرُق ومنعرجاتها، وأن تكون معرفته تلك لدنيّة ليأمن السالكون خلفه من الوقوع في منزلقات الطريق، وقد أشار الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى هذا بحديثه إلى أبي حمزة قائلاً له: «يَا أَبَا حَمَزَةَ، يَخْرُجُ أَحَدُكُمْ فَرَأْسِخَ فَيَطْلُبُ لِنَفْسِهِ دَلِيلًا، وَأَنْتَ بَطْرُقِ السَّمَاءِ أَجْهَلُ مِنْكَ بَطْرُقِ الْأَرْضِ، فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ دَلِيلًا»^(٢).

والدعاء سفر في طُرُقِ السَّمَاءِ، فلا بدَّ أن نطلب له دليلًا.

فَمَنْ هُوَ الدَّلِيلُ؟

يُجِيبُ الْإِمَامُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «الْإِمَامُ ... وَالِدَلِيلُ فِي الْمَهَالِكِ، مَنْ فَارَقَهُ فَهَالِكٌ...، الْإِمَامُ أَمِينُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَخَلِيفَتُهُ فِي بِلَادِهِ، وَالِدَّاعِي إِلَى اللَّهِ...»^(٣).

وفي حديث للإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ يروي فيه خطبة للنبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء فيها: «وَالنَّصِيحَةُ لِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاللُّزُومُ لِمَجْمَعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ مُحِيطَةٌ مِنْ وَرَائِهِمْ...»^(٤).

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٨١ / باب معرفة الإمام والرد إليه / ح ٤).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٨٤ و ١٨٥ / باب معرفة الإمام والرد إليه / ح ١٠).

(٣) الكافي (ج ١ / ص ٢٠٠ / باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته / ح ١).

(٤) الكافي (ج ١ / ص ٤٠٣ / باب ما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنصيحة لأئمة المسلمين... / ح ١).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً ٢٧

فإن دعاء الأئمة عليهم السلام للمؤمنين يكفيهم ويحيط بهم من جوانبهم ويحفظهم، بل إن الإمام عليه السلام يُصرِّح بذلك في توقيعه المروي في (الاحتجاج): «لأننا من وراء حفظهم بالدعاء الذي لا يُجَبُّ عَنْ مَلِكِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَلَيْطَمَنَّ بِذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَانَا الْقُلُوبُ...»^(١).

فالإمام عليه السلام من خلال هذا النص الشريف ضمن الدعاء لأوليائه الذين تحدت النصوص عنهم في الأمر الأول، وأن هذا الدعاء منه عليه السلام موجب لاطمئنان نفوسهم - إن كانوا أولياء حقاً -، وهذا الدعاء سمته أنه لا يحتاج عن ملك الأرض والسماء. فمما لا شك فيه أن الدعاء الصادر من الإمام عليه السلام يكون موجباً لتنمية إيمان الأفراد والمجتمعات.

ولم يكتف الأئمة عليهم السلام بهذه المرتبة لتقوية إيمان المؤمنين بهم بتعقب دعائهم وتنمية إيمانهم، بل تجاوز الأمر إلى متابعة شؤونهم الشخصية، والشعور بما ينالهم من هم وحزن، فقد ورد أن أمير المؤمنين عليه السلام خاطب أحد أصحابه قائلاً له: «يَا رُمَيْلَةُ لَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ يَمْرُضُ إِلَّا مَرَضًا بِمَرَضِهِ، وَلَا يَحْزَنُ إِلَّا حَزَنًا بِحُزْنِهِ، وَلَا يَدْعُو إِلَّا أَمَّنًا لِدَعَائِهِ، وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا دَعْوَانَا لَهُ...»، ثم قال له عليه السلام: «يَا رُمَيْلَةُ، لَيْسَ يَغِيبُ عَنَّا مُؤْمِنٌ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَلَا فِي غَرْبِهَا»^(٢).

والنص واضح الدلالة في أن الإمام عليه السلام يسعى إلى تقوية دعاء الداعي، فإن لم يكن في البين دعاء تصدق هو بنفسه للدعاء عنه، نعم لا بد أن يكون المؤمن بتلك المرتبة التي تؤهله لذلك، إذ المقتضي لا بد أن يكون منه. هذا، وقد سجلت الروايات الشريفة للإمام المهدي عليه السلام أن محض وجوده

(١) الاحتجاج (ج ٢ / ص ٣٢٤ و ٣٢٥).

(٢) بصائر الدرجات (ص ٢٧٩ و ٢٨٠ / ج ٥ / باب ١٦ / ح ١).

المبارك هو دافع للبلاء عن شيعته وأهله، كما في النصّ الوارد عن طريق أبي نصر، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى صَاحِبِ الزَّمَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: «... أَنَا خَاتَمُ الْأَوْصِيَاءِ، وَبِي يَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا الْبَلَاءَ عَنِ أَهْلِي وَشِيعَتِي»^(١).

فمن مجموع النصوص المتقدمة يمكن أن يُستفاد التالي:

١ - أن الإيهان مقرون بالإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢ - أن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يباشر هذه المهمة من خلال عدّة تدبيرات، ويقوم بخطوات متعدّدة، ومن بين تلك الخطوات التي يقوم بها عَلَيْهِ السَّلَامُ التأمين على الدعاء، حيث نصّت بعض الأخبار المتقدمة أن التأمين على دعاء المؤمنين حالة ثابتة من الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لمن كان منهم في شرق الأرض أو غربها، فإن لم يكن منهم دعاء تبرّع الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدعاء لهم.

٣ - أن دعاء الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ يتممّ بخصوصية أنه لا يجب عن الله تعالى.

هذا، وقد عثرت أثناء التتبع في النصوص الشريفة التي تدور رحاها حول هذا الموضوع على رواية شريفة بمفادٍ عالٍ جداً وبمضمون راقٍ تتحدّث عن حقيقة المؤمن ومكانته لدى إمامه، حيث كتب السيّد ابن طاوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في كتاب (كشف المحجّة) في وصيته لولده في ما يحفظ فيه للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من حقٍّ، وأنّ يعرض حوائجه عليه، جاء فيه: (ومأ أقول لك يا ولدي محمّد ملاً الله عَزَّ وَجَلَّ عقلك وقلبك من التصديق لأهل الصدق والتوفيق في معرفة الحقّ أن طريق تعريف الله عَزَّ وَجَلَّ لك بجواب مولانا (المهدي) صلوات الله وسلامه على قدرته عَزَّ وَجَلَّ ورحمته، فمن ذلك ما رواه مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكَلِينِيُّ فِي كِتَابِ (الْوَسَائِلِ) عَمَّنْ سَمَّاهُ، قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ أَنْ يُفْضِيَ إِلَى إِمَامِهِ مَا يَجِبُ

(١) كمال الدّين (ص ٤٤١ / باب ٤٣ / ح ١٢).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً..... ٢٩
أَنْ يُفْضِيَ بِهِ إِلَى رَبِّهِ؟ قَالَ: فَكَتَبَ: «إِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَحَرِّكْ شَفَتَيْكَ، فَإِنَّ
الْجَوَابَ يَأْتِيكَ...»^(١).

ولا يهْمُنَا التَّعَرُّضُ لِسُنْدِ الْحَدِيثِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ حَسَبِ الظَّاهِرِ مُوَافِقٌ
لِلْمُبَادِئِ الْعَامَّةِ الَّتِي عَلَيْهَا النُّصُوصُ الْعَقَائِدِيَّةُ، وَالْمَلَاخِظُ فِيهِ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنِ
السَّرْعَةِ فِي الْإِجَابَةِ بِمَجْرَدِ تَحْرِيكِ الشَّفَتَيْنِ.

نماذج صرّح فيها بدعاء الأئمة عليهم السلام للأصحاب:

نذكر تحت هذا العنوان العديد من النماذج التي صرّحت النصوص بدعاء
الأئمة عليهم السلام لبعض أصحابهم، ولا شك في ترتب آثار هذا الدعاء على مجمل
شؤونهم، وهي:

الأوّل: عبد العزيز بن المهدي بن محمد بن عبد العزيز الأشعري القمي
الثقة الذي قيل فيه - والقائل الفضل بن شاذان - : (ما رأيت قمياً يشبهه في
زمانه)^(٢)، قال الشيخ الطوسي عليه السلام في كتاب (الغيبة) في فصل في ذكر المحمودين
من وكلاء الأئمة عليهم السلام: خَرَجَ فِيهِ - عبد العزيز بن المهدي - عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام:
«غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَهَمُّ الدُّنُوبِ، وَرَحْمَنَا وَإِيَّاكُمْ»، وَخَرَجَ فِيهِ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ،
وَرَحْمَنَا وَإِيَّاكَ، وَرَضِي عَنْكَ بِرِضَائِي عَنْكَ»^(٣).
والنص واضح الدلالة في أنّ الإمام عليه السلام طلب الرضا لعبد العزيز ممّا
يستدعي ثباته على الحقّ.

(١) كشف المحجّة (ص ١٥٣). وهذا الحديث المنقول على لسان السيّد عليه السلام من كتاب (الوسائل)
وإن كان ليس بأيدينا مصدره إلّا أنّ نقله على لسانه وإرساله بهذا الشكل يكشف عن كون تلك
النسخة كانت بيده أو قرأت عليه، هذا فضلاً عن كونه موافقاً للأصل وليس فيه مخالفة، وإتّما
أوردناه كشاهد في بيان المطلوب على لسان الأئمة عليهم السلام.

(٢) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٧٩٥ / ح ٩٧٣).

(٣) الغيبة للطوسي (ص ٣٤٩ / ح ٣٠٥).

الثاني: أبان بن تغلب بن رباح... بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل، عظيم المنزلة، من أصحاب الأئمة عليهم السلام، قال له الإمام الباقر عليه السلام: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس، فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك»^(١)، وقال عنه الإمام الصادق عليه السلام: «رحمه الله، أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان»^(٢)، وفي نص آخر: «أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان»^(٣).

فلاحظ دعاء الإمام عليه السلام وترحمه عليه، بل وتوجع قلبه على فقده.

الثالث: المسيب بن زهير، وهو أحد من حبس الإمام الكاظم عليه السلام في داره لثقة هارون به، وهو من خلص الشيعة، وقد طلب من الإمام عليه السلام أن يدعو له، فدعا له أن يثبت يقينه^(٤)، وفي محاروة بينه وبين الإمام الكاظم عليه السلام ينقلها الشيخ الصدوق رحمه الله: «يا مسيب»، قال: لبيك يا مولاي، قال: «إني طاعن في هذه الليلة إلى المدينة مدينة جدي رسول الله ﷺ لأعهد إلى عليّ إني ما عهدته إليّ أبي، وأجعل له وصيي وخليفتي، وأمره أمري»، قال المسيب: فقلت: يا مولاي، كيف تأمرني أن أفتح لك الأبواب وأقفها وأحرس معي على الأبواب؟! فقال: «يا مسيب، ضعف يقينك بالله ﷻ وفينا»، قلت: لا، يا سيدي، قال: «فمه؟»، قلت: يا سيدي، ادع الله أن يثبتني، فقال: اللهم ثبته...»^(٥).

والقصّة واضحة في طلب الدعاء من الإمام عليه السلام لتثبيت اليقين والعقيدة الحقّة، وفي استجابة الإمام عليه السلام لذلك.

(١) رجال النجاشي (ص ١٠ / الرقم ٧).

(٢) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٦٢٢ / ح ٦٠١).

(٣) رجال النجاشي (ص ١٠ / الرقم ٧).

(٤) راجع: قاموس الرجال (ج ١٠ / ص ٧٨ / الرقم ٧٥٥٤).

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ١ / ص ٩٤ و ٩٥ / باب ٨ / ح ٦).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً ٣١

الرابع: أحمد بن إبراهيم، يُكنى أبا حامد المراغي، وهو من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام^(١)، وقد خرج فيه من صاحب الأمر عليه السلام توقيع علي يد محمد بن أحمد بن جعفر القمي العطار: «وَقَفْتُ عَلَى مَا وَصَفْتَ بِهِ أَبَا حَامِدٍ أَعَزَّهُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ، وَفَهَمْتُ مَا هُوَ عَلَيْهِ، تَمَّ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ بِأَحْسَنِهِ، وَلَا أَخْلَاهُ مِنْ تَفَضُّلِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَلِيَّهُ، أَكْثَرَ السَّلَامِ وَأَخْصَهُ...»^(٢).

والتوقيع واضح في الدعاء بأحسن ما يمكن أن يتفضل الله على عبده المؤمن، وأن يتولاه، وأن لا يُجليه مما تفضل به عليه.

الخامس: عبد الملك بن أعين الذي دعا له الإمام الصادق عليه السلام، واجتهد في الدعاء وترحم عليه، وزار قبره، وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّ أَبَا الضَّرْسِ كُنَّا عِنْدَهُ خَيْرَتَكَ مِنْ خَلْقِكَ، فَصَيَّرَهُ فِي ثَقَلِ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»^(٣).

وهو واضح الدلالة في الدعاء له والترحم عليه، بل وأن يُشتر مع محمد وآل محمد عليهم السلام يوم القيامة، ولا يخفى ما لزيارة الإمام عليه السلام لقبر هذا الرجل من دلالات ليس هنا محل ذكرها.

السادس: عبد الله بن أبي يعفور، إذ ينقل علي بن الحسين العبيدي، قال: كَتَبَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِلَى الْمَفْضَلِ بْنِ عُمَرَ الْجُعْفِيِّ حِينَ مَضَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَعْفُورٍ: «يَا مَفْضَلُ، عَهْدْتُ إِلَيْكَ عَهْدِي كَانَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَعْفُورٍ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ)، فَمَضَى (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ) مُوفِياً لِمَا وَرَّسُولُهُ وَإِمَامِهِ بِالْعَهْدِ الْمَعْهُودِ لِلَّهِ، وَقَبِضَ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ) عَلَى رُوحِهِ مُحَمَّدٍ الْأَثَرِ، مَشْكُورٍ أَسْعَى، مَغْفُوراً لَهُ، مَرْحُوماً بِرِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِمَامِهِ عَنْهُ، فَوَلَدَتِي

(١) رجال الطوسي (ص ٣٩٧ / الرقم ٥٨٣٠ / ١٤).

(٢) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٨١٥ / ح ١٠١٩).

(٣) رجال الكشي (ج ١ / ص ٤١١ / ح ٣٠١).

مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا كَانَ فِي عَصْرِنَا أَحَدٌ أَطَوَعَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَإِلِمَامِهِ مِنْهُ، فَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَهُ إِلَى جَنَّتِهِ، مُسَاكِنًا فِيهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَيْنَ الْمَسْكِينِ مَسْكِنَ مُحَمَّدٍ وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهَا...)»^(١).

السابع: محمد بن علي بن الحسين الصدوق، حيث ينقل شيخ الطائفة الطائفة عليه السلام قصة ولادة الشيخ الصدوق عليه السلام حيث كاتب والده السفير الثالث عليه السلام وطلب من الحضرة أن يدعو الله أن يرزقه أولاداً فقهاء، فجاء الجواب: «إِنَّكَ لَا تُرْزَقُ مِنْ هَذِهِ، وَسَتَمْلِكُ جَارِيَةً دَيْلَمِيَّةً وَتُرْزَقُ مِنْهَا وَلَدَيْنِ فَقِيهَيْنِ»^(٢). وهناك نماذج أخرى من الدعاء في حوائج متعددة صدرت من الأئمة عليهم السلام لأشخاص كثر نأخذ على سبيل المثال:

- ١ - عبد الحميد بن أبي العلاء الذي رفع الإمام الصادق عليه السلام يديه بالدعاء له أن يُخلصه من سجن أبي جعفر، ثم التفت إلى صاحبه محمد بن عبد الله ابن الحسين، وخاطبه قائلاً: «يَا مُحَمَّدُ، قَدْ وَاللَّهِ خَلِي سَبِيلَ صَاحِبِكَ»^(٣).
- ٢ - بشر بن طرخان النخاس الذي دعا له الإمام الصادق عليه السلام بكثرة المال والولد^(٤).

٣ - حماد بن عيسى الذي دعا له الإمام عليه السلام حيث قال: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الْأَوَّلِ عليه السلام، فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَدْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَرَزُقَنِي دَاراً وَرَوْجَةً وَوَلَدًا وَخَادِمًا وَالْحَجَّ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ،

(١) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٥١٨ / ح ٤٦١).
 (٢) الغيبة للطوسي (ص ٣٠٨ و ٣٠٩ / ح ٢٦١).
 (٣) دلائل الإمامة (ص ٢٥٨ / ح ١٨٦ / ٢٢).
 (٤) راجع: رجال الكشي (ج ٢ / ص ٥٩٩ / ح ٥٦٣).

تمهيد: أهميّة الدعاء عموماً والدعاء المهدوي خصوصاً ٣٣
وَأَرْزُقْهُ دَارًا وَزَوْجَةً وَوَلَدًا وَخَادِمًا وَالْحَجَّ خَمْسِينَ سَنَةً»، قَالَ حَمَّادٌ: فَلَمَّا اشْتَرَطَ
خَمْسِينَ سَنَةً عَلِمْتُ أَنِّي لَا أَحُجُّ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً^(١).

الدعاء بتعجيل الفرج:

فقد ذُكِرَ في النصوص الشريفة أَنَّهُ ﷺ خاطب أتباعه ومريديه بالإكثار
من دعاء الفرج له، فقد روى الشيخ الطوسي رحمته الله بسنده عن جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ
قُولُوبِهِ وَأَبِي غَالِبِ الزُّرَّارِيِّ وَغَيْرِهِمَا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ الْكَلِينِيِّ، عَنْ
إِسْحَاقَ بْنِ يَعْقُوبَ، قَالَ: سَأَلْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عَثْمَانَ الْعَمَرِيَّ رحمته الله أَنْ يُوصِلَ لِي كِتَابًا
قَدْ سَأَلْتُ فِيهِ عَنْ مَسَائِلَ أَشْكَلَتْ عَلَيَّ، فَوَرَدَ التَّوْفِيعُ بِخَطِّ مَوْلَانَا صَاحِبِ
الدَّارِ عليه السلام: «أَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ أَرَشِدًا [ك] اللَّهُ وَثَبَّتَكَ مِنْ أَمْرِ الْمُنْكَرِينَ لِي مِنْ أَهْلِ
بَيْتِنَا وَبَنِي عَمَّنَا، فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ عز وجل وَبَيْنَ أَحَدٍ قَرَابَةٌ، وَمَنْ أَنْكَرَنِي فَلَيْسَ
مَنِّي...، وَإِنِّي لِأَمَانُ أَهْلِ الْأَرْضِ كَمَا أَنَّ النُّجُومَ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ، فَأَعْلَقُوا
أَبْوَابَ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يَعْنِيكُمْ، وَلَا تَتَكَلَّفُوا عَلَيَّ مَا قَدْ كُفَيْتُمْ، وَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ
بِتَعْجِيلِ الْفَرَجِ فَإِنَّ ذَلِكَ فَرَجُكُمْ...»^(٢).

فإن الغوص في أعماق هذا الدعاء يُري أن فيه نموذجاً توحيدياً وانتماءً
عقائدياً كبيراً.

الدعاء من الإمام عليه السلام على الأشخاص وأثره:

على العكس ممَّا يقف الدعاء على الأشخاص موقف المانع من تحصيل
الكمالات، بل وفي بعض الأحيان موقف سلب المقتضي. ومن النماذج التي برزت في
التاريخ والتي سُجِّلت عليها هذه الملاحظة من قِبَل الأئمة المعصومين عليهم السلام:

(١) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٦٠٤ و ٦٠٥ / ح ٥٧٢).

(٢) الغيبة للطوسي (ص ٢٩٠ - ٢٩٣ / ح ٢٤٧).

أولاً: عروة بن يحيى النخاس الدهقان:

حيث روى الكشي رحمته الله، قال: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ قُلُوبِهِ الْجَمَّالُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الْهُمْدَانِيِّ أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ يَحْيَى الْبَغْدَادِيَّ الْمَعْرُوفَ بِالدهَّقَانِ (لَعَنَهُ اللَّهُ) وَكَانَ يَكْذِبُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّضَا عليه السلام وَعَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام بَعْدَهُ، وَكَانَ يَقْطَعُ أَمْوَالَهُ لِنَفْسِهِ دُونَهُ وَيَكْذِبُ عَلَيْهِ، حَتَّى لَعَنَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام وَأَمَرَ شِيعَتَهُ بِلَعْنِهِ، وَالِدَعَاءِ عَلَيْهِ لِقَطْعِ الْأَمْوَالِ، لَعَنَهُ اللَّهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ سَلْمَانَ بْنِ رُشَيْدِ الْعَطَّارِ الْبَغْدَادِيِّ: فَلَعَنَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عليه السلام، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ لِأَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام خِزَانَةٌ، وَكَانَ يَلِيهَا أَبُو عَلِيٍّ بْنُ رَاشِدٍ رحمته الله، فَسَلَّمَتْ إِلَيْ عُرْوَةَ، فَأَخَذَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ ثُمَّ أَحْرَقَ بَاقِي مَا فِيهَا، يُعَايِظُ بِذَلِكَ أَبَا مُحَمَّدٍ عليه السلام، فَلَعَنَهُ وَبَرِيءَ مِنْهُ وَدَعَا عَلَيْهِ، فَمَا أَهْمَلَ يَوْمَهُ ذَلِكَ وَلَيْلَتَهُ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَى النَّارِ، فَقَالَ عليه السلام: «جَلَسْتُ لِرَبِّي لَيْلَتِي هَذِهِ كَذَا وَكَذَا جَلِسَةً، فَمَا انْفَجَرَ عَمُودُ الصُّبْحِ وَلَا انْطَفَأَ ذَلِكَ النَّارُ حَتَّى قَتَلَ اللَّهُ عَدُوَّهُ (لَعَنَهُ اللَّهُ)»^(١).

وأنت تلاحظ جلياً أثر دعاء الإمام، فإنه ما إن طلع الصباح حتى سلط الله تعالى على هذا الرجل من يقتله بسبب دعاء الإمام عليه السلام عليه، وبقي ذكره السيئ إلى يومنا هذا.

ثانياً: أحمد بن هلال العبرتائي:

الذي دعا عليه الإمام عدّة مرّات ولعنه وبرأ منه، وذكر أنّ ما أوجب حصول ما حصل لابن هلال هو «لَمْ يَدْعُ الْمَرْءُ رَبَّهُ بِأَنْ لَا يُزِيغَ قَلْبَهُ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ مُسْتَقَرًّا وَلَا يَجْعَلَهُ مُسْتَوْدَعًا، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الدّهَّقَانِ (عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ) وَخِدْمَتِهِ وَطُولِ صُحْبَتِهِ، فَأَبْدَلَهُ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ كُفْرًا حِينَ فَعَلَ مَا فَعَلَ، فَعَاجَلَهُ اللَّهُ بِالنَّقْمَةِ وَلَا يُمَهِّلُهُ».

(١) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٨٤٢ و ٨٤٣ / ح ١٠٨٦).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً ٣٥

وإليك النص الكامل الذي رواه الكشي رحمه الله في رجاله عن أحمد بن هلال: علي بن محمد بن قتيبة، قال: حدثني أبو حامد أحمد بن إبراهيم المرغي، قال: ورد علي القاسم بن العلاء نسخة ما خرج من لعن ابن هلال، وكان ابتداء ذلك أن كتب عليه السلام إلى قوامه بالعراق: «احذروا الصوفي المتصنع»، قال: وكان من شأن أحمد بن هلال أنه قد كان حج أربعا وخمسين حجة، عشرون منها على قدميه، قال: وكان رواه أصحابنا بالعراق لقوه وكتبوا منه، وأنكروا ما ورد في مدمته، فحملوا القاسم بن العلاء على أن يرجع في أمره، فخرج إليه: «قد كان أمرنا نفذ إليك في المتصنع ابن هلال (لا رحمه الله) بما قد علمت، لم يزل (لا عفر الله له ذنبه ولا أقاله عشرته) يداخل في أمرنا بلا إذن منا ولا رضى، يستبد برأيه، فيتحامى من ديوننا، لا يمضى من أمرنا إلا بما ينواه ويريد، أرداه الله بذلك في نار جهنم، فصبرنا عليه حتى تبر الله بدعوتنا عمره، وكنا قد عرفنا خبره قوماً من موالينا في أيامه (لا رحمه الله)، وأمرناهم بالقاء ذلك إلى الخاص من موالينا، ونحن نبرأ إلى الله من ابن هلال (لا رحمه الله) وممن لا يبرأ منه. وأعلم الإسحاقى (سلمه الله) وأهل بيته مما أعلمناك من حال هذا الفاجر، وجميع من كان سالك ويسألك عنه من أهل بلده والخارجين، ومن كان يستحق أن يطلع على ذلك، فإنه لا عذر لأحد من موالينا في التشكيك فيما يؤدبه عنا ثقاتنا، قد عرفوا بأننا نفاوضهم سرنا، ونحمله إياهم، وعرفنا ما يكون من ذلك إن شاء الله تعالى». وقال أبو حامد: فثبت قوم على إنكار ما خرج فيه، فعادوه فيه، فخرج: «لا شكر الله قدره، لم يدع المرء ربه بأن لا يزيغ قلبه بعد أن هداه، وأن يجعل ما من به عليه مستقراً ولا يجعله مستودعاً، وقد علمتم ما كان من أمر الدهقان (عليه لعنة الله) وخدمته وطول صحبتته، فأبدله الله بالإيمان كُفراً حين فعل ما فعل،

٣٦..... شرح دعاء الندبة

فَعَا جَلَهُ اللهُ بِالنَّقْمَةِ وَلَا يُمَهِّلُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَأَلِيهِ وَسَلَّمَ»^(١).

لاحظ معي هذه المقاطع المتعددة من دعاء الإمام عليه السلام على هذا الرجل
الذي كان من أصحاب الإمام الهادي والعسكري عليهما السلام، والذي عاش عمراً
قارب التسعين سنة حيث وُلِدَ (١٨٠هـ) وتُوفِّيَ (٢٦٧هـ)، فيكون عمره (٨٧)
سنة تقريباً ولم ينحرف إلا أواخر عمره حيث إنّه كان يرى إمامة الإمام
المهدي عليه السلام، وأن السفير الأول عثمان بن سعيد العمري رضي الله عنه هو وكيل للإمام
المهدي عليه السلام، وكان يرى نفسه المؤهل للوكالة بعد السفير الأول، ولما عيّن
الإمام المهدي عليه السلام السفير الثاني وهو ابن العمري، أي محمد بن عثمان الخَلَّانِي،
توقف ولم يقل بنيابته عن الإمام، فقال له جماعة من الشيعة: أَلَا تَقْبَلُ أَمْرَ أَبِي
جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ وَقَدْ نَصَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ الْمُنْفَرَضُ الطَّاعَةُ؟ فَقَالَ
لَهُمْ: لَمْ أَسْمَعْهُ يَنْصُ عَلَيْهِ بِالْوَكَاةِ، وَلَيْسَ أَنْكُرُ أَبَاهُ - يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ سَعِيدٍ -،
فَأَمَّا أَنْ أَقْطَعَ أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ وَكَيْلُ صَاحِبِ الزَّمَانِ فَلَا أَجْسُرُ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: قَدْ
سَمِعَهُ غَيْرُكَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ وَمَا سَمِعْتُمْ، وَوَقَفَ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ، فَلَعَنُوهُ وَتَبَّرُوهُ
مِنْهُ^(٢)، وقد خرجت توقيعات بالبراءة منه نقلنا إليك نصوص بعضها.

فلاحظ وأنت تقرأ النصّ الآنف الذكر كيف أنّ الإمام عليه السلام أكثر من
الدعاء على هذا الرجل، حيث قال عليه السلام: «لَا رَحِمَهُ اللهُ»، «لَا غَفَرَ اللهُ لَهُ ذَنْبَهُ وَلَا
أَقَالَهُ عَشْرَتُهُ»، «أَرْدَاهُ اللهُ بِذَلِكَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»، «تَبَّرَ اللهُ بِدَعْوَتِنَا عُمَرَهُ»، «لَا رَحِمَهُ
اللهُ»، «نَبَّرَأُ إِلَى اللهِ مِنْ ابْنِ هِلَالٍ لَا رَحِمَهُ اللهُ»، «لَا شَكَرَ اللهُ قَدْرَهُ». هذه أدعية من

(١) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٨١٦ و ٨١٧ / ح ١٠٢٠)؛ وفي بحار الأنوار (ج ٥٠ / ص ٣١٨

و ٣١٩ / ح ١٥): «لَمْ يَدْعِ الْمُرْتَدَّةَ بَأْسَ لَا يُرِيغُ قَلْبَهُ»، ولم يظهر لي ذلك.

(٢) الغيبة للطوسي (ص ٣٩٩ / ح ٣٧٤).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً..... ٣٧

إمام مفترض الطاعة وهو الإمام المهدي عليه السلام، بل إنَّ الإمام في التوقيع الأنف الذكر يبرأ إلى الله ممن لا يبرأ منه، فأبي فعلٍ شنيع قام به هذا ليقع فيما وقع فيه، ويصدر ما صدر عن إمام الزمان عليه السلام عليه؟!!

أتعلم أيها القارئ العزيز أنَّ هذا الرجل عاش ما يقرب من ثمانين سنة من عمره على ظاهر الاستقامة، وأنَّه إنَّما انحرف في السنين الأخيرة من عمره؟!!

دقق معي فيما سأنقل لك، ولاحظ أثر دعاء الإمام عليه السلام على الإنسان وما يجلبه من شقاء وهلاك أبدي، حيث ينقل الصدوق عليه السلام عن شيخه محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد عليه السلام، قال: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: (مَا رَأَيْتَنَا وَلَا سَمِعْنَا بِمُتَشَيِّعٍ رَجَعَ عَنِ التَّشْيِيعِ إِلَى النَّصَبِ إِلَّا أَحْمَدُ بْنُ هِلَالٍ)^(١).

تأمل أيها العزيز في كلام محدث الطائفة الفقيه الصدوق عليه السلام وهو ينقل عن أستاذه هذه المقالة، وتدبر آثار دعاء الإمام عليه السلام وما يجلبه من شقاء على الإنسان، ولا شك أنَّ هذا الشخص لولا الاستعداد الذاتي في داخله واقتضاء الانحراف في قلبه لما آلت أموره إلى ذلك، فكان ما يحمل من علم ومكانة في المجتمع وبالاً عليه وحسرة يوم القيامة.

دعاء الندبة:

يُعتَبَرُ دعاء الندبة من الأدعية المشهورة المعروفة، وفقراته موافقة مضموناً لما عليه الروايات المعتبرة على ما يأتي من ذكر جملة من الروايات عند توضيح وشرح كلِّ فقرة فقرة من هذا الدعاء المبارك.

وفي هذا الصدد فإنَّه لا ينبغي التوقُّف كثيراً في سند دعاء الندبة، وذلك لأنَّ المتن فيه من المضامين العالية ما يجلب الاطمئنان إلى صدورها من معادن الوحي.

(١) كمال الدين (ص ٧٦).

وقد ذكر جملة من أساطين المذهب أن بعض المضامين المذكورة في المعاجم الحديثية وكتب الأدعية والزيارات تكشف عن صدورها من معدن العصمة عليها السلام، وممن قال ذلك - وفي موارد مختلفة - جماعة، منهم:

* الميرداماد رحمته الله في (الرواشح): (... ويُعرف كون الحديث موضوعاً بإقرار واضعه بالوضع...، وقد يُعرف أيضاً بركاكة ألفاظ المرويِّ وسخافة معانيها وما يجري مجرى ذلك، كما قد يُحكّم بصحة المتن - مع كون السند ضعيفاً - إذا كان فيه من أساليب الرزانة وأفانين البلاغة وغامضات العلوم وخفيات الأسرار ما يأبى إلا أن يكون صدوره من خزنة الوحي، وأصحاب العصمة، وحزب روح القدس، ومعادن القوة القدسية. وللمضطلعين بعلم الحديث ملكة قوية، وثقافة شديدة يعرفون بها الصحيح والمكذوب، ويميّزون الموضوع من المسموع)^(١).

* السيّد عبد الله شبر رحمته الله في (الأنوار اللامعة): (اعلم أن هذه الزيارة - الجامعة - قد رواها جملة من أساطين الدين وحملة علوم الأئمة الطاهرين، وقد اشتهرت بين الشيعة الأبرار اشتهار الشمس في رابعة النهار، وجواهر مبانيها وأنوار معانيها دلائل حقّ وشواهد صدقٍ على صدورها عن صدور حملة العلوم الربّانية وأرباب الأسرار الفرقانية^(٢) المخلوقين من الأنوار الإلهية، فهي كسائر كلامهم الذي يُغني فصاحة مضمونه وبلاغة مشحونة عن ملاحظة سنده، كنهج البلاغة والصحيفة السجّادية وأكثر الدعوات والمناجاة...)^(٣).

(١) الرواشح الساوية (ص ٢٧٧ و ٢٧٨).

(٢) في القاموس المحيط (ج ٣ / ص ٢٧٤): (فرق بينهما فرقاً وفرقناً - بالضم - فصل، وفيها يُفرقُ كلُّ أمرٍ حكيمٍ ﴿١﴾ [الدخان: ٤]، أي يُقضى، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]: فصلناه وأحکمناه، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]: فلقناه، و﴿الْفَارِقَاتِ فَرَقْنَ﴾ [المرسلات: ٤]: الملائكة تنزل بالفرق بين الحقّ والباطل، والفرق: الطريق في شعر الرأس...).

(٣) الأنوار اللامعة (ص ٣١).

تمهيد: أهمية الدعاء عموماً والدعاء المهدي خصوصاً..... ٣٩

* العلامة المجلسي رحمته الله في (ملاذ الأخيار): (باب زيارة جامعة لسائر المشاهد (على أصحابها السلام): الحديث الأول: مجهول، لكن الزيارة نفسها شاهد عدل على صحتها^(١)).

* الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رحمته الله في معرض جوابه عن سؤال وجه له حول سند دعاء الصباح، قال رحمته الله: (وللائمة (سلام الله عليهم) أسلوب خاص في الثناء على الله والحمد لله والضراعة له والمسألة منه، يعرف ذلك من مارس أحاديثهم وأنس بكلامهم وخاض في بحار أدعيتهم، ومن حصلت له تلك الملكة وذلك الأنس لا يشك في أن هذا الدعاء صادر منهم، وهو أشبه ما يكون بأدعية الأمير عليه السلام مثل دعاء كميل وغيره، فإن لكل إمام لهجة خاصة وأسلوباً خاصاً على تقاربها وتشابهها جميعاً، وهذا الدعاء في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة والمتانة والقوة مع تمام الرغبة والخضوع والاستعارات العجيبة، أنظر إلى أول فقرة منه: «يَا مَنْ دَلَعَ لِسَانَ الصَّبَاحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ»^(٢) واعجب لبلاغتها وبديع استعاراتها. وإذا اتجهت إلى قوله: «يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ»^(٣) تقطع بأنها من كلماتهم (سلام الله عليهم) مثل قول زين العابدين عليه السلام: «بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَّلْتَنِي عَلَيْكَ»^(٤)، وبالجملة فما أجود ما قال بعض علمائنا الأعلام: إننا كثيراً ما نُصَحِّحُ الأسانيد بالمتون، فلا يضرُّ بهذا الدعاء الجليل ضعف سنده مع قوة متنه، فقد دلَّ على ذاته بذاته...^(٥).

* السيّد الخوئي رحمته الله في (مصباح الفقاهة): (... ولا إشكال في جواز

(١) ملاذ الأخيار (ج ٩ / شرح ص ٢٤٧).

(٢) زاد المعاد (ص ٣٨٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) إقبال الأعمال (ج ١ / ص ١٥٧).

(٥) الفردوس الأعلى (ص ٥١).

ارتزاق القاضي من بيت المال في الجملة كما هو المشهور، لأن بيت المال معد لمصالح المسلمين والقضاء من مهماتها، ولما كتبه عليُّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشر في عهد طويل، فقد ذكر عليه السلام فيه صفات القاضي، ثم قال: «وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَدَلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ»^(١)، والعهد وإن نُقِلَ مرسلاً إلا أن آثار الصدق منه لائحة، كما لا يخفى للناظر إليه...^(٢).

* الشيخ الوحيد الخراساني (دام ظلُّه) في درس الفقه من يوم الثلاثاء (١١/ جمادى الثانية/ ١٤١٨هـ)، حيث أكد على اعتبار كتاب (نهج البلاغة) وبعض الروايات عالية المضامين، فقد عبّر عن رواية واردة في (عيون أخبار الرضا عليه السلام) بأنّها رواية شريفة، وقال: (إنّ نفس مضمونها شاهد على صدورها من الإمام عليه السلام)، ثمّ قال في موضع آخر تعليقا على حديث: «الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ»^(٣) بعد أن ذكر أنّها من مرسلات الصدوق عليه السلام التي لا دليل على حجّيتها: (وفي رأينا فإنّ مثل هذه الجُمَل صادرة عنهم، ولا ينبغي النظر في سندها، ولذا فإنّ من الخطأ إدراج بعض الروايات ذات المضامين العالية ضمن مبحث صحّة السند في الأصول، إذ لا وجه مع علوّ المضمون لصدور العبارة عن غير المعصوم عليه السلام، ومن هنا فلا حاجة للبحث في سند مثل كلمات (نهج البلاغة))^(٤).

فكون آثار الصدق لائحة من المضمون ممّا يوجب التصديق بالصادر رغم الإرسال في السند، وهذا لا يختصّ بما ذكرناه من موارد ذُكرت في كلماتهم (قدّست أسرارهم)، ويمكن أن يشمل مورد كلامنا.

* * *

(١) نهج البلاغة (ص ٤٣٥ / ح ٥٣).

(٢) مصباح الفقاهة (ج ١ / ص ٤٢٢).

(٣) من لا يحضره الفقيه (ج ٤ / ص ٣٣٤ / ح ٥٧١٩).

(٤) حوار مع فضل الله حول الزهراء (سلام الله عليها) (ص ٢٩٢).

الفصل الأول:

الوساطة بين السماء والأرض

وخصائص الأنبياء ودرجاتهم

الفقرة الأولى

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا».

والحديث في شرح هذه الفقرة يكون في نقطتين:

النقطة الأولى: بيان معنى الحمد:

تعددت الأقوال في تحديد معناه، وإن اتفقت على أن الحمد هو الثناء على الله تعالى والشكر له، بل عبّرت عنه العديد من الروايات بأنه هو الشكر^(١) تعبيراً عن معناه العام بأبرز مصاديقه، ولأجل الاستئناس نمرُّ على جملة من الروايات ونلاحظ بعض كلمات المفسرين ممن تعرّض لمعاني الحمد في القرآن الكريم خصوصاً تفسير سورة الحمد.

قال الشيخ الطبرسي^{رحمته الله}: (معنى الحمد لله: الثناء عليه، والشكر له)^(٢).

وقال^{رحمته الله}: (الحمد والمدح والشكر متقاربة المعنى، والفرق بين الحمد والشكر: أن الحمد نقيض الذم، كما أن المدح نقيض الهجاء. والشكر نقيض الكفران. والحمد قد يكون من غير نعمة، والشكر يختصُّ بالنعمة، إلا أن الحمد يُوضَع موضع الشكر، ويقال: الحمد لله شكراً، فينصب (شكراً) على المصدر، ولو لم يكن الحمد في معنى الشكر لما نصبه، فإذا كان الحمد يقع موقع الشكر،

(١) سيأتي في الرواية الثانية ذلك.

(٢) مجمع البيان (ج ١ / ص ١٤٩).

فالشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، ويكون بالقلب، وهو الأصل، ويكون أيضاً باللسان. وإنما يجب باللسان لنفي تهمة الجحود والكفران. وأما المدح فهو القول المنبئ عن عظم حال المددوح مع القصد إليه. وأما الربُّ: فله معانٍ، منها: السيّد المطاع...، ومنها: المالك...، ومنها: الصاحب...، ومنها: المرَبُّ، ومنها: المصلح، واشتقاقه من التريية يقال: رَبَّيْتَهُ وربيتته بمعنى، وفلان يُرَبُّ صنيعته: إذا كان يُنمِّمها، ولا يُطلق هذا الاسم إلا على الله، ويُقيد في غيره، فيقال: رَبُّ الدار، وربُّ الضيعة^(١).

في (عيون أخبار الرضا عليه السلام) بإسناده عن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام، قال: «جاء رجل إلى الرضا عليه السلام، فقال له: يا ابن رسول الله، أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ما تفسيره؟ فقال: «لقد حدثني أبي، عن جدّي، عن الباقر، عن زين العابدين، عن أبيه عليه السلام أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ما تفسيره؟ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو أن عرف عباده بعض نعمه عليهم جملاً، إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل، لأنها أكثر من أن تُحصى أو تُعرف، فقال لهم: قولوا: الحمد لله على ما أنعم به علينا. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات...»^(٢).

في (الفقيه): عن الرضا عليه السلام أنه قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إنما هو أداء لما أوجب الله تعالى على خلقه من الشكر، وشكر لما وفق عبده من الخير»^(٣).

(١) مجمع البيان (ج ١ / ص ٥٥).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ١ / ص ٢٥٤ - ٢٥٦ / باب ٢٨ / ح ٣٠).

(٣) من لا يحضره الفقيه (ج ١ / ص ٣١٠ / ح ٩٢٦).

الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٤٥

وعليه فالحمد هو الثناء لله تعالى وشكره على إحسانه بعد معرفة نعمه، لأنّه يفترض أنّ العبد - وهو كذلك - متنعم بنعم كثيرة، لا يمكن إحصاؤها ولا شكرها إلا بشكر منعمها والمفيض لها، وهو الله سبحانه وتعالى، حيث تُعطي فقرة الحمد - التي تعني لزوم الشكر من العبد، ولزوم التخصُّع والتذلل للمعبود - درساً في العبوديّة للمشكور، لأنّ الفقرة التي بعدها عندما وصفت المحمود بأنّه ربُّ العالمين، كأنّها هي تقول للعبد: أيّها العبد يجب عليك أن تشكر هذه النعم التي لا تُحصى، لأنّ مصدرها الوجود الذي لا ينبع منه إلا الخير، هذا الوجود هو الوجود الإلهي الغني الذي من أبرز صفاته أنّه مدبّر لهذا الكون. وبكلمة: فإنّ هذه الفقرة وعلى صغر حجمها تتحدّث عن محورّيّة الربِّ والنعمة والإحاطة، من خلال الكلمات الأربع التي تضمّنتها، ف﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تتكلّم عن النعم التي يجب أن تُحمد والتي لا بدّ أن تعود إلى منعم غني، هو مجمع صفات الكمال والجلال، وأنّ أبرز ما يُظهره من إنعامه أنّه ربُّ مدبّر، ليعقبها بـ «الْعَالَمِينَ» إشارةً إلى الإحاطة الربوبيّة لكلّ العوالم.

النقطة الثانية: بيان معنى الصلاة:

ثمّ أعقبها بالصلاة على محمّد ﷺ، معرّفًا إيّاه بأنّه (السيد النبي)، ومثنيًا بالصلاة والسلام على آله ﷺ، والحديث في الصلاة على النبي وآثارها حديث طويل شيق، فالصلاة على النبي ﷺ شفاء من أخطر الأمراض التي يواجهها الإنسان، حيث قال ﷺ كما في (الكافي): «الصلاة علىّ وعلى أهل بيتي تذهبُ بالنفاق»^(١).

وقد ذكرت الأحاديث الشريفة أنّ للصلاة على النبي ﷺ جملة من الآثار

(١) الكافي (ج ٢ / ص ٤٩٢ / باب الصلاة على النبي محمّد وأهل بيته ﷺ / ح ٨).

٤٦ شرح دعاء الندبة

والفوائد، منها: إجابة الدعاء حيث قال ﷺ: «صَلَاتُكُمْ عَلَيَّ إِجَابَةٌ لِدُعَائِكُمْ»^(١)، وغيرها فراجع.

حقيقة سيادة النبي ﷺ:

سيادة النبي ﷺ وهبته من الله ﷻ لما يحمله من الكمالات الروحية والمعنوية.

ومما دلّ على سيادة النبي الأكرم ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام عدّة روايات لا يبعد القول بتواترها، منها:

روايات السيادة:

وهي تدلّ على أنه ﷺ سيّد ولد آدم ﷺ، ومنها ما رواه الشيخ الصدوق رحمه الله بسنده عن عائشة، قالت: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، فَقَالَ: «هَذَا سَيِّدُ الْعَرَبِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْتَ سَيِّدَ الْعَرَبِ؟ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ، وَعَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَرَبِ»، فَقُلْتُ: وَمَا السَّيِّدُ؟ قَالَ: «مَنْ أَفْتَرَضَتْ طَاعَتَهُ كَمَا أَفْتَرَضْتُ طَاعَتِي»^(٢).

وإذا سألت: مَنْ هم العرب؟ يقال لك: هي قومية من القوميات المعروفة يرتبط أفرادها برابطة اللغة والنسب وجملة من العادات والتقاليد والأعراف، لكن الروايات الشريفة ذكرت أن العرب يُقصد بها - على نحو التأويل أو التصرف الحكومي - الشيعة بالخصوص، وأنهم الموالين لعلي ﷺ، ولعلّ تصريح الخبر المتقدم بأن أمير المؤمنين ﷺ سيّد العرب يشير إلى هذا المعنى.

(١) أمالي الطوسي (ص ٢١٥ / ح ٣٧٦/٢٦).

(٢) أمالي الصدوق (ص ٩٣ و ٩٤ / ح ١١/٧١).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٤٧

الشيعة هم العرب:

ومن بين تلك الروايات ما ورد:

* في (الكافي) بسنده عن إسحاق بن عمارة أو غيره، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «نحن بنو هاشم، وشيعتنا العرب، وسائر الناس الأعراب»^(١).

* وفيه بسنده عن زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «نحن قريش، وشيعتنا العرب، وسائر الناس علوج الروم»^(٢).

* وفي (معاني الأخبار) بسنده عن ضريس بن عبد الملك، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «نحن قريش، وشيعتنا العرب، وعدونا العجم»^(٣).

* وفيه بسنده عن عمر بن سعيد بن خثيم، عن أخيه معمر، عن محمد بن علي عليه السلام، قال: «نحن العرب، وشيعتنا منا، وسائر الناس همج أو هبج»، قال: قلت: وما الهمج؟ قال: «الذباب»، قلت: وما الهبج؟ قال: «البق»^(٤).

ولهذه الحكومة والتفسير شاهد يقبل من الاستيحاش في تقبل معنى أن العرب هم الشيعة بالخصوص وإن اختلفت قومياتهم، وأن غيرهم خارج دائرة العروبة الدينية والعقائدية، أو قل: خارج دائرة العروبة لأهل البيت عليهم السلام، وهو ما ورد في روايات جعل رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام الأب لهذه الأمة، ومنها ما ورد:

* في (أمالي الصدوق) بسنده عن ثابت بن أبي صفية، عن سيد العابدين علي بن الحسين، عن سيد الشهداء الحسين بن علي، عن سيد الوصيين أمير

(١) الكافي (ج ٨ / ص ١٦٦ / ح ١٨٣).

(٢) الكافي (ج ٨ / ص ١٦٦ / ح ١٨٤).

(٣) معاني الأخبار (ص ٤٠٣ و ٤٠٤ / باب معنى نوادر المعاني / ح ٧١).

(٤) معاني الأخبار (ص ٤٠٤ / باب معنى نوادر المعاني / ح ٧٢).

الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ سَيِّدِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَرَضَ عَلَيْكُمْ طَاعَتِي، وَنَهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَتِي، وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعَ أَمْرِي، وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ طَاعَةِ عَلِيٍّ بَعْدِي مَا فَرَضَهُ مِنْ طَاعَتِي، وَنَهَاكُمْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِي، وَجَعَلَهُ أَخِي وَوَزِيرِي وَصِيِّي وَوَارِثِي، وَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، حُبُّهُ إِيمَانٌ وَبُغْضُهُ كُفْرٌ، وَحُبُّهُ مِحْبَةٌ، وَبُغْضُهُ مُبْغِضِي، وَهُوَ مَوْلَى مَنْ أَنَا مَوْلَاهُ، وَأَنَا مَوْلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، وَأَنَا وَإِيَاهُ أَبَوَا هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(١).

* وفي (كمال الدين) بسنده عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ ﷻ، وَأَنَا خَيْرٌ مِنْ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَجَمِيعِ مَلَائِكَةِ اللَّهِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنَا صَاحِبُ الشَّفَاعَةِ وَالْحَوْضِ الشَّرِيفِ، وَأَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الْأُمَّةِ، مَنْ عَرَفَنَا فَقَدْ عَرَفَ اللَّهَ ﷻ، وَمَنْ أَنْكَرَنَا فَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهَ ﷻ، وَمَنْ عَلِيٌّ سَبَطَا أُمَّتِي، وَسَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَمَنْ وُلِدَ الْحُسَيْنِ تِسْعَةَ أَثْمَةِ طَاعَتِهِمْ طَاعَتِي، وَمَعْصِيَتُهُمْ مَعْصِيَتِي، تَاسِعُهُمْ فَائِزُهُمْ وَمَهْدِيُّهُمْ»^(٢).

* * *

(١) أمالي الصدوق (ص ٦٥ / ح ٦/٣٠).

(٢) كمال الدين (ص ٢٦١ / باب ٢٤ / ح ٧).

المبحث الأول:

المشاركة الإلهية

مع الأنبياء وآثار الوفاء بها

الفقرة الثانية

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا جَرَى بِهِ قَضَاؤُكَ فِي أَوْلِيَائِكَ الَّذِينَ
اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ، إِذِ اخْتَرْتَهُمْ لَهْمَ جَزِيلٍ مَا عِنْدَكَ
مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا إِضْمِحَالَ».

تشتمل هذه الفقرة على جملة من المطالب المهمة، وهي تحتاج إلى توسعة في الكلام وشرح يناسب ما تحويه من مخزون علمي ومعرفي، ولكن حيث إن هذا الشرح مبني على الاختصار وبيان المطالب بنحو الإجمال، فيترك التفصيل إلى محله.

والمطالب التي ينبغي تسليط الضوء عليها تتناولها على شكل نقاط:

النقطة الأولى: البعد العقائدي:

بحث القضاء والقدر:

مسألة القضاء والقدر من المسائل الكلامية التي دارت حولها - ومنذ القدم - العديد من المناقشات، وخضعت للعديد من القراءات، وتمذهب بسببها عدّة مذاهب وفرق، ولا زالت مقالات هذه المسألة تُلقَى بظلالها على الواقع الفكري والديني.

القضاء والقدر في القرآن والروايات:

ذُكِرَ القضاء والقدر في الكتاب العزيز في عدّة آيات كريمة، من بينها:
قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الأنزاب: ٣٨).
 قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

وقد ورد في الروايات الشريفة تعريفها والحديث عن جملة من تفاصيلها،
 ومما ورد:

* في (الفصول المختارة) بسنده عن أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ، قَالَ: قَالَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ حَضَرَ صِفِينَ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ انْصِرَافِهِمْ مِنْ صِفِينَ: أَخْبَرَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَسِيرِنَا إِلَى الشَّامِ أَكَانَ بِقَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَقَدَرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ يَا أَخَا أَهْلِ الشَّامِ، وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا وَطِئْنَا مَوْطِئًا وَلَا هَبَطْنَا وَادِيًا وَلَا عَلَوْنَا تَلْعَةً إِلَّا بِقَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ وَقَدَرِهِ»، فَقَالَ الشَّامِيُّ: عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَحْتَسِبُ عَنَائِي إِذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا أَظُنُّ أَنَّ لِي أَجْرًا فِي سَعْيِي إِذَا كَانَ اللَّهُ قَضَاهُ عَلَيَّ وَقَدَرَهُ لِي، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْظَمَ لَكُمْ الْأَجْرَ عَلَى مَسِيرِكُمْ وَأَنْتُمْ سَائِرُونَ، وَعَلَى مَقَامِكُمْ وَأَنْتُمْ مُقِيمُونَ، وَلَمْ تَكُونُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالَاتِكُمْ مُكْرَهِينَ، وَلَا إِلَيْهَا مُضْطَرِّينَ، وَلَا عَلَيْهَا مُجْبِرِينَ»، فَقَالَ الشَّامِيُّ: فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَالْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ سَاقَانَا، وَعَنْهُمَا كَانَ مَسِيرُنَا وَانْصِرَافُنَا؟ فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيُحَاكَ يَا أَخَا أَهْلِ الشَّامِ، لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِمًا، وَقَدَرًا حَتْمًا، لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَالنَّهْيُ مِنْهُ، وَمَا كَانَ الْمُحْسِنُ أَوْلَى بِثَوَابِ الْإِحْسَانِ مِنَ الْمُسِيءِ، وَلَا الْمُسِيءُ أَوْلَى بِعُقُوبَةِ الذَّنْبِ مِنَ الْمُحْسِنِ، تِلْكَ مَقَالَةُ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ، وَحِزْبِ الشَّيْطَانِ، وَخُصَمَاءِ الرَّحْمَنِ، وَشُهَدَاءِ الزُّورِ، وَقَدَرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَجُوسِهَا، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيرًا، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا، وَكَلَّفَ يَسِيرًا، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا، وَلَمْ يَطْعَ مُكْرَهًا، وَلَمْ يُعْصَ مَعْلُوبًا، وَلَمْ يَكْلَفْ عَسِيرًا، وَلَمْ يُرْسِلِ

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٥٣

الأنبياء لعباء، ولم يُنزلِ الكُتُبَ على العبادِ عبثاً، وما خلقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ»، قَالَ الشَّامِيُّ: فَمَا الْقَضَاءُ وَالْقَدْرُ اللَّذَانِ كَانَ مَسِيرُنَا بِهِمَا وَعَنْهُمَا؟ قَالَ: «الْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، وَالْحُكْمُ مِنْهُ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]...^(١).

فأمير المؤمنين عليه السلام يُصرِّح أن القضاء والتقدير الإلهي لا يوجب الإلجاء والجبر على الإنسان في أفعاله، وإلا لبطل الثواب والعقاب، فالإنسان مختار في أفعاله في إطار قضاء الله تعالى وتقديره.

* وفي (الكافي) بسنده عن يونس بن عبد الرحمن، قال: قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام: «يا يونس، لا تقل بقول القدرية، فإن القدرية لم يقولوا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولا بقول إبليس، فإن أهل الجنة قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَعْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، فقلت: والله ما أقول بقولهم، ولكني أقول: لا يكون إلا بما شاء الله وأراد وقدر وقضى، فقال: «يا يونس، ليس هكذا لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى. يا يونس، تعلم ما المشيئة؟»، قلت: لا، قال: «هي الذكْرُ الأوَّلُ، فتعلم ما الإرادة؟»، قلت: لا، قال: «هي العزيمة على ما يشاء، فتعلم ما القدر؟»، قلت: لا، قال: «هي الهندسة ووضع الخدود من البقاء والفناء»، قال: ثم قال: «والقضاء هو الإبرام وإقامة العين»، قال: فاستأذنته أن أقبل رأسه، وقلت: فتحت لي شيئاً كنت عنه في غفلة^(٢).

فالقضاء والقدر في عقيدة أهل البيت عليهم السلام حقيقة تقع بين الجبر

(١) الفصول المختارة (ص ٧٠ - ٧٢).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٥٧ و ١٥٨ / باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين / ح ٤).

والاختيار، فتُعطي للإنسان مساحة واسعة تسمح له أن يصل إلى المقامات العليا من الكمالات التي ينبغي له الوصول إليها، وفي نفس الوقت لا يعني ذلك الوقوع في التفويض والخروج عن القدرة الإلهية، فمن أجمل التركيبات التي تمتاز بها العقيدة الإمامية أنها نظمت هذا البحث بشكل ينسجم مع الوجدان والعقل والواقع، في حين أن الغير لم يتمكن من الخروج من هذه المعضلة بما ينسجم مع العقل والوجدان وما دلت عليه الآيات الكريمة.

مراتب القضاء والقدر:

من البحوث التي تطرقت لها العلماء في هذه المسألة هو بيان مراتب القضاء والقدر، حيث ترتب على اختلاف المراتب حل العديد من عقدها المسألة وجملة من أغازها، ومما ذكّر في هذا الصدد:

القضاء والقدر في عالم التشريع والاعتبار:

ويُراد منه ما يُعبّر عن إرادة المولى التشريعية، وقد أشارت كلمة أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى حين قال للرجل الذي سأله عن معناها: «الأمْرُ بِالطَّاعَةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَالْتِمَكِينُ مِنْ فِعْلِ الْحُسْنَةِ وَتَرْكِ السَّيِّئَةِ...»^(١).

القضاء والقدر في عالم التكوين:

فهو ما يرجع إلى حقائق هذا الكون ووجوداته، حيث عبّرت عنها بعض الروايات فيما تقدّم بأنّ القدر هو الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين.

إن قيل: ألا يلزم من القول بالقضاء والقدر، وأنّ جميع ما في الكون مقدّر ومقضي بعلم الله تعالى وواقع تحت سلطانه وقدرته، ألا يلزم منه الجبر؟ فإنّه يقال: لا يلزم منه القول بالجبر، على ما بيّنته الروايات الشريفة

(١) الإرشاد (ج ١ / ص ٢٢٥ و٢٢٦).

الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٥٥

المتقدّمة، ولأنّ الموجودات التي خلقها الله تعالى على نحوين: مجردة وغير مجردة، والمجردة تقديرها تلك الحدود التي رسمها الله تعالى لها، فيما الموجودات غير المجردة يكون تقديرها في إطار الزمان والمكان، فعندما تتحقّق ضرورات وجود الشيء من علّله وشرائطه يُعبّر عنه أنّه مقضي ومقدّر.

وحيث إنّ الإنسان خُلِقَ بقيد أنّه مختار، فلا يكون تقدير الله تعالى سلباً لحرّيته، وقضاء عليه بما هو خارج عن إرادته وقدرته.

قال الشيخ المفيد رحمته الله: (والوجه عندنا في القضاء والقدر بعد الذي بيّناه في معناه أنّ الله تعالى في خلقه قضاءً وقدرًا، وفي أفعالهم أيضاً قضاءً وقدرًا معلوماً، ويكون المراد بذلك أنّه قد قضى في أفعالهم الحسنة بالأمر بها، وفي أفعالهم القبيحة بالنهي عنها، وفي أنفسهم بالخلق لها، وفيما فعله فيهم بالإيجاد له، والقدر منه سبحانه فيما فعله إيقاعه في حقّه وموضع، وفي أفعال عباده ما قضاه فيها من الأمر والنهي والثواب والعقاب، لأنّ ذلك كلّه واقع موقعه، موضوع في مكانه لم يقع عبثاً ولم يُصنَع باطلاً، فإذا فسّر القضاء في أفعال الله تعالى والقدر بها شرحناه زالت الشنعة منه، وثبتت الحجّة به، ووضح الحقّ فيه لذوي العقول، ولم يلحقه فساد ولا إخلال)^(١).

النقطة الثانية: البعد القيمي والأخلاقي التربوي:

فإنّ هذه الفقرة التي تبتدئ بذكر الله سبحانه وتعالى، وتنسب كلّ فيض من الوجود إلى ألوهيته، هي في عين الوقت تُلزم الإنسان بأن يخضع إذعاناً لوليّ تلك النعم، وإيقاناً بأنّ كلّ نعمة صدرت وتصدر إنّما هي من معدن ومنبع الألوهية، فجميع ما يُمثّله الحمد من مداليل في اللغة هي صور يُعبّر بها الداعي

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية (ص ٥٦).

في دعائه إلى الله سبحانه وتعالى من خلال هذا المقطع، وإن كانت تلك النعم في ظاهرها ابتلاءات، فالنفس المستخلصة والتي وقع عليها الاختيار الإلهي ترى أن ذلك يوجب الحمد، وأنه في كل الأحوال لا يفرق فيه بين سراء أو ضراء، كما في حديث الإمام الباقر عليه السلام مع جابر بن عبد الله الأنصاري حينما سأله عليه السلام عن أحواله، فقال جابر: أنا في حالة أحب فيها الشيوخة على الشباب، والمرض على الصحة، والموت على الحياة، فقال الباقر عليه السلام: «أما أنا يا جابر فإن جعلني الله سبحانه شيوخاً أحب الشيوخة، وإن جعلني شاباً أحب الشيبوبة، وإن أمرضني أحب المرض، وإن شفاني أحب الشفاء والصحة، وإن أماتني أحب الموت، وإن أبقاني أحب البقاء»^(١).

فما يشير إليه المقطع، هو ما يصرح به الإمام الباقر عليه السلام حيث يجعل النفس المستخلصة، والتي انتخبت وأختيرت للولاية نموذجاً أسوياً يُحتذى به.

ولا تخفى الإشارات اللطيفة التي يتضمنها هذا المقطع من سمو النفس ورقيتها وتهذيبها وإعطائها نوعاً من الدربة في الممارسات السلوكية نتيجة لما يسمعه الإنسان المؤمن عن الذي جرى على الأولياء، فتلك المعاني الخُلُقِيَّة التي تتولد لدى المؤمن من إذعانه، وكلما اشتد به البلاء إنما هي أملاً في استخلاص نفسه للباري تعالى وذوبان وجوده في دينه، وهذا سمو الرفيع هو النموذج الذي أمرنا بالافتداء به والمتمثل بتلك المكارم التي إنما بعث رسول الله ﷺ ليتممها في النفس الإنسانية.

النقطة الثالثة: البعد المعرفي والمفاهيمي:

يُسلط المقطع الضوء على منظومة إلهية لا يمكن أن تستقيم إلا بسُنَنِ

(١) أنوار الحقيقة (ص ٢٥٩).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٥٧

تكوينية، من أبرزها سُنَّةُ الابتلاء والامتحان من أجل تحقيق الهدف الأسمى، فخلاصة المعرفة البشرية والتجربة العقلانية تقول: إنَّ الامتحان والبلاء ضرورة في تحقيق الأهداف العظام، وهي سُنَنُ إلهية جارية على جميع الناس، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ (العنكبوت: ٢ و ٣).

فإنَّ جريان هذه السُنَن في الابتلاءات على خصوص الإنسان المؤمن تُؤلِّد لدى المصحِّي قدرة هائلة في أنَّه لا يتوانى في البذل من أجل تحقيق الغاية القصوى، وهذا المقطع الذي يعكس لنا الحمد على ما جرى به القضاء في الأولياء لأجل الاستخلاص يُبرز هذه الحقيقة بشكلٍ جليٍّ واضحٍ.

ففي جملة من الروايات جاء التعبير بشدَّة الابتلاء مقروناً بدرجة الإنسان، فقد ذَكَرَ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَلَاءُ وَمَا يُخْصُّ اللَّهُ بِكَ بِهِ الْمُؤْمِنَ، فَقَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: النَّبِيُّونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَأَلْأَمْثَلُ، وَيَبْتَلِي الْمُؤْمِنَ بَعْدَ عَلَى قَدْرِ إِيْمَانِهِ وَحُسْنِ أَعْمَالِهِ، فَمَنْ صَحَّ إِيْمَانُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَمَنْ سَخَفَ إِيْمَانُهُ وَضَعُفَ عَمَلُهُ قَلَّ بَلَاؤُهُ»^(١).

وفي نفس المصدر بسنده عن حُمُرَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيَتَعَاهَدُ الْمُؤْمِنَ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَتَعَاهَدُ الرَّجُلُ أَهْلَهُ بِالْهُدْيَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ، وَيَحْمِيهِ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي الطَّيِّبُ الْمَرِيضَ»^(٢).

فإنَّ النعيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال يحصل للإنسان بعد التسليم بالقضاء الصادر من الله سبحانه وتعالى.

علماً أنَّ الفقرة التي تحدَّثنا عنها تكتنز الكثير من المفاهيم والمعارف

(١) الكافي (ج ٢ / ص ٢٥٢ / باب شدَّة ابتلاء المؤمن / ح ٢).

(٢) الكافي (ج ٢ / ص ٢٥٥ / باب شدَّة ابتلاء المؤمن / ح ١٧).

٥٨..... شرح دعاء الندبة

العظيمة، فَمَنْ لَهُ هَمَّةُ الْمَتَابَعَةِ سَيَقِفُ عَلَى بَحْرِ زَاخِرٍ مِنَ الْمَعَارِفِ مِنْ خِلَالِ هَذَا الْمَقْطَعِ الْمُبَارَكِ.

* * *

الفقرة الثالثة

«بَعْدَ أَنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ فِي دَرَجَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا الدِّنْيَةِ
وَزُخْرُفِهَا وَزِبْرِجِهَا، فَشَرَطُوا لَكَ ذَلِكَ وَعَلِمْتَ مِنْهُمْ الْوَفَاءَ
بِهِ».

في هذه الفقرة جملة مطالب ومفاهيم نتناولها في ضمن النقاط الآتية:

النقطة الأولى: الزهد في الدنيا:

تتحدث هذه الفقرة عن فضيلة الزهد في الدنيا، والوفاء بالعهد، والرؤية التي ينبغي للمؤمن أن ينظر بها للدنيا. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الزَّهَادَةُ قِصْرُ الْأَمَلِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النَّعْمِ، وَالتَّوَرُّعُ عِنْدَ الْمَحَارِمِ»^(١).

الدنيا أدنى مراتب الوجود، وتمتاز بظاهر جميل براق مزخرف جذاب، يُصرف الإنسان عن باطنها الدني، ويُبعد المؤمن عن القرب من الله تعالى، هذا لو انطلق منها لتحقيق الأهداف الضيقة.

وأما لو انطلق منها من خلال السمو الروحي والتعالي على زخرفها وزبرجها فإنه يستطيع أن يصل إلى الحياة الأبدية والمستقر السامي الذي لا بديل عنه.

(١) نهج البلاغة (ص ١٠٦ / ح ٨١).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٥٩

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا، وَإِنَّمَا وَضِعْنَا فِيهَا لِنَبْتَلَى بِهَا...»^(١).

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ هَاشِمِ الْيَرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ عَنِ الزُّهْدِ، فَقَالَ: «الزُّهْدُ عَشْرَةُ أَشْيَاءَ، فَأَعْلَى دَرَجَاتِ الزُّهْدِ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْوَرَعِ، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْوَرَعِ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْيَقِينِ، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْيَقِينِ أَدْنَى دَرَجَاتِ الرِّضَا. أَلَا وَإِنَّ الزُّهْدَ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]»^(٢).

وفي الخبر الصحيح عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «إِنَّ عَلَامَةَ الرَّاغِبِ فِي ثَوَابِ الْآخِرَةِ زُهْدُهُ فِي عَاجِلِ زَهْرَةِ الدُّنْيَا. أَمَا إِنْ زُهِدَ الرَّاهِدِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَا يَنْقُصُهُ مِمَّا قَسَمَ اللَّهُ عز وجل لَهُ فِيهَا وَإِنْ زُهِدَ، وَإِنْ حَرَصَ الْحَرِيصَ عَلَى عَاجِلِ زَهْرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يَزِيدُهُ فِيهَا وَإِنْ حَرَصَ، فَالْمَغْبُونُ مَنْ حُرِمَ حَظُّهُ مِنَ الْآخِرَةِ»^(٣).

فَمَنْ لَا يَقِفُ عِنْدَ زَخْرِفِ الدُّنْيَا وَزَيْتِنِهَا الْمَرْوَقَةِ وَذَهَبِهَا الْبَرَّاقِ، وَلَا يُؤْثِرُ فِيهِ زَبْرَجَهَا وَلَمَعَانَهَا وَحَسَنَهَا، سَيَتَجَاوَزُ أَصْعَبَ عَقْبَةِ كَوْوِدٍ يَمُرُّ بِهَا بَعْدَ صَفَاءِ قَلْبِهِ وَسَلَامَةِ فِكْرِهِ وَعَقِيدَتِهِ.

ولذا كان هذا الامتحان من بين أصعب امتحانات البشرية من عالم الإشهاد إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.
والزخرف الزينة المرزوقة.

(١) نهج البلاغة (ص ٤٤٦ / ح ٥٥).

(٢) معاني الأخبار (ص ٢٥٢ / باب معنى الزهد / ح ٤).

(٣) الكافي (ج ٢ / ص ١٢٩ / باب ذم الدنيا والزهد فيها / ح ٦).

النقطة الثانية: عالم الذرّ:

تحدّث هذه الفقرة أيضاً عن عالم المشاركة مع الله سبحانه وتعالى، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (الأعراف: ١٧٢)، فهناك حيث محمّد وآل محمّد وعالم الأنوار، ذلك العالم الذي صار النور الإلهي المفاض على أهل البيت عليهم السلام مصدراً للفيض الربّاني.

تُرشدنا هذه الفقرة إلى تلك المشاركة التي ينبغي الإيمان بها، وأنّ ما ناله محمّد صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام وكذا غيرهم من الرُّسل والأنبياء عليهم السلام والعلماء والأولياء والصلحاء - كلّ حسب سعته الوجوديّة وقابليّاته في العلم والعمل - إنّما هو نتيجة لتلك المشاركة بالتنازل عن هذه الدنيا من أجل الدّين وهداية الناس، وأنّ ما عندهم من فضائل وكرامات راجع إلى ذلك العالم وتلك المشاركة. وفي الروايات الشريفة حديث مفصّل ومتعدّد الجوانب عن هذا العالم، بل وغيره.

النقطة الثالثة: علم الله تعالى:

يُحدّثنا هذا المقطع عن علم الله سبحانه وتعالى الشامل لكلّ شيء، وأنّ الله سبحانه وتعالى عالم بكلّ شيء ومحيطٌ به، ولأجل كونه سبحانه وتعالى خالقاً ومحيطاً بكلّ مخلوق فهو يعلم به قبل إيجاده، ومع وجوده في هذا العالم، وبعد انتقاله إلى عوالم أُخرى، فهو سبحانه وتعالى عالم بكلّ الأشياء ماضيّها وحاضرّها ومستقبلها. ومن هذا العلم علمه سبحانه وتعالى بما سيصدر من الإنسان من أقوال وأفعال، ولا ينافي هذا العلم - المسبق بما سيحصل للإنسان - حرّيّة هذا

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٦١

الإنسان واختياره في القيام بما ينبغي القيام به، على ما تقدم في المقطع المتقدم من أن مشيئة الله سبحانه وتعالى اقتضت أن يخلق الإنسان في هذه الدنيا بقيد أنه مختار بلا تفويض ولا جبر، فخلقة الإنسان عبارة عن وجود من ذاتياته الاختيار، فليس هو موجوداً مجبراً ومسلوب الإرادة والاختيار في هذه الدنيا.

وقد روي في هذا المعنى عن مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى جَمِيعاً رَفَعَاهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَنْهَضَ النَّاسَ فِي حَرْبِ مُعَاوِيَةَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، فَلَمَّا حَشَدَ النَّاسَ قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الْمُتَفَرِّدِ الَّذِي لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ وَلَا مِنْ شَيْءٍ خَلَقَ مَا كَانَ...، ابْتَدَعَ مَا خَلَقَ بِلَا مِثَالٍ سَبَقَ وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَكُلُّ صَانِعِ شَيْءٍ فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ وَاللَّهُ لَا مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ مَا خَلَقَ، وَكُلُّ عَالِمٍ فَمِنْ بَعْدِ جَهْلٍ تَعَلَّمَ وَاللَّهُ لَمْ يَجْهَلْ وَلَمْ يَتَعَلَّمْ، أَحَاطَ بِالْأَشْيَاءِ عِلْماً قَبْلَ كَوْنِهَا، فَلَمْ يَزِدْ بِكَوْنِهَا عِلْماً، عِلْمُهُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يُكَوَّنَهَا كَعِلْمِهِ بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَمْ يُكَوَّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا خَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَلَا نُقْصَانٍ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى ضِدِّ مُنَاوٍ وَلَا نِدِّ مُكَائِرٍ وَلَا شَرِيكِ مُكَابِرٍ، لَكِنْ خَلَاتِقٌ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ، فَسُبْحَانَ الَّذِي لَا يُؤْوِدُهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلَا تَدْبِيرُ مَا بَرَأ...»^(١).

فالمقطع النبوي يتحدث عن بيان لوحة فريدة تنقلنا من هذه الدنيا إلى العوالم التي سبقتها، ويصور الحوار الذي دار بين رب العزة والجلالة وبين أوليائه وأنبيائه وأهل بيت النبي ﷺ خاصة عن الدنيا وما فيها، وكيف أنهم ﷺ رفضوها بكلها من أجل دين الله تعالى وهداية الناس.

* * *

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٣٤ و ١٣٥ / باب جوامع التوحيد / ح ١).

الفقرة الرابعة

﴿فَقَبِلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ، وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ الْعَلِيِّ وَالشَّاءَ الْجَلِيَّ﴾.

تتحدث هذه الفقرة عن نتائج تلك المشاركة وما ترتب عليها، ونجعله ضمن النقاط الآتية:

النقطة الأولى: قبول المشاركة وثبوت الوفاء من أهل البيت عليهم السلام والتقديم من الله تعالى:

هذه الفقرة تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى قبل من أهل البيت عليهم السلام، والأنبياء المشاركة، بل من كل من يسير على نهجها من العلماء والأولياء، ومعنى قبوله ﷻ وتقريبه لهم أنه تعالى قبل أفعالهم وأقوالهم، وصنعهم بصنعه على حد قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ^(٣٩)﴾ (طه: ٣٩).

فكل ما عند المعصوم عليه السلام المصنوع بعين الله تعالى هو بالوحي الذي يوحيه الله تعالى إليه وبروح القدس الذي يسدده، وقد ورد في هذا المعنى - أي في قبولهم وقربهم - عدة روايات، منها:

* في (مصباح المتهجد) بسنده: «وَأَنْتَ الْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِمْ حَيْثُ قَرَّبْتَهُمْ مِنْ مَلَكُوتِكَ، وَاخْتَصَصْتَهُمْ بِسِرِّكَ، وَاصْطَفَيْتَهُمْ لِوَحْيِكَ، وَأَوْرَثْتَهُمْ غَوَامِضَ تَأْوِيلِكَ، رَحْمَةً بِخَلْقِكَ، وَلُطْفًا بِعِبَادِكَ، وَحَنَانًا عَلَى بَرِيَّتِكَ، وَعِلْمًا بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُ أَمْنَائِكَ، وَمَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِ صَفْوَتِكَ، وَطَهَّرْتَهُمْ فِي مَنْشئِهِمْ وَمُبْتَدئِهِمْ...»^(١).

* وفي كتاب (سليم بن قيس): عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عليه السلام فِي

(١) مصباح المتهجد (ص ٧٦٦).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٦٣
 قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠
 و ١١]، قَالَ: «إِنِّي أَسْبَقُ السَّابِقِينَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، وَأَقْرَبُ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى
 رَسُولِهِ»^(١).

* وفي (تفسير القمّي)، قَالَ: (أَشْرَفُ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَأْتِيهِمْ فِي عَالِي
 تَسْنِيمٍ، وَهِيَ عَيْنٌ يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾) [المطففين: ٢٨]، وَالْمُقَرَّبُونَ أَلُّ
 مُحَمَّدٍ ﷺ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾
 [الواقعة: ١٠ و ١١]، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَدِيجَةُ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَذُرِّيَّتُهُمْ
 تَلْحَقُ بِهِمْ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]، وَالْمُقَرَّبُونَ يُشْرَبُونَ
 مِنْ تَسْنِيمٍ بَحْتًا صَرَفًا، وَسَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ مَمْرُوجًا^(٢).

وينبغي أن يلتفت إلى أن قبوله سبحانه له مراتب، قال تعالى: ﴿انظُرْ
 كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣١﴾﴾
 (الإسراء: ٢١)، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
 (البقرة: ٢٥٣).

وقبوله (عزَّ اسمه) لأهل البيت عليهم السلام قبولاً بأعلى مرتبة، ويمكن لنا أن
 نصيغ هذا القبول دليلاً على عصمتهم، لأن قبوله لهم قبول مطلق، وهو ما يعني
 قبول كل ما يصدر عنهم، وليس ذلك إلا معنى العصمة، ومما يشهد للأمر
 بطاعتهم عدّة نصوص، منها:

* في (الكافي) عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ
 حَرِيزِ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «ذُرْوَةُ الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ
 وَبَابُ الْأَشْيَاءِ وَرِضَا الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الطَّاعَةُ لِلْإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ»، ثُمَّ قَالَ:

(١) كتاب سليم بن قيس (ص ٤٥٦ / ح ٧٤).

(٢) تفسير القمّي (ج ٢ / ص ٤١١ و ٤١٢).

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]»^(١).

النقطة الثانية: أقرب المقرَّبين:

لقد قرَّب الله تعالى نبيَّه الكريم ﷺ بأعلى درجات القرب منه بما لم يحصل لأيِّ مخلوقٍ من مخلوقاته (عزَّ اسمه)، قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ (النجم: ٨ و ٩).

وجاء في تفسيره وتأويله عدَّة روايات، منها:

* في (تفسير القمِّي) عَنْ أَبِي أَحْسَنِ الرِّضَا عليه السلام، قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا صَاحِبَ مِرَّةٍ سَوْدَاءَ صَافِيَةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾﴾ يَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ يَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ عليه السلام، ﴿فَتَدَلَّى ﴿٨﴾﴾، قَالَ: «إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾»، قَالَ: «كَانَ مِنَ اللَّهِ كَمَا بَيْنَ مِقْبَضِ الْقَوْسِ إِلَى رَأْسِ السِّيَةِ^(٢)، ﴿أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ أَيُّ مِنْ نِعْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ»، قَالَ: «بَلْ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٧ - ١٠]»، قَالَ: «وَوَحِيَ مُشَافَهَةً»^(٣).

* وفيه بسنده عن الحسين بن العباس، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿مَا صَلَّى صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾﴾، يَقُولُ: «مَا صَلَّى فِي عَلِيٍّ عليه السلام وَمَا غَوَى، ﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ فِيهِ ﴿عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٢ و ٣]، وَمَا كَانَ مَا قَالَ فِيهِ إِلَّا بِالْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهِ»^(٤).

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٨٥ و ١٨٦ / باب فرض طاعة الأئمة عليهم السلام / ح ١).

(٢) السية أي سية القوس، وما عطف من طرفه.

(٣) تفسير القمِّي (ج ٢ / ص ٣٣٤).

(٤) المصدر السابق.

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٦٥

النقطة الثالثة: الذكر العليُّ والثناء الجليُّ:

مما ترتَّب على تلك المشاركة أنَّ الله سبحانه وتعالى قدَّم لأوليائه وأنبيائه ولأهل البيت عليهم السلام الذكر العلي والثناء الجلي في أعلى مراتبه، ويمكن لغيرهم إذا التزم بالمشاركة أن يحصل على مرتبة من مراتب هذا الذكر والثناء بمقدار سعيه وإخلاصه وعمله، فمن يزهد في هذه الدنيا مشارطاً الله سبحانه بذلك فإنه لا محالة يترتَّب على ذلك بقاء الذكر والثناء من قبل الله تعالى.

ولا بأس بالإشارة إلى عدَّة فوائد مستفادة مما تقدَّم:

١ - أنَّ للقبول أنواعاً وأصنافاً مختلفة، كالقبول العبادي والقبول الأخلاقي والقبول الاجتماعي، وعلى الإنسان السعي في أن يكون مقبولاً في كلِّ الميادين عند الله تعالى كما كان أهل البيت عليهم السلام مقبولين عنده كذلك، وكذلك يأتي الكلام في القرب.

٢ - وأنَّ الذكر والثناء منه ما هو قولي، ومنه ما هو عملي، فلا بدَّ من الالتفات لذلك.

* * *

الفقرة الخامسة

«وَأَهْبَطَتْ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتِكَ، وَكَرَّمْتَهُمْ بِوَحْيِكَ».

هذه الفقرة متَّصلة بالسابقة عليها، ومن الآثار المترتِّبة على قضية المشاركة بين الله سبحانه وبين الأولياء والأنبياء وأهل البيت عليهم السلام، والكلام في نقاط:

النقطة الأولى: الملائكة وجودهم وحقيقة معاناهم:

الملائكة موجودات جعلها الله تعالى الكثير منها وسائط بينه وبين العالم المشهود ووكلمهم بأمر العالم التكوينية والتشريعية^(١).

ولذا أطلق القرآن الكريم وصف الرُّسُل عليهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام: ٦١).

قال العلامة المجلسي رحمته الله: (اعلم أنه أجمعت الإمامية، بل جميع المسلمين إلا مَنْ شذَّ منهم من المتفلسفين الذين أدخلوا أنفسهم بين المسلمين لتخريب أصولهم وتضييع عقائدهم على وجود الملائكة، وأنهم أجسام لطيفة نورانية أولى أجنحة مثلى وثلاث ورباع وأكثر، قادرون على التشكُّل بالأشكال المختلفة، وأنه سبحانه يورد عليهم بقدرته ما يشاء من الأشكال والصور على حسب الحكم والمصالح، ولهم حركات صعوداً وهبوطاً، وكانوا يراهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام. والقول بتجردهم وتأويلهم بالعقول والنفوس الفلكية والقوى والطباع وتأويل الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة تعويلاً على شُبُهات واهية واستبعادات وهمية زيغ عن سبيل الهدى، واتباع لأهل الجهل والعمى)^(٢).

النقطة الثانية: ما هي أدوارهم، وأصنافهم؟

نعلم بمقتضى ظواهر جملة من الآيات والروايات، أن وظائف الملائكة متعدّدة، من قبيل قبض الأرواح، والتصرُّف في بعض موجودات الكون بإذن الله تعالى، وإنزال الشرائع على الرُّسُل، وغيرها. في (نهج البلاغة) يُصنّف أمير المؤمنين عليه السلام الملائكة إلى عدّة أصناف بعد

(١) راجع: تفسير الميزان (ج ١٧ / ص ١٢).

(٢) بحار الأنوار (ج ٥٦ / ص ٢٠٢ و ٢٠٣).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٦٧

أن يذكر عدة خصائص وحالات يمتازون بها، حيث قال ﷺ: «ثُمَّ فَتَقَّ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَارًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ، مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَضِبُونَ، وَصَافُونَ لَا يَنْزَابِلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمٌ أَلْعْيُونَ، وَلَا سَهُوُ الْعُقُولِ، وَلَا فِتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَلَا غَفْلَةُ النَّسْيَانِ، وَمِنْهُمْ أَمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَالسِّبْغَةُ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمْ الْحَفِظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ، وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِ فِي السَّفَلِ أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَالخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفَعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مُضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ، وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ، لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، وَلَا يُحَدِّثُونَ بِالْأَمَاكِينِ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ»^(١).

وعن اختلاف وظائفهم وتعدد مهامهم ذكرت العديد من الآيات القرآنية

ذلك^(٢):

١ - حملة العرش، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

ثَمَانِيَةَ ﴿٧٧﴾﴾ (الحاقة: ١٧).

٢ - الحافون حول العرش، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِقِينَ مِنْ

حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الزمر: ٧٥).

٣ - النزول بالوحي، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾

(الشعراء: ١٩٣).

٤ - الإرسال، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ

(١) نهج البلاغة (ص ٤١ و ٤٢ / الخطبة ١).

(٢) راجع: بحار الأنوار (ج ٥٦ / ص ٢٠٦ وما بعدها).

الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ (فاطر: ١).

٥ - التوكيل ببني آدم، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق: ١٧ و ١٨).

٦ - التدبير، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ (النازعات: ٥).

وعن علّة توكيلهم بالناس جاءت عدّة روايات، منها ما روي عن هشام ابن الحَكَم، قَالَ: سَأَلَ الزُّنْدِيقُ [فِيهَا سَأَلَ] أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَا عَلَّةُ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِعِبَادِهِ يَكْتُبُونَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ، وَاللَّهُ عَالِمُ السِّرِّ وَمَا هُوَ أَخْفَى؟ قَالَ: «اسْتَعْبَدَهُمْ بِذَلِكَ، وَجَعَلَهُمْ شُهُودًا عَلَى خَلْقِهِ، لِيَكُونَ الْعِبَادُ لِمَلَازِمَتِهِمْ إِيَّاهُمْ أَشَدَّ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ مُوَاطَبَةً، أَوْ عَنِ مَعْصِيَتِهِ أَشَدَّ انْقِبَاضًا، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ يَهُمُّ بِمَعْصِيَةِ فَذَكَرَ مَكَانَهَا فَارْعَوَى وَكَفَّ، فَيَقُولُ: رَبِّي يَرَانِي، وَحَفَظْتِي عَلَيَّ بِذَلِكَ تَشَهُدُ. وَإِنَّ اللَّهَ بِرَأْفَتِهِ وَلُطْفِهِ أَيْضًا وَكَلَّهُمْ بِعِبَادِهِ يَدُبُّونَ عَنْهُمْ مَرَدَّةَ الشَّيَاطِينِ وَهَوَامِّ الْأَرْضِ وَأَفَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَرُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ، إِلَى أَنْ يَجِيءَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وفي رعايتهم لنا ودفعة المكاره عنّا يقول الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١): «بِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي رَكْبِي، أَوْ يَقَعَ عَلَيْهِ حَائِطٌ، أَوْ يُصِيبُهُ شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَدْرُ خَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَدْفَعُونَهُ إِلَى الْمَقَادِيرِ، وَهُمَا مَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ بِاللَّيْلِ، وَمَلَكَانِ بِالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِهِ»^(٢).

(١) بحار الأنوار (ج ٥٦ / ص ١٧٩ / ح ١٥)، عن الاحتجاج (ج ٢ / ص ٩٥).

(٢) تفسير القمّي (ج ١ / ص ٣٦٠).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٦٩

النقطة الثالثة: هل ينزلون على غير الأنبياء^(١)؟

تقدّم في تسميتهم عدم اختصاص وظائفهم بالنزول على الأنبياء ﷺ، فإنّ الإيحاء لم يقتصر على الأنبياء والمرسلين ﷺ، فقد أوحى الله تعالى إلى:

* مريم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

* سارة زوجة خليل الرحمن ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧٦) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَنَّى وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿٧٨﴾ (هود: ٧٠ - ٧٣).

ومّا جاء من الروايات في نزول الملائكة على أهل البيت ﷺ الكثير حتّى أنّ الشيخ الكليني رحمته الله بوّب في (الكافي) باباً تحت عنوان: (أنّ الأئمة عليهم السلام تدخل الملائكة بيوتهم وتطأ بسطهم وتأتيهم بالأخبار)، ومّا رواه فيه بسنده عن مسّمع كِرْدِينِ البَصْرِيِّ، قَالَ: كُنْتُ لَا أَزِيدُ عَلَى أَكْلَةٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَرَبَّمَا اسْتَأْذَنْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ وَأَجِدُ الْمَائِدَةَ قَدْ رُفِعَتْ لَعَلِّي لَا أَرَاهَا بَيْنَ يَدَيْهِ،

(١) لم تقف دعوى نزول الملائكة على الكُمَّل من الناس ومن نصّ عليهم القرآن الكريم عند بعض الفرق، بل ادّعوا نزولهم على بعض الأفراد العاديين، فقد ورد عندهم نزول الملائكة على عمران ابن الحصين الخزاعي المتوفّي سنة (٥٢هـ)، إذ قالوا: (كان يسمع تسليم الملائكة عليه حتّى اكتبوا بالنار فلم يسمعهم عاماً ثمّ أكرمه الله برّد ذلك). شذرات الذهب (ج ١ / ص ٥٨).

ومنهم أبو المعالي الصالح، المتوفّي سنة (٤٢٧هـ)، ذكروا أنّه كلمته الملائكة في صورة طائر. راجع: المنتظم في تاريخ الأمم (ج ١٧ / ص ٨٢ / الرقم ٣٧٣٤)، وغيرهما.

ولسنا في مقام إحصاء من ذكروا نزول الملائكة عليه، ولكن لِمَا يصل الأمر إلى آل محمّد ﷺ تتيسّر قلوبهم وتتخشّب عقولهم ولا تقبل بما أثبتته الله تعالى لهم من الفضل، بل الفضل للملائكة أن تتشرف بهم كما في الأخبار الآتية.

فَإِذَا دَخَلْتُ دَعَا بِهَا فَأَصِيبَ مَعَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَلَا أَتَأَذَى بِذَلِكَ، وَإِذَا عَقَّبْتُ بِالطَّعَامِ عِنْدَ غَيْرِهِ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أَقِرَّ وَلَمْ أَنْمَ مِنَ النَّفْخَةِ، فَشَكَوْتُ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَأَخْبَرْتُهُ بِأَنِّي إِذَا أَكَلْتُ عِنْدَهُ لَمْ أَتَأَذَّ بِهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا سَيَّارٍ، إِنَّكَ تَأْكُلُ طَعَامَ قَوْمٍ صَالِحِينَ تُصَافِحُهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِهِمْ»، قَالَ: قُلْتُ: وَيَظْهَرُونَ لَكُمْ؟ قَالَ: فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى بَعْضِ صَبِيَانِهِ، فَقَالَ: «هُمُ الْطَفُفُ بِصَبِيَانِنَا مِنَّا بِهِمْ»^(١).

النقطة الرابعة: محلُّ الملائكة من الأنبياء والأولياء عليهم السلام:

إنَّ الله سبحانه وتعالى بعد أن علم أنبياءه وأولياءه عليهم السلام وفاءهم له بالزهد في جميع درجات هذه الدنيا كَرَّمَهُمْ بأن جعل محالهم مهبطاً لجميع الملائكة، بل وتخدمهم، وما ورد في هذا المعنى من الروايات:

* في (إرشاد القلوب): عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [ﷺ] يَقُولُ: «افْتَخَرَ إِسْرَافِيلُ عَلَى جِبْرَائِيلَ، فَقَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ، قَالَ: وَلِمَ أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي؟ قَالَ: لِأَنِّي صَاحِبُ الثَّمَانِيَةِ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، وَأَنَا صَاحِبُ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ، وَأَنَا أَقْرَبُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، قَالَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام: أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَالَ: بِمَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي؟ قَالَ: لِأَنِّي أَمِينُ اللَّهِ ﷻ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَنَا رَسُولُهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَأَنَا صَاحِبُ الْكُصُوفِ وَالْحُسُوفِ، وَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ ﷻ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ إِلَّا عَلَى يَدَيَّ، فَاخْتَصَمَا إِلَى اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا)، فَأَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِمَا أَنْ أُسْكِنَا فَوْعِزَّتِي وَجَلَالِي لَقَدْ خَلَقْتُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمَا، قَالَا: يَا رَبِّ، أَوْ تَخَلَّقْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنَّا وَنَحْنُ خُلِقْنَا مِنْ نُورِ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ اللَّهُ ﷻ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: نَعَمْ، وَأَوْمَأَ إِلَى الْقُدْرَةِ أَنْ أَنْكَشِفِي، فَاَنْكَشَفْتُ فَإِذَا عَلَى سَاقِ الْعَرْشِ الْأَيْمَنِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةٌ وَالْحُسَيْنُ وَالْحُسَيْنُ عليهم السلام أَحِبَّاءُ اللَّهِ، فَقَالَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام: يَا

(١) الكافي (ج ١ / ص ٣٩٣ / باب أن الأئمة عليهم السلام تدخل الملائكة بيوتهم... / ح ١).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٧١

رَبِّ، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّهِمْ عَلَيْكَ إِلَّا جَعَلْتَنِي خَادِمَهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: قَدْ فَعَلْتُ، فَجَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ لَخَادِمُنَا»^(١).

* وفي (تفسير القمّي) بسنده عن حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سُئِلَ: هَلِ الْمَلَائِكَةُ أَكْثَرُ أَمْ بَنُو آدَمَ؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَعَدَدُ مَلَائِكَةِ اللَّهِ فِي السَّمَاوَاتِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ التُّرَابِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وَفِيهَا مَلَكٌ يُسَبِّحُهُ وَيُقَدِّسُهُ، وَلَا فِي الْأَرْضِ شَجَرَةٌ وَلَا مَدْرٌ إِلَّا وَفِيهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهَا يَأْتِي اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ بِعَمَلِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا، وَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَيَتَقَرَّبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى اللَّهِ بِوَلَايَتِنَا أَهْلِ الْبَيْتِ، وَيَسْتَغْفِرُ لِحَيِّينَا، وَيَلْعَنُ أَعْدَاءَنَا، وَيَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ إِرْسَالًا»^(٢).

* * *

الفقرة السادسة

«وَرَفَدْتُهُمْ بِعِلْمِكَ، وَجَعَلْتُهُمُ الذَّرِيعَةَ إِلَيْكَ، وَالْوَسِيلَةَ إِلَيَّ
رِضْوَانِكَ».

والبحث عنها في عدة نقاط:

النقطة الأولى: الرفد بالعلم:

من نتائج المشاركة المتقدمة الحديث عن علوم الأنبياء والأولياء وأهل البيت عليهم السلام، وسعتها وعظمتها لا يستوعبه هذا المختصر، ولكن ما يمكن أن

(١) إرشاد القلوب (ج ٢ / ص ٤٠٣ و ٤٠٤).

(٢) تفسير القمّي (ج ٢ / ص ٢٥٥).

يقال: إنَّ العلوم التي عندهم من حيث التنوع عديدة، فعندهم العلم الحاصل من الوحي، وعند بعضهم بعض علم الكتاب، بل عند أهل البيت عليه السلام علم الكتاب، وعند أهل البيت عليه السلام خاصَّة العلم الذي علَّمهم رسول الله ﷺ، وما يتداولونه ويتوارثونه بينهم، وقد أفردت أغلب كُتُب الحديث التي دوَّنت خصائصهم عدَّة طوائف تتحدَّث عن أصناف علومهم وسعتها، وسيأتي التعرُّض لبعضها في طيَّات هذا الشرح بحسب المواضع المناسبة.

النقطة الثانية: «وجعلتهم الذريعة إليك»:

الذريعة ما يُستند إليها كالحجَّة والوسيلة، يقال: حجَّتي وذريعتي إلى الرئيس، والذرائع الأسباب والوسائل، فهي بمعنى الوسيلة والعدر والحجَّة وما يُستتر به والسبب إلى الشيء، وجمعها: ذرائع^(١).

وفي (الصحيفة السجَّادية)، قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَيَّدْتَ دِينَكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ بِإِمَامٍ أَقَمْتَهُ عِلْمًا لِعِبَادِكَ، وَمَنَارًا فِي بِلَادِكَ، بَعْدَ أَنْ وَصَلْتَ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ، وَجَعَلْتَهُ الذَّرِيعَةَ إِلَى رِضْوَانِكَ، وَافْتَرَضْتَ طَاعَتَهُ، وَحَدَّرْتَ مَعْصِيَتَهُ، وَأَمَرْتَ بِإِمْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَالْإِنْتِهَاءِ عِنْدَ نَهْيِهِ، وَأَنْ لَا يَتَقَدَّمَ مُتَقَدِّمًا، وَلَا يَتَأَخَّرَ عَنْهُ مُتَأَخِّرًا، فَهُوَ عِصْمَةُ اللَّائِذِينَ، وَكَهْفُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعُرْوَةُ الْمُتَمَسِّكِينَ، وَبِهَاءُ الْعَالَمِينَ»^(٢).

وهذا المقطع الشريف يكشف عن عظيم مقام الأولياء من أهل البيت عليه السلام والأنبياء عليه السلام ممَّن لهم هذا المقام في عالم التأثير والتكوين، وأنَّ بهم عليه السلام تُقضى

(١) في عدَّة مصادر لغويَّة، منها: الإفصاح في فقه اللغة (ج ٢ / ص ١٢٩٠): (الذريعة: الذريعة والذريعة: الوسيلة والسبب إلى الشيء، يقال: فلان ذريعتي إليك أي سببي ووصلتي الذي أتسبب به إليك، ذرع له عنده يذرع ذُرْعًا وَذُرْعًا: شفع. والذريع: الشفيع. وتذرع إليه بذريعة: توَسَّلَ بها).

(٢) الصحيفة السجَّادية (ص ٣٢٢ و٣٢٣ / دعاؤه عليه السلام في يوم عرفة).

الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٧٣

جميع الحاجات، نعم مقتضى وجودنا في عالم الدنيا ومحدودية إدراكنا لمصالحنا قد يخفى علينا كيفية قضاءهم لحاجتنا وتلبية طلبنا من قبلهم ﷺ .

فكون الولي أو النبي أو الإمام ذريعة إلى رضوان الله تعالى ووسيلة لتحقيق ذلك مما لا ينبغي أن يعتريه الشك والتوقف.

النقطة الثالثة: الوسيلة إلى الرضوان:

عقيدتنا بالأولياء من الأنبياء وأهل البيت ﷺ نابعة من عمق إيماننا بأن ما نقوم به جاء به القرآن الكريم وما صحّ عن النبي ﷺ وآله الأَطهار ﷺ في هذه العقيدة الحقّة، فقد وردت العديد من الآيات الكريمة والروايات الشريفة في بيان معنى التوسّل ومتعلقاته، ونذبت الناس إليه، ومما جاء في ذلك:

* قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا ﴿٥٧﴾ (الإسراء: ٥٧).

* وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ (النساء: ٦٤).

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ (المائدة: ٣٥)، والآية مطلقة من جهة مصاديق ما يصحّ التوسّل به، فكل ما يمكن أن يتوسّل به إلى الله تعالى ينبغي أن يتبغى ويتخذ وسيلة، إلا إذا دلّ دليل خاصّ على منع فرد من أفرادها ومصاديق من مصاديقها.

وقد ذكرت العديد من النصوص والروايات عدّة موارد ومصاديق للتوسّل، ومنها:

* في (نهج البلاغة): ﴿إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةٌ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةٌ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمَلَّةُ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِبَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الدَّنْبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ، وَصَدَقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تُكْفِرُ الْخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهُوَانِ، أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ، وَارْغَبُوا فِيهَا وَعَدَّ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَاقْتَدُوا بِهِدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهُدْيِ، وَاسْتَنْتُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ»^(١).

* وفي (الكافي) بسنده عن علي بن سويد، قال: كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتاباً أسأله عن حاله وعن مسائل كثيرة، فاحتبس الجواب علي أشهراً، ثم أجابني بجواب هذه نسختها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي بَعَّظَمْتِهِ وَنُورِهِ أَبْصَرَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِعَظَمْتِهِ وَنُورِهِ عَادَاهُ الْجَاهِلُونَ، وَبِعَظَمْتِهِ وَنُورِهِ ابْتَغَى مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ بِالْأَعْمَالِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَدْيَانِ الْمُتَضَادَّةِ، فَمُصِيبٌ وَمُحْطَىٌّ وَضَالٌّ وَمُهْتَدٍ وَسَمِيعٌ وَأَصَمٌّ وَبَصِيرٌ وَأَعْمَى...»^(٢).

ومما ورد في كون أجلي وأبرز مصاديق ما يتوسل به إلى الله تعالى هم الأنبياء والأولياء وأهل البيت عليهم السلام عدّة روايات منها:

* وفي (مناقب آل أبي طالب): قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «فَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ، أَنَا وَسَيْلَتُهُ...»^(٣).

(١) نهج البلاغة (ص ١٦٣ / الخطبة ١١٠).

(٢) الكافي (ج ٨ / ص ١٢٤ / ح ٩٥).

(٣) مناقب آل أبي طالب (ج ٢ / ص ٢٧٣).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٧٥

* وفي (عيون أخبار الرضا عليه السلام) بإسناده، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْأَيُّمَةُ مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، مَنْ أَطَاعَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَاهُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ﷻ، هُمْ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَهُمْ الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ ﷻ»^(١).

* وفي (دلائل الإمامة) بسنده عن زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام، قَالُوا: «لَمَّا بَلَغَ فَاطِمَةُ عليها السلام إِجْمَاعَ أَبِي بَكْرٍ عَلَى مَنْعِهَا فَذَكَ، وَانصَرَفَ عَامِلُهَا مِنْهَا، لَأْتَتْ خِمَارَهَا، ثُمَّ أَقْبَلَتْ فِي لُحْمَةٍ مِنْ حَفَدَتَيْهَا وَنَسَاءِ قَوْمِهَا، تَطَأُ ذُيُوهَا، مَا تَخْرِمُ مَشِيَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ حَفَلَّ حَوْلَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَنِيطَتْ دُونَهَا مِلاَةً، ثُمَّ أَنْتَ أَنْتَ أَجْهَشَ لَهَا الْقَوْمُ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ أُمِهَلَتْ حَتَّى هَدَّاتُ فُورَتِهِمْ، وَسَكَنْتُ رُوعَتُهُمْ، وَافْتَتَحَتِ الْكَلَامَ، فَقَالَتْ: ... بِعِظَمَتِهِ وَنُورِهِ ابْتَغَى مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ، فَنَحْنُ وَسِيلَتُهُ فِي خَلْقِهِ، وَنَحْنُ أَلْ رَسُولِهِ، وَنَحْنُ حُجَّةُ عَيْنِهِ، وَوَرَثَةُ أَنْبِيَائِهِ...»^(٢).

هذه الأحاديث العالية المضامين تكشف بوضوح أن عقيدتنا في جعل أهل البيت عليهم السلام واسطة ووسيلة لم تكن لبدعة ابتداعها أتباعهم وشيعتهم، وإنما كان ذلك أتباعاً لمنهج رسمه لهم الأولياء والصلحاء والأنبياء عليهم السلام على طول الخط.

* * *

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ٢ / ص ٦٣ / باب ٣١ / ح ٢١٧).

(٢) دلائل الإمامة (ص ١٠٩ - ١١٤ / ح ٣٦ / ٣٦).

المبحث الثاني:

خصائص الأنبياء عليهم السلام

ممن ذكروا في الدعاء

الفقرة السابعة

«بَعْضُ أَسْكَنْتَهُ جَنَّكَ إِلَى أَنْ أَخْرَجْتَهُ مِنْهَا، وَبَعْضُ حَمَلْتَهُ فِي فُلِكَ وَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنَ الْهَلَكَةِ بِرَحْمَتِكَ، وَبَعْضُ اخْتَذَتْهُ لِنَفْسِكَ خَلِيلًا، وَسَأَلَكَ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ فَأَجَبْتَهُ، وَجَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِيًّا، وَبَعْضُ كَلَّمْتَهُ مِنْ شَجَرَةٍ تَكَلِيمًا، وَجَعَلْتَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ رِذَاءً وَوَزِيرًا، وَبَعْضُ أَوْلَدْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي، وَآتَيْتَهُ الْبَيِّنَاتِ، وَآيَدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

تتضمن هذه الفقرة نقاط:

النقطة الأولى: إشارات تاريخية إلى أهم خصائص ومقامات الأنبياء عليهم السلام:

يشير المقطع إلى أن الأدوار المختلفة، للأنبياء والأولياء عليهم السلام، فكل نبي من الأنبياء عليهم السلام له دور محدد.

ولأجل أن نقف ونعرف دور كل واحد منهم علينا أن نلاحظ تلك الخصوصيات وما ذكرته الروايات عن ذلك، وما ذكر فيها من تفاصيل الآتي:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... وَاصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ، أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهَلُوا حَقَّهُ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِيثَاقَ

فَطَرْتَهُ، وَيَذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِم بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ...، وَلَمْ يُجَلِّ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيِّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قَلَّةَ عَدَدِهِمْ، وَلَا كَثْرَةَ الْمَكْذِبِينَ لَهُمْ، مِنْ سَابِقِ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرِ عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ، عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الْأَبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاؤُا إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ ﷺ، لِإِنجَازِ عِدَّتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ، مَاخُوذًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُ، مَشْهُورَةً سَمَاتُهُ، كَرِيمًا مِيلَادُهُ...»^(١).

فتبليغ الرسالة - بعد أخذ الميثاق -، وكذا تذكير الناس بميثاق الفطرة وما نسوه من نعم الباري ﷻ، وإثارة دفاين العقول بالحجج التامة الصحيحة، من أهم أدوار الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

قصة آدم عليه السلام:

قصة آدم عليه السلام من القصص التي اكتنفها الغموض، وأدخلت فيها الأديان المحرّفة الكثير مما لا معنى له، ولأجل أن تؤخذ من معينها لا بدّ من أخذها عن طريق القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام المعتبرة، فلا سبيل لنا لمعرفة الكثير من التفاصيل المشوّقة والأسئلة الشائكة حول قصة آدم عليه السلام إلا من خلالهم عليهم السلام، ومما ورد في قصته عليه السلام:

كيفية خلقه عليه السلام:

ورد فيها العديد من الآيات والروايات، ومنها:

* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ

(١) نهج البلاغة (ص ٤٣ و ٤٤ / الخطبة ١).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٨١

لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ (البقرة: ٣٠ - ٣٣).

والآية تتحدث عن إيجاد آدم ﷺ وخلق، وما جرى في ذلك العالم، وعن علمه ومقامه.

ومن التفاصيل التي تعرّض لها الكتاب العزيز عنه ﷺ الآتي:

* قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ (البقرة: ٣٥ - ٣٨).

* وفي (نهج البلاغة): «... ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزَنِ الْأَرْضِ وَسَهْلَهَا، وَعَذِيبَهَا وَسَبْخِهَا، تُرْبَةً سَنَهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلَا طَهًا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزِبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ ذَاتِ أَحْنَاءٍ وَوُضُولٍ وَأَعْضَاءٍ، وَفُضُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَصَلَتْ لَوْقَتِ مَعْدُودٍ وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ، فَمَثَلَتْ إِنْسَانًا ذَا أَدْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفَكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحٍ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدْوَاتٍ يَقْلِبُهَا، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْأَذْوَابِ وَالْمَشَامِّ وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ...، ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَارًا أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشُهُ، وَأَمَنَ فِيهَا مَحَلَّتُهُ، وَحَدَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَأَعْتَرَهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمَقَامِ، وَمُرَافِقَةَ الْأَبْرَارِ،

فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبَدَلَ بِالْجَدَلِ وَجَلًّا، وَبِالْإِغْتِرَارِ نَدْمًا، ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةً رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَتَنَاسَلَ الدُّرِّيَّةَ...»^(١).

وهذا المقطع من (نهج البلاغة) يتحدث عن تفاصيل لا يسع الإنسان معرفتها لو لا إفاضة أمير المؤمنين عليه السلام لها، ولاحظ بديع ما نسجته كلماته عليه السلام وكأنتها لوحة فنية غاية في الجمال والإبداع والنسق عن قصة الخلق، التي صارت مثار الإشكال في هذه الأعصار - كما كانت - بوتيرة متصاعدة.

أين جنة آدم عليه السلام التي خرج منها؟

وقع كلام في موقع الجنة التي خرج منها آدم عليه السلام، وهذه المسألة ليست مما يُلتمَس معرفتها إلا بواسطة الغيب والسؤال من أهل البيت عليهم السلام، ولذلك نجد جملة من الأصحاب كانوا يسألون عن هكذا مسائل من الأئمة عليهم السلام، وفي هذا بالخصوص حيث سُئِلَ الْإِمَامُ الْصَّادِقُ عليه السلام عَنْ جَنَّةِ آدَمَ مِنْ جَنَّاتِ الدُّنْيَا كَأَنَّتْ أَمْ مِنْ جَنَّاتِ الْآخِرَةِ؟ فَقَالَ عليه السلام: «كَأَنَّتْ مِنْ جَنَّاتِ الدُّنْيَا تَطْلُعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ جَنَّاتِ الْآخِرَةِ مَا أُخْرِجَ مِنْهَا أَبَدًا آدَمُ وَلَمْ يَدْخُلْهَا إِبْلِيسُ...، فَجَاءَهُ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ إِنْ أَكَلْتُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي مَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهَا صِرْتُمْ مَلَائِكَةً، وَبَقِيتُمْ فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا، وَإِنْ لَمْ تَأْكُلَا مِنْهَا أَخْرَجَكُمَا اللَّهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَحَلَفَ لَهَا أَنَّهُ لَهَا نَاصِحٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(١) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمْ لِمَنِ النَّاصِحِينَ^(٢)»، فَقَبِلَ آدَمُ قَوْلَهُ، فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ، فَكَانَ كَمَا حَكَى اللَّهُ ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، وَسَقَطَ عَنْهُمَا مَا أَلْبَسَهُمَا اللَّهُ مِنْ لِبَاسِ الْجَنَّةِ، وَأَقْبَلَا يَسْتَتِرَانِ بِوَرَقِ الْجَنَّةِ، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا

(١) نهج البلاغة (ص ٤٢ و ٤٣ / الخطبة (١)).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٨٣

الشَّجَرَةَ وَأَقْلَ لَكُمْ إِنَّا الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾، فَقَالَ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنكَ عَنْهَا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٣﴾، فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٤﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٤]»، قَالَ: «إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَوْلُهُ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ [البقرة: ٣٦]، فَهَبَطَ آدَمُ عَلَىٰ الصَّفَا، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الصَّفَا لِأَنَّ صَفْوَةَ اللَّهِ نَزَلَتْ عَلَيْهَا، وَنَزَلَتْ حَوَاءُ عَلَى الْمَرْوَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْمَرْوَةُ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ نَزَلَتْ عَلَيْهَا، فَبَقِيَ آدَمُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا سَاجِدًا يَبْكِي عَلَى الْجَنَّةِ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا آدَمُ، أَلَمْ يَخْلُقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ؟ قَالَ: بَلَىٰ، قَالَ: وَأَمَرَكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ، فَلِمَ عَصَيْتَهُ؟ قَالَ: يَا جِبْرَائِيلُ، إِنَّ إبليسَ حَلَفَ لِي بِاللَّهِ إِنَّهُ لِي نَاصِحٌ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنْ خَلْقًا يَخْلُقُهُ اللَّهُ أَنْ يَخْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا»^(١).

وذيل الحديث لوحده مدرسة في عظمة الحلف بالله تعالى.

وفي قصته عَلَيْهِ السَّلَامُ تفاصيل عديدة يُخرجنا الخوض فيها عن الرسم المعد لهذا الشرح، وعلى هذا نسير فيما نتعرض له من حياة الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ في شرح فقرات هذا الدعاء المبارك.

شبهة معصية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وجوابها:

يتمسك البعض في إثبات المعصية لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿٣٥﴾ (طه: ١٢١).

والجواب عن هذه الشبهة:

١ - من الواضح أنَّ الأحكام الشرعية على أنحاء خمسة - الواجب

(١) تفسير القمِّي (ج ١ / ص ٤٣ و ٤٤).

٨٤..... شرح دعاء الندبة

والحرام والمكروه والمستحبُّ والمباح -، وقد يُعبَّر في بعض الأحيان عن ترك المستحبِّ أو فعل المكروه بالمعصية، خصوصاً إذا كان ذلك من أصحاب المقامات العالية، بل قد يُعبَّر بذلك في بعض الأحيان بالمعصية في مقام الإتيان ببعض المباحات فيما لو كانت منافية لما ينبغي تركه من قِبَل هذا العظيم.

ولعلَّ التعبير الوارد في الآية من هذا القبيل.

٢ - قد يقال: إنَّ ما حصل مع آدم ﷺ في دار غير هذه الدار، وأنَّ ما فيها ليس تكليفاً بالمعنى المصطلح، بل مناطاته وملاكاته مختلفة عن هذه الدار، والقياس بينهما قياس مع الفارق، فالتعبير وإنَّ ورد في القرآن الكريم ولكنه يُلحَظ فيه تلك الدار، نظير ما يُلحَظ في التعبير عنه من أوصاف الجنة وما فيها.

٣ - كانت المشيئة الإلهية قائمة على خلق خليفة في الأرض، وإيداع آدم ﷺ في الجنة مع عدم معصيته لا يناسب هذه المشيئة ولا يناسب هذا الغرض، فإرادة الباري ﷻ قد انعقدت على خلق آدم ﷺ للأرض، وليست الجنة سوى محطة مؤقتة سير تحل عنها لكي يعود إليها بنحو آخر.

المعصية تعلقت بأمر بقاءه - آدم ﷺ - غير الإلزامي، فالتعبير أنَّه عصي أي عصي أمر بقاءه - غير الإلزامي - ونزل باختياره، لذلك نجد أنَّ الآية بيَّنت له ما سيحصل له لو أكل من الشجرة.

شبهة التناسل في أبناء آدم ﷺ وجوابها:

يتوهم البعض أنَّ التناسل بين أبناء آدم ﷺ حصل من زواج الإخوة بالأخوات، وهذا تصوُّر فاحش ومريض جدًّا، ولا يرد إلى الذهن السليم والروح النقية السويَّة، ولكن مع ذلك نجيب عنه بالآتي:

الجواب عن التوهم الأنف:

١ - أنَّ الله تعالى خلق لأولاد آدم ﷺ بنات يتزوَّجون بهنَّ، ومنهنَّ

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٨٥

حصل التناسل وتكاثرت ذرية آدم ﷺ، وقد دلت جملة من الروايات على ذلك، منها:

* في (قصاص الأنبياء) بسنده عن زُرارة، قال: سئل أبو عبد الله ﷺ عن بدء النسل من آدم (صلواتُ الله عليه) كيف كان، وعن بدء النسل من ذرية آدم، فإن أناساً عندنا يقولون: إن الله تعالى أوحى إلى آدم أن يزوج بناته من بنيهِ، وأن هذا الخلق كلُّهم أصلُهُ من الإخوة والأخوات، فَمَنَعَ أبو عبد الله ﷺ عن ذلك، وقال: «نُبئتُ أن بعض البهائم تنكرت له أُخته، فلما نزا عليها ونزل ثم علم أمَّها أُخته قبض على عزموله بأسنانه حتى قطعهُ...، ثم وهب الله له شيئا، وهو هبةُ الله، وهو أول وصي أوصي إليه من بني آدم في الأرض، ثم وراه بعده يافث، فلما أدركا وأراد الله أن يبلغ بالنسل ما ترون أنزل بعد العصر يوم الخميس حوراء من الجنة اسمها نزلة، فأمر الله أن يزوجهما من شيث، ثم أنزل الله بعد العصر من العبد حوراء من الجنة اسمها منزلة، فأمر الله آدم أن يزوجهما من يافث فزوجها منه، فولد لشيث غلامٌ وليافث جارية، فأمر الله آدم ﷺ حين أدركا أن يزوج بنت يافث من ابن شيث، ففعل، فولد الصنفة من النيين والمرسلين من نسليهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك ما قالوه من الإخوة والأخوات ومناكجهما...»^(١).

ورواها العلامة المجلسي رحمه الله في (بحاره) عن (علل الشرائع)^(٢).

٢ - قيل: إن أبناء آدم ﷺ تزوجوا ممن كانت من النساء من قبل آدم ﷺ من البشر، وهذا لا يقطع مادة النزاع، إذ أولئك كيف تناسلوا؟ ولعل ما ورد من روايات بهذا الصدد تُحمّل على التقيّة، لأن الجمهور يميل إلى هذا، راجع بحار الأنوار (ج ١١ / ص ٢١٨ / الباب الخامس).

(١) قصص الأنبياء للراوندي (ص ٥٧ و ٥٨ / ح ٣٢).

(٢) بحار الأنوار (ج ١١ / ص ٢٢٣ و ٢٢٤ / ح ٢)، عن علل الشرائع (ج ١ / ص ١٨ - ٢٠ / باب ١٧ / ح ٢).

قصة نوح عليه السلام:

ورد ذكر نوح عليه السلام في العديد من الآيات الكريمة، ومنها:

* قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ (إبراهيم: ٩).

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٣﴾﴾ (النساء: ١٦٣).

* وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأُجِيبَتْهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأعراف: ٦٤).

اسمه عليه السلام وبعض خصائصه:

وهو أول أنبياء أولي العزم عليهم السلام، وسيأتي في الخبر الصحيح ما يتحدث عن عدة تفاصيل متممة لقصة آدم ومبينة لقصة نوح عليه السلام. والظاهر أن قوم نوح عليه السلام أول الأقسام التي عذبها الله تعالى بسبب كفرهم، ولم يُعذب قوماً قبلهم.

وقد ذكرت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام العديد من الصفات الخلقية والأوصاف التي تحلّى بها عليه السلام، ومنها: وصفه بشيخ الأنبياء عليهم السلام، وأنه كان عبداً لله سبحانه كثير الشكر، وتحمل من قومه صنوف العذابات والسخرية، ولم يثقل عن تحمل مهمته إلى وفاته ودفنه في الغري على ما هو صريح الزيارة: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَلَى صَاحِبَيْكَ أَدَمَ وَنُوحَ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(١).

(١) المزار لابن المشهدي (ص ١٩٢).

روايتان عظيمتان:

الرواية الأولى: رواية الوصاية في أعقاب الأنبياء وذراريهم:

* روى الشيخ الكليني رحمته الله بسند صحيح عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «... فلما أكل آدم عليه السلام من الشجرة أهبط إلى الأرض...، فلما انقضت نبوة آدم عليه السلام واستكمل أيامه أوحى الله تعالى إليه أن يا آدم، قد انقضت نبوتك واستكملت أيامك، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والإسم الأكبر وميراث العلم وأثار علم النبوة في العقب من ذريتك عند هبة الله، فإنني لن أقطع العلم والإيمان والإسم الأكبر وأثار النبوة من العقب من ذريتك إلى يوم القيامة، ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني، ويعرف به طاعتي، ويكون نجاة لمن يولد فيما بينك وبين نوح. وبشر آدم بنوح عليه السلام، فقال: إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً اسمه نوح، وإنه يدعو إلى الله (عز ذكره)، ويكذب قومه... حتى بعث الله نوحاً عليه السلام، وظهرت وصية هبة الله حين نظرُوا في وصية آدم عليه السلام، فوجدوا نوحاً عليه السلام نبياً قد بشر به آدم عليه السلام، فآمنوا به واتبعوه وصدقوه. وقد كان آدم عليه السلام وصى هبة الله أن يتعاهد نوحاً ورمانه الذي يخرج فيه، وكذلك جاء في وصية كل نبي حتى بعث الله محمداً عليه السلام، وإنا عرفوا نوحاً بالعلم الذي عندهم، وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ إلى آخر الآية [هود: ٢٥]، وكان من بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين، ولذلك خفي ذكرهم في القرآن فلم يسموا كما سمي من استعلن من الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)، وهو قول الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، يعني لم أسم المستخفين كما سميت المستعلنين من الأنبياء عليهم السلام،

فَمَكَثَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا...، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ صَارَتْ مِنْ بَعْدِ يُوسُفَ فِي أَسْبَاطِ إِخْوَتِهِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَ بَيْنَ يُوسُفَ وَبَيْنَ مُوسَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ الرُّسُلَ تَتْرَى، ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَقْتُلُ نَبِيًّا وَاثْنَانِ قَائِمَانِ، وَيَقْتُلُونَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعَةً قِيَامًا حَتَّى إِنَّهُ كَانَ رَبًّا قَتَلُوا فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ سَبْعِينَ نَبِيًّا وَيَقُومُ سُوقٌ قَتَلِهِمْ آخِرَ النَّهَارِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَانَ بَيْنَ يُوسُفَ وَمُوسَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَانَ وَصِيُّ مُوسَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ فَتَاهُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ، فَلَمْ تَزَلِ الْأَنْبِيَاءُ تُبَشِّرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ، فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، ﴿مَكْتُوبًا﴾ يَعْنِي صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿عِنْدَهُمْ﴾ يَعْنِي فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ يُخْرِجُ عَنْ عِيسَى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وَبَشَّرَ مُوسَى وَعِيسَى بِمُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا بَشَّرَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى بَلَغَتْ مُحَمَّدًا ﷺ، فَلَمَّا قَضَى مُحَمَّدٌ ﷺ نُبُوتَهُ وَأُسْتُكْمِلَتْ أَيَّامُهُ أَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ قَضَيْتَ نُبُوتَكَ وَاسْتُكْمِلْتَ أَيَّامَكَ، فَاجْعَلِ الْعِلْمَ الَّذِي عِنْدَكَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِسْمَ الْأَكْبَرَ وَمِيرَاثَ الْعِلْمِ وَأَثَارَ عِلْمِ النَّبُوَّةِ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنِّي لَمْ أَقْطَعْ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِسْمَ الْأَكْبَرَ وَمِيرَاثَ الْعِلْمِ وَأَثَارَ عِلْمِ النَّبُوَّةِ مِنَ الْعَقَبِ مِنْ دُرِّيَّتِكَ كَمَا لَمْ أَقْطَعْهَا مِنْ بَيُوتَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَبِيكَ آدَمَ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٨٩

وَأَلْ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣ و ٣٤]...»^(١).

والحديث بعد لم يكتمل ونقلنا بعضه، وكان الداعي من وراء نقله وهو بهذه السعة والحجم الذي قد يوجب تملل القارئ عند قراءته، أنه خبر صحيح السند، والفوائد التي تضمّنها والتفاصيل التي ذكرها لا نجدتها في غيره بهذا الإسناد والتفصيل والربط المنقطع النظير، فلا تملّ من قراءته، وإذا تركته فعاود الرجوع إليه واقراه بتدبّر، وعلى الأقلّ بتأنّ.

الرواية الثانية: شابهة الإمام الحجّة عليه السلام بالنبيّ نوح عليه السلام:

وقد ورد في عجيب قصّته عليه السلام وتشبيهه ما مرّ به بما سيمرّ به مولانا

الحجّة عليه السلام رواية جلييلة المعنى دقيقة الوصف، وهي:

* ما رواه الشيخ الصدوق عليه السلام بسنده عن سدير الصيرفي، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَالْمُفَضَّلُ بْنُ عُمَرَ وَأَبُو بَصِيرٍ وَأَبَانُ بْنُ تَغْلِبٍ عَلَى مَوْلَانَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عليه السلام، فَرَأَيْنَاهُ جَالِسًا عَلَى التُّرَابِ، وَعَلَيْهِ مَسْحُ خَيْبَرِيٍّ، مُطَوَّقٌ بِلَا جَيْبٍ، مُقَصَّرُ الْكُمَيْنِ، وَهُوَ يَبْكِي بُكَاءَ الْوَالِهِ التَّكْلِ، ذَاتِ الْكَبِدِ الْحَرِيِّ، قَدْ نَالَ الْحُزْنَ مِنْ وَجْتَتَيْهِ، وَشَاعَ التَّغْيِيرُ فِي عَارِضِيهِ، وَأَبْلَى الدَّمُوعُ مَحْجَرِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «سَيِّدِي عَيْبَتِكَ نَفْتٌ رُقَادِي، وَصَيِّتٌ عَلَيَّ مَهَادِي، وَابْتَزَتْ مِنِّي رَاحَةَ فُؤَادِي، سَيِّدِي عَيْبَتِكَ أَوْصَلَتْ مُصَابِي بِفَجَائِعِ الْأَبْدِ، وَفَقَدْتُ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ يُفْنِي الْجَمْعَ وَالْعَدَدَ، فَمَا أَحْسُ بِدَمْعَةٍ تَرَقَى مِنْ عَيْنِي، وَأَيْنِ يَفْتُرُ مِنْ صَدْرِي عَنْ دَوَارِجِ الرَّزَايَا وَسَوَالِفِ الْبَلَايَا إِلَّا مِثْلَ بَعِينِي عَنْ غَوَابِرِ أَعْظَمِهَا وَأَفْظَعِهَا، وَبَوَاقِي أَشَدِّهَا وَأَنْكَرِهَا، وَنَوَائِبِ مَحْلُوطَةٍ بِغَضَبِكَ، وَنَوَازِلِ مَعْجُونَةٍ بِسَخَطِكَ»، قَالَ سَدِيرٌ: فَاسْتَطَارَتْ عُقُولُنَا وَلَهَا، وَتَصَدَّعَتْ قُلُوبُنَا جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ الْخَطْبِ

(١) الكافي (ج ٨ / ص ١١٣ - ١٢٠ / ح ٩٢).

الْهَائِلِ، وَالْحَادِثِ الْغَائِلِ، وَظَنْنَا أَنَّهُ سَمَتَ لِمَكْرُوهَةٍ قَارِعَةٍ، أَوْ حَلَّتْ بِهِ مِنَ الدَّهْرِ بَاقِيَةٌ، فَقُلْنَا: لَا أَبْكِيُ اللَّهُ يَا ابْنَ خَيْرِ الْوَرَى عَيْنِكَ، مِنْ آيَةٍ حَادِثَةٍ تَسْتَنْزِفُ دَمْعَتَكَ، وَتَسْتَمْطِرُ عَبْرَتَكَ؟ وَآيَةٌ حَالَةٍ حَتَمَتْ عَلَيْكَ هَذَا الْمَأْتَمَ؟ قَالَ: فَزَفَرَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ زُفْرَةً انْتَفَخَ مِنْهَا جَوْفُهُ، وَاشْتَدَّ عَنْهَا خَوْفُهُ، وَقَالَ: «وَيْلَكُمْ نَظَرْتُ فِي كِتَابِ الْجَفْرِ صَبِيحَةَ هَذَا الْيَوْمِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُسْتَمِلُ عَلَى عِلْمِ الْمَنِيَا وَالْبَلَايَا وَالرَّزَايَا وَعِلْمِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي خَصَّ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا وَالْأَيُّمَةَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَأَمَّلْتُ مِنْهُ مَوْلِدَ قَائِمِنَا وَغَيْبَتَهُ وَإِبْطَاءَهُ وَطُولَ عُمُرِهِ وَبَلْوَى الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَتَوَلَّدَ الشُّكُوكُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ طُولِ غَيْبَتِهِ، وَازْتِدَادَ أَكْثَرِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَخَلَعَهُمْ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ الَّتِي قَالَ اللَّهُ (تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ): ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]، يَعْنِي الْوَلَايَةَ، فَأَخَذْتَنِي الرَّقَّةَ، وَاسْتَوَلَّتْ عَلَيَّ الْأَحْزَانُ»، فَقُلْنَا: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، كَرَّمْنَا وَفَضَّلْنَا بِإِشْرَاكِكَ إِيَّانَا فِي بَعْضِ مَا أَنْتَ تَعَلَّمَهُ مِنْ عِلْمِ ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَدَارَ لِقَائِمٍ مَنَّا ثَلَاثَةَ أَدَارَهَا فِي ثَلَاثَةِ مِنَ الرَّسُلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدَّرَ مَوْلِدَهُ تَقْدِيرَ مَوْلِدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدَّرَ غَيْبَتَهُ تَقْدِيرَ غَيْبَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدَّرَ إِبْطَاءَهُ تَقْدِيرَ إِبْطَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عُمُرَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ أَعْنِي الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلِيلًا عَلَى عُمُرِهِ»، فَقُلْنَا لَهُ: اكْشِفْ لَنَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَنْ وُجُوهِ هَذِهِ الْمَعَانِي، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... وَأَمَّا إِبْطَاءُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لَمَّا اسْتَنْزَلَتِ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ السَّمَاءِ بَعَثَ اللَّهُ بِكَ الرَّوحَ الْأَمِينِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبْعِ نَوِيَّاتٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لَكَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ خَلَائِقِي وَعِبَادِي، وَلَسْتُ أُبِيدُهُمْ بِصَاعِقَةٍ مِنْ صَوَاعِقِي إِلَّا بَعْدَ تَأْكِيدِ الدَّعْوَةِ وَالزَّامِ الْحُجَّةِ، فَعَاوِدِ اجْتِهَادَكَ فِي الدَّعْوَةِ لِقَوْمِكَ فَإِنِّي مُشِيبُكَ عَلَيْهِ، وَاغْرِسْ هَذِهِ النَّوَى فَإِنَّ لَكَ فِي نَبَاتِهَا وَبُلُوغِهَا وَإِدْرَاكِهَا إِذَا أَثْمَرَتِ الْفَرْجَ وَالْخُلَاصَ، فَبَشِّرْ بِذَلِكَ مَنْ تَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَلَمَّا نَبَتِ الْأَشْجَارُ

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٩١

وَتَأَزَّرَتْ وَتَسَوَّقَتْ وَتَغَصَّنَتْ وَأَثْمَرَتْ وَزَهَا التَّمْرُ عَلَيْهَا بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ
اسْتَنْجَزَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعِدَّةَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَغْرِسَ مِنْ نَوَى
تِلْكَ الْأَشْجَارِ وَيُعَاوِدَ الصَّبْرَ وَالْإِجْتِهَادَ وَيُؤَكِّدَ الْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ
الطَّوَائِفَ الَّتِي آمَنَتْ بِهِ، فَارْتَدَّ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ، وَقَالُوا: لَوْ كَانَ مَا يَدَّعِيهِ نُوحٌ
حَقًّا لَمَا وَقَعَ فِي وَعْدِ رَبِّهِ خُلْفٌ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَأْمُرُهُ عِنْدَ كُلِّ مَرَّةٍ
بِأَنْ يَغْرِسَهَا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى إِلَى أَنْ غَرَسَهَا سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الطَّوَائِفُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَرْتَدُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ إِلَى أَنْ عَادَ إِلَى نَيْفٍ وَسَبْعِينَ رَجُلًا، فَأَوْحَى
اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَقَالَ: يَا نُوحُ، الْآنَ أَسْفَرَ الصُّبْحُ عَنِ اللَّيْلِ
لِعَيْنِكَ حِينَ صَرَخَ الْحَقُّ عَنْ مُحْضِهِ، وَصَفَا الْأَمْرُ وَالْإِيْيَانُ مِنَ الْكُدْرِ بِإِزْتِدَادِ كُلِّ
مَنْ كَانَتْ طِينَتُهُ حَبِيثَةً، فَلَوْ أَنِّي أَهْلَكْتُ الْكُفَّارَ وَأَبْقَيْتُ مَنْ قَدِ ارْتَدَّ مِنَ الطَّوَائِفِ
الَّتِي كَانَتْ آمَنَتْ بِكَ لَمَا كُنْتُ صَدَقْتُ وَعَدِي السَّابِقَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَخْلَصُوا
التَّوْحِيدَ مِنْ قَوْمِكَ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ نُبُوَّتِكَ بِأَنْ اسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَمَكَّنَ
هُمْ دِينَهُمْ وَأَبَدَّلَ خَوْفَهُمْ بِالْأَمْنِ لِكَيْ تَخْلُصَ الْعِبَادَةُ لِي بِذَهَابِ الشَّكِّ مِنْ
قُلُوبِهِمْ، وَكَيْفَ يَكُونُ الْإِسْتِخْلَافُ وَالتَّمَكِينُ وَبَدَلِ الْخَوْفِ بِالْأَمْنِ مِنِّي لَهُمْ مَعَ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِ الَّذِينَ ارْتَدُّوا وَحُبِّ طِينِهِمْ وَسُوءِ سَرَائِرِهِمْ الَّتِي
كَانَتْ تَنْتَاجِ النَّفَاقِ...»^(١).

قصة إبراهيم خليل الرحمن ﷺ:

ورد ذكر إبراهيم ﷺ في العديد من الآيات الكريمة، ومنها:

* قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ (البقرة: ١٢٤).

(١) كمال الدين (ص ٣٥٢ - ٣٥٧ / باب ٣٣ / ح ٥٠).

* وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ (البقرة: ١٢٩ - ١٣٢).

* وقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦).

قصة إبراهيم عليه السلام في الروايات:

تناولت العديد من الروايات قصة إبراهيم عليه السلام، وتحدثت عن الكثير من

التفاصيل التي لا يسعنا ذكرها.

* روى الشيخ الصدوق رحمه الله: «... فَلَمْ يَزَلْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْغَيْبَةِ، مُحْفِيًّا لِشَخْصِهِ، كَاتِمًا لِأَمْرِهِ، حَتَّى ظَهَرَ فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ فِيهِ، ثُمَّ غَابَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْغَيْبَةَ الثَّانِيَةَ، وَذَلِكَ حِينَ نَفَاهُ الطَّاغُوتُ عَنْ مِصْرَ، فَقَالَ: ﴿وَأَعْتَزَلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤٨ - ٥٠]، يَعْنِي بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدْ كَانَ دَعَا اللَّهَ ﷻ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، فَجَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ وَلِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٩٣

فأخبر عليٌّ عليه السلام بأن القائم هو الحادي عشر من ولده، وأنه المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً...^(١).

فوائد من سيرة إبراهيم عليه السلام:

* في (علل الشرائع) بسنده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني، قال: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّمَا اتَّخَذَ اللَّهُ عز وجل إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا لِكَثْرَةِ صَلَاتِهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ)»^(٢).

وقد ورد في سبب اتخاذ الله عز وجل لإبراهيم خليلاً غير ذلك، من قبيل كثرة إطعامه للطعام، وصلاته بالليل والناس نيام^(٣).

مشابهة الإمام المهدي عليه السلام لإبراهيم عليه السلام:

* في (كمال الدين) بسنده عن سعيد بن جبير، قال: سَمِعْتُ سَيِّدَ الْعَابِدِينَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليهما السلام يَقُولُ: «فِي الْقَائِمِ مِنَّا سُنَنٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، سُنَّةٌ مِنْ أَبِيْنَا آدَمَ عليه السلام، وَسُنَّةٌ مِنْ نُوحٍ، وَسُنَّةٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَسُنَّةٌ مِنْ مُوسَى، وَسُنَّةٌ مِنْ عِيسَى، وَسُنَّةٌ مِنْ أَيُّوبَ، وَسُنَّةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ). فَأَمَّا مِنْ آدَمَ وَنُوحٍ فَطُولُ الْعُمُرِ، وَأَمَّا مِنْ إِبْرَاهِيمَ فَحَفَاءُ الْوِلَادَةِ وَاعْتِزَالُ النَّاسِ، وَأَمَّا مِنْ مُوسَى فَالْخَوْفُ وَالْغَيْبَةُ، وَأَمَّا مِنْ عِيسَى فَاخْتِلَافُ النَّاسِ فِيهِ، وَأَمَّا مِنْ أَيُّوبَ فَالْفَرَجُ بَعْدَ الْبَلْوَى، وَأَمَّا مِنْ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَالْخُرُوجُ بِالسَّيْفِ»^(٤).

والروايات التي تتحدث عن قصص الأنبياء وتذكر تفاصيل حياتهم عليهم السلام كذلك كُتِبَ التاريخ وغيرها كثيرة، ولم نتعرض إلا إلى أقل القليل من ذلك.

(١) كمال الدين (ص ١٣٨ و ١٣٩ / باب ٤ / ح ٧).

(٢) علل الشرائع (ج ١ / ص ٣٤ / باب ٣٢ / ح ٣).

(٣) راجع: علل الشرائع (ج ١ / ص ٣٥ / باب ٣٢ / ح ٤).

(٤) كمال الدين (ص ٣٢١ و ٣٢٢ / باب ٣١ / ح ٣).

* قال الشيخ المفيد رحمته: (أجمع العلماء من الملل على ما كان من ستر ولادة أبي إبراهيم الخليل عليه السلام وأمه لذلك، وتدبيرهم في إخفاء أمره عن ملك زمانه لخوفهم عليه منه. وبستر ولادة موسى بن عمران عليه السلام، وبمجيء القرآن بشرح ذلك على البيان، والخبر بأن أمه ألقته في اليم على ثقة منها بسلامته وعوده إليها، وكان ذلك منها بالوحي إليها به بتدبير الله (جلّ وعلا) لمصالح العباد. فما الذي ينكر خصوم الإمامية من قولهم في ستر الحسن عليه السلام ولادة ابنه المهدي عن أهله وبني عمّه وغيرهم من الناس؟ وأسباب ذلك أظهر من أسباب ستر من عدّناه وسمّيناه...) ^(١).

الإمامة في إبراهيم عليه السلام وذريته:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة: ١٢٤).

* في (الكافي) بسنده عن زيد الشحام، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتَّخذه نبياً، وإن الله اتخذهُ نبياً قبل أن يتَّخذه رسولاً، وإن الله اتخذهُ رسولاً قبل أن يتَّخذه خليلاً، وإن الله اتخذهُ خليلاً قبل أن يجعلهُ إماماً، فلما جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾»، قال: «فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾»، قال: «لَا يَكُونُ السَّفِينَةُ إِمَامًا تَقِيٌّ» ^(٢).

* وفي (الغيبة للنعماني) روى عليه السلام رواية عن الإمام الرضا عليه السلام يفصل فيها خصائص الإمامة ويتحدث عن الإمام عليه السلام، جاء فيها: «فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة، وصارت في الصفوة، ثم أكرمهُ اللهُ عز وجل بأن جعلها

(١) المسائل العشر في الغيبة (ص ٥٨).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٧٥ / باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام / ح ٢).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٩٥

فِي ذُرِّيَّتِهِ أَهْلَ الصَّفْوَةِ وَالطَّهَارَةِ، فَقَالَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢ و٧٣]، فَلَمْ تَزَلْ فِي ذُرِّيَّتِهِ يَرِثُهَا بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ قَرْنَا فَقَرْنَا حَتَّىٰ وَرِثَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨]، فَكَانَتْ لَهُ خَاصَّةٌ، فَقَلَّدَهَا ﷺ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَمْرِ اللَّهِ (عَزَّ إِسْمُهُ) عَلَىٰ رَسْمِ مَا فَرَضَهُ اللَّهُ، فَصَارَتْ فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَصْفِيَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ بِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، فَهِيَ فِي وُلْدِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاصَّةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمِنْ أَيْنَ يَخْتَارُ هَؤُلَاءِ الْجُهَالُ الْإِمَامَ؟ إِنَّ الْإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِزْتُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنَّ الْإِمَامَةَ خِلَافَةُ اللَّهِ، وَخِلَافَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَقَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِيرَاثُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ...»^(١).

قال الشيخ أبو الصلاح ﷺ في معرض استعراضه أدلة إمامة أهل البيت عليه السلام وأمر المؤمنين عليه السلام: (ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، فنفي سبحانه أن ينال الإمامة ظالم، وهذا يمنع من استحقاق سمة الظلم وقتاً ما من الصلاح للإمامة، لدخوله تحت الاسم المانع من استحقاقها. وأيضاً فإنه سبحانه أخبر بمعنى الأمر أن الظالم لا يستحقها، وخبره متعلق بالمخبر على ما هو به، فيجب فساد إمامة من يجوز كونه ظالماً، وذلك يقتضي وقوف صلاحها على المعصوم، ويوجب فساد إمامة أبي بكر وعمر وعثمان والعبَّاس، لوقوع الظلم منهم، ولعدم القطع على

(١) الغيبة للنعماني (ص ٢٢٥ و٢٢٦ / باب ١٣ / ح ٦).

٩٦..... شرح دعاء الندبة

عصمتهم، وإذا بطلت إمامة هؤلاء ثبتت إمامة عليٍّ عليه السلام، لأنه لا قول لأحدٍ من الأمة خارج عن ذلك.

وتبطل إمامتهم من الآية بأنَّ جوابه تعالى بنفي الإمامة عن الظالم خرج مطابقاً لسؤال إبراهيم عليه السلام، وذلك يقتضي اختصاصه لمن كان ظالماً ثمَّ تاب، لقبح سؤال الإمامة للكافر في حال كفره، ووقوع الكفر من هؤلاء معلوم، فيجب دخولهم تحت النفي.

وليس لأحدٍ أن يقدح في بعض ما مضى بأنَّ التائب من الظلم لا يكون ظالماً.

لأنَّ ظالماً من أسماء الفاعلين في اللغة كقاتل وضارب، وليس باسم شرعي، والأسماء المشتقة من الأفعال ثابتة بعد التوبة كثبوتها قبلها، يقولون: هذا قاتل زيد، وضارب عمرو، وخاذل عليٍّ، وإنَّ تابوا ممَّا اقترفوه، ولو كان من أسماء الشرعية لقبح هذا الإطلاق بعد التوبة كفاسق وكافر.

ولأنَّ العرب ما تصف فاعل الضرر الخالص بظالم كما تصفه الشريعة، ولو كان منقلاً يجري مجرى مصطلٍّ ومزكٍّ، لاختصاصه بعرف الشرع كذنين الاسمين، وإقرار الشريعة له على أصل الوضع يسقط الشبهة، لأنَّها مبنية على قبح الوصف به بعد التوبة، وما قرَّرت الشريعة من الأسماء على أصله لا يجوز سلبه للتائب بلا خلاف بين العلماء بأحكام الخطاب^(١).

وقد ذكر العلامة الطباطبائي رحمته الله في (تفسير الميزان) بحثاً مفصلاً حول الآية الشريفة والآيات المرتبطة بها نأخذ منه ما يناسب بحثنا، قال رحمته الله: (قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، قول من يعتقد لنفسه ذريةً، وكيف يسع مَنْ له أدنى دربة بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربّه

(١) تقريب المعارف (ص ١٩١ و ١٩٢).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٩٧

الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: (ومن ذريتي إن رزقتني ذرية) أو ما يؤدّي هذا المعنى، فالقصة واقعة كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة.

على أن قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، يدل على أن هذه الإمامة الموهوبة إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات، وليست هذه إلا أنواع البلاء التي ابتلى بها في حياته، وقد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضية ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١٠٦]. والقضية إنما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]...

وقد ظهر مما تقدم من البيان أمور:

الأول: أن الإمامة لمجعولة.

الثاني: أن الإمام يجب أن يكون معصوماً بعصمة إلهية.

الثالث: أن الأرض وفيه الناس، لا تخلو عن إمام حق.

الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيداً من عند الله تعالى.

الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

السادس: أنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور

معاشهم ومعادهم.

السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

فهذه سبعة مسائل هي أمّهات مسائل الإمامة، تعطىها الآية الشريفة بما

ينضم إليها من الآيات، والله الهادي.

فإن قلت: لو كانت الإمامة هي الهداية بأمر الله تعالى، وهي الهداية إلى الحق الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ...﴾ الآية [يونس: ٣٥] كان جميع الأنبياء أئمة قطعاً، لوضوح أن نبوة النبي لا يتم إلا باهتداء من جانب الله تعالى بالوحي، من غير أن يكون مكتسباً من الغير، بتعليم أو إرشاد ونحوهما، حينئذ فموهبة النبوة تستلزم موهبة الإمامة، وعاد الإشكال إلى أنفسكم.

قلت: الذي يتحصّل من البيان السابق المستفاد من الآية أن الهداية بالحق وهي الإمامة تستلزم الاهتداء بالحق، وأمّا العكس وهو أن يكون كل من اهتدى بالحق هادياً لغيره بالحق، حتى يكون كل نبي لاهتدائه بالذات إماماً، فلم يتبين بعد...^(١).

شبهة الشك في الله تعالى وجوابها:

يزعم ممن لا معرفة له بحال الأنبياء عليهم السلام ويظن متوهماً أن إبراهيم عليه السلام على عظيم منزلته وكبر مقامه قد حصل الشك في قلبه ليس مرة بل مرّات! منها ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، فكيف لمثل إبراهيم عليه السلام وهو قلب الإيمان أن يحمل في قلبه الشك، وأن يتردّد ويطلب الاطمئنان، بل وأن يخاطب من قبل رب العزة والجلالة: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنْ؟﴾!

هذه مرّة، والثانية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ^(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ^(٧٦) فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَارِغًا قَالَ هَذَا

(١) تفسير الميزان (ج ١ / ص ٢٦٨ - ٢٧٥).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ٩٩

رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى
الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ (الأنعام: ٧٥ - ٧٨)، فكيف بحامل لواء التوحيد، ومهدم
الأصنام أن لا يعرف ربه، أو أن يقول للقمر أو الشمس أنها ربه؟!
هذا أمر عجيب، والأعجب أن يُظنَّ بإبراهيم عليه السلام هذا فضلاً عن أن
يُعتقد فيه.

والجواب عن هذه الشبهة:

١ - أن الآيات الكريبات هي بنفسها تضمّنت الإجابة، حيث نفت الشكَّ
عنه، وأنه إننا طلب ذلك زيادة في اليقين، ودفعاً لما يمكن أن يُتوهم،
وللأنبياء عليهم السلام طلب زيادة اليقين والسعي نحو مراتب الكمال التي لا حدَّ لها،
وطلبها كمال ممدوح.

٢ - أنه عليه السلام يقول ذلك على لسان قومه ومجارية لهم، لمزيد من الاحتجاج
وإثبات التوحيد، فهو يريد إقناعهم بأن ما يمكن اعتقاده في المخلوقات وإن
عظمت ينتهي إلى الأُفول والزوال.

٣ - توجد قاعدة مفادها: أن ما ليس بقطعي ومحكم يتمُّ إرجاعه إلى
المحكم من الأمور، وعصمة الأنبياء عليهم السلام أمر محكم وقطعي، فكلُّ ما يخالفه لا
بدَّ من تأويله.

شبهة كذب إبراهيم عليه السلام والجواب عنها:

من خلال هذا يتّضح الحال في آيات أُخرى قد تُفسَّر خطأً كقوله تعالى:
﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنبياء: ٦٣)،
وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات: ٨٩).

قصة موسى كليم الرب ﷺ:

هو موسى، وبالعبرية موشي بن عمران، أو عمرام، أو عمرم بن قاهث بن لاوي ابن نبي الله يعقوب ﷺ، وقيل في اسمه: موسى بن عمران بن عازر بن لاوي بن يعقوب ﷺ.

وسياتي في الرواية التي ذكرت الأوصياء بعد يعقوب ﷺ غير ذلك، حيث يقع بينه وبين يعقوب عدد من الأوصياء من ولد لاوي يتجاوز ما ذكر أعلاه، والأمر سهل، ولكن رغبتنا بذكره لمزيد من المعرفة والاطلاع على النسل المبارك له.

في القرآن الكريم:

ورد ذكر موسى ﷺ في العديد من الآيات، ومنها:

* قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾ (طه: ٩ و ١٠)، ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۗ﴾ (القصص: ٣٠).

* وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۗ﴾ (الشعراء: ١٢ و ١٣).

في الروايات الشريفة:

* في (إثبات الوصية): وكان يوسف ﷺ إماماً ملكاً، ومَلِكِ اثْنَيْنِ وسبعين سنة، وعاش مائة وعشرين سنة، وكان له ابنان يقال لأحدهما: افرائيم، وهو جدُّ يوشع بن نون، والآخر ميشا. فلما قربت وفاته أوحى الله إليه ﷺ أن استودع نور الله وحكمته وجميع الموارث التي في يديك ببرز بن لاوي بن يعقوب، فأحضر ببرز بن لاوي وجمع آل يعقوب، وهم يومئذ ثمانون رجلاً،

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٠١

فقال لهم: إن هؤلاء القبط سيظهرون عليكم، ويسومونكم سوء العذاب، ونعوت الإمامة مكتومة، ثم ينجيكم الله ويُفَرِّج عنكم برجل من ولد لاوي اسمه موسى بن عمران طوال جعد آدم مفلفل الشعر أحلج على لسانه شامة وعلى أرنبة أنفه شامة، ولن يظهر حتى يخرج قبله سبعون كذاباً، (وروي خمسون) كل يدعي أنه هو، ثم يظهر وينصر الله بني إسرائيل ويُفَرِّج عنهم. وسلم التابوت والنور والحكمة وجميع المواثيق إلى ببرز بن لاوي عليه السلام ومضى (صلى الله عليه).

قام ببرز بن لاوي بن يعقوب عليه السلام بأمر الله (جل وعز) يدبره على سبيل آبائه عليهم السلام، فروي أنه كان إذا وُلِدَ في بني إسرائيل كل واحدٍ منهم يدعي أنه هو ويُسمي عمران، ثم يأتي عمران ولد فيسمى الولد موسى، يتعرضون بذلك لقيام القائم موسى عليه السلام. فما ظهر موسى حتى خرج سبعون كذاباً (وروي خمسون) من بني إسرائيل كل واحدٍ منهم يدعي أنه هو.

واشتد أمر الغيبة في توقُّعه وانتظاره على بني إسرائيل، وكانوا يتجسسون من خبره بالليل والنهار، وغلظ عليهم سيرة فرعون وجنوده، فخرجوا في ليلة مقمرة إلى فقيه لهم، وكان الاجتماع عنده يتعدَّر عليهم ويخافون، فقالوا له: قد كنا نستريح إلى الأحاديث فحتى متى؟ فقال لهم: لا تزالون في هذا أبداً حتى يأتي الله بموسى بن عمران ويظهر في الأرض. وأخذ يصف لهم وجهه وطوله ولحيته وعلاماته إذ أقبل موسى عليه السلام وقد كان خرج إلى الصيد على بغلة له شهباء وعليه طيلسان خز، فوقف عليهم، فرفع العالم رأسه فنظر إليه فعرفه فوثب إليه، ثم قال له: ما اسمك يرحمك الله؟ فقال له: موسى بن عمران، فانكب على يده ورجله فقبلها، وثار القوم فقبلوا يده ورجله، وقالوا له: الحمد لله الذي لم يمتنا حتى أراناك. فلم يزد على أن قال: أرجو أن يُعجَّل لكم الفرج، فأنخذهم شيعة

١٠٢ شرح دعاء الندبة

من ذلك اليوم. ثم غاب بعد ذلك بضعة عشر سنة، ثم خرج من الدار إلى السفينة...^(١).

قصة عيسى عليه السلام:

المسيح عيسى بن مريم، (عيسو) بالعبرية القديمة، و(يشوع) بالعبرية المعاصرة، و(يسوع) في العهد الجديد، من أولي العزم من الرسل عليه السلام، أرسل إلى بني إسرائيل.

ورد ذكر عيسى عليه السلام في العديد من الآيات القرآنية، منها:

* قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (آل عمران: ٤٥ و ٤٦).

* وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ (الصف: ٦).

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ (آل عمران: ٥٩).

وورد ذكره عليه السلام في العديد من الروايات، منها:

علة خلقه عليه السلام من غير أب:

* في (عِلل الشرائع) بسنده عن أبي بصير، قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ خَلَقَ اللَّهُ ﷺ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَأُمِّ، وَخَلَقَ عِيسَى عليه السلام مِنْ غَيْرِ أَبِي،

(١) راجع: إثبات الوصية (ص ٤٩ - ٥٤)؛ والقصة مفصلة أخذنا منها موضع الحاجة مع تعديل العبارة بما يناسب الغرض من الشرح.

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٠٣
 وَخَلَقَ سَائِرَ النَّاسِ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ؟ فَقَالَ: «لِيَعْلَمَ النَّاسُ تَمَامَ قُدْرَتِهِ
 وَكَمَالِهَا، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا مِنْ أَنْثَى مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ، كَمَا هُوَ قَادِرٌ
 عَلَى أَنْ يَخْلُقَهُ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أَنْثَى، وَأَنَّهُ سَجَّكَ فَعَلَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ»^(١).

شبهاه الإمام الحجّة عليه السلام بعيسى عليه السلام:

ذكرت العديد من الروايات شبهاه الإمام الحجّة عليه السلام بالنبي عيسى عليه السلام،
 ومنها:

* في (كمال الدين) بسنده عن سدير الصيرفي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:
 «... وَأَمَّا غَيْبَةُ عَيْسَى عليه السلام فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّفَقَتْ عَلَى أَنَّهُ قُتِلَ، فَكَذَّبَهُمُ
 اللَّهُ (جَلَّ ذِكْرُهُ) بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]،
 كَذَلِكَ غَيْبَةُ الْقَائِمِ فَإِنَّ الْأُمَّةَ سَتُنَكِّرُهَا لِطَوْلِهَا، فَمِنْ قَائِلٍ يَهْدِي بَأَنَّهُ لَمْ يَلِدْ، وَقَائِلٍ
 يَقُولُ: إِنَّهُ يَتَعَدَّى إِلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ وَصَاعِدًا، وَقَائِلٍ يَعِصِي اللَّهَ سَجَّكَ بِقَوْلِهِ: إِنَّ رُوحَ
 الْقَائِمِ يَنْطِقُ فِي هَيْكَلِ غَيْرِهِ...»^(٢).

النقطة الثانية: أهمية هذه الأدوار في التأثير على الإيمان
 واكتساب التدين:

يؤثر هذا التنوع في الأدوار على الناس في تلقيهم للتدين وفي ثبات التدين،
 إذ يُعطيها مزيداً من القوة والصلابة في مواجهة الصعاب، والمرونة في حالة
 التعايش وتحمل المؤمنين، وعلى إثر ذلك يتنوع خطابنا للأفراد، فعندما نريد أن
 نُبين للناس حالة التشُّت والمخالفة وعصيان الأوامر نذكر ما حصل مع قوم

(١) عِلَلُ الشَّرَائِعِ (ج ١ / ص ١٥ / باب ١٢ / ح ١).

(٢) كَمَالُ الدِّينِ (ص ٣٥٤ و ٣٥٥ / باب ٣٣ / ح ٥٠).

موسى وهارون عليهما السلام، أمّا إذا أردنا أن ننظر حالة الصلابة والقوّة والمنعة الفرديّة فنذكر الدور الإبراهيمي، وكيف ثبت رغم كونه عليه السلام فرداً تجاه قومه، وإذا أردنا أن نخاطب الناس لأجل أن نكسبهم ونصبرهم ونشجّعهم نلاحظ حالة الصبر عند نوح عليه السلام ومطاولته مع قومه لما يقارب الألف سنة وعدم تملّله رغم قلّة ناصريه، وكذلك الحال مع موسى عليه السلام، فرغم لجاجة قومه وعنادهم إلاّ أنّه صبر عليهم وأحسن صحبتهم.

على أنّ هذه الأدوار وغيرها ممّا يأتي ذكرها إنّما هو للدلالة على وجودها عند أهل البيت عليهم السلام أولاً، وأنها تؤثر في فهم القضية المهدويّة من زوايا متعدّدة، إذ تنفع كثيراً الحالات المتنوّعة التي مرّ بها الأنبياء عليهم السلام في فهم القضية المهدويّة ومرورها بنفس هذه الحالات أو ما يشابهها، بل في بعض الأحيان بشكل أشدّ ممّا مرّ به بعض أتباع الأنبياء عليهم السلام من قلّة الناصر والاضطرار إلى الاختفاء والغيبة والتواري، كي يلتفت الناس إلى أنّ ما في الحجّة عليه السلام أشدّ ممّا جرى على الأنبياء عليهم السلام.

بل قد يقال: إنّ ما جرى على الأنبياء عليهم السلام هو لأجل ما سيجري على أهل البيت عليهم السلام.

ومن النصوص الدالّة على ذلك:

* في (كمال الدين) بسنده عن سدير الصيرفي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «... إنّ الله تبارك وتعالى أدار للقائم منّا ثلاثة أدارها في ثلاثة من الرسل عليهم السلام، قدّر مولده تقدير مولد موسى عليه السلام، وقدّر غيبته تقدير غيبة عيسى عليه السلام، وقدّر إبطاءه تقدير إبطاء نوح عليه السلام، وجعل له من بعد ذلك عمر العبد الصالح - أعني الخضر عليه السلام - دليلاً على عمره...»^(١).

* وفيه بسنده عن محمد بن مسلم الثقفني الطحّان، قال: دخلت على أبي

(١) كمال الدين (ص ٣٥٤ / باب ٣٣ / ح ٥٠).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٠٥

جَعَفَرُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنِ الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ)، فَقَالَ لِي مُبْتَدِئًا: «يَا مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمٍ، إِنَّ فِي الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ شَبَهَا مِنْ حَمْسَةِ مِنَ الرُّسُلِ: يُونُسَ بْنَ مَتَّى، وَيُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٍ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ)...»^(١).

* وفي (الغيبة للنعماني) بسنده عن أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «فِي صَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ سُنَّةٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أَنْبِيَاءَ: سُنَّةٌ مِنْ مُوسَى، وَسُنَّةٌ مِنْ عِيسَى، وَسُنَّةٌ مِنْ يُوسُفَ، وَسُنَّةٌ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ...»^(٢).

* * *

(١) كمال الدين (ص ٣٢٧ / باب ٣٢ / ح ٧).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ١٦٧ و ١٦٨ / باب ١٠ / فصل ٣ / ح ٥).

المبحث الثالث:

ضرورة إقامة

المنذر في كل قوم

الفقرة الثامنة

«وَكُلُّ شَرَعْتَ لَهُ شَرِيعَةً، وَنَهَجْتَ لَهُ مِنْهَاجًا، وَتَخَيَّرْتَ لَهُ أَوْصِيَاءَ، مُسْتَحْفِظًا بَعْدَ مُسْتَحْفِظٍ، مِنْ مُدَّةٍ إِلَى مُدَّةٍ».

بيان معنى الشريعة والمنهاج:

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الجن: ١٨).

* وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (المائدة: ٤٨).

ورود لفظة الشريعة في عدة آيات قرآنية يعكس اهتمام الشارع المقدس ببيان مفاد هذا المفهوم ومقدار تأثيره في الدين وعلى الناس في زاوية تعدد الشرائع، وما هي الأغراض التي رسمها من وراء هذا التعدد مع تيسر جعل الشرائع شريعة واحدة من قبله (عز اسمه).

قال الطريحي رحمه الله في (مجمع البحرين): ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ [الشورى: ١٣]، أي فتح لكم وعرفكم طريقه، قوله: ﴿شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، الشريعة - بالكسر - الدين، والشرع والشريعة مثله، مأخوذ من الشريعة وهو مورد الناس للاستسقاء، سُميت بذلك لوضوحها وظهورها، وجمعها شرائع. والمنهاج: الطريق الواضح المستقيم. فقوله: ﴿شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي ديناً وطريقاً واضحاً. قوله: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾، أي سنّة وطريقة، وقيل: على دين وملة ومنهاج^(١).

(١) مجمع البحرين (ج ٤ / ص ٣٥٢ / مادة شرع).

والشريعة هي جملة أحكام مجعولة، فإن كان مصدرها السماء بأن نزل بها الوحي سُميت شريعة سماوية، وإن كانت من وضع البشر سُميت وضعيّة.

قاعدة في المقام: الشريعة تحتاج إلى قانون ونظام:

والشريعة سواء جاءت عن طريق الوحي أو اخترعها الناس والمجتمعات تحتاج إلى المجتمعات كي تُنظّم شؤون الحياة فيها، فلا شريعة ونظام بلا بشر ينساقون وراء أحكامها ويتنفعون من قوانينها.

قال العلامة الطباطبائي رحمته الله في (تفسير الميزان): معنى الشريعة هي الطريقة والدين، وكذلك الملة طريقة متّخذة، لكن الظاهر من القرآن أنّه يستعمل الشريعة في معنى أخصّ من الدين كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ومع ملاحظة قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، يظهر أنّ الشريعة أخصّ.

ولعلّ ذلك لما في لفظ (الشريعة) من التلميح إلى المعنى الحدّثي، وهو تمهيد الطريق ونصبه، فمن الجائز أن يقال: الطريقة التي مهّدها الله، أو الطريقة التي مهّدت للنبيّ أو للأمة الفلانيّة، ولا يقال ذلك في الدين.

نعم في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الشورى: ١٣]، ظهور في احتواء شريعة النبيّ الخاتم رحمته الله جملة ممّا حوته الشرائع الأخرى، فلا ينافي القول باختصاص الشريعة بقوم أو جماعة، إذ الآية إنّما تدلُّ على أنّ شريعة محمد رحمته الله المشروعة لأُمَّته هي مجموع وصايا الله سبحانه لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى مضافاً إليها ما أوحاه إلى محمد رحمته الله، وهو كناية إمّا عن كون الإسلام جامعاً لمزايا جميع الشرائع السابقة وزيادة، أو عن كون الشرائع جميعاً ذات حقيقة واحدة بحسب اللبّ وإن كانت مختلفة بحسب اختلاف الأمم في الاستعداد.

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١١١

فمعنى الآية - والله أعلم - : لكل أمة جعلنا منكم (جعلاً تشريعياً) شرعةً ومنهاجاً، ولو شاء الله لأخذكم أمةً واحدة وشرع لكم شريعة واحدة، ولكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفة، واختلاف النعم كان يستدعي اختلاف الامتحان الذي هو عنوان التكليف والأحكام المجعولة، فلا محالة ألقى الاختلاف بين الشرائع^(١).

وقد ورد في العديد من الروايات الشريفة بيان الوجه من اختلاف الشرائع،

ومنها:

* في (الكافي) بسنده عن سَمَاعَةَ بْنِ مَهْرَانَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فَقَالَ: «نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ ﷺ»، قُلْتُ: كَيْفَ صَارُوا أُولِي الْعَزْمِ؟ قَالَ: «لِأَنَّ نُوحًا بُعِثَ بِكِتَابٍ وَشَرِيعَةٍ، وَكُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَ نُوحٍ أَخَذَ بِكِتَابِ نُوحٍ وَشَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ حَتَّى جَاءَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالصُّحُفِ وَبِعَزِيمَةِ تَرْكِ كِتَابِ نُوحٍ لَا كُفْرًا بِهِ، فَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَ بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَمِنْهَاجِهِ وَبِالصُّحُفِ حَتَّى جَاءَ مُوسَى بِالتَّوْرَةِ وَشَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ وَبِعَزِيمَةِ تَرْكِ الصُّحُفِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَ بِالتَّوْرَةِ وَشَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ حَتَّى جَاءَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِنْجِيلِ وَبِعَزِيمَةِ تَرْكِ شَرِيعَةِ مُوسَى وَمِنْهَاجِهِ، فَكُلُّ نَبِيٍّ جَاءَ بَعْدَ الْمَسِيحِ أَخَذَ بِشَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ حَتَّى جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ فَجَاءَ بِالْقُرْآنِ وَبِشَرِيعَتِهِ وَمِنْهَاجِهِ، فَحَلَّاهُ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَحَرَامُهُ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهَؤُلَاءِ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﷺ»^(٢).

* وفيه عن أَبِي بَانَ بْنِ عُثْمَانَ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «إِنَّ

(١) راجع: تفسير الميزان (ج ٥ / ص ٣٥٠ - ٣٥٣)، مع تصرف يقتضيه المقام.

(٢) الكافي (ج ٢ / ص ١٧ و ١٨ / باب الشرائع / ح ٢).

اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَعْطَىٰ مُحَمَّدًا ﷺ شَرَائِعَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِمَا
التَّوْحِيدَ وَالْإِخْلَاصَ وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ وَالْفِطْرَةَ الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ...»^(١).

الاستحفاظ وتخير الأوصياء من مدة إلى مدة:

الوصاية من سُنَنِ اللَّهِ ﷻ في خلقه، وعندما خلق آدم ﷺ - على ما مرَّ في
قَصَّتِهِ - كانت الوصاية من مهمَّاته ووظائفه، وفيما ذكرنا من أخبار تقدَّمت كفاية
إِلَّا أَنْ فِي بَعْضِهَا الْآتِي تَوْسِعَةٌ وَإِفَادَةٌ مَهْمَّةٌ، فَقَدْ وَرَدَ:

* في (أُمَالِي الصَّدُوقِ) بِسَنَدِهِ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
الصَّادِقِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّبِيِّينَ، وَوَصِيِّي سَيِّدُ
الْوَصِيِّينَ، وَأَوْصِيَائِي سَادَةُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنَّ آدَمَ ﷺ سَأَلَ اللَّهَ ﷻ أَنْ يُجْعَلَ لَهُ
وَصِيًّا صَالِحًا، فَأَوْحَىٰ اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِ: أَنِّي أَكْرَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ بِالنَّبُوَّةِ، ثُمَّ اخْتَرْتُ
خَلْقِي، وَجَعَلْتُ خِيَارَهُمُ الْأَوْصِيَاءَ. ثُمَّ أَوْحَىٰ اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِ: يَا آدَمُ، أَوْصِ إِلَىٰ
شَيْثٍ، فَأَوْصَىٰ آدَمُ إِلَىٰ شَيْثٍ...»^(٢).

* وفي (الكافي) بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ أَبِي الدَّيْلَمِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ
اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَوْصَىٰ مُوسَىٰ ﷺ إِلَىٰ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَأَوْصَىٰ يُوشَعَ بْنُ نُونٍ
إِلَىٰ وَلَدِ هَارُونَ، وَلَمْ يُوصِ إِلَىٰ وَلَدِهِ وَلَا إِلَىٰ وَلَدِ مُوسَىٰ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَهُ الْخَيْرَةُ
يَخْتَارُ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَبَشَّرَ مُوسَىٰ وَيُوشَعَ بِالْمَسِيحِ ﷺ، فَلَمَّا أَنْ بَعَثَ
اللَّهُ ﷻ الْمَسِيحَ ﷺ قَالَ الْمَسِيحُ لَهُمْ: إِنَّهُ سَوْفَ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي نَبِيٌّ اسْمُهُ أَحْمَدُ مِنْ
وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ ﷺ، يَجِيءُ بِتَصَدِيقِي وَتَصَدِيقِكُمْ، وَعُدْرِي وَعُدْرِكُمْ، وَجَرَتْ
مِنْ بَعْدِهِ فِي الْخَوَارِيِّينَ فِي الْمُسْتَحْفَظِينَ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَىٰ الْمُسْتَحْفَظِينَ لِأَنَّهُمْ

(١) الكافي (ج ٢ / ص ١٧ / باب الشرائع / ح ١).

(٢) أمالي الصدوق (ص ٤٨٦ و ٤٨٧ / ح ٦٦١ / ٣).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١١٣

أَسْتَحْفِظُوا الْأِسْمَ الْأَكْبَرَ، وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي يُعَلِّمُ بِهِ عِلْمَ كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي كَانَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) ...، ثُمَّ أَتَاهُ جِبْرِئِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ قَضَيْتَ نُبُوتَكَ، وَاسْتَكْمَلْتَ أَيَّامَكَ، فَاجْعَلِ الْأِسْمَ الْأَكْبَرَ وَمِيرَاثَ الْعِلْمِ وَأَثَارَ عِلْمِ النُّبُوَّةِ عِنْدَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنِّي لَمْ أَتْرِكِ الْأَرْضَ إِلَّا وَوَلِيَّ فِيهَا عَالِمٌ تُعْرِفُ بِهِ طَاعَتِي وَتُعْرِفُ بِهِ وَلَا تِيَّ وَيَكُونُ حُجَّةً لِمَنْ يُؤَلِّدُ بَيْنَ قَبْضِ النَّبِيِّ إِلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ الْآخِرِ...»^(١).

وقد ذكرنا في وصية آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام ما يبيِّن مُدَدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ، وَأَتَمَّ تَوَارِثُونَ الْأَمْرَ مِنْ مَدَّةٍ إِلَى مَدَّةٍ، عَلَى مَا يَأْتِي أَيْضًا فِي الْفَقَرَاتِ الْآتِيَةِ.

قاعدة في المقام: وجود الشريعة سنة إلهية:

وجود الشرائع سنة إلهية تفتح مجال الرقي المعنوي، بل والمادي للإنسان، وأن هذه السنة في سوق العباد نحو المعبود لا انقطاع لها^(٢)، ويقف إلى جانب هذه السنة سنة أخرى وهي سنة التخير والاستحفاظ، فحيثما الشريعة والمنهج موجود فلا بد للمستحفظ لها والوصي القائم بها من وجود، وأن جميل ما في هذا الأمر أنه حتى الكتب اللغوية قد أشارت إلى هذه الحقيقة في إضمام وجود الشريعة إلى ضرورة وجود المستحفظ لها، فعدم الانفكاك بين الاثنين ليس فقط أمراً عقلياً وعرفياً وشرعياً، بل أمراً أدبياً ولغوياً كما ساقته إلينا السنة العرب. ففي مادة (شرع) من كتاب (لسان العرب) أن العرب لا تسمي الشريعة بشرية حتى يكون مائها لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يسقى بالرشاء^(٣).

(١) الكافي (ج ١ / ص ٢٩٣ - ٢٩٦ / باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام / ح ٣).

(٢) في الكافي (ج ١ / ص ٥٨ / باب البدع والرأي والمقائيس / ح ١٩) بسنده عن زرارة، قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنْ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، فَقَالَ: «حَلَالٌ مُحَمَّدٌ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَكُونُ غَيْرُهُ، وَلَا يَجِيءُ غَيْرُهُ».

(٣) لسان العرب (ج ٨ / ص ١٧٥ / مادة شرع).

وهذه هي الحقيقة، فالنهج الواضح المستبين الذي يضيء لنا الطريق لا بد أن يكون دائماً معيناً لا انقطاع له، وهو ذلك الذي تخيّر لنا الله سبحانه وتعالى، وجعله مستحفظاً بيد الأوصياء وعلى طول الزمان، ومن مدّة إلى مدّة، فالاستحفاظ الذي يعني لغة الحراسة والوكالة بالشيء والمواظبة والذب عنه إنّما هو سُنّة ينصّ عليها هذا الدعاء، لا تبديل عنها ولا تحويل.

سُنّة الاستحفاظ، وأنّه نهج إلهي متخيّر، حقيقة قرآنيّة، كما هي نبويّة وولويّة، فالإشارات القرآنيّة إلى كون الشرائع لا تكون إلّا بوجود هادٍ وقيم بيّنة بلا أدنى شك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧).

أمّا في البعد النبوي لهذه الحقيقة فيحدثنا حديث الاستحفاظ بين العترة والقرآن، وأنّ ثقل أهل البيت عليهم السلام وثقل القرآن الكريم بينهما تلازم دائم، وربط به يرتبط الدين بالقرآن والعترة، حيث جاء في الحديث المشهور: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَرْدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»^(١). وهذا دليل على حقانيّة ما يعتقده أتباع أهل البيت عليهم السلام من ضرورة أن يكون لكلّ نبيٍّ أوصياء حفظة^(٢).

وهذه الحقيقة الندبيّة تُثبت أنّ التشريع والاستحفاظ والتخيّر متلازمان ولا تخلو مدّة من وجودهما معاً.

* * *

(١) كمال الدين (ص ٢٣٤ / باب ٢٢ / ح ٤٤).

(٢) في نصّ يُذكر فيه أسماء الأوصياء من لدن آدم عليه السلام جاء فيه: «... ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَدَفَعَهَا إِلَيَّ بُرْدَةً، وَأَنَا أَذْفَعُهَا إِلَيْكَ يَا عَلِيُّ، وَأَنْتَ تَدْفَعُهَا إِلَيَّ وَصِيَّكَ، وَيَدْفَعُهَا وَصِيَّكَ إِلَيَّ أَوْصِيَّائِكَ مِنْ وُلْدِكَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّىٰ تُدْفَعَ إِلَىٰ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَكَ...». كمال الدين (ص ٢١٣ / باب ٢٢ / ح ١).

الفقرة التاسعة

«إِقَامَةٌ لِدِينِكَ، وَحُجَّةٌ عَلَىٰ عِبَادِكَ، وَلِتَلَّا يَزُولَ الْحَقُّ عَنْ مَقَرِّهِ، وَيَغْلِبَ الْبَاطِلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَلَا يَقُولَ أَحَدٌ لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا مُنْذِرًا وَأَقَمْتَ لَنَا عِلْمًا هَادِيًا فَتَتَّبَعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْرَىٰ».

ورد ذكر هذه الفقرة في العديد من الآيات في القرآن الكريم، منها:
* قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧).
تتحدث هذه الفقرة عن بقاء الحق واستمراريته ودوامه، وأن هناك أعلاماً للهداية يُستنار بهم ﷺ لسلوك درب الحق.

وفي مقابل ذلك وعلى نهج السنن الكونية الإلهية وُجدَ الطريق الآخر، وهو طريق الباطل، وكذلك وُجدَ له أعلام ضلال غايتهم إبعاد الناس وحرفهم عن طريق الحق، كي يسلكوا بهم دروب الباطل والضلال والانحراف.

والذي يؤمن للإنسان حالة الاستقرار في طريق الحق هو الشاخص الذي تحدّثت عنه الفقرة، وهو الرسول ﷺ الذي يقوم بوظيفة بيان الحق أولاً، وبيان طريق الباطل ثانياً، ويضع لطريق الحق موازين إذا تمسك الناس بها لن يزولوا عن طريق الحق، بينما إذا تخلّوا عن ذلك ولم يتمسكوا بها فإنهم سيزولون عن طريق الحق ويتجهون إلى طريق الضلال، وينتهي بهم الحال إلى السقوط في ظلمات الانحراف والتهيه عن العقيدة الحقة، واتباع الفتنة والباطل.

بحث قرآني وروائي مرتبط بمقام إقامة الحجّة والهادي والمنذر:
قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤).

دلالة الآية على التلازم بين إرسال الرُّسل ووجود المنذر الهادي لهداية الناس إلى الحقِّ والدين بيّنة وظاهرة، فلا وجه للاستغراب من وجود النذير في كلِّ أُمَّة بعد وجود الشريعة المرتبطة بالله تعالى وبالسماء، لوضوح الحاجة إلى البيان والهداية، فإنَّ من سُنن الله تعالى وجود المنذر بنصِّ الآية المتقدمة، وأشارت العديد من الروايات إلى هذه السُنَّة وضرورة وجودها، ومن بينها:

* في (الكافي) بسنده عن أبي جعفرٍ عليه السلام، قال: «يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ، خَاصِمُوا بِسُورَةِ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ تَفَلُّجُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّهَا حُجَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْخَلْقِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّهَا لَسَيِّدَةُ دِينِكُمْ، وَإِنَّهَا لَعَايَةُ عِلْمِنَا. يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ، خَاصِمُوا بِـ ﴿حَم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ [الدخان: ١ - ٣]، فَإِنَّهَا لِيُؤَلِّهِ الْأَمْرَ خَاصَّةً بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. يَا مَعْشَرَ الشَّيْعَةِ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]»، قِيلَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، نَذِيرُهَا مُحَمَّدٌ ﷺ؟ قَالَ: «صَدَقْتَ، فَهَلْ كَانَ نَذِيرٌ وَهُوَ حَيٌّ مِنْ الْبِعْثَةِ فِي أَفْطَارِ الْأَرْضِ؟»، فَقَالَ السَّائِلُ: لَا، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «أَرَأَيْتَ بَعِيثُهُ؟ أَلَيْسَ نَذِيرُهُ كَمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعِيثِهِ مِنْ اللَّهِ ﷻ نَذِيرٌ؟»، فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَكَذَلِكَ لَمْ يَمُتْ مُحَمَّدٌ إِلَّا وَلَهُ بَعِيثٌ نَذِيرٌ»، قَالَ: «فَإِنْ قُلْتَ: لَا، فَقَدْ ضَيَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ مِنْ أُمَّتِهِ»، قَالَ: وَمَا يَكْفِيهِمُ الْقُرْآنُ؟ قَالَ: «بَلَى إِنْ وَجَدُوا لَهُ مُفَسِّرًا»، قَالَ: وَمَا فَسَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: «بَلَى قَدْ فَسَّرَهُ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، وَفَسَّرَ لِلْأُمَّةِ شَأْنَ ذَلِكَ الرَّجُلِ، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام»، قَالَ السَّائِلُ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، كَانَ هَذَا أَمْرٌ

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١١٧

خَاصُّ لَا يَخْتَمِلُهُ الْعَامَّةُ، قَالَ: «أَبَى اللَّهُ أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا سِرًّا حَتَّى يَأْتِيَ إِبَانُ أَجَلِهِ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ دِينُهُ كَمَا أَنَّهُ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ مَعَ خَدِيجَةَ مُسْتَتِرًا حَتَّى أُمِرَ بِالْإِعْلَانِ»، قَالَ السَّائِلُ: يَنْبَغِي لِصَاحِبِ هَذَا الدِّينِ أَنْ يَكْتُمَ، قَالَ: «أَوْ مَا كَتَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ أَسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَهَرَ أَمْرُهُ؟»، قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَكَذَلِكَ أَمَرْنَا حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ»^(١).

إشكالية نفي عموم الإنذار والجواب عنها:

إِنْ قُلْتَ: فَكَيْفَ نَفَعَلَ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (يس: ٦)، فَهِيَ قَدْ نَفَتْ عُمُومِيَّةَ الْإِنذَارِ لِكُلِّ قَوْمٍ وَفِي كُلِّ زَمَانٍ؟
قُلْتُ:

١ - لَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَا أَنَّ قَوْمَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا قَارَبَ زَمَانَ بَعَثْتَهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمُ النَّذِيرَ، لِخُصُوصِيَّةِ مَا، لَا أَنَّهَا تَنْفِي النَّذِيرَ مُطْلَقًا، كَيْفَ وَالآيَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ نَصَّتْ عَلَيْهِ؟!

فَالآيَةُ خَاصَّةٌ بِقَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَتُخَصِّصُ ذَاكَ الْعُمُومَ وَتَلِكِ السُّنَّةُ الْإِلَهِيَّةُ.
٢ - لَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَا أَنَّ النَّذِيرَ الَّذِي كَانَ يَأْتِي إِلَى الْعَرَبِ لَيْسَ مِنْهُمْ وَمِنْ قَوْمِيَّتِهِمْ، كِابِرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَهَوَ لَا لَيْسُوا مِنَ الْعَرَبِ، وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا مُحَمَّدَ أَوَّلَ نَذِيرٍ لِلْعَرَبِ مِنْهُمْ.

٣ - دَلَّتْ بَعْضُ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ عَلَى تَوَاتُرِ النَّذِيرِ وَاسْتِمْرَارِهِ إِلَى زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ، فَالْمَقْصُودُ لَا نَذِيرَ بِعَنْوَانِ النَّبُوءَةِ أَوْ بِعَنْوَانِ الْإِمَامَةِ مِثْلًا، وَلَيْسَ لَا نَذِيرَ مُطْلَقًا، وَمِنْ تَلِكِ الرِّوَايَاتِ:

* فِي (نَهْجِ الْبَلَاغَةِ): «... فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ،

(١) الكافي (ج ١ / ص ٢٤٩ و ٢٥٠ / باب في شأن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وتفسيرها / ح ٦).

لَيْسَتْ أَدْوَاهُ مِيثَاقِ فِطْرَتِهِ، وَيَذَكِّرُوهُمْ مَنْبِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمُ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمُ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرَوِّهُمُ آيَاتِ الْمَقْدَرَةِ، مِنْ سَقْفِ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَمَهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَمَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَأَجَالَ تُمْنِيهِمْ، وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُحَلِّ اللهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ حُجَّةٍ قَائِمَةٍ...»^(١).

* وفيه بسنده عن دُرُسْتِ بْنِ أَبِي مَنْصُورٍ أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا الْحَسَنِ الْأَوَّلَ عليه السلام: أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَحْجُوجًا بِأَبِي طَالِبٍ؟ فَقَالَ: «لَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُسْتَوْدَعًا لِلْوَصَايَا، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ ﷺ»، قَالَ: قُلْتُ: فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْوَصَايَا عَلَى أَنَّهُ مَحْجُوجٌ بِهِ؟ فَقَالَ: «لَوْ كَانَ مَحْجُوجًا بِهِ مَا دَفَعَ إِلَيْهِ الْوَصِيَّةَ»، قَالَ: فَقُلْتُ: فَمَا كَانَ حَالُ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالَ: «أَقْرَبَ بِالنَّبِيِّ وَبِمَا جَاءَ بِهِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْوَصَايَا وَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ»^(٢).

* وفي (كمال الدين) بسنده عن مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ دُوَالِ دُوزِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَنَا سَيِّدُ النَّبِيِّينَ، وَوَصِيِّ سَيِّدِ الْوَصِيِّينَ، وَأَوْصِيَاؤُهُ سَادَةُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنْ آدَمَ عليه السلام سَأَلَ اللهُ ﷻ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ وَصِيًّا صَالِحًا، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إِلَيْهِ: أَنِّي أَكْرَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ بِالنُّبُوَّةِ، ثُمَّ اخْتَرْتُ خَلْقِي فَجَعَلْتُ خِيَارَهُمُ الْأَوْصِيَاءَ، فَقَالَ آدَمُ عليه السلام: يَا رَبِّ، فَاجْعَلْ وَصِيِّي خَيْرَ الْأَوْصِيَاءِ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إِلَيْهِ: يَا آدَمُ، أَوْصِ إِلَى شَيْثٍ، وَهُوَ هَبَّةُ اللهِ ابْنُ آدَمَ، فَأَوْصِ آدَمَ إِلَى شَيْثٍ، وَأَوْصِ شَيْثٌ إِلَى ابْنِهِ...، وَدَفَعَهَا زَكَرِيَّا إِلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، وَأَوْصِ عِيسَى إِلَى شَمْعُونِ بْنِ حَمُّونَ الصَّفَا، وَأَوْصِ شَمْعُونُ إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، وَأَوْصِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا إِلَى مُنْذِرٍ، وَأَوْصِ مُنْذِرٌ

(١) نهج البلاغة (ص ٤٣ / الخطبة ١).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٤٤٥ / باب مولد النبي ﷺ ووفاته / ح ١٨).

الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١١٩

إِلَى سُلَيْمَةَ، وَأَوْصَى سُلَيْمَةَ إِلَى بُرْدَةَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَدَفَعَهَا إِلَيَّ
بُرْدَةُ، وَأَنَا أَدْفَعُهَا إِلَيْكَ يَا عَلِيُّ، وَأَنْتَ تَدْفَعُهَا إِلَيَّ وَصِيَّكَ، وَيَدْفَعُهَا وَصِيَّكَ
إِلَى أَوْصِيَاءِكَ مِنْ وُلْدِكَ، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى تُدْفَعَ إِلَى خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ
بَعْدَكَ...»^(١).

فهذه الأخبار دالة على تواتر الحجج ووجود الأوصياء في الأمم.

* * *

(١) كمال الدين (ص ٢١١ - ٢١٣ / باب ٢٢ / ح ١).

المبحث الرابع:

اصطفاء النبي الأكرم ﷺ

وخصائصه ووظائفه

الفقرة العاشرة

«إِلَى أَنْ أَنْتَهَيْتَ بِالْأَمْرِ إِلَى حَبِيبِكَ وَنَحِيبِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَكَانَ
كَمَا أَنْتَجَبْتَهُ سَيِّدَ مَنْ خَلَقْتَهُ، وَصَفْوَةَ مَنْ إِصْطَفَيْتَهُ، وَأَفْضَلَ
مَنْ إِجْتَبَيْتَهُ، وَأَكْرَمَ مَنْ اعْتَمَدْتَهُ، قَدَّمْتَهُ عَلَى أَنْبِيَائِكَ، وَبَعَثْتَهُ
إِلَى الثَّقَلَيْنِ مِنْ عِبَادِكَ».

الحديث في هذه الفقرة عن ولاية النبي ﷺ ورسالته وانتجابه وتفضيله وإكرامه وتقديمه واعتماده، لا يسعه أو تستوفيه كُتُب أو مجلِّدات، فضلاً عن مختصر كحديثنا هذا، فقد سَطَّرَتْ كُتُب السِّير والحديث والتاريخ مكارمه وفضائله وشمائله وخصائصه، ولكننا نتحدَّث وضمن شرح فقرات هذا الدعاء المبارك في نقاط:

النقطة الأولى: ضرورة النبوة:

ذكرت العديد من الروايات ضرورة النبوة، ومما ورد:

* في (الكافي) بسنده عن هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِلزُّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ أَثَبَّتَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؟ قَالَ: «إِنَّا لَمَّا أَثَبَّتْنَا أَنْ لَنَا خَالِقًا صَانِعًا مُتَعَالِيًا عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيمًا مُتَعَالِيًا، لَمْ يَجْزُ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ، وَلَا يُلَامِسُوهُ فَيَبْأَشِرُهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ، وَيُحَاجُّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ، ثَبَّتَ أَنْ لَهُ سَفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ، يُعْبِرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِهِ فَنَآؤُهُمْ، فَثَبَّتَ الْأَمْرُونَ وَالنَّاهُونَ

عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ، وَالْمُعَبَّرُونَ عَنْهُ (جَلَّ وَعَزَّ)، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، حُكَمَاءَ مُؤَدِّبِينَ بِالْحِكْمَةِ، مَبْعُوثِينَ بِهَا غَيْرَ مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ عَلَى مُشَارَكَتِهِمْ لَكُمْ فِي الْخَلْقِ وَالْتَّرَكِيبِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، مُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ بِالْحِكْمَةِ، ثُمَّ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ مِمَّا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ، لِكَيْلَا تَخْلُوَ أَرْضُ اللَّهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ»^(١).

* وفيه بسنده عن منصور بن حازم، قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنَّ اللهَ أَجَلٌ وَأَكْرَمٌ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ بِخَلْقِهِ، بَلِ الْخَلْقُ يُعْرَفُونَ بِاللَّهِ، قَالَ: «صَدَقْتَ»، قلتُ: إنَّ مَنْ عَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ لِدَيْكَ الرَّبَّ رِضًا وَسَخَطًا، وَأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ رِضَاهُ وَسَخَطُهُ إِلَّا بِوَحْيٍ أَوْ رَسُولٍ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِهِ الْوَحْيُ فَقَدْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ الرُّسُلَ، فَإِذَا لَقِيَهُمْ عَرَفَ أَنَّهُمْ الْحُجَّةُ، وَأَنَّ لَهُمُ الطَّاعَةَ الْمُفْتَرَضَةَ، وَقُلْتُ لِلنَّاسِ: تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ هُوَ الْحُجَّةَ مِنْ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ؟ قَالُوا: بَلَى...»^(٢).

النبي محمد ﷺ أفضل الخلق جميعاً:

فيما يرتبط بعقيدتنا به ﷺ، وأنه أفضل الخلق طراً، فهو مما دلَّت عليه العديد من الأدلة الروائية، ومنها:

* في (علل الشرائع) بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي، عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٦٨ / باب الاضطرار إلى الحجَّة / ح ١).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٦٨ و ١٦٩ / باب الاضطرار إلى الحجَّة / ح ٢).

الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٢٥

أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَفْضَلَ مِنِّي، وَلَا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنِّي، قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْتَ أَفْضَلُ أَمْ جَبْرَائِيلُ؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَضَّلَ أَنْبِيَاءَهُ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ، وَفَضَّلَنِي عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْفَضْلُ بَعْدِي لَكَ يَا عَلِيُّ وَلِلْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِكَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَخُدَّامُنَا وَخُدَّامُ مُحِبِّينَا...»^(١).

والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

كما جاءت كلمات جملة من أكابر الطائفة لترجم هذه العقيدة، ومنهم ما قاله الشيخ الصدوق عليه السلام: (وليس في الأنبياء خير من النبي محمد ﷺ، ولا في الأوصياء أفضل من أوصيائه، ولا في الأمم أفضل من هذه الأمة الذين هم شيعة أهل بيته في الحقيقة دون غيرهم، ولا في الأشرار شرٌّ من أعدائهم والمخالفين لهم)^(٢).

النقطة الثانية: خصائص الأنبياء ونبوته ﷺ بالخصوص:

وهي عديدة ذُكرت تفصيلاتها في علم الكلام، ومنها:

الأولى: العصمة:

وقد دلّت على وجوب عصمة النبيّ العديد من الأدلّة القرآنيّة والروائيّة

وغيرها، منها:

* قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

(النجم: ٣ و ٤).

* قال الشيخ الصدوق عليه السلام: (وجوب عصمة الإمام: ولقوله ﷺ: ﴿وَإِذْ

(١) عِلَلُ الشَّرَائِعِ (ج ١ / ص ٥ - ٧ / باب ٧ / ح ١).

(٢) الاعتقادات في دين الإماميّة (ص ٨٨).

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿البقرة: ٣٠﴾...، أَنَّهُ ﷺ لَا يستخلف إلا مَنْ له نقاء السريرة ليبعد عن الخيانة، لأنّه لو اختار مَنْ لا نقاء له في السريرة كان قد خان خلقه، لأنّه لو أنّ دَلَالاً قَدَّمَ حَمَالاً خَائِئاً إِلَى تاجر، فحمل له حملاً فخان فيه كان الدلال خائناً، فكيف تجوز الخيانة على الله ﷻ وهو يقول - وقوله الحق -: ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥٢]، وأدب محمداً ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥]، فكيف وأنّى يجوز أن يأتي ما ينهى عنه، وقد عير اليهود بسمة النفاق، وقال: ﴿اتُّمِرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]؟^(١).

الثانية: الوحي:

مما يميّز به الأنبياء ﷺ كمصدر من مصادر العلم والمعرفة هو الوحي، والنصوص عليه لا تخفى، وهي كثيرة، منها:

* قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (النجم: ١٠).

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠).

الثالثة: العلم الخاص، وعلم الغيب:

* وقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦١﴾﴾ إلا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴿الجن: ٢٦ و ٢٧﴾.

الرابعة: التنزه عن دناءة الآباء وعهر الأمهات:

لما للبيت الطاهر من أثر كبير في تكوين شخصية النبي، كما أنّ الناس لا تنجذب إلى شخص جاء من بيئة موبوءة، على أنّ جملة من الخصائص تُكتسب بالوراثة.

(١) كمال الدين (ص ١٠).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٢٧

وما دلَّ على ذلك من الروايات - وهي عديدة -:

* في (كمال الدين) بسنده عن سليم بن قيس رضي الله عنه في حادثة طويلة عن أمير المؤمنين عليه السلام، جاء فيها: «... أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي نِلْتُمْ بِهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِمْ، وَأَنَّ ابْنَ عَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي وَأَهْلُ بَيْتِي كُنَّا نُورًا يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ عليه السلام بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَلَمَّا خَلَقَ آدَمَ عليه السلام وَضَعَ ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ حَمَلَهُ فِي السَّفِينَةِ فِي صُلْبِ نُوحٍ عليه السلام، ثُمَّ قَذَفَ بِهِ فِي النَّارِ فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ ﷻ يَنْقُلُنَا مِنَ الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ، وَمِنَ الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ إِلَى الْأَصْلَابِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، لَمْ يَلْتَقِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى سِفَاحِ قَطُ؟»، فَقَالَ أَهْلُ السَّابِقَةِ وَالْقَدَمَةِ وَأَهْلُ بَدْرِ وَأَهْلُ أُحُدٍ: نَعَمْ قَدْ سَمِعْنَا ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... (١).

الخامسة: سلامة الخلق:

ويُقصد بها سلامته من التشوُّه، ومن الأمراض الموجبة لتنفُّر الناس عنه كالجدام والبرص وغيرها، فالأنبياء عليهم السلام في خلقهم وخلقهم على غاية الكمال.

السادسة: كمال العقل:

* في (الكافي) بسنده عن أحمد بن محمد بن خالد، عن بعض أصحابه رَفَعَهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... وَلَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا حَتَّى يَسْتَكْمَلَ الْعَقْلَ، وَيَكُونَ عَقْلُهُ أَفْضَلَ مِنْ جَمِيعِ عُقُولِ أُمَّتِهِ...» (٢).

(١) كمال الدين (ص ٢٧٥ / باب ٢٤ / ح ٢٥).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٢ و ١٣ / كتاب العقل والجهل / ح ١١).

وظائف الأنبياء ﷺ:

وهي عديدة، منها:

١ - إثبات التوحيد والأمر بالعبادة: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

٢ - التزكية، التعليم، الحكمة، تلاوة الآيات: قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ (البقرة: ١٥١).

٣ - إقامة الحجّة على الناس والتبشير والإنذار: قال تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

٥ - إحياء الأمة: قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤).

وهناك العديد من الوظائف.

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٢٩

بعثة النبي ﷺ عامة شاملة:

من ضرورات العقيدة أن بعثة النبي ﷺ كانت عامة وشاملة ولم تختص ببعضهم، وأن دينه الذي أرسل به هو الدين العام للجميع، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ: ٢٨).

وقد دلّ على ذلك جملة من الروايات، منها:

* في (الكافي) بسنده عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إن الله أرسل محمداً ﷺ إلى الجن والإنس، وجعل من بعده اثني عشر وصياً، منهم من سبق ومنهم من بقي، وكل وصي جرت به سنة، والأوصياء الذين من بعد محمد ﷺ على سنة أوصياء عيسى وكانوا اثني عشر، وكان أمير المؤمنين عليه السلام على سنة المسيح»^(١).

* وفيه بسنده عن صفوان بن يحيى، قال: سألتني أبو قرّة المحدث أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام، فاستأذنته في ذلك، فأذن لي، فدخل عليه، فسأله عن الحلال والحرام والأحكام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرّة: «إننا رؤينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبين، فقسم الكلام لموسى ومحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، و﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، أليس محمداً؟»، قال: بلى، قال: «كيف يحيى رجلاً إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، و﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾»، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ثم يقول: أنا رأيته بعيني، وأحطت به علماً،

(١) الكافي (ج ١ / ص ٥٣٢ / باب فيها جاء في الاثني عشر والنص عليهم عليه السلام / ح ٩).

١٣٠ شرح دعاء الندبة

وَهُوَ عَلَى صُورَةِ الْبَشَرِ؟ أَمَا تَسْتَحُونَ؟! مَا قَدَرْتَ الزَّنَادِقَةَ أَنْ تَرْمِيَهُ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ يَأْتِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِشَيْءٍ ثُمَّ يَأْتِي بِخِلَافِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ...»^(١).

وهذا الخبر النفيس دلّ على مطلبنا، وعلى ما هو دقيق في مسألة النظر وكيفية التعامل في مسائل العقيدة مع الخبر، لذلك نقلناه بطوله ولم نقصر على شاهده.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

صفات النبي ﷺ وآثارها:

الملاحظ أنّ دعاء الندبة من أكبر الملاحم الدعائية، ومن أكثر الألواح الدينية والوجدانية التي رسمها أهل البيت عليهم السلام، وهذا الدعاء المبارك يتحدث عن النبي محمد ﷺ من خلال جملة من الصفات والسمات التي تؤثر على الإجابة، وتؤسس لحالة النذب في كل فقرة من فقرات الدعاء، وأثرها على وجدان الداعي، ومكانتها عند المدعو له وهو الإمام المهدي عليه السلام، وكيفية تأثيرها عليه.

وعليه فينبغي عدم قصر النظر على أنّ ما ناله ﷺ من كمالات جاءت بسبب ما قام به ﷺ في عالم وجوده الجسماني والمادّي، فهذا الوجود الجسماني الذي عاش في زمن محدود لا يمكن أن يكون - بحالٍ من الأحوال ومهما طالت فترة وجوده في هذا العالم المحدود - ما هو سبب نيل تلك الكمالات التي لم يتّصف بها أحد غيره من البشر طرّاً، بل لا بدّ من أن يُنظر إليه من خلال مجموع صفاته ﷺ التي تحدّث عنها الأئمة عليهم السلام مترجمون الآيات القرآنية، وخلاصتها أنّه ﷺ أفضل الخلق.

(١) الكافي (ج ١ / ص ٩٥ و٩٦ / باب في إبطال الرؤية / ح ٢).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٣١

فالدعاء المقدس يُعطي للداعي نحوين من الصفات تحلّي بهما النبي ﷺ،
منها ما وُجدَ بوجوده ولاحظها مَنْ خالطه، ومنها ما خفيت على الناس
ووصفَ بها، بل التي سيُتَّصف بها عند وجود رجعتة، والتي سيتحدّث عنها
المقطع الآتي.

* * *

الفقرة الحادية عشر

«وَأَوْطَأْتُهُ مَشَارِقَكَ وَمَغَارِبِكَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ الْبُرَاقَ، وَعَرَجْتَ
(بِهِ) بِرُوحِهِ إِلَى سَمَائِكَ، وَأَوْدَعْتَهُ عِلْمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إِلَى
إِنْقِضَاءِ خَلْقِكَ».

وطء النبي ﷺ للمشارق والمغارب:

تحدّثت هذه الفقرة عن الآثار التي أوجبها الله سبحانه وتعالى للنبي
الأكرم ﷺ، وما تترتّب على تلك الآثار، فبعد أن جعل الله تعالى فيه ﷺ أعلى
صفات الكمال، ووضع منه ﷺ بأقرب مراتب القرب، كان لهذه الصفات وهذا
القرب آثار قهرية وآثار اختيارية، وآثار آنية وآثار مستقبلية، تحدّثت عن بعضها
هذا المقطع المبارك من الدعاء، وفي كونه ﷺ قد أوطئ مشارق الكون ومغاربه
وليس مشارق الأرض فقط أو مغاربهها. وكونه كذلك ﷺ وإن لم يكن فعلياً،
بمعنى أنّه مارس إرادته وسلطته الفعلية على المشارق والمغارب، إلّا أنّ المقطع
الآخر الذي يتحدّث عن وعد الإظهار للدين يُعطي تفسيراً لهذا المقطع، فإنّ
النبي الأكرم ﷺ - بعد أن أثبت هذا المقطع ذلك - له هذه الحالة من الشمولية
والسلطنة إلّا أنّ الممارسة الفعلية ليست بالضرورة أن تكون فعلية وبِنفسه، بل

اقتضت الحكمة الإلهية أن تُفعل هذه الحالة على يد الإمام المهدي عليه السلام من خلال الوعد للنبي صلى الله عليه وآله بذلك، إذ تبرز حالة الإظهار الفعلي.

ومما دلّ من الروايات الشريفة عن حقيقة وطئ النبي صلى الله عليه وآله للمشاركة

والمغارب - وهي كثيرة - الآتي:

* في (تفسير القمي) بسنده عن عبد الله بن بكير الدجاني، قال: قال لي الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «أخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وآله كان عاماً للناس بشيراً؟ أليس قد قال الله في محكم كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، لأهل الشرق والغرب وأهل السماء والأرض من الجن والإنس...»^(١).

* وفي (إثبات الوصية): روي عن آمنة بنت وهب أنها قالت: (لما قربت ولادته صلى الله عليه وآله رأيت جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي، وكان قد دخلني رعب، فذهبت الرعب عني...، ثم كشف الله لي عن بصري ساعتئذ تلك، فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، وسمعت منادياً ينادي: طوفوا بمحمد صلى الله عليه وآله المشرق والمغرب، واغرضوه على روحاني الجن والإنس والطير والسباع، وأعطوه صفاء آدم، وريقة نوح، وحلة إبراهيم، ولسان إسماعيل، وجمال يوسف، وبشرى يعقوب، وصوت داود، وصبر أيوب، وزهد يحيى، وكرم عيسى. ثم انكشف عنه، فإذا أنا به وبيده حريرة خضراء قد طويت طياً شديداً، وقد قبض عليها وقائل يقول: قد قبض محمد صلى الله عليه وآله على الدنيا كلها، لم يبق شيء إلا دخل في قبضته...)^(٢).

وقد دلت جملة من الأخبار أن هذا الوطاء سيتحقق جلياً للعيان ويراه

الناس زمان ظهور الحجة الغائب عليه السلام، ومما دلّ على ذلك:

* في (كمال الدين) بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي، عن علي بن

(١) تفسير القمي (ج ٢ / ص ٢٠٢ و ٢٠٣).

(٢) إثبات الوصية (ص ١١١ و ١١٢).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٣٣

مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَفْضَلَ مِنِّي، وَلَا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنِّي، قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْتَ أَفْضَلُ أَمْ جَبْرَائِيلُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَضَّلَ أَنْبِيَاءَهُ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَلَائِكَتِهِ الْمُرَبَّبِينَ، وَفَضَّلَنِي عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْفَضْلُ بَعْدِي لَكَ يَا عَلِيُّ وَلِلْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِكَ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَخُدَامُنَا وَخُدَامُ مُحِبِّينَا...، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، وَمَنْ أَوْصِيَائِي؟ فَنُودِيْتُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ أَوْصِيَاءَكَ الْمَكْتُوبُونَ عَلَى سَاقِ الْعَرْشِ، فَظَنَرْتُ - وَأَنَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي - إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ، فَرَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ نُورًا، فِي كُلِّ نُورٍ سَطْرٌ أَخْضَرٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِسْمُ كُلِّ وَصِيٍّ مِنْ أَوْصِيَائِي، أَوْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَآخِرُهُمْ مَهْدِيُّ أُمَّتِي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، أَهَؤُلَاءِ أَوْصِيَائِي مِنْ بَعْدِي؟ فَنُودِيْتُ: يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ أَوْلِيَائِي وَأَحِبَّائِي وَأَصْفِيَائِي وَحُجَجِي بَعْدَكَ عَلَى بَرِيَّتِي، وَهُمْ أَوْصِيَاؤُكَ وَخُلَفَاؤُكَ وَخَيْرُ خَلْقِي بَعْدَكَ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لِأُظْهِرَنَّ بِهِمْ دِينِي، وَلَا أَعْلِينَ بِهِمْ كَلِمَتِي، وَلَا أَطْهَرَنَّ الْأَرْضَ بِآخِرِهِمْ مِنْ أَعْدَائِي، وَلَا أَمْلِكُنَّهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَلَا أَسْحَرَنَّ لَهُ الرِّيَّاحَ، وَلَا أَذَلَّنَّ لَهُ الرِّقَابَ الصَّعَابَ، وَلَا أَرْقِيَنَّهُ فِي الْأَسْبَابِ، وَلَا أَنْصُرَنَّهُ بِجُنْدِي، وَلَا أَمِدَّنَّهُ بِمَلَائِكَتِي حَتَّى يُعْلِنَ دَعْوَتِي وَيَجْمَعَ الْخَلْقَ عَلَى تَوْحِيدِي، ثُمَّ لَا دِيْمَنَّ مُلْكُهُ، وَلَا دَاوِلَنَّ الْأَيَّامَ بَيْنَ أَوْلِيَائِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

البراق وآليات التسخير الإلهية:

يتحدّث المقطع عن آليات التسخير، وعن آليات الإيطاء وأدواته، ويضرب لنا مثالاً لذلك وهو البراق، وهو وإن كان ابتداءً يشير إلى حقيقة

(١) كمال الدّين (ص ٢٥٤ - ٢٥٦ / باب ٢٣ / ح ٤).

١٣٤ شرح دعاء الندبة

خارجية وأن النبي ﷺ استخدمه في العروج إلى السماء إلا أنه في نفس الوقت يمكن أن يكون كناية عن سعة التسخير للنبي ﷺ .

جاء في (الصحاح): (والبراق: اسم دابة ركبها رسول الله ﷺ) [ليلة المعراج]^(١).

وقد روي في بيان حقيقة هذا المخلوق العجيب ووظائفه عدّة روايات، منها:

* في (عيون أخبار الرضا عليه السلام) بإسناده، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لِي الْبُرَاقَ، وَهِيَ دَابَّةٌ مِنْ دَوَابِّ الْجَنَّةِ لَيْسَتْ بِالْقَصِيرِ وَلَا بِالطَّوِيلِ، فَلَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذِنَ لَهَا لَجَالَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فِي جَرِيَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ أَحْسَنُ الدَّوَابِّ لَوْنًا»^(٢).

* وفي (الكافي) بسنده عن عبد الله بن يحيى الكاهلي، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرَائِيلُ بِالْبُرَاقِ، فَزَكَبَهَا، فَأَتَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَلَقِيَ مَنْ لَقِيَ مِنْ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ رَجَعَ فَحَدَّثَ أَصْحَابَهُ: أَنِّي أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَرَجَعْتُ مِنَ اللَّيْلَةِ، وَقَدْ جَاءَنِي جَبْرَائِيلُ بِالْبُرَاقِ فَزَكَبْتُهَا، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنِّي مَرَرْتُ بِعَيْرٍ لِأَبِي سُفْيَانَ عَلَى مَاءٍ لِبَنِي فُلَانٍ وَقَدْ أَضَلُّوا جَمَلًا لَهُمْ أَحْمَرَ وَقَدْ هَمَّ الْقَوْمُ فِي طَلْبِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّمَا جَاءَ الشَّامَ وَهُوَ رَاكِبٌ سَرِيعٌ، وَلَكِنَّكُمْ قَدْ أَتَيْتُمُ الشَّامَ وَعَرَفْتُمُوهَا، فَسَلُّوهُ عَنْ أَسْوَاقِهَا وَأَبْوَابِهَا وَمُجَارِهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الشَّامُ؟ وَكَيْفَ أَسْوَاقُهَا؟»، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَعْرِفُهُ شَقَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَرَى ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ»، قَالَ: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُ جَبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ

(١) الصحاح للجوهري (ج ٤ / ص ١٤٤٨ / مادة برق).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ٢ / ص ٣٥ / باب ٣١ / ح ٤٩).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٣٥

الشَّامُ قَدْ رُفِعَتْ لَكَ، فَالْتَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ بِالشَّامِ بِأَبْوَابِهَا وَأَسْوَاقِهَا وَمُجَارِهَا، فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ الشَّامِ؟ فَقَالُوا لَهُ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَأَجَابَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ لَا نُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، أَمَّا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﷺ^(٢).

العروج بالنبي ﷺ:

ثم تحدّث المقطع عن العروج، (في بعض النسخ عرجت بروحه)، مع أنّ الروايات الشريفة بيّنت أنّ العروج كان روحياً وبدنياً.

وقد تناولت العديد من الروايات هذه الرحلة العظيمة، ومنها:

* في (أمالي الصدوق) بسنده عن ابن عباس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا عَلِيُّ، أَنْتَ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَائِدُ الْغُرِّ الْمَحْجَلِينَ، وَحُجَّةُ اللَّهِ بَعْدِي عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَسَيِّدُ الْوَصِيِّينَ، وَوَصِيُّ سَيِّدِ النَّبِيِّينَ. يَا عَلِيُّ، إِنَّهُ لَمَّا عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَمِنْهَا إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَمِنْهَا إِلَى حُجْبِ النُّورِ، وَأَكْرَمَنِي رَبِّي ﷻ بِمُنَاجَاتِهِ، قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، قَالَ: إِنَّ عَلِيًّا إِمَامٌ أَوْلِيَانِي، وَنُورٌ لِمَنْ أَطَاعَنِي، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَلْزَمْتُهَا الْمُتَّقِينَ، مَنْ أَطَاعَهُ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَاهُ عَصَانِي، فَبَشِّرْهُ بِذَلِكَ»، فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلَغَ مِنْ قَدْرِي حَتَّى إِنِّي أُذَكِّرُ هُنَاكَ؟»، فَقَالَ: «نَعَمْ يَا عَلِيُّ، فَاشْكُرْ رَبَّكَ»، فَخَرَّ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَاجِدًا شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا عَلِيُّ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَاهَى بِكَ مَلَائِكَتَهُ»^(٢).

* وفي (الخرائج والجرائح): رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ «لَمَّا كَانَ بَعْدَ ثَلَاثِ

(١) الكافي (ج ٨ / ص ٣٦٤ و ٣٦٥ / ح ٥٥٥).

(٢) أمالي الصدوق (ص ٣٧٥ و ٣٧٦ / ح ١٦ / ٤٧٥).

سِنِينَ مِنْ مَبْعَثِهِ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَعُرِجَ بِهِ مِنْهُ إِلَى السَّمَاءِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مِنْ لَيْلَتِهِ حَدَّثَ فُرَيْشًا بِخَيْرِ مِعْرَاجِهِ، فَقَالَ جُهَاثُهُمْ: مَا أَكْذَبَ هَذَا الْحَدِيثَ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فِيمَ نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ؟ قَالَ: مَرَرْتُ بِعَيْرِكُمْ فِي مَوْضِعٍ كَذَا، وَقَدْ ضَلَّ هُمْ بِعَيْرٍ، وَعَرَفْتُهُمْ مَكَانَهُ، وَصَرْتُ إِلَى رِحَالِهِمْ، وَكَانَتْ هُمْ قَرِيبَ مَمْلُوءَةٍ مِنَ الْمَاءِ، فَصَبَبْتُ قَرَبَهُ، وَالْعَيْرُ تُوَافِيكُمْ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَأَوَّلَ الْعَيْرِ جَمَلٌ أَحْمَرٌ، وَهُوَ جَمَلُ فُلَانٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ خَرَجُوا إِلَى بَابِ مَكَّةَ لِيَنْظُرُوا صِدْقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَهُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَتِ الْعَيْرُ عَلَيْهِمْ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ، فِي أَوْهَانِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ، وَسَأَلُوا الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الْعَيْرِ، فَقَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ عَنْهُمْ، فَقَالُوا: هَذَا أَيْضًا مِنْ سِحْرِ مُحَمَّدٍ^(١).

* وفي (مناقب آل أبي طالب): عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [يُكْثِرُ تَقْيِيلَ فَاطِمَةَ، فَأَنْكَرَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ نِسَائِهِ، فَقَالَ ﷺ: إِنَّهُ لَمَّا عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ أَخَذَ بِيَدِي جِبْرَائِيلُ فَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ، فَنَاولَنِي مِنْ رُطْبِهَا فَأَكَلْتُهَا»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَنَاولَنِي مِنْهَا تَفَاحَةً فَأَكَلْتُهَا، فَتَحَوَّلَ ذَلِكَ نُطْفَةً فِي صُلْبِي، فَلَمَّا هَبَطْتُ إِلَى الْأَرْضِ وَاقَعْتُ خَدِيدَةً، فَحَمَلْتُ بِفَاطِمَةَ، فَفَاطِمَةُ حَوْرَاءُ إِنْسِيَّةٌ، فَكُلَّمَا اسْتَقَّتْ إِلَى رَائِحَةِ الْجَنَّةِ شَمَمْتُ رَائِحَةَ ابْنَتِي»^(٢).

حقيقة العلم المودع في النبي ﷺ:

ثم تحدّث المقطع عن كونه ذلك العلم وحقيقته وسعته، وأنّه علم إلهي لدني اختصاصي واسع لا يناله إلا من اختصّه الله سبحانه وتعالى به، وهذا يكشف عن أنّ حجّية الخاتم ﷺ هي الأولى في الحجج، وهي الآخرة من الحجج، وأنّ

(١) الخرائج والجرائح (ج ١ / ص ١٤١ ح ٢٢٧).

(٢) مناقب آل أبي طالب (ج ٣ / ص ١١٤).

الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٣٧
 حجّيته ثابتة منذ الخلق الأوّل، ولا تنتهي إلى آخر الخلق، وكلُّ حجة ما عداه إنّما
 هي متفرّعة من حجّيته وإمامته وسلطنته ﷺ .

وقد أشارت بعض الأحاديث إلى ذلك، منها:

* في (الغيبة للطوسي) بسنده عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن سفيان
 البرزقريّ رضي الله عنه، قال: حدّثني الشيخ أبو القاسم الحسين بن روح رضي الله عنه، قال:
 اختلف أصحابنا في التفويض وغيره، فمضيت إلى أبي طاهر بن بلال في أيام
 استقامته، فعرفته الخلف، فقال: أخربي، فأخبرته أياماً، فعدت إليه، فأخرج إليّ
 حديثاً بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا أراد الله [أمر]اً عرضة على رسول
 الله ﷺ، ثمّ أمير المؤمنين عليه السلام [وسائر الأئمة] واحداً بعد واحد إلى أن ينتهي
 إلى صاحب الزمان عليه السلام ثمّ يخرج إلى الدنيا، وإذا أراد الملائكة أن يرفعوا إلى الله
 ﷻ عملاً عرض على صاحب الزمان عليه السلام، ثمّ يخرج على واحد [بعد] واحد إلى
 أن يعرض على رسول الله ﷺ ثمّ يعرض على الله ﷻ، فما نزل من الله فعلى
 أيديهم، وما عرج إلى الله فعلى أيديهم، وما استغنوا عن الله ﷻ طرفة عين»^(١).

فهو ﷺ واسطة كل حجة في كل شيء.

* وفي (معاني الأخبار): عن رسول الله ﷺ، قال: «... لقد جئتكم بها
 بيضاء نقيّة، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلاّ اتباعي»^(٢).

فهذا الحديث، بل وغيره من المقاطع خصوصاً الزيارات والأدعية الواردة
 عنهم عليه السلام، تكشف لنا عن أنّ الحجّية الأولى ومصدر الفيض الإلهي هو النبي
 الخاتم ﷺ، ثمّ من بعده أئمة أهل البيت عليه السلام، ثمّ الأنبياء عليه السلام ابتداءً وانتهاءً،
 على ما مرّ قريباً في مصادر علمهم عليه السلام.

* * *

(١) الغيبة للطوسي (ص ٣٨٧ / ح ٣٥١).

(٢) معاني الأخبار (ص ٢٨٢ / باب معنى المحاقلة والمزانية...).

المبحث الخامس:

الدين الإسلامي

خاتم الأديان

الفقرة الثانية عشر

«ثُمَّ نَصَرْتَهُ بِالرُّعْبِ، وَخَفَّفْتَهُ بِجَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَالْمَسُومِينَ
مِنْ مَلَائِكَتِكَ، وَوَعَدْتَهُ أَنْ تُظْهِرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بَوَّأْتَهُ مَبُوءًا صِدْقٍ مِنْ أَهْلِهِ».

تتحدث هذه الفقرة المتصلة مع التي سبقتها عن أسباب النصر وسبلها، وعن نماذج التسخير الإلهي للنبي ﷺ، وقد قلنا هناك: إن هذه السلطة والأسباب وإن كانت قد نسبت إلى النبي ﷺ بالأصالة إلا أنها جارية في الأئمة عليهم السلام ما خلا المختص به ﷺ منها ودلّ الدليل الخاص عليه. أمّا هذه الفقرة فالحديث فيها عن نماذج من التسخير الإلهي للرسول الأكرم ﷺ وللإمام عليّ عليه السلام.

والحديث عنها يقع في عدة نقاط:

النقطة الأولى: التسخير بالرعب والنصر والإظهار بأهل البيت عليهم السلام:

بعد أن أوطأ الله سبحانه للنبي الأكرم ﷺ المشارق والمغارب، وأودعه علم ما كان وما يكون إلى انقضاء الخلق، ولأجل أن يتحقق التبوؤ والإيطاء للنبي ﷺ احتاج هذا الإيطاء - ولو في بعض موارد - إلى الآيات وأدوات يتمم بها الباري ﷻ ما وعد نبيه ﷺ به، فذكر المقطع بعض هذه النماذج، والتي منها النصر بالرعب.

وقد تحدثت الكثير من الروايات عن هذا المعنى فيما يرتبط بها اختص

به ﷺ، أو بما تفرَّع منه وبواسطته ﷺ على أوليائه وخلفائه، وبالخصوص الحجَّة القائم الغائب ﷺ، فالرعب الذي سيكون مع الحجَّة والذي ورثه ﷺ من جدِّه ﷺ حسب تعبير الروايات يسير قبله ﷺ مسيرة شهر كامل، ولك أن تتصوَّر جيشاً يقوده الإمام ﷺ يخترق الحصون البشريَّة قبل حصون المُدن والبلدان، ويرعب الأعداء خوفاً من القادم إليهم، على ما يأتي في الفقرات الخاصَّة بالإمام ﷺ.

ومن أدوات التسخير الحفُّ والإحاطة، وهو من بين أبرز أسباب الانتصار، وانظر إلى مَنْ هم الذين يقومون بهذه الحالة، إنَّهم جبرائيل وميكائيل والمُسومين من الملائكة. والمُسومُ المجهَّز والمستعدُّ بكافَّة الاستعدادات التي تُؤهِّله لتحقيق الهدف.

ومع احتمال عوامل وأسباب الانتصار تتحقَّق النتيجة، وهي الإظهار وحالة الاستحكام والتمكين بأهل البيت ﷺ.

المقطع يُحدِّثنا عن أسباب النصر والإظهار للدين من جميع نواحيها، وأنَّها ستكون مهياً من أوَّل مرحلة وهي حالة الاستمكان والسيطرة والتبوء الصديقي التي تُمثِّل القاعدة للانطلاق إلى حالة التمكُّن من الوسائل الخارجيَّة والميدانيَّة وتجهيزها بكلِّ ما من شأنه تحقيق الهدف إلى حالة القدرة المعنويَّة والثبات والرسوخ الداخلي إلى حالة الزلزلة عند الأعداء وإيجاد الروح الانهزاميَّة والانكسار النفسي، وهنا يتحقَّق الهدف لا محالة، مهما كان الهدف المراد تحقيقه ومهما كانت المساحة المراد نشر الهدف فيها.

* قال تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ (الحشر: ٢).

* وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣).

الفصل الأول: الوساطة بين السماء والأرض، وخصائص الأنبياء ودرجاتهم ١٤٣

ومما يشير إلى ما تقدّم من روايات - وهي كثيرة - الآتي:

* في (الكافي) بسنده عن أبان بن عثمان، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْطَى مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله شَرَائِعَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عليه السلام: التَّوْحِيدَ، وَالْإِخْلَاصَ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادِ، وَالْفِطْرَةَ الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ، وَلَا زُهْبَانِيَّةَ وَلَا سِيَّاحَةَ، أَحَلَّ فِيهَا الطَّيِّبَاتِ، وَحَرَّمَ فِيهَا الْحَبَائِثَ...، وَأَحَلَّ لَهُ الْمَغْنَمَ وَالْفَيْءَ، وَنَصَرَهُ بِالرُّعْبِ، وَجَعَلَ لَهُ الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَرْسَلَهُ كَافَّةً إِلَى الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْحِنِّ وَالْإِنْسِ، وَأَعْطَاهُ الْجِزْيَةَ، وَأَسْرَ الْمُشْرِكِينَ، وَفَدَاهُمْ، ثُمَّ كَلَّفَ مَا لَمْ يُكَلِّفْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ سَيْفٌ مِنَ السَّمَاءِ فِي غَيْرِ غَمْدٍ، وَقِيلَ لَهُ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]»^(١).

* وفي (عِلَلِ الشَّرَائِعِ) بسنده عن جابر بن عبد الله، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «أَنَا أَشْبَهُ النَّاسِ بِآدَمَ، وَإِبْرَاهِيمَ أَشْبَهُ النَّاسِ بِي...، وَمَنْ عَلِيَ رَبِّي وَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، فَقَدْ أَرْسَلْتُ كُلَّ رَسُولٍ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا، وَأَرْسَلْتُكَ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ مِنْ خَلْقِي، وَنَصَرْتُكَ بِالرُّعْبِ الَّذِي لَمْ أَنْصُرْ بِهِ أَحَدًا...»^(٢).

النقطة الثانية: تبوء النبي صلى الله عليه وآله مَبُوءَ الصِّدْقِ:

ذكرت العديد من الآيات الشريفة هذا المعنى، ومنها:

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ (الحج: ٢٦).

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

الطَّيِّبَاتِ﴾ (يونس: ٩٣).

(١) الكافي (ج ٢ / ص ١٧ / باب الشرائع / ح ١).

(٢) عِلَلِ الشَّرَائِعِ (ج ١ / ص ١٢٧ و ١٢٨ / باب ١٠٦ / ح ٣).

* قال العلامة الطباطبائي رحمته الله: ﴿مُبَوَّأٌ صِدْقٍ﴾ يدلُّ على أنَّ الله سبحانه بؤَاهم مبوءاً يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان...^(١).

* وقال الفخر الرازي: (أي أسكناهم مكان صدقٍ أي مكاناً محموداً، وقوله: ﴿مُبَوَّأٌ صِدْقٍ﴾ فيه وجهان:

الأوَّل: يجوز أن يكون ﴿مُبَوَّأٌ صِدْقٍ﴾ مصدراً، أي بؤَاناهم تبوءاً صدق. الثاني: أن يكون المعنى منزلاً صالحاً مرضياً، وإنَّها وصف المبوء بكونه صدقاً، لأنَّ عادة العرب أنَّها إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول: رجل صدق، وقدم صدق، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]، والسبب فيه أنَّ ذلك الشيء إذا كان كاملاً في وقت صالحاً للغرض المطلوب منه، فكلُّ ما يُظنُّ فيه من الخير فإنَّه لا بدَّ وأنَّ يصدق ذلك الظنُّ^(٢).

* * *

(١) تفسير الميزان (ج ١٠ / ص ١٢٠).

(٢) تفسير الرازي (ج ١٧ / ص ١٥٨).

الفصل الثاني:

أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة

(الخصائص، الآثار، الكمالات)

المبحث الأول:

تفرُّع أهل البيت عليهم السلام عن

النبي صلى الله عليه وآله وارتباطهم بإبراهيم عليه السلام

الفقرة الثالثة عشر

«وَجَعَلْتَهُ لَهُ وَلَهُمْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا».

الحديث في هذه الفقرة ضمن نقاط:

النقطة الأولى: ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم:

وهي عدة آيات، منها:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٩)، إشارة واضحة إلى ما تضمنته الفقرة.

أمَّا فيما يخص البيئات والآيات، فقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)^(١).

النقطة الثانية: ما ورد عنهم في الروايات الشريفة:

الروايات التي تحدّثت عن مقام البيت ومقام إبراهيم عليه السلام وأهميته وكيف صار ومن بناه والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة كثيرة جداً، وما يرتبط بمقامنا منها كثير أيضاً، نأخذ بعضاً منها بما يناسب الشرح والغرض منه، ومنها:

* في (تفسير العياشي) بسنده عن جابر الجعفي، عن جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام، قال: «إن الله اختار من الأرض جميعاً مكة، واختار من مكة بكة، فأنزل في بكة سرادقاً من نور محفوفاً بالدرّ والياقوت...، فالرُكن الأسود باب الرّحمة إلى رُكن الشّامي، فهو باب الإنابة، وباب الرُكن الشّامي باب التّوسّل، وباب الرُكن اليماني باب التّوبة، وهو باب آل محمد عليهم السلام وشيعتهم إلى الحجر، فهذا البيت حجة الله في أرضه على خلقه...»^(١).

بل توجد عدّة روايات تشير إلى أن الأمان الذي وُصف به من دخل البيت ليس على إطلاقه، وإنما قد قيّده الروايات بولاية أهل البيت عليهم السلام ومعرفتهم، ومنها ما رواه الشيخ الكليني رحمته الله بسنده عن عبد الخالق الصّيقلي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» [آل عمران: ٩٧]، فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني أحدٌ إلا من شاء الله»، قال: «من أمّ هذا البيت وهو يعلم أنه البيت الذي أمره الله عزّ وجلّ به وعرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة»^(٢).

→ حيث ورد في تفسيرها العديد من الروايات منها ما رواه الشيخ الكليني رحمته الله بسنده المعتبر عن ابن سنان، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» [آل عمران: ٩٦ و ٩٧]، ما هذه الآيات البيّنات؟ قال: «مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأنزلت فيه قدماه، والحجر الأسود، ومنزل إسماعيل عليه السلام».

(١) تفسير العياشي (ج ١ / ص ٣٩ و ٤٠ / ح ٢٢).

(٢) الكافي (ج ٤ / ص ٥٤٥ / باب النوادر / ح ٢٥).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٥١

لاحظ قوله عليه السلام: إِنَّ هَذَا السُّؤَالَ مَا سَأَلَهُ أَحَدٌ قَبْلَ عَبْدِ الْخَالِقِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، لِأَهَمِّيَّتِهِ وَإِلْفَاتِ النَّاسِ إِلَى أَهَمِّيَّةِ مَا سَيُخْبِرُ بِهِ الْإِمَامَ عليه السلام.

أَهَمِّيَّةُ الْمَكَانِ فِي الْعَقِيدَةِ:

ليس بمجازف مَنْ يَرَى بَدَاهَةَ ارْتِبَاطِ الدِّينِ بِالْمَكَانِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، فَالْجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَجُوءٍ رُوحِيٍّ وَمَكَانِيٍّ، وَالدُّخُولُ فِي مَكَانٍ مَقَدَّسٍ يَضْفِي عَلَى الرُّوحِ وَالنَّفْسِ طَمَآنِينَةً خَاصَّةً لَا تَوْجِدُ فِي غَيْرِهِ.

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنِ الْعِلَّةِ فِي تَعْظِيمِ الْمَسَاجِدِ، فَقَالَ: «إِنَّمَا أُمِرَ بِتَعْظِيمِ الْمَسَاجِدِ لِأَنَّهَا بِيُوتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

فوجود المكان المقدَّس أمر غاية في الأهمِّيَّة في تشريعات الأديان الإلهيَّة، بل وحتَّى عند غيرها، فلا تجد ديناً إلا وله أمكنة عديدة معدَّة لممارسة طقوسه والتزوُّد بالطاقة والسكينة الروحيَّة، والقرب من ساحة المولى عليه السلام.

فالتلازم بين الدِّين والمكان المقدَّس واضح، بل في جملة من النصوص أن الشارع المقدَّس شجَّع الناس على اتِّخَاذِ أَمَاكِنٍ خَاصَّةٍ لِلْعِبَادَةِ يَضْفِي عَلَيْهَا نَوْعاً مِنَ الْاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ وَالاهْتِمَامِ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِجَعْلِ النَّاسِ فِي حَالَةِ انْشِدَادٍ دَائِمٍ لِلْمَكَانِ الْمَعْبُورِ لَهُمْ عَنِ الْارْتِبَاطِ بِمَقَدَّسَاتِهِمْ وَمَا يَلْتَمِسُونَهُ مِنْ آثَارِ هَذَا الْمَكَانِ عَلَى الْأَجْوَاءِ الرُّوحِيَّةِ وَتَأْثِيرِهَا عَلَى عِبَادَاتِهِمْ وَطُقُوسِهِمِ الدِّينِيَّةِ.

قال تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (يونس: ٨٧).

وَعَنْ مِسْمَعٍ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِنِّي أَحِبُّ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَ فِي دَارِكَ مَسْجِداً فِي بَعْضِ بُيُوتِكَ...»، وَالْمَقْصُودُ مِنْ بَعْضِ الْبُيُوتِ أَيُّ مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي زَمَانِنَا بِعُرْفِ الْبَيْتِ، أَيُّ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ فِي بَعْضِ عُرْفِ بَيْتِهِ مَكَاناً خَاصّاً

(١) عِلَلُ الشَّرَائِعِ (ج ٢ / ص ٣١٨ / باب ٤ / ح ١).

للصلاة، لاحظوا تميم الرواية وما قاله له الإمام عليه السلام: «ثُمَّ تَلْبَسَ ثَوْبَيْنِ طَمْرَيْنِ غَلِيظَيْنِ، ثُمَّ تَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعْتَقَكَ مِنَ النَّارِ، وَأَنْ يُدْخَلَكَ الْجَنَّةَ، وَلَا تَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ بَاطِلٍ وَلَا بِكَلِمَةٍ بَغْيٍ»^(١).

في أفضلية أرض كربلاء:

من يطالع الروايات الشريفة في تفضيل الأمكنة على بعضها، بل والأزمنة، يتجلى له فضل بعضها على بعض.

وهذا التفضيل لا نلتمس له وجهاً لولا أن الروايات الشريفة بينت ذلك، ونحن نتعبد بما يأتي فيها.

وقد بينت الروايات بذاتها فضل أرض كربلاء على الكعبة، بعد تفضيل أرض الكعبة على كل أرض سواها.

وبهذا يندفع ما في نفوس البعض من حزاة تقبل ذلك.

فالقاعدة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن الحقيقي هي قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥)، فما يُنقل عنه عليه السلام وعن أهل بيته عليهم السلام فلا بد أن يتلقاه المؤمن بالتسليم، وأن لا يجد في نفسه أي حرج، وقد ورد عن عمر بن يزيد بياع السابري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ أَرْضَ الْكَعْبَةِ قَالَتْ: مَنْ مِثْلِي وَقَدْ بُنِيَ بَيْتُ اللَّهِ عَلَى ظَهْرِي، وَيَأْتِينِي النَّاسُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَجُعِلَتْ حَرَمَ اللَّهِ وَأَمْنَهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا: أَنْ كُفِّي وَقَرِّي، فَوَعَزَّتِي وَجَلَّالِي مَا فَضَّلَ مَا فَضَّلْتَ بِهِ فِيمَا أُعْطِيتُ بِهِ أَرْضَ كَرْبَلَاءَ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ الْإِبْرَةِ عُمِسَتْ فِي الْبَحْرِ فَحَمَلَتْ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ، وَلَوْ لَا تُرْبُهُ كَرْبَلَاءَ مَا فَضَّلْتُكَ، وَلَوْ لَا

(١) المحاسن (ج ٢ / ص ٦١٢ / ح ٣١).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٥٣

مَا تَضَمَّنَتْهُ أَرْضُ كَرْبَلَاءَ لَمَّا خَلَقْتِكِ وَلَا خَلَقْتُ الْبَيْتَ الَّذِي افْتَخَرْتَ بِهِ، فَقَرِّي
وَاسْتَقَرِّي وَكُونِي دُنْيَا مُتَوَاضِعًا ذَلِيلًا مَهِينًا، غَيْرَ مُسْتَنْكِفٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٍ لِأَرْضِ
كَرْبَلَاءَ، وَإِلَّا سَخْتُ بِكَ وَهَوَيْتُ بِكَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١).

ارتباط الإمام عليه السلام بالكعبة:

في هذه الفقرة نتحدث عن آية أخرى من آيات إظهار الدين وارتباطه
بالأماكن المقدسة في نفوس الناس، وما لهذه الأماكن المقدسة من تأثير كبير على
حركة الإمام المهدي عليه السلام حين خروجه، فإدخال دعاء الندبة الخاص به عليه السلام هذه
الفقرة وغيرها يكشف عن أن هذه الحركة المباركة عندما تبدأ بإعلان الإمام عليه السلام
قيامه بالحق، فإنه عليه السلام سيثبت ارتباطه بالحق وبالإسلام وبالدين الحنيف من
خلال عدة آيات وأفعال وتصرفات، ومنها بيانه عليه السلام لارتباطه بهذا البيت
وبجده رسول الله صلى الله عليه وآله الذي جعله الله تعالى أمناً للناس، فالذي يخرج في هذا
البيت ويُعلن دعوته منه سيكون إماماً وأماناً للناس، وأن ظهوره لأجل هذا
الغرض وإحقاق الحق وبسط العدل.

فالمكانة المعنوية التي يتمتع بها البيت العتيق ومكة المكرمة في نفوس الناس
تسهل لمن يثبت ارتباطه بها ويُعلن دعوته منها سبيل الانتصار والتمكين.

أهل البيت عليهم السلام ودعوة إبراهيم عليه السلام:

ومما جاء في الروايات لأجل حكاية هذا المعنى، ما رواه الشيخ الكليني رحمته الله
بسنده عن زيد الشحام، قال: دَخَلَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ^(٢) عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، فَقَالَ:

(١) كامل الزيارات (ص ٤٤٩ و ٤٥٠ / ح ٢/٦٧٥).

(٢) من مشاهير محدثي العامة ومفسريهم، روى عن أنس بن مالك وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب
والحسن البصري. راجع: سير أعلام النبلاء (ج ٥ / ص ٢٦٩ / الرقم ١٣٢).

«يَا قَتَادَةُ، أَنْتَ فَعِيَهُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ؟»، فَقَالَ: هَكَذَا يَزْعُمُونَ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بَلَعَنِي أَنْكَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ»، فَقَالَ لَهُ قَتَادَةُ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِعِلْمٍ تُفَسِّرُهُ أَمْ بِجَهْلٍ؟»، قَالَ: «لَا، بَعِلْمٍ»، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنْ كُنْتَ تُفَسِّرُهُ بِعِلْمٍ فَأَنْتَ أَنْتَ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ»، قَالَ قَتَادَةُ: سَلْ، قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ فِي سَبَأٍ: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]»، فَقَالَ قَتَادَةُ: ذَلِكَ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بَزَادٍ حَلَالٍ وَرَاحِلَةً وَكِرَاءٍ حَلَالٍ يُرِيدُ هَذَا الْبَيْتَ كَانَ آمِنًا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا قَتَادَةُ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ يَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ بَزَادٍ حَلَالٍ وَرَاحِلَةً وَكِرَاءٍ حَلَالٍ يُرِيدُ هَذَا الْبَيْتَ فَيَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ فَتُذْهَبُ نَفَقَتُهُ وَيُضْرَبُ مَعَ ذَلِكَ ضَرْبَةً فِيهَا اجْتِيَا حُهُ؟»، قَالَ قَتَادَةُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيُحْكُ يَا قَتَادَةُ إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا فَسَّرْتَ الْقُرْآنَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِكَ فَقَدْ هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَهُ مِنَ الرِّجَالِ فَقَدْ هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ، وَيُحْكُ يَا قَتَادَةُ ذَلِكَ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بَزَادٍ وَرَاحِلَةً وَكِرَاءٍ حَلَالٍ يَرُومُ هَذَا الْبَيْتَ عَارِفًا بِحَقِّنَا يَهَوَانَا قَلْبُهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وَلَمْ يَعْنِ الْبَيْتَ فَيَقُولَ إِلَيْهِ، فَنَحْنُ وَاللَّهُ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي مَنْ هَوَانَا قَلْبُهُ قُبِلَتْ حَاجَتُهُ وَإِلَّا فَلَا. يَا قَتَادَةُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ آمِنًا مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قَالَ قَتَادَةُ: لَا جَرَمَ وَاللَّهُ لَا فَسَّرْتُهَا إِلَّا هَكَذَا، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيُحْكُ يَا قَتَادَةُ إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مَنْ خُوطِبَ بِهِ»^(١).

إذ لا بدَّ لهذا الشخص الإلهي والذي يُمثَّل الامتداد الطبيعي للأنبياء عليهم السلام والنبي محمد ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، وهو صاحب الصفات الفريدة الذي ألقى

(١) الكافي (ج ٨ / ص ٣١١ و ٣١٢ / ح ٤٨٥).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٥٥

على عاتقه مهمة لم تلق على عاتق غيره، من مكان يناسب هذه المكانة في نفوس الناس وليس في نفوس خاصته وحسب، وليس هذا المكان إلا الكعبة المشرفة. فمقصد التوجه عند المسلمين وتخضعهم وركوعهم وسجودهم الذي لا ينازع في التوجه إليه منهم منازع، هو هذا البيت المجعول قبلة للناس، وهذا إنما جعل كذلك ومقصداً للتوجه والطواف بعد قصد أهل البيت عليهم السلام كما دلت عليه الروايات المتقدمة.

إذن فالناس إنما أمروا بالتوجه في العبادة - والصلاة التي هي عمود الدين - إلى مكة المكرمة لأجل شيء وراء هذا التوجه، وهو إبداء الطاعة والعبودية لله سبحانه، وهو (عز اسمه) - بمقتضى جملة من الروايات تقدم ذكر بعضها آنفاً - يُخبر بواسطة العترة الطاهرة عليهم السلام: أن الوسطة في قبول هذه العبادة أن يكون التوجه الظاهري مقروناً بالتوجه المعنوي لأصحاب هذا البيت عليهم السلام، إنهم أصحاب بيت العبادة والطاعة والتوجه الإلهي.

ويوجد عندنا في الروايات مجموعة من الأخبار تشير إلى هذا المعنى مضافاً إلى ما تقدم، منها:

* عَنْ الْفُضَيْلِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: نَظَرَ إِلَى النَّاسِ يَطُوفُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: «هَكَذَا كَانُوا يَطُوفُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِنَّمَا أُمِرُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهَا ثُمَّ يَنْفِرُوا إِلَيْنَا فَيُعَلِّمُونَا وَلَا يَتَّهَمُونَ وَمَوَدَّتْهُمْ وَيَعْرِضُوا عَلَيْنَا نُصْرَتِهِمْ»، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]^(١).

* وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام وَرَأَى النَّاسَ بِمَكَّةَ وَمَا يَعْمَلُونَ، قَالَ: فَقَالَ: «فِعَالٌ كَفِعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا أُمِرُوا بِهَذَا، وَمَا أُمِرُوا

(١) الكافي (ج ١ / ص ٣٩٢ / باب أن الواجب على الناس بعد ما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم... / ح ١).

إِلَّا أَنْ يَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ فَيَمُرُّوا بِنَا فَيُخْبِرُونَا بِوَلَايَتِهِمْ وَيَعْرِضُوا عَلَيْنَا نُضْرَتَهُمْ»^(١).

* وَعَنْ سَدِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ دَاخِلٌ وَأَنَا خَارِجٌ وَأَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ، فَقَالَ: «يَا سَدِيرُ، إِنَّمَا أَمَرَ النَّاسُ أَنْ يَأْتُوا هَذِهِ الْأَحْجَارَ فَيُطُوفُوا بِهَا ثُمَّ يَأْتُونَا فَيُعَلِّمُونَا وَلَايَتَهُمْ لَنَا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] - ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - إِلَى وَلَايَتِنَا»، ثُمَّ قَالَ: «يَا سَدِيرُ، فَأَرِيكَ الصَّادِقِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ؟»، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَهُمْ حَلَقٌ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «هُؤُلَاءِ الصَّادِقُونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ بِمَا هَدَى مِنْ اللَّهِ وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ، إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَخَابِثَ لَوْ جَلَسُوا فِي بُيُوتِهِمْ فَجَالَ النَّاسُ فَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا يُخْبِرُهُمْ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَنْ رَسُولِهِ ﷺ حَتَّى يَأْتُونَا فَنُخْبِرَهُمْ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَنْ رَسُولِهِ ﷺ»^(٢).

* * *

(١) الكافي (ج ١ / ص ٣٩٢ / باب أن الواجب على الناس بعد ما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم... / ح ٢).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٣٩٢ و ٣٩٣ / باب أن الواجب على الناس بعد ما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم... / ح ٣).

المبحث الثاني:

آية التطهير

وتتميز أهل البيت عليهم السلام

الفقرة الرابعة عشر

«وَقُلْتَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].»

تمهيد:

قد يسأل سائل: أَنَّهُ لَمْ يُجْعَلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَآلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْمَكَانَةَ؟
جاء الجواب على لسان الدعاء: لمكان ما تقدّم من وفائهم وسبقهم
بالإقرار لله ﷻ على ما مرّ من حديث المشاركة، وكذا لطهارتهم وعصمتهم
صاروا كذلك، فلا تُهم أهل الوفاء الذين لا رجس فيهم استحقوا هذا، فهذا
المقطع يصحّ أن يقال عنه: إِنَّهُ مَتَمِّمٌ لْجَوَابِ مَنْ يَسْأَلُ: لِمَ جُعِلَ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِهَذِهِ الْمَكَانَةَ؟ فجاء الجواب بنصّ الدعاء: «وَقُلْتَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»، فكونهم عَلَيْهِ السَّلَامُ أهل البيت
الإلهي لا بدّ أن يكون نابعاً ومتفرّعاً من أصل اقتضى هذا التمييز، وذلك هو
التطهير وإذهاب الرجس بعد الوفاء بالمشاركة.

وقد يقول قائل مرّةً أخرى: إِنَّ كَثِيراً مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ قَدْ طَهَّرُوا
وَأُذْهِبَ عَنْهُمْ الرِّجْسَ، فَلِمَ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فيأتي الجواب: أَنَّ التَّطْهِيرَ هُنَا تَطْهِيرَ بَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ، بَلْ وَأَنَّ التَّطْهِيرَ لِلْغَيْرِ
وإذهاب الرجس عن الغير أيّاً ما كان إنّما جاء لأجل متابعتهم لأهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وقد مرّ عليك ما في أحاديث عالم الميثاق والذرّ وخلق الأكوان من دلالة على هذا
المعنى، فراجع.

وكيفما كان، فالبحث يقع في نقاط:

النقطة الأولى: تفسير آية التطهير وائياً وحصرها بأهل البيت عليهم السلام:

وهي كثيرة، منها:

* في (الكافي): عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ يُونُسَ. وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فَقَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهم السلام»، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: فَمَا لَهُ لَمْ يُسَمَّ عَلِيًّا وَأَهْلَ بَيْتِهِ عليهم السلام فِي كِتَابِ اللَّهِ تعالى? قَالَ: فَقَالَ: «قُولُوا لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَزَلَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، وَلَمْ يُسَمَّ اللَّهُ لَهُمْ ثَلَاثًا وَلَا أَرْبَعًا حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي فَسَّرَ ذَلِكَ لَهُمْ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِ الرِّكَاهُ، وَلَمْ يُسَمَّ لَهُمْ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ دَرَاهِمًا دَرَاهِمًا حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي فَسَّرَ ذَلِكَ لَهُمْ، وَنَزَلَ الْحُجُّ، فَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ: طُوفُوا أُسْبُوعًا حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي فَسَّرَ ذَلِكَ لَهُمْ، وَنَزَلَتْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وَنَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَلِيٍّ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، وَقَالَ ﷺ: أَوْصِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَهْلِ بَيْتِي، فَإِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ تعالى أَنْ لَا يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا حَتَّى يُوْرِدَهُمَا عَلِيٌّ الْخَوْضَ، فَأَعْطَانِي ذَلِكَ، وَقَالَ: لَا تَعْلَمُوهُمْ فَهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ لَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ بَابِ هُدَى، وَلَنْ يُدْخِلُوكُمْ فِي بَابِ ضَلَالَةٍ، فَلَوْ سَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يُبَيِّنْ مَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ لَادْعَاهَا أَلْ فُلَانٍ وَأَلْ فُلَانٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تعالى أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ تَصَدِيقًا لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فَكَانَ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَفَاطِمَةُ عليهم السلام، فَأَدْخَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٦١

الْكِسَاءِ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، ثُمَّ قَالَ: اَللّٰهُمَّ اِنِّ لِكُلِّ نَبِيٍّ اَهْلًا وَثَقَلًا، وَهَوْلًا
اَهْلُ بَيْتِي وَثَقَلِي، فَقَالَتْ اُمُّ سَلَمَةَ: اَلَسْتُ مِنْ اَهْلِكَ؟ فَقَالَ: اِنَّكَ اِلَى خَيْرٍ،
وَلَكِنَّ هَوْلًا اَهْلِي وَثَقَلِي، فَلَمَّا فُبِضَ رَسُوْلُ اَللّٰهِ ﷺ كَانَ عَلِيٌّ اَوَّلِي النَّاسِ
بِالنَّاسِ، لِكَثْرَةِ مَا بَلَغَ فِيهِ رَسُوْلُ اَللّٰهِ ﷺ، وَاِقَامَتِهِ لِلنَّاسِ، وَاَخْذِهِ بِيَدِهِ، فَلَمَّا
مَضَى عَلِيٌّ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ عَلِيٌّ وَلَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلْ اَنْ يُدْخِلَ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ وَلَا
اَلْعَبَّاسَ بْنَ عَلِيٍّ وَلَا وَاِحِدًا مِنْ وُلْدِهِ، اِذَا لَقِيَ اَلْحَسَنَ وَاَلْحُسَيْنَ: اِنَّ اَللّٰهَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى اَنْزَلَ فِيْنَا كَمَا اَنْزَلَ فِيْكَ، فَاَمَرَ بِطَاعَتِنَا كَمَا اَمَرَ بِطَاعَتِكَ، وَبَلَغَ
فِيْنَا رَسُوْلُ اَللّٰهِ ﷺ كَمَا بَلَغَ فِيْكَ، وَاَذْهَبَ عَنَّا الرَّجْسَ كَمَا اَذْهَبَهُ عَنكَ، فَلَمَّا
مَضَى عَلِيٌّ عليه السلام كَانَ اَلْحَسَنُ عليه السلام اَوَّلِيْ بِهَا لِكِبَرِهِ، فَلَمَّا تُوِّفِّي لَمْ يَسْتَطِعْ اَنْ
يُدْخِلَ وُلْدَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلْ ذَلِكَ وَاَللّٰهُ ﷻ يَقُوْلُ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فَيَجْعَلُهَا فِي وُلْدِهِ، اِذَا لَقِيَ
اَلْحُسَيْنَ: اَمَرَ اَللّٰهُ بِطَاعَتِي كَمَا اَمَرَ بِطَاعَتِكَ وَطَاعَةَ اَبِيكَ، وَبَلَغَ فِي رَسُوْلِ
اَللّٰهِ ﷺ كَمَا بَلَغَ فِيْكَ وَفِي اَبِيكَ، وَاَذْهَبَ اَللّٰهُ عَنِّي الرَّجْسَ كَمَا اَذْهَبَ عَنكَ
وَعَنْ اَبِيكَ، فَلَمَّا صَارَتْ اِلَى اَلْحُسَيْنِ عليه السلام لَمْ يَكُنْ اَحَدٌ مِنْ اَهْلِ بَيْتِهِ يَسْتَطِيعُ
اَنْ يَدْعِيَ عَلَيْهِ كَمَا كَانَ هُوَ يَدْعِي عَلِيَّ اَخِيهِ وَعَلِيَّ اَبِيهِ لَوْ اَرَادَا اَنْ يَصْرِفَا
اَلْأَمْرَ عَنْهُ وَلَمْ يَكُوْنَا لِيَفْعَلَا، ثُمَّ صَارَتْ حِيْنَ اَفْضَتْ اِلَى اَلْحُسَيْنِ عليه السلام،
فَجَرَى تَأْوِيلَ هَذِهِ اَلْآيَةِ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ
اللّٰهِ﴾، ثُمَّ صَارَتْ مِنْ بَعْدِ اَلْحُسَيْنِ لِعَلِيِّ بْنِ اَلْحُسَيْنِ، ثُمَّ صَارَتْ مِنْ بَعْدِ عَلِيٍّ
بْنِ اَلْحُسَيْنِ اِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَقَالَ: الرَّجْسُ هُوَ اَلشُّكُّ، وَاَللّٰهُ لَا نَشْكُ
فِي رَبِّنَا اَبَدًا^(١).

(١) الكافي (ج ١ / ص ٢٨٦ - ٢٨٨ / باب ما نصّ الله ﷻ ورسوله على الأئمة عليهم السلام واحداً
فواحداً / ح ١).

النقطة الثانية: الإرادة الإلهية في إذهاب الرجس:

اعلم أن كل ما جاء به علماء اللغة والبيان من معنى الرجس بمقتضى الإطلاق منفي عنهم عليهم السلام.

فالآية مطلقة، والرجس محلي بالف ولام الجنس، فالآية الشريفة ترفع وتفيد نفي جميع الخبائث والقبايح وكل نقص ممكن أن يتلبس به أحد عنهم عليهم السلام بجميع المراتب الظاهرية والباطنية.

فبمقتضى علم الله الأزلي بهذا الانصياع والإرادة التامة لطاعة الله تعالى والنابعة من ذواتهم عليهم السلام، ولأن هذا القرب بهذه المرتبة التي لم تحظر على قلب بشر سواهم يحتاج إلى أعلى مرتبة من التطهير، يرافقها إذهاب أدنى مرتبة من إذهاب الرجس، أي التنزه عن مطلق الرجس وإن كان قليلاً.

فلكي يكونوا عليهم السلام محلاً لهذا القرب، فلا بد أن لا يكون هناك رجس ولو بأدنى مراتبه، ولا بد أن يكون هناك تطهير بأعلى مراتبه، كانت إرادة الله تعالى أن يطهرهم، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٣).

قال العلامة الطباطبائي رحمته الله: (فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة، ويكون المراد بالتطهير في قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٣) - وقد أكد بالمصدر - إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، ومن المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق، فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضاً غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلاً. والمعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل وأثر العمل السيئ عنكم أهل البيت وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم، وهي العصمة)^(١).

(١) تفسير الميزان (ج ١٦ / ص ٣١٢ و ٣١٣).

* في (الكافي) بسنده عن صالح بن سهل، عن أبي عبد الله عليه السلام «أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: بِأَيِّ شَيْءٍ سَبَقْتَ الْأَنْبِيَاءَ وَأَنْتَ بَعِثْتَ آخِرَهُمْ وَخَاتَمَهُمْ؟ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِرَبِّي، وَأَوَّلَ مَنْ أَجَابَ حِينَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ نَبِيِّ قَالٍ: بَلَى، فَسَبَقْتُهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِاللَّهِ»^(١).

* وفي (علل الشرائع) بسنده عن عبد السلام بن صالح الهروي، عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين بن علي، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَفْضَلَ مِنِّي، وَلَا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنِّي، قَالَ عَلِيُّ عليه السلام: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَنْتَ أَفْضَلُ أَمْ جَبْرَائِيلُ؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَضَّلَ أَنْبِيَاءَهُ الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَلَائِكَتِهِ الْمُرَبِّينَ، وَفَضَّلَنِي عَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْفَضْلُ بَعْدِي لَكَ يَا عَلِيُّ وَلِلْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِكَ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لِحُدَامِنَا وَحُدَامُ مَحَبَّتِنَا. يَا عَلِيُّ، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا بَوْلَانِنَا. يَا عَلِيُّ، لَوْ لَا نَحْنُ مَا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَلَا حَوَاءَ، وَلَا الْجَنَّةَ وَلَا النَّارَ، وَلَا السَّمَاءَ وَلَا الْأَرْضَ، فَكَيْفَ لَا نَكُونُ أَفْضَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَقَدْ سَبَقْنَاهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبَّنَا وَتَسْبِيحِهِ وَتَهْلِيلِهِ وَتَقْدِيسِهِ؟ لِأَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ خَلْقَ أَرْوَاحِنَا، فَأَنْطَقْنَا بِتَوْحِيدِهِ وَتَحْمِيدِهِ، ثُمَّ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ، فَلَمَّا شَاهَدُوا أَرْوَاحَنَا نُورًا وَاحِدًا اسْتَعْظَمُوا أَمْرَنَا، فَسَبَّحْنَا لِتَعْلَمَ الْمَلَائِكَةُ أَنَا خَلْقُ مَخْلُوقُونَ، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِنَا، فَسَبَّحَتِ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِنَا، وَنَزَّهَتْهُ عَنْ صِفَاتِنَا، فَلَمَّا شَاهَدُوا عِظَمَ شَأْنِنَا هَلَّلْنَا، لِتَعْلَمَ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

(١) الكافي (ج ١ / ص ٤٤١ / باب مولد النبي ﷺ ووفاته / ح ٦).

وَأَنَا عَبِيدٌ وَلَسْنَا بِآلِهَةٍ يَجِبُ أَنْ نُعْبَدَ مَعَهُ أَوْ دُونَهُ، فَقَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا شَاهَدُوا كِبَرَ مُحَلَّنًا كَبَرْنَا، لِنَعْلَمَ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُنَالَ عِظَمَ الْمَحَلِّ إِلَّا بِهِ...»^(١).

هل آية التطهير تشمل غير أهل البيت عليهم السلام؟

قد يقال: إن الآية الشريفة وبسياقها تشمل نساء النبي ﷺ ولا تختص بأهل البيت عليهم السلام، والسياق حجة.

والجواب عنه: حجية السياق لو سلّمت - وهي محل نقاش تعرّض له علماء الأصول -، فإنها يكون السياق حجة فيما لو جزمنا بوحدة الكلام وأنه قد نزل دفعة وجملة واحدة، فيكون بعضه حجة على بعض ومفسراً لما عمي معناه وخفيت دلالته، أمّا مع العلم بعدم النزول لجميع آيات سورة الأحزاب دفعة واحدة - أو خصوص الآيات التي قيل بوحدة السياق فيها - وأنها نجوماً مختلفة وفي مواطن متعددة، فلا تنفع على هذا وحدة السياق كقرينة على تفسير المراد بأهل البيت عليهم السلام، بل يكفينا احتمال ذلك.

ومن شواهد ذلك تعدّد ذكرها على لسان النبي ﷺ على بيت الإمام عليّ عليه السلام والصدّيقة الطاهرة عليها السلام، كما رواه السيوطي: ... لَمَّا دَخَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِنِجَابِهَا جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ [أربعين صباحاً إلى بابها يقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، الصَّلَاةُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢)، أَنَا حَزْبٌ لِمَا حَارَبْتُمْ، أَنَا سِلْمٌ لِمَا سَأَلْتُمْ»^(٢).

بل القرينة الداخلية قاضية باختلاف الخطاب بين حديثه عن نساء

(١) عِلَلُ الشَّرَائِعِ (ج ١ / ص ٥ - ٧ / باب ٧ / ح ١).

(٢) الدُّرُ الْمُنْتَوَرُ (ج ٥ / ص ١٩٩).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٦٥

النبي ﷺ وعن أهل البيت عليهم السلام، ففي الخطاب لهنّ يأتي التعبير: «تُرَدْنَ» مكرراً له ومحدّراً لهنّ، وفي مخاطبتهم عليهم السلام يأتي التعبير منه ﷺ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ»، مادحاً ومُثَنِّياً، وشتان بين التعبيرين.

على أنّه لو سُئِمَ العموم فهو قد خُصِّصَ بها ذكرناه من روايات فسّرت وقصرت وحصرت أهل البيت بالأئمة والصدّيقة الطاهرة عليها السلام.

بل في هذا المجال ذكر علماء الكلام ومنذ القَدَمِ العديد من القرائن على نفي دعوى دخول نساء النبي ﷺ في أهل البيت عليهم السلام، مَنْ شاء فليطلبهم من محلّها.

* * *

الفقرة الخامسة عشر

«ثُمَّ جَعَلْتُ أَجْرَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَوَدَّتِهِمْ فِي كِتَابِكَ، فَقُلْتُ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» [الشورى: ٢٣]، وَقُلْتُ: «مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ» [سبأ: ٤٦]، وَقُلْتُ: «مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» [الفرقان: ٥٧]، فَكَانُوا هُمُ السَّبِيلَ إِلَيْكَ، وَالْمَسْلَكَ إِلَىٰ رِضْوَانِكَ».

الفقرة الشريفة تتحدّث عمّا ترتّب على ما بذله النبي ﷺ تجاه أمّته. فكونه الشخص الذي أوطأ مشارق الأرض ومغاربها، وأودع علم ما كان وما يكون، وأنّه مستخلص الله تعالى ومستخلص دينه، وأنّه واسطة الفيض ومجرى نزول الرحمة وكلّ أمرٍ حكيم، فذاتٌ بهذه الصفات - وتقدّم هذه الهبات

والمكرمات للبشريّة، بل للكون - لا بدّ أن يترتّب على ما تقوم به من أعمالٍ لا نظير لها في عالم البشريّة، بل ولا غيره، أجرٌ عظيم على حدّ تعبير الآية في الدعاء. نحن نعرف جيّداً أنّ القانون الإلهي الكونيّ يقضي بأنّ ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧)، وأنّه سوف يرى أثرها في الدنيا أو الآخرة، بل وفيهما معاً.

فالعمل الصغير لا بدّ أن يقع بإزائه أجرٌ مناسب، بل مضاعفٌ بأضعافٍ كثيرة، أقلّها أن الحسنه بعشر أضعافها. فكيف بعمل النبي ﷺ وما قدّمه للأمة؟ المقطع الندبي المبارك يتحدّث عن ثلاثة ألوان من الأجر المترتّب على تحمّل الرسالة من قبل النبي ﷺ، وهي:

الأول: الأجر على مودة الأمة لأهل البيت عليهم السلام:

فيجب على الأمة أن تودّ أهل البيت عليهم السلام، لأنّ الإسلام جعل عقداً فاشتره المسلمون بأجر المودة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، ثم قال (عزّ من قائل): ﴿فَاسْتَبَشَرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)، وكلُّ مَنْ لم يُعطِ هذا الأجر سيكون غاصباً.

* وقد بوّب البرقي رحمه الله في (محاسنه) باباً كاملاً تحت عنوان: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ روى فيه العديد من الروايات، منها:

ما رواه بسنده عن حجاج الخشاب، قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ع يَقُولُ لِأَبِي جَعْفَرٍ الْأَحْوَلِ: «مَا يَقُولُ مَنْ عِنْدَكُمْ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لَا

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٦٧

أَسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى؟»، فَقَالَ: كَانَ أَحْسَنُ الْبَصْرِيِّ يَقُولُ: فِي أَقْرَبَائِي مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «لَكِنِّي أَقُولُ لِقُرَيْشِ الَّذِينَ عِنْدَنَا: هِيَ لَنَا خَاصَّةٌ، فَيَقُولُونَ: هِيَ لَنَا وَلَكُمْ عَامَّةٌ، فَأَقُولُ: خَبَّرُونِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ شَدِيدَةٌ مَنْ خَصَّ بِهَا؟ أَلَيْسَ إِيَّانَا خَصَّ بِهَا حِينَ أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَ أَهْلَ نَجْرَانَ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهم السلام، وَيَوْمَ بَدْرٍ قَالَ لِعَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ»، قَالَ: «فَأَبُوا يُقَرُّونَ لِي، أَفَلَكُمْ الْخَلُوعُ وَلَنَا الْمُرَّةُ؟!»^(١).

* وفي (تفسير القمّي) بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾: «يَعْنِي فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»، قَالَ: «جَاءَتْ الْأَنْصَارُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ أَوْيْنَا وَنَصَرْنَا، فَخُذْ طَائِفَةً مِنْ أَمْوَالِنَا فَاسْتَعِنْ بِهَا عَلَيَّ مَا نَابَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يَعْنِي عَلَى النَّبُوَّةِ، ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ يَعْنِي فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ لَهُ صَدِيقٌ، وَفِي نَفْسِ ذَلِكَ الرَّجُلِ شَيْءٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَلَا يَسْلَمُ صَدْرُهُ؟ فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ شَيْءٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ [أُمَّتِهِ]، فَفَرَضَ عَلَيْهِمُ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، فَإِنْ أَخَذُوا أَخَذُوا مَفْرُوضًا، وَإِنْ تَرَكَوا تَرَكَوا مَفْرُوضًا»، قَالَ: «فَأَنْصَرَفُوا مِنْ عِنْدِهِ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: عَرَضْنَا عَلَيْهِ أَمْوَالَنَا، فَقَالَ: قَاتِلُوا عَنْ أَهْلِ بَيْتِي مِنْ بَعْدِي، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا قَالَ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، وَجَحَدُوهُ وَقَالُوا كَمَا حَكَى اللَّهُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]...»^(٢).

(١) المحاسن (ج ١ / ص ١٤٤ و ١٤٥ / ح ٤٧).

(٢) تفسير القمّي (ج ٢ / ص ٢٧٥).

الثاني: الأجر هو للناس:

قال تعالى: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ (سبأ: ٤٧).

وهو أجر يتفرّع على المودّة، ويتنفع منه نفس المشتري، وقد ذكرته الآية الثانية صريحاً، فإنّ مَنْ يشتري طعاماً ليأكله كي يقي نفسه من الوقوع في الهلكة، فهو يعلم جيّداً أنّه لو لم يشتري الطعام فإنّه سيهلك، والطعام هنا ليس بهادّي وإنّما هو الطعام الذي أنزله الله تعالى بواسطة أوليائه لإيصال البشريّة إلى الهدف والغاية من وجودها في هذا الكون، وقد جاء السؤال عنه في الروايات الشريفة. وممّا ذُكر في هذا المجال:

* في (الكافي) بسنده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَرِ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، قال: «مَنْ تَوَلَّى الْأَوْصِيَاءَ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ وَاتَّبَعَ آثَارَهُمْ فَذَلِكَ يَزِيدُهُ وَلَايَةَ مَنْ مَضَى مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِينَ حَتَّى تَصِلَ وَلَايَتُهُمْ إِلَى آدَمَ عليه السلام، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧]، يَقُولُ: أَجْرُ الْمَوَدَّةِ الَّذِي لَمْ أَسْأَلْكُمْ غَيْرَهُ فَهُوَ لَكُمْ، تَهْتَدُونَ بِهِ وَتَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ أَهْلِ التَّكْذِيبِ وَالْإِنْكَارِ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، يَقُولُ: مُتَكَلِّفًا أَنْ أَسْأَلُكُمْ مَا لَسْتُمْ بِأَهْلِهِ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ عِنْدَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَمَا يَكْفِي مُحَمَّدًا أَنْ يَكُونَ قَهْرَنَا عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى يُرِيدَ أَنْ يُحْمَلَ أَهْلَ بَيْتِهِ عَلَيَّ رِقَابِنَا؟ فَقَالُوا: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا، وَمَا هُوَ إِلَّا شَيْءٌ يَتَقَوْلُهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ أَهْلَ بَيْتِهِ عَلَيَّ رِقَابِنَا، وَلَكِنْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ أَوْ مَاتَ لَنَزَعْنَاهَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ثُمَّ لَا نُعِيدُهَا فِيهِمْ أَبَدًا، وَأَرَادَ اللَّهُ تعالى أَنْ يُعْلِمَ نَبِيَّهُ ﷺ الَّذِي أَخْفَوْا فِي صُدُورِهِمْ وَأَسْرَوْا بِهِ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٦٩

افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ، يَقُولُ: لَوْ شِئْتُ حَبَسْتُ عَنْكَ الْوَحْيَ فَلَمْ تَكَلِّمْ بِفَضْلِ أَهْلِ بَيْتِكَ وَلَا بِمَوَدَّتِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، يَقُولُ: الْحَقُّ لِأَهْلِ بَيْتِكَ الْوَلَايَةُ، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، وَيَقُولُ بِمَا أَلْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ أَلْعَادِوَةِ لِأَهْلِ بَيْتِكَ وَالظُّلْمِ بَعْدَكَ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]...^(١).

الثالث: الأجر هو اتخاذ الإسلام الحقيقي سبيلاً لله تعالى:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٥٧).

وهذا الأجر الثالث - الأجر السبيلي - أجر جعل بإزاء ما قدمه النبي ﷺ للأمة من إيصاله - دين الإسلام - لها، وهو سبيل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى الوحيد، وحيث إنَّ هذا السبيل يكون أخذه متقومًا بوجود واسطة للتلقّي والإعطاء جاء المقطع ليؤكد هذه الحالة، فقال: «فَكَانُوا هُمُ السَّبِيلَ إِلَيْكَ، وَمَسَلَكَ إِلَىٰ رِضْوَانِكَ».

فمن يريد أن يصل إلى طعام مغدٍّ وحلال ينفعه، ويكون سبيلًا للتقوى والتقوية، لا بدَّ أن يُعطي أجر ذلك الطعام، بعد أن يختار المناسب منه له، ويعرف كيفية الانتفاع به واستخدامه، ليأمن ضرره، هذا في الطعام المادّي المتعارف، وكذا الحال في طعام الروح وزاد التقرب، و﴿إِنَّ خَيْرَ الرِّزَادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧).

ذكر العلامة المجلسي رحمته الله في (بحاره) بياناً جاء فيه: (... في الجمع بين الآيات التي وردت في أجر الرسالة، لأنَّ الله تعالى قال في موضع: ﴿قُلْ لَا

(١) الكافي (ج ٨ / ص ٣٧٩ و ٣٨٠ / ح ٥٧٤).

١٧٠ شرح دعاء الندبة

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴿١﴾، فدلَّت على أنَّ المودَّة أجر الرسالة، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، أي الأجر الذي سألتكم يعود نفعه إليكم، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾، فيظهر من تفسيره عليه السلام هنا أنَّ المراد به أنَّ أجر الرسالة إنَّها أطلبه ممَّن قَبِلَ قولي وأطاعني واتَّخَذَ إلىٰ ربه سبيلًا...^(١).

اتِّخَاذُ السُّبُلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَهْمَةُ الشَّرِكِ:

سيتمُّ التعرُّض لهذا البحث المهمِّ والحساس من مباحث علم الكلام والذي أضحى مثاراً للنقاش الحادِّ ممَّا أوجب تكفير أغلب طوائف المسلمين بحُجَجٍ واهية وأساليب ملتوية لا تُسند إلى حجة وبرهان، وتخالف صريح القرآن الكريم والسنة القطعية في جواز هذا الأمر - التوسُّل -، بل وضرورة الأخذ به من قِبَل المسلمين.

* * *

(١) بحار الأنوار (ج ٢٤ / ص ٣٧٠ / ذيل الحديث ٩٤).

المبحث الثالث:

إمامة أمير المؤمنين عليه السلام هي السبيل

الوحيد للارتباط بالله بعد النبي صلى الله عليه وآله

الفقرة السادسة عشر

«فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَقَامَ وَلِيِّهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا) هَادِيًا، إِذْ كَانَ هُوَ الْمُنْدِرَ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ، فَقَالَ وَالْمَلَأُ أَمَامَهُ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالِ الْآهَ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَأُخْذِلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَقَالَ: مَنْ كُنْتُ أَنَا نَبِيَّهُ فَعَلِيٌّ أَمِيرُهُ، وَقَالَ: أَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى، وَأَحَلَّهُ مَحَلَّ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي».

الفقرة التي نحن بصدد شرحها طويلة ومرتبطة بما قبلها، وارتباطها بما بعدها أكثر وأوضح، وللحديث عنها لا بد من تسليط الضوء بشكل مجمل على الفقرات التي بعدها - إلى أن يحين وقت شرحها - أي إلى قوله ﷺ: «وَلَمَّا قَضَى نَحْبَهُ وَقَتْلُهُ أَشْقَى الْآخِرِينَ».

خصائص خط الهداية:

والحديث فيها عن الصفات التي توجب استمرار خط الهداية الإلهية. أمير المؤمنين ﷺ عميد أهل البيت ﷺ، ورئيس الهاشميين بعد النبي ﷺ من أهل البيت ﷺ الذين جعلهم الباري ﷻ الحبل المتين الرابط بين السماء والأرض كنتيجة للمشاركة الإلهية التي سبق الحديث عنها، وأنهم أهل البيت

الإلهي، والذي يُمثّل بيت الدّين وتعاليم الإسلام، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (النور: ٣٦).

وحيث إنّ الناس فطروا على التوجّه جبليّاً لدخول ذلك البيت، ودعاهم التكليف للسير إليه، كان لا بدّ من أن تكون عمليّة الهداية وإيصال الناس وإدلالهم على الدرب الموصل إلى باب ذلك البيت مستمرّة إلى أن تنتهي الخليقة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصاص: ٥١).

وفي حديث النبي ﷺ الذي رواه العامّ والخاصّ دلالة صريحة على ذلك، حيث قال ﷺ: «... إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي»^(١).

لهذا ولغيره ممّا سيأتي سلّط الدعاء المبارك الحديث على أبرز عنصر استخلافي يكون نموذجاً واضحاً في بيان المشيئة الإلهية في استمرارية هذا الارتباط بين السماء والأرض ولا بدّيته، فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُودِيَ: أَيْنَ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ؟ فَيَقُومُ دَاوُدُ، فَيَقَالُ: لَسْنَا أَرَدْنَاكَ وَإِنْ كُنْتَ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، فَيَقُومُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَأْتِي النَّدَاءُ: يَا مَعْشَرَ الْخَلَائِقِ، هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَحُجَّتُهُ عَلَى عِبَادِهِ، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِحَبْلِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَلْيَتَعَلَّقْ بِحَبْلِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ لِيَسْتَضِيءَ بِنُورِهِ وَيُشَيِّعَهُ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

جاء هذا المقطع من الدعاء ليتحدّث مفصّلاً - وبما يناسب مساحة الدعاء من البيان - عن هذا الاستخلاف العظيم، قائلاً: «فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُ أَقَامَ وَلِيُّهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا) هَادِيّاً، إِذْ كَانَ هُوَ الْمُنْدَرُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ...»، متحدّثاً عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام المنبثقة من ولاية رسول الله ﷺ، وعن معاداته عليه السلام المترتب عليها معادة رسول الله ﷺ، وعن نصرته والدعاء

(١) مسند أحمد (ج ٥ / ص ١٨٠ / ح ٣٠٦١).

(٢) مناقب آل أبي طالب (ج ٢ / ص ٢٦٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٧٥

له بالنصرة والدعاء على مَنْ يخذله، ثم جعل الإيمان بنبوته ﷺ لا يتم إلا بالإيمان بولاية علي عليه السلام، فكلُّ مَنْ كان نبيّه محمداً ﷺ لا بدَّ أن يكون علي عليه السلام أميره، لأنَّ علياً ومحمداً من شجرة واحدة، وجميع الناس بما فيهم الأنبياء من أشجار أُخرى، وهو عليه السلام منه ﷺ بمنزلة النبي من النبي لولا ختم النبوة. فثبت أنَّ الهادي بعده ﷺ علي عليه السلام لأنَّه هو المنذر، وأنَّ المولى بعده ﷺ علي عليه السلام لأنَّه هو الولي، وأنَّ معاديه وخاذله خاذل لرسول الله ﷺ، وأنَّ ناصره ناصر له لأنَّ علياً عليه السلام أمير مَنْ نبيّه محمد ﷺ.

فهذه الصفات التي جعلها رسول الله ﷺ ويجعل إلهي لعلي عليه السلام إنما هي لأجل تلك الوظيفة الكبرى التي تقع على عاتقه بعد انقضاء أيام رسول الله ﷺ.

ثم فرغ رسول الله ﷺ على هذه الكمالات والصفات جملة من الخصوصيات تحدَّثنا عنها في عدَّة مقاطع سابقة وبعضها سيأتي، من العصمة والعلم اللدني والخصائص البدنية والنسبية وغيرها.

خصائص وصفات الخليفة بعد النبي محمد ﷺ:

أن يكون هو الهادي بعد النبي ﷺ:

وهذا في زماننا، بل وفي زمان سابق وسحيق ظاهر وجلي، روى شيخ الطائفة عليه السلام بسنده عن ابن عباس، قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: «أَنَا الْمُنذِرُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى مَنْكَبِ عَلِيِّ عليه السلام، فَقَالَ: «أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ، بِكَ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ مِنْ بَعْدِي»^(١).

(١) تفسير التبيان (ج ٦ / ص ٢٢٣).

إخراج الناس عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام من مصاديق القتل العمد:
 الروايات الشريفة التي تدلُّ على كون الإمام عليه السلام عنصر الهداية، وأنَّ
 الخلاف عليه يُوقِع في الضلال كثيرة مرَّ عليك جملة منها وستقرأ كذلك جملة منها
 بألسنة وألفاظ مختلفة في هذا الشرح، ومن بين تلك الروايات التي بيَّنت فداحة
 قيام البعض بإضلال الناس عن أمير المؤمنين وعن ولايته عليه السلام وما هو الأثر
 المترتب على هذا الفعل حيث جعلته من القتل العمد، فقد روى الشيخ
 الطبرسي رحمته الله في (الاحتجاج) بإسناده عن عليِّ بن الحسين عليهما السلام في تفسير قوله
 تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٩]:
 ﴿وَلَكُمْ﴾ يا أمة محمدٍ، ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، لِأَنَّ مَنْ هَمَّ بِالْقَتْلِ فَعَرَفَ أَنَّهُ
 يُقْتَصُّ مِنْهُ فَكَفَّ لِذَلِكَ عَنِ الْقَتْلِ، كَانَ حَيَاةً لِلَّذِي هَمَّ بِقَتْلِهِ، وَحَيَاةً هَذَا الْجَانِي
 الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ، وَحَيَاةً لِغَيْرِهِمَا مِنَ النَّاسِ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْقِصَاصَ وَاجِبٌ لَا
 يَجْسُرُونَ عَلَى الْقَتْلِ مَخَافَةَ الْقِصَاصِ، ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أُولِي الْعُقُولِ، ﴿لَعَلَّكُمْ
 تَتَّقُونَ﴾^(١)، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: «عِبَادَ اللَّهِ، هَذَا قِصَاصُ قَتْلِكُمْ لِمَنْ تَقْتُلُونَهُ فِي الدُّنْيَا،
 وَتُقْتَلُونَ رُوحَهُ، أَفَلَا أُنبئُكُمْ بِأَعْظَمَ مِنْ هَذَا الْقَتْلِ، وَمَا يُوحِيهِ اللَّهُ عَلَى قَاتِلِهِ مِمَّا هُوَ
 أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْقِصَاصِ؟»، قَالُوا: بَلَى، يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْظَمُ مِنْ هَذَا
 الْقَتْلِ أَنْ يَقْتُلَهُ قَتْلًا لَا يُجْبَرُ وَلَا يَحْيَا بَعْدَهُ أَبَدًا؟»، قَالُوا: مَا هُوَ؟ قَالَ: «أَنْ يُضِلَّهُ
 عَنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ، وَعَنْ وَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَيَسْلُكَ بِهِ غَيْرَ سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُغَيِّرَ بِهِ
 بِاتِّبَاعِ طَرِيقِ أَعْدَاءِ عَلِيٍّ وَالْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِمْ، وَدَفْعِ عَلِيٍّ عَنِ حَقِّهِ، وَجَحْدِ فَضْلِهِ،
 وَالْأَيُّبِيَّ بِإِعْطَائِهِ وَاجِبَ تَعْظِيمِهِ، فَهَذَا هُوَ الْقَتْلُ الَّذِي هُوَ مُخْلِيدُ الْمَقْتُولِ فِي نَارِ
 جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخْلِدًا أَبَدًا، فَجَزَاءُ هَذَا الْقَتْلِ مِثْلُ ذَلِكَ الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١).

(١) الاحتجاج (ج ٢ / ص ٥٠).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكلمات) ١٧٧

أهل البيت عليهم السلام الحجة على العباد:

قد أولت الشريعة المقدسة أهمية قصوى لإقامة الدين الحق وجعل الحجّة، ولا نبالغ إذا قلنا بتواتر روايات إقامة الحجّة في الأخبار والزيارات وغيرها من الموروث.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُسَيْنِ بْنِ حَسَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَسَنِ عليه السلام، قَالَ: «خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ بَعْدَ مَا حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: مَعَاشِرَ النَّاسِ، كَأَنِّي أُدْعَى فَأَجِيبُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلَ بَيْتِي، مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا، فَتَعَلَّمُوا مِنْهُمْ وَلَا تَعَلَّمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ، لَا يَخْلُو الْأَرْضُ مِنْهُمْ، وَلَوْ خَلَّتْ إِذَا لَسَاخَتْ بِأَهْلِهَا»^(١).

المخالف قبل الموالي يُقرُّ بأهمية الإمامة في الدين وبضرورتها:

لقد أُفرد لهذا الموضوع تصنيفات كثيرة، وأشبع البحث فيه، وتمّ تناوله من جهات متعدّدة.

ومن أبرز ما ورد في الروايات عندنا أنّ الوجود قائم على وجود الحجّة، ولولا الحجّة ووجوده لساخت الأرض بأهلها^(٢).

ومن أبرز ما جاء التعبير به عن هذه الحقيقة الدنيّة الثابتة، ومن أشدّ المخالفين للإماميّة، أنّه لولا الإمامة لما كان للدين، بل وللدنيا قيام.

(١) كفاية الأثر (ص ١٦٣).

(٢) في الكافي (ج ١ / ص ٥٣٤ / باب فيما جاء في الاثني عشر والنصّ عليهم عليهم السلام / ح ١٧) بسنده عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي وَائْتِي عَشْرَ مِنْ وُلْدِي وَأَنْتَ يَا عَلِيُّ زُرُّ الْأَرْضَ يَعْنِي أَوْتَادَهَا وَجِبَاهَهَا، بِنَا أَوْتَدَ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تَسِيخَ بِأَهْلِهَا، فَإِذَا ذَهَبَ الْإِثْنَا عَشْرَ مِنْ وُلْدِي سَاخَتْ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا وَلَمْ يُنْظَرُوا».

حيث ذكر مخالفونا هذا الأمر بعباراتٍ تُؤكِّدُ أنَّ وجود الحجَّةِ قضيَّةٌ لا بدَّ منها، وأنَّ بها قوام الدِّين والدنيا^(١).

وقد سلَّطَ الشيخ الكليني رحمته الله الضوء في كتابه المبارك (الكافي) من خلال عدَّة أبواب على أهميَّة الحجَّةِ وضرورة وجود الإمام عليه السلام، وممَّا ذكره من تلك الأبواب أنَّ الأئمَّةَ عليهم السلام كلَّهم قائمون بأمر الله، وأنَّ الأرض لا تخلو من حجَّة، ولو لم يبق في الأرض إلاَّ رجلان لكان أحدهما الحجَّة، وأنَّ الأئمَّةَ عليهم السلام هم أركان الأرض، والشهداء على الخلق، وأنَّهم الهداة وولاة الأمر وخلفاء الله تعالى.

وممَّا جاء من تلك الأحاديث:

* وفي (كمال الدين) بسنده عن أبي عليِّ ابنِ همام، قال: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ عُمَرَ الْعَمْرِيَّ (قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ) يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام وَأَنَا عِنْدَهُ عَنِ الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ لَللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، فَقَالَ عليه السلام: «إِنَّ هَذَا حَقٌّ كَمَا أَنَّ النَّهَارَ حَقٌّ»، فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، فَمَنْ الْحُجَّةُ وَالْإِمَامُ بَعْدَكَ؟ فَقَالَ: «ابْنِي مُحَمَّدٌ هُوَ الْإِمَامُ وَالْحُجَّةُ بَعْدِي، مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، أَمَا إِنَّ لَهُ غَيْبَةً يَحَارُ فِيهَا الْجَاهِلُونَ، وَيَهْلِكُ فِيهَا الْمُبْطَلُونَ، وَيَكْذِبُ فِيهَا الْوَقَّاتُونَ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْأَعْلَامِ الْبَيْضِ نَحْفُ فَوْقَ رَأْسِهِ بِنَجْفِ الْكُوفَةِ»^(٢).

(١) راجع: مجموعة الفتاوى لابن تيمية (ص ٣٩٠)؛ وممَّا جاء فيه: (يجب أن يُعرف أنَّ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدِّين، بل لا قيام للدِّين ولا للدنيا إلاَّ بها).

(٢) كمال الدِّين (ص ٤٠٩ / باب ٣٨ / ح ٩).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٧٩

أهل البيت عليهم السلام قوام الدين:

كون أهل البيت عليهم السلام قوام الدين وبهم قام وسيبقى هو مفاد عدة روايات تقدّم بعضها ولو بنحو الملازمة أو الإشارة، ومنها الآتي:

* وفي (كامل الزيارات) روى الشيخ الأقدم ابن قولويه رحمته الله في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِمَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ رَسُولِهِ ﷺ وَمَنْ فَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَهُ، رَحْمَةً مِنْهُ لِي، وَتَطَوُّلاً مِنْهُ عَلَيَّ بِالْإِيْمَانِ...، اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَيَّ الْاَئِمَّةِ مِنْ وُلْدِهِ، الْقَوَّامِينَ بِأَمْرِكَ مِنْ بَعْدِهِ، الْمُطَهَّرِينَ الَّذِينَ ارْتَضَيْتَهُمْ أَنْصَاراً لِدِينِكَ، وَحَفَظَةً لِسِرِّكَ، وَشُهَدَاءَ عَلَيَّ خَلْقِكَ، وَأَعْلَاماً لِعِبَادِكَ...»^(١).

بقاء الحق في الأمة ببقاء الإمام عليه السلام:

من بدييات العقائد الإسلامية أنّ الحق في أمة الإسلام، وقد أقام علماء الكلام على هذا الأصل عدة أدلة، وتفرّع عليه العديد من المسائل الكلامية، واستفاد منه جملة من أعيان الطائفة في إثبات بقاء الإمامة واستمرارها. فلأجل الأصل المتقدم في ضرورة الإمام في كل زمان، والإمام هو الحق فيتفرع عليه بقاء الحق.

وكيفما كان، فقد ذكّر هذا الأصل في كلمات الأعيان:

* في (الغيبة للطوسي): (ومتى نوزعنا في ثبوت إمامته دللنا عليها بأن نقول: قد ثبت وجوب الإمامة مع بقاء التكليف على من ليس بمعصوم في جميع الأحوال والأعصار بالأدلة القاهرة، وثبت أيضاً أنّ من شرط الإمام أن يكون مقطوعاً على عصمته، وعلمنا أيضاً أنّ الحق لا يخرج عن الأمة).
ثم قال عليه السلام بعد ذلك بعدة صفحات ما نصّه: (... وأما الأصل الثالث

(١) كامل الزيارات (ص ٩٥ - ٩٧ / ح ٣/٩٥).

وهو أن الحق لا يخرج عن الأمة، فهو متفق عليه بيننا وبين خصومنا وإن اختلفنا في علة ذلك. لأن عندنا أن الزمان لا يخلو من إمام معصوم لا يجوز عليه الغلط على ما قلناه، فإذا الحق لا يخرج عن الأمة لكون المعصوم فيهم. وعند المخالف لقيام أدلة يذكرونها دلت على أن الإجماع حجة، فلا وجه للتشاعل بذلك. فإذا ثبتت هذه الأصول ثبت إمامة صاحب الزمان عليه السلام...^(١).

* وفي (كمال الدين) بسنده عن الحسن بن أبي حمزة الثمالي، عن أبيه، قال: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام وَهُوَ يَقُولُ: «لَنْ تَخْلُوَ الْأَرْضُ إِلَّا وَفِيهَا رَجُلٌ مَنَّا يَعْرِفُ الْحَقَّ، فَإِذَا زَادَ النَّاسُ فِيهِ قَالَ: قَدْ زَادُوا، وَإِذَا نَقَصُوا مِنْهُ قَالَ: قَدْ نَقَصُوا، وَإِذَا جَاؤُوا بِهِ صَدَقَهُمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ»، قَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ عَوَاضٍ الطَّائِيُّ: بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعْتُهُ مِنْهُ^(٢).

سنة إرسال الرُّسُل والهداية في كل أمة:

تقدّم في طيّات الأبحاث السابقة الحديث عن سنة الله تعالى في إرسال الرُّسُل إلى كل الأمم السابقة، وختمها بإرسال نبي الرحمة ﷺ إلى هذه الأمة، بل جميع الأمم، وجعل فيها الهداة والمنذرين من بعده لكل الناس. وهذه سنة تكوينية دلت عليها بعض الآيات المتقدمة، وصرّحت بها الروايات التي لا يبعد تواترها المعنوي، ومما دلّ عليها مضافاً إلى ما سبق عدّة روايات، منها:

* في (الغيبة للطوسي) بسنده عن سعد بن عبد الله الأشعري، قال: حَدَّثَنَا الشَّيْخُ الصَّدُوقُ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ سَعْدِ الْأَشْعَرِيِّ رحمته الله أَنَّهُ جَاءَهُ بَعْضُ

(١) الغيبة للطوسي (ص ٤ و ١٧).

(٢) كمال الدين (ص ٢٢٢ و ٢٢٣ / باب ٢٢ / ح ١٢).

أَصْحَابِنَا يُعَلِّمُهُ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ عَلِيٍّ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَعْرِفُهُ فِيهِ نَفْسُهُ، وَيَعْلَمُهُ أَنَّهُ الْقَيِّمُ بَعْدَ أَخِيهِ، وَأَنَّ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مَا يُجْتَنَحُ إِلَيْهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ كُلِّهَا...، إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام: «يَا هَذَا يَرْحَمُكَ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ عَبَثًا، وَلَا أَهْمَلَهُمْ سُدَى، بَلْ خَلَقَهُمْ بِقُدْرَتِهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَسْمَاعًا وَأَبْصَارًا وَقُلُوبًا وَالْبَابَاءَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيِّينَ عليهم السلام مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، يَأْمُرُونَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَيَعْرِفُونَهُمْ مَا جَهَلُوهُ مِنْ أَمْرِ خَالِقِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَائِكَةً يَأْتِينَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ بَعَثَهُمْ إِلَيْهِمْ بِالْفَضْلِ الَّذِي جَعَلَهُ لَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَمَا آتَاهُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَةِ وَالآيَاتِ الْعَالِيَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ النَّارَ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا وَاتَّخَذَهُ حَلِيلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا وَجَعَلَ عَصَاهُ نُعْبَانًا مُبِينًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَحْيَا الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأَ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَتَمَّمَ بِهِ نِعْمَتَهُ، وَخَتَمَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأَظْهَرَ مِنْ صِدْقِهِ مَا أَظْهَرَ، وَبَيَّنَّ مِنْ آيَاتِهِ وَعَلَامَاتِهِ مَا بَيَّنَّ، ثُمَّ قَبَضَهُ صلى الله عليه وآله حَمِيدًا فَقِيدًا سَعِيدًا، وَجَعَلَ الْأَمْرَ [مِنْ] بَعْدِهِ إِلَى أَخِيهِ وَإِنْ عَمَّهُ وَوَصِيهِ وَوَارِثِهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، ثُمَّ إِلَى الْأَوْصِيَاءِ مِنْ وُلْدِهِ وَاحِدًا وَاحِدًا، أَحْيَاءَ بِهِمْ دِينَهُ، وَأَتَمَّ بِهِمْ نُورَهُ...»^(١).

والأخبار في هذا المعنى - كما قلنا - متواترة.

فيجب على الناس بعد هذا الإرسال ووضوح هذه السنن اتِّباعَ أعلام الهداية والسير وراء الحق الذي أصرح عنه أهل البيت عليهم السلام، امثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بَعْدَ أَنْ مِمَّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه: ١٣٤).

(١) الغيبة للطوسي (ص ٢٨٧ و ٢٨٨ / ح ٢٤٦).

الإمام عليّ عليه السلام هو الوليُّ بعد النبي ﷺ :

يترتب على إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليه السلام كل ما يترتب على ولاية النبي ﷺ من وجوب النصرة والولاية والدعاء لمن نصره وعلى من خذله.

ومما ورد في ذلك من النصوص - وهي كثيرة - :

* في (كتاب سليم بن قيس): كلام الحسن البصري عن فضائل أمير المؤمنين عليه السلام: قال أبان: وحدثت بهذا الحديث الحسن البصري عن أبي ذر، فقال: (صدق سليم، وصدق أبو ذر. لعلي بن أبي طالب السابقة في الدين والعلم والحكمة والفقهاء، وفي الرأي والصحبة، وفي الفضل، وفي البسطة، وفي العشيرة، وفي الصهر، وفي النجدة في الحرب، وفي الجود، وفي الماعون، وفي العلم بالقضاء، وفي القرابة للرسول، والعلم بالقضاء والفصل، وفي حسن البلاء في الإسلام. إن علياً في كل أمر أمره علي، فرحم الله علياً وصلى عليه)، ثم بكى حتى بلّ لحيته، قال: فقلت له: يا أبا سعيد، أتقول لأحد غير النبي ﷺ إذا ذكرته؟ فقال: (ترحم علي المسلمين إذا ذكرتهم، وصلّ على محمد وآل محمد، وإن علياً خير آل محمد)، فقلت: يا أبا سعيد، خير من حمزة ومن جعفر ومن فاطمة ومن الحسن والحسين؟ فقال: (إي والله، إنه خير منهم، ومن يشك أنه خير منهم؟)، فقلت له: بما ذا؟ قال: (إنه لم يجز عليه اسم شرك ولا كفر ولا عبادة صنم ولا شرب خمر. وعلي خير منهم بالسبق إلى الإسلام، والعلم بكتاب الله وسنة نبيه. وإن رسول الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام: «رَوَّجْتُكَ خَيْرَ أُمَّتِي»، فلو كان في الأمة خيراً منه لاستثناه. وإن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه، وآخى بين علي ونفسه، فرسول الله خيرهم نفساً وخيرهم أحياناً. ونصبه يوم غدیر حُمٍّ، وأوجب له من الولاية على الناس مثل ما أوجب لنفسه، فقال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ».

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٨٣

وقال له: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»، ولم يقل ذلك لأحد من أهل بيته، ولا لأحد من أمته غيره. وله سوابق كثيرة ومناقب ليس لأحد من الناس مثلها)، قال: فقلت له: مَنْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ عَلِيِّ عليه السلام؟ قال: (زوجته وابناه...)»^(١).

* وفي (الكافي) بسنده عن عَبْدِ أَحْمَدِ بْنِ أَبِي الدَّيْلَمِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «أَوْصَى مُوسَى عليه السلام إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَأَوْصَى يُوشَعَ بْنُ نُونٍ إِلَى وَلَدِ هَارُونَ، وَلَمْ يُوصِ إِلَى وَلَدِهِ وَلَا إِلَى وَلَدِ مُوسَى، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ الْخَيْرَةُ، يَخْتَارُ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ يَشَاءُ... وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَتَأَلَّفُهُمْ، وَيَسْتَعِينُ بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَزَالُ يُخْرِجُ هُمْ شَيْئًا فِي فَضْلِ وَصِيهِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ حِينَ أُعْلِمَ بِمَوْتِهِ وَنُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، فَقَالَ اللَّهُ (جَلَّ ذِكْرُهُ): ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ٨﴾ [الشرح: ٧ و ٨]، يَقُولُ: إِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ عِلْمَكَ، وَأَعْلِنْ وَصِيكَ، فَأَعْلِمُهُمْ فَضْلَهُ عَلَانِيَةً، فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -، ثُمَّ قَالَ: لَا بَعْثَنَنَّ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، لَيْسَ بِفَرَارٍ، يُعْرَضُ بِمَنْ رَجَعَ يُجِبُّ أَصْحَابَهُ وَيُجِبُّونَهُ، وَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم عَلِيُّ سَيِّدُ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ: عَلِيُّ عَمُودُ الدِّينِ...»^(٢).

أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام من شجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

وهذا المعنى وردت فيه العديد من النصوص الروائية والتي تُصرِّح أن أمير المؤمنين عليه السلام هو فرع شجرة النبوة، وأنه الامتداد الطبيعي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم

(١) كتاب سليم بن قيس (ص ١٦٧).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٢٩٣ - ٢٩٦ / باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام / ح ٣).

يقتصر بيان هذا المعنى من النبي ﷺ على المداليل المطابقيّة، بل بيّنه بعدة أنحاء كأحاديث الطينة والإشهاد والنورانيّة وغيرها ممّا مرّ عليك بعضها وما سنذكره في هذا الشرح. وممّا ورد في ذلك:

* في (نهج البلاغة): «أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا حَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ»^(١)، «نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ»^(٢)، «وَعِنْدَنَا أَهْلُ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ»^(٣)، «إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسَبِّحُوا»^(٤).

* وفي (الكافي) بسنده عن خيّمته، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَيْمَتُهُ، نَحْنُ شَجَرَةُ النَّبُوَّةِ، وَبَيْتُ الرَّحْمَةِ، وَمَفَاتِيحُ الْحِكْمَةِ، وَمَعْدِنُ الْعِلْمِ، وَمَوْضِعُ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ، وَمَوْضِعُ سِرِّ اللَّهِ، وَنَحْنُ وَدِيعةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَنَحْنُ حَرَمُ اللَّهِ الْأَكْبَرُ، وَنَحْنُ ذِمَّةُ اللَّهِ، وَنَحْنُ عَهْدُ اللَّهِ، فَمَنْ وَفَى بِعَهْدِنَا فَقَدْ وَفَى بِعَهْدِ اللَّهِ، وَمَنْ خَفَرَهَا فَقَدْ خَفَرَ ذِمَّةَ اللَّهِ وَعَهْدَهُ»^(٥).

إِحْلال النبي ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ مَحَلَّهُ كَمَا أَحَلَّ مُوسَى هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامَ مَحَلَّهُ:

لقد أحلّ النبي الأكرم ﷺ الإمام عليّاً ﷺ محله كمحلّ هارون من موسى ﷺ، فمنّ منعه الصادون والمزورون للتأريخ والحقائق عن التماس موقع هذا الرجل العظيم، فليلتمس من القرآن الكريم طريقاً، وهو كتاب الهداية

(١) نهج البلاغة (ص ١٤٦ / الخطبة ١٠٠).

(٢) نهج البلاغة (ص ١٦٢ و ١٦٣ / الخطبة ١٠٩).

(٣) نهج البلاغة (ص ١٧٦ / ح ١٢٠).

(٤) نهج البلاغة (ص ٢١٥ / الخطبة ١٥٤).

(٥) الكافي (ج ١ / ص ٢٢١ / باب أن الأئمة عليهم السلام معدن العلم... / ح ٣).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٨٥

ليتهدي به إليه، ليقراً قصة هارون وما جرى عليه سيجدها تجلت في علي عليه السلام وكأنه إنما ذكرت لهذا الغرض ليس إلا، فليتأمل من يبحث عن الحجّة بينه وبين ربّ العباد.

ومما ورد في ذلك:

* في (تفسير القمي) روى عن الله في حادثة استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة وجعل النبي صلى الله عليه وآله له بمنزلة هارون عليه السلام: فلما اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وآله الخيول رحل من ثنية الوداع وخلف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة، فأوجف المنافقون بعلي عليه السلام، فقالوا: ما خلفه إلا تشؤماً به، فبلغ ذلك علياً، فأخذ سيفه وسلاحه ولحق برسول الله صلى الله عليه وآله بالجرف، فقال له رسول الله: «يا علي، ألم أخلفك على المدينة؟»، قال: «نعم، ولكنّ المنافقين زعموا أنّك خلفتني تشؤماً بي»، فقال: «كذب المنافقون. يا علي، أما ترضى أن تكون أخي وأنا أخوك، بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي؟ وإن كان بعدي نبي لقلت: أنت، وأنت خليفتي في أمّتي، وأنت وزيري وأخي في الدنيا والآخرة»، فرجع علي عليه السلام إلى المدينة^(١).

* * *

(١) تفسير القمي (ج ١ / ص ٢٩٢ و ٢٩٣).

المبحث الرابع:

خصائص فاطمة الزهراء عليها السلام

ومقامها وكونها كفوّاً لعلّي عليه السلام

الفقرة السابعة عشر

«وَرَوْجَهُ ابْنَتُهُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ».

فاطمة عليها السلام التي كانت بمقتضى المشيئة الإلهية عنصر الربط الإلهي بين النبوة والإمامة.

ولأن علياً عليه السلام حاز مؤهلات الإمامة، فالنتيجة الطبيعية أن يُزوجّه النبي الخاتم ﷺ ابنته سيدة نساء العالمين عليها السلام بأمر من الله تعالى، كي يتفرّع منها أغصان شجرة الإمامة، فجاء الدعاء ليقول: «وَرَوْجَهُ ابْنَتُهُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ».

وقد ورد في هذا المعنى عدّة روايات منها:

* في (تهذيب الأحكام) بسنده عن المفضل، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ [عليه السلام] لَمْ يَكُنْ لِفَاطِمَةَ عليها السلام كُفُوٌ عَلَيَّ ظَهَرَ الْأَرْضِ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ»^(١).

* وفي (مكارم الأخلاق): عن زين العابدين عليه السلام قال: «خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ زَوَّجَ فَاطِمَةَ عليها السلام مِنْ عَلِيٍّ عليه السلام، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِنِعْمَتِهِ، الْمَعْبُودِ بِقُدْرَتِهِ، الْمَطَاعِ بِسُلْطَانِهِ، الْمَرْهُوبِ مِنْ عَذَابِهِ وَسَطْوَتِهِ، الْمَرْغُوبِ إِلَيْهِ فِيمَا عِنْدَهُ، النَّافِذِ أَمْرُهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﻻ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ [بْنِ أَبِي طَالِبٍ]، فَقَدْ زَوَّجْتُهُ عَلِيًّا أَرْبَعًا مِثْقَالَ فِضَّةٍ إِنْ رَضِيَ بِذَلِكَ

(١) تهذيب الأحكام (ج ٧ / ص ٤٧٠ / ح ١٨٨٢ / ٩٠).

عَلِيٍّ. ثُمَّ دَعَا ﷺ بِطَبَقٍ [مِنْ] بُسْرِ^(١)، ثُمَّ قَالَ: ائْتَهُبُوا، فَبَيْنَا نَنْتَهَبُ إِذْ دَخَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَلِيُّ، أَعَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَكَ فَاطِمَةَ؟ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا عَلَى أَرْبَعِائَةٍ مِثْقَالِ فِضَّةٍ إِنْ رَضِيتَ، فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَضِيتُ بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: جَمَعَ اللَّهُ سَمْلَكُمْ، وَأَسْعَدَ جَدَّكُمْ، وَبَارَكَ عَلَيْكُمْ، وَأَخْرَجَ مِنْكُمْ كَثِيرًا طَيِّبًا^(٢).

* قال الشيخ الصدوق رحمته الله في (الاعتقادات): (وأما فاطمة (صلوات الله عليها)، فاعتقادنا فيها أمها سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والأخيرين، وأن الله يغضب لغضبها، ويرضى لرضاها، وأمّا خرجت من الدنيا ساخطة على ظالمها وغاصبيها ومانعي إرثها)^(٣).

* * *

(١) نوع من أنواع التمر.

(٢) مكارم الأخلاق (ص ٢٠٧).

(٣) الاعتقادات في دين الإمامية (ص ١٠٥).

المبحث الخامس:

بعض خصائص وفضائل

أمير المؤمنين عليه السلام

الفقرة الثامنة عشر

«وَأَحَلَّ لَهُ مِنْ مَسْجِدِهِ مَا حَلَّ لَهُ، وَسَدَّ الْأَبْوَابَ إِلَّا بَابَهُ، ثُمَّ أَوْدَعَهُ عِلْمَهُ وَحِكْمَتَهُ، فَقَالَ: أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ وَالْحِكْمَةَ فَلْيَأْتِهَا مِنْ بَابِهَا، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ أَخِي وَوَصِيِّي وَوَارِثِي، لِحَمِّكَ مِنْ لِحْمِي، وَدَمِّكَ مِنْ دَمِي، وَسِلْمُكَ سِلْمِي، وَحَرْبُكَ حَرْبِي، وَالْإِيمَانُ مُحَالِطٌ لِحَمِّكَ وَدَمِّكَ كَمَا خَالَطَ لِحْمِي وَدَمِي، وَأَنْتَ غَدًا عَلِيُّ الْحَوْضِ خَلِيفَتِي، وَأَنْتَ تَقْضِي دِينِي، وَتُنَجِّزُ عِدَاتِي، وَشِيعَتُكَ عَلِيُّ مَنَابِرٍ مِنْ نُورِ مُبِيضَةٍ وَجُوهُهُمْ حَوْلِي فِي الْجَنَّةِ وَهُمْ جِيرَانِي».

ذكرنا فيما سبق بعض فضائل الإمام عليٍّ عليه السلام والتي منها الولاية والزواج و...، ثم يستمرُّ الدعاء بذكر خصائص وفضائل أخرى له، وهي:
جملة من الآثار التي يتحدَّث كلُّ واحدٍ منها عن بُعد وزاوية من خصائص وصفات وكمالات أمير المؤمنين عليه السلام، وكلُّ واحدٍ منها يشير بطبيعة الحال إلى بُعد من أبعاد الإمام عليٍّ عليه السلام، وليس لنا إدراك هذه الخصائص والحقائق والآثار لولا أن أهل البيت عليهم السلام ذكروها وبيَّنوا ما يترتَّب عليها وما توجهه وكيف وُجِدَتْ. وما ذكره الدعاء المبارك منها:

اشتراك النبي ﷺ والولي ﷺ في خصائص محددة من المسجد النبوي: المعروف فقهيًا وعند جميع المذاهب الإسلامية - إلا من شدَّ - حرمة الدخول لمن به الأحداث الكبرى في المساجد، وتشتدُّ هذه الحرمة في خصوص المسجدين - المسجد الحرام والمسجد النبوي - .
وقد ثبت استثناء النبي ﷺ، وألحق به الإمام عليٌّ ﷺ بدليل خاص، وهذا الاستثناء مختصُّ بهما دون غيرهما.

روى الشيخ الكليني رحمه الله في (الكافي) بسنده عن أبي حمزة الثمالي، عن عند أبي جعفر عليه السلام، قال: «... فأوحى الله ﷻ إلى نبيه ﷺ أن طهر مسجداً وأخرج من المسجد من يزقده فيه بالليل، ومُر بسد أبواب من كان له في مسجداً باباً إلا باب عليٍّ عليه السلام ومسكن فاطمة عليها السلام، ولا يمرن فيه جنب، ولا يزقده فيه غريب»، قال: «فأمر رسول الله ﷺ بسد أبوابهم إلا باب عليٍّ عليه السلام، وأقر مسكن فاطمة عليها السلام على حاله...»^(١).

فكون الإمام عليه السلام أحلَّ له من مسجد رسول الله ﷺ ما حلَّ له، يشير إلى البعد المادّي ومرتبة القداسة للإمام، ولما لمسجد رسول الله ﷺ من مكانة ولزوم الطهارة على الغير، وأنَّ الإمامة مطهّرة ذاتاً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].
وحيث إنَّ الإمام عليه السلام اكتسب ذلك بنصِّ النبي ﷺ ذكر الدعاء هذا الأمر، وهو مفروغ عنه كما في الروايات الشريفة، ونقلنا بعضها.

ثم تحدّث الدعاء عن أثر آخر ملازم للإحلال ويقتضيه الإحلال، وهو أنه لا باب يصدر منه إلا الباب الذي يُفتح بأمر رسول الله ﷺ، فقال الدعاء:

(١) الكافي (ج ٥ / ص ٣٣٩ و ٣٤٠ / باب أن المؤمن كفو المؤمنة / ح ١).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٩٥

«وَسَدَّ الْأَبْوَابَ إِلَّا بَابَهُ»، وهنا قد يسأل سائل: لماذا سدَّ الأبواب إلا بابه، وأحل له وحده ما حلَّ له من مسجده؟

إيداع العلم والحكمة النبوية في الإمام عليه السلام:

جاء الدعاء ليتحدَّث عن صفة من صفات الإمام عليه السلام في إطار حديثه عن خصائص الإمام عليه السلام، فقال: «ثُمَّ أَوْدَعَهُ عِلْمَهُ وَحِكْمَتَهُ»، إجابة لما يمكن أن يتوهَّم من سائل عن علة فتح بابه وحده وتحليل المسجد له وحده.

والروايات التي تتحدَّث عن علومهم وكيفية تلقِّيهم العلم عديدة ومختلفة - يأتي التعرُّض لجملة منها قريباً -، ولا يبعد تواترها المعنوي.

أهل البيت عليهم السلام عندهم علم الكتاب:

ومَّا جَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْوَلِيدِ السَّهْمَانِيِّ، قَالَ: قَالَ الْبَاقِرُ عليه السلام: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ وَمُوسَى وَعِيسَى»، قُلْتُ: مَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِيهِمْ؟! قَالَ: «هُوَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُمَا»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَسْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ لِعَلِيٍّ مَا لِرَسُولِ اللَّهِ مِنَ الْعِلْمِ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، وَالنَّاسُ يُنْكِرُونَ، قَالَ: «فَخَاصِمُهُمْ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ لَهُ الشَّيْءَ كُلَّهُ. وَقَالَ لِعِيسَى عليه السلام: ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُبَيِّنِ الْأَمْرَ كُلَّهُ. وَقَالَ مُحَمَّدٌ عليه السلام: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» [النحل: ٨٩]، قَالَ: فَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾» [الرعد: ٤٣]، قَالَ: «وَاللَّهُ إِيَّانَا عَنَى، وَعَلِيٌّ أَوْلُنَا وَأَفْضَلُنَا وَخَيْرُنَا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ عليه السلام»، وَقَالَ: «إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي نَزَلَ

بِهِ أَدَمَ عَلَىٰ حَالِهِ عِنْدَنَا، وَكَيْسَ يَمْضِي مِنَّا عَالِمٌ إِلَّا خَلْفَهُ مَنْ يَعْلَمُ عِلْمَهُ، وَالْعِلْمُ يُتَوَارَثُ»^(١).

علومهم عليه السلام آثار من رسول الله ﷺ، ويتوارثونها بينهم:

يجمعها عدة أحاديث بَوَّبَ لها الشيخ الكليني رحمته الله باباً تحت عنوان:
(جهات علوم الأئمة عليهم السلام)، وما ورد فيه وفي غيره:

* وَعَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ هَاهُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلَامِي؟ قَالَ: فَرَفَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام سِتْرًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَيْتٍ آخَرَ، فَاطَّلَعَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، سَلْ عَمَّا بَدَأَ لَكَ»، قَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ شَيْعَتَكَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ عَلِيًّا عليه السلام بَابًا يُفْتَحُ لَهُ مِنْهُ أَلْفُ بَابٍ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، عَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا عليه السلام أَلْفَ بَابٍ يُفْتَحُ مِنْ كُلِّ بَابٍ أَلْفُ بَابٍ»، قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ أَلْعَلِّمُ، قَالَ: فَنَكَتَ سَاعَةً فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَعَلِّمُ وَمَا هُوَ بِذَلِكَ»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، وَإِنَّ عِنْدَنَا الْجَامِعَةَ، وَمَا يُدْرِيهِمْ مَا الْجَامِعَةُ»، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَمَا الْجَامِعَةُ؟ قَالَ: «صَحِيفَةٌ طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِمْلَائِهِ مِنْ فُلُقٍ فِيهِ وَخَطٌّ عَلَيَّ بِيَمِينِهِ، فِيهَا كُلُّ حَلَالٍ وَحَرَامٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ الْأَرْضُ فِي الْحَدْسِ»، وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَيَّ، فَقَالَ: «تَأْذُنُ لِي يَا أَبَا مُحَمَّدٍ؟»، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّمَا أَنَا لَكَ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ، قَالَ: فَغَمَزَنِي بِيَدِهِ وَقَالَ: «حَتَّىٰ أَرْضُ هَذَا» كَأَنَّهُ مُعْضَبٌ، قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ أَلْعَلِّمُ، قَالَ: «إِنَّهُ لَعَلِّمٌ وَكَيْسٌ بِذَلِكَ»، ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «وَإِنَّ عِنْدَنَا الْجُفْرَ، وَمَا يُدْرِيهِمْ مَا الْجُفْرُ»، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا الْجُفْرُ؟ قَالَ: «وِعَاءٌ مِنْ أَدَمٍ فِيهِ

(١) الخرائج والجرائح (ج ٢ / ص ٧٩٨ - ٨٠٠ / ح ٨).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ١٩٧

عِلْمُ النَّبِيِّينَ وَالْوَصِيِّينَ وَعِلْمُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ هَذَا هُوَ الْعِلْمُ، قَالَ: «إِنَّهُ لَعِلْمٌ وَلَيْسَ بِذَلِكَ»، ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «وَإِنَّ عِنْدَنَا لُمُصْحَفَ فَاطِمَةَ عليها السلام، وَمَا يُدْرِيهِمْ مَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ عليها السلام»، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا مُصْحَفُ فَاطِمَةَ عليها السلام؟ قَالَ: «مُصْحَفٌ فِيهِ مِثْلُ قُرْآنِكُمْ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَاللَّهُ مَا فِيهِ مِنْ قُرْآنِكُمْ حَرْفٌ وَاحِدٌ»، قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ الْعِلْمُ، قَالَ: «إِنَّهُ لَعِلْمٌ وَمَا هُوَ بِذَلِكَ»، ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ عِنْدَنَا عِلْمٌ مَا كَانَ وَعِلْمٌ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، هَذَا وَاللَّهِ هُوَ الْعِلْمُ، قَالَ: «إِنَّهُ لَعِلْمٌ وَلَيْسَ بِذَلِكَ»، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَأَيُّ شَيْءٍ الْعِلْمُ؟ قَالَ: «مَا يَجْدُثُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِ الْأَمْرِ، وَالشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

الإمام عليه السلام أخو النبي ﷺ ووصيه ووارثه:

عندما يتحدث النبي الأكرم ﷺ عن أمير المؤمنين عليه السلام بالخصوص، ويصفه بـ: «أنت أخي ووصيي ووارثي، لحمك من لحمي ودمك من دمي»، فإن هذا التوصيف منه ﷺ إنما جاء لأن أمير المؤمنين عليه السلام هو كالنبي ﷺ، باستثناء ما دل عليه الدليل مما اختص به النبي ﷺ.

* في (أمالى الطوسي) بسنده عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا علياً، فإن لحمه لحمي ودمه دمي، لعن الله أقواماً من أممي ضيعوا فيه عهدتي، ونسوا فيه وصيتي، ما هم عند الله من خلاق»^(٢).

* وفي (الفضائل) بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال

(١) الكافي (ج ١ / ص ٢٣٨ - ٢٤٠ / باب فيه ذكر الصحيفة والجفر... / ح ١).

(٢) أمالي الطوسي (ص ٦٩ / ح ١٠١ / ١٠).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا الْبَشِيرُ، أَنَا النَّذِيرُ، أَنَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، وَأَنَا مُبَلِّغُكُمْ عَنِ اللَّهِ ﷻ فِي رَجُلٍ حَمُهُ حَمِي، وَدَمُهُ دَمِي، وَهُوَ عَيْبَةُ عِلْمِي، وَهُوَ الَّذِي ائْتَحَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاصْطَفَاهُ وَهَدَّبَهُ وَتَوَلَّاهُ، وَخَلَقَنِي وَإِيَّاهُ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ، وَفَضَّلَنِي بِالرَّسَالَةِ، وَفَضَّلَهُ بِالْإِمَامَةِ وَالتَّبْلِيغِ عَنِّي، وَجَعَلَنِي مَدِينَةَ الْعِلْمِ، وَجَعَلَهُ الْبَابَ...»^(١).

* وفي (الخصال) بسنده عن أبي الجارود، عن محمد بن عبد الله، عن أبيه، عن آبائه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ نُورًا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ ﷻ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ عَامٍ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ سَلَكَ ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ، فَلَمَّ يَزِلُ اللَّهُ ﷻ يَنْقُلُهُ مِنْ صُلْبِ إِلَى صُلْبٍ حَتَّى أَقَرَّهُ فِي صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَسَّمَهُ قِسْمَيْنِ، فَصَيَّرَ قِسْمَ فِي صُلْبِ عَبْدِ اللَّهِ، وَقِسْمَ فِي صُلْبِ أَبِي طَالِبٍ، فَعَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ، لَحْمُهُ مِنْ لَحْمِي، وَدَمُهُ مِنْ دَمِي، فَمَنْ أَحَبَّنِي فَبِحَبِّي أَحَبَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَبِبْغْضِي أَبْغَضَهُ»^(٢).

الإيمان مخالط للحم ودم أمير المؤمنين ﷺ كما خالط لحم ودم رسول الله ﷺ:

ثم قال: «وَسَلَّمْتُكَ سَلْمِي، وَحَرَبْتُكَ حَرَبِي، وَالْإِيْمَانُ مُخَالِطُ لَحْمِكَ وَدَمِكَ كَمَا خَالَطَ لَحْمِي وَدَمِي».

وقد ورد في هذه المعاني الجليلة عدّة روايات، منها:

* في (أمالي الصدوق) بسنده عن جابر بن عبد الله، قال: لَمَّا قَدِمَ عَلَيَّ ﷺ عَلِيٌّ قَالَ: «لَوْلَا أَنْ تَقُولَ فِيكَ

(١) الفضائل لابن شاذان (ص ٧).

(٢) الخصال (ص ٦٤٠ / ح ١٦).

طَوَائِفُ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ، لَقُلْتَ فِيكَ الْيَوْمَ قَوْلًا لَا تَمُرُّ بِمَلَأٍ إِلَّا أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ رِجْلَيْكَ وَمِنْ فَضْلِ طَهُورِكَ يَسْتَشْفُونَ بِهِ، وَلَكِنْ حَسْبُكَ أَنْ تَكُونَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، تَرْتِنِي وَأَرْتِكَ...، وَأَنْتَ عَدَا عَلَى الْحَوْضِ خَلِيفَتِي، وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يُكْسِي مَعِي، وَأَنْتَ أَوَّلُ دَاخِلِ الْجَنَّةِ مِنْ أُمَّتِي، وَأَنْ شِيعَتَكَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، مُبَيَّضَةً وَجُوهُهُمْ حَوْلِي، أَشْفَعُ لَهُمْ، يَكُونُونَ عِدَاً فِي الْجَنَّةِ جِيرَانِي، وَأَنْ حَرْبَكَ حَرْبِي، وَسِلْمَكَ سِلْمِي، وَأَنْ سِرَّكَ سِرِّي، وَعَلَانِيَتَكَ عَلَانِيَتِي، وَأَنْ سَرِيرَةَ صَدْرِكَ كَسْرِيَرَتِي، وَأَنْ وُلْدَكَ وُلْدِي، وَأَنْتَ تُنْجِزُ عِدَاتِي، وَأَنْ الْحَقَّ مَعَكَ، وَأَنْ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِكَ وَقَلْبِكَ وَبَيْنَ عَيْنَيْكَ، الْإِيَّانُ مُحَالِطٌ لِحَمِّكَ وَدَمِّكَ كَمَا خَالَطَ لِحَمِّي وَدَمِّي، وَأَنَّهُ لَنْ يَرِدَ عَلَيَّ الْحَوْضَ مُبْغِضٌ لَكَ، وَلَنْ يَغِيبَ عَنْهُ حُبُّ لَكَ حَتَّى يَرِدَ الْحَوْضَ مَعَكَ»، قَالَ: فَخَرَّ عَلَيَّ عليه السلام سَاجِداً، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيَّ بِالْإِسْلَامِ، وَعَلَّمَنِي الْقُرْآنَ، وَحَبَّبَنِي إِلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَفَضْلًا مِنْهُ عَلَيَّ»، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْلَا أَنْتَ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدِي»^(١).

* وفي (كمال الدين) بسنده عن ابن عباس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: «يَا عَلِيُّ... فَكَذَّبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّنِي وَيُبْغِضُكَ، لِأَنَّكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، لِحَمِّكَ مِنْ لِحَمِّي، وَدَمِّكَ مِنْ دَمِّي، وَرُوحِكَ مِنْ رُوحِي»^(٢).

والأخبار في هذا المعنى وما تقدم من خصائص وصفات لأمر المؤمنين عليهم السلام كثيرة.

(١) أمالي الصدوق (ص ١٥٦ و ١٥٧ / ح ١ / ١٥٠).

(٢) كمال الدين (ص ٢٤١ / باب ٢٢ / ح ٦٥).

الإمام عليه السلام خليفة النبي ﷺ، ومنجز عداته:

ثم تحدّث عن أثر يترتب على هذه الحقيقة الإمامية من أنّ هذه الخلافة والوصاية هي استمرارية، فقال: «وَأَنْتَ عَدَاً عَلَى الْحَوْضِ خَلِيفَتِي»، ومما ورد في ذلك:

* في (كتاب سليم بن قيس) يروي حديث المناشدة المشهور، جاء فيه: «... أَوْهُمْ أَخِي عَلِيٌّ، وَوَزِيرِي، وَوَارِثِي، وَخَلِيفَتِي فِي أُمَّتِي، وَوَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي، هُوَ أَوْهُمْ، ثُمَّ ابْنِي الْحَسَنُ، ثُمَّ ابْنِي الْحُسَيْنِ، ثُمَّ تَسَعَةَ مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ وَاحِدٌ بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى يَرِدُوا عَلَيَّ الْحَوْضَ، شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَحُجَجُهُ عَلَيَّ خَلْقِهِ، وَخَزَانُ عِلْمِهِ، وَمَعَادِنُ حِكْمَتِهِ، مَنْ أَطَاعَهُمْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَاهُمْ عَصَى اللَّهَ»، فَقَالُوا كُلُّهُمْ: نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ...^(١).

مجاورة شيعة الإمام عليه السلام للنبي ﷺ:

يخاطب النبي ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام، وهو خطاب لكلّ القرون والأجيال ممن يؤمن بولاية أمير المؤمنين عليه السلام حقاً بأنّه إذا اتّبعك أحد وشايعك فإنّه معي وحوالي وسيكونون جيران في الجنة، حيث نصّ الدعاء المبارك على ما تقدّم: «وَشِيعَتُكَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، مُبَيَّضَةً وَجُوهُهُمْ حَوْلِي فِي الْجَنَّةِ وَهُمْ جِيرَانِي».

والخبر بذلك كثير، ومنه:

* في (أمالي الصدوق) بسنده عن ابن عباس، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ عليه السلام: «يَا عَلِيُّ، شِيعَتُكَ هُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ أَهَانَ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ أَهَانَكَ، وَمَنْ أَهَانَكَ فَقَدْ أَهَانَني، وَمَنْ أَهَانَني أَدْخَلَهُ اللَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. يَا عَلِيُّ، أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ، رُوحَكَ مِنْ رُوحِي، وَطَيْبَتِكَ مِنْ

(١) كتاب سليم بن قيس (ص ٢٠٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٠١

طَيْبَتِي، وَشَيْعَتِكَ خُلِقُوا مِنْ فَضْلِ طَيْبَتِنَا، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَقَدْ أَحَبَّنَا، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ
فَقَدْ أَبْغَضَنَا، وَمَنْ عَادَاهُمْ فَقَدْ عَادَانَا، وَمَنْ وَدَّهُمْ فَقَدْ وَدَّنَا. يَا عَلِيُّ، إِنَّ شَيْعَتَكَ
مَغْفُورٌ لَهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِيهِمْ مِنْ ذُنُوبٍ وَعُيُوبٍ. يَا عَلِيُّ، أَنَا الشَّفِيعُ لِشَيْعَتِكَ غَدًا
إِذَا قُمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، فَبَشِّرْهُمْ بِذَلِكَ...»^(١).

وقد مرَّ عن كلِّ لفظه من ألفاظ هذه الفقرة من إنجاز العِدَّة، وقضاء
الدين، ومخالطة اللحم وغيرها ما يدلُّ عليها من الروايات بنحوٍ مستقلٍّ أو في
ضمن غيرها، ولولا خوف الإطالة لروينا العشرات، بل ما يفوق المئات من
الروايات الدالة على هذه المعاني من كُتب أصحابنا وغيرهم.

* * *

الفقرة التاسعة عشر

«وَلَوْلَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدِي، وَكَانَ بَعْدَهُ
هُدًى مِنَ الضَّلَالِ، وَنُورًا مِنَ الْعَمَى، وَحَبْلَ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَصِرَاطَهُ
الْمُسْتَقِيمِ، لَا يُسْبِقُ بِقَرَابَةٍ فِي رَحِمٍ، وَلَا بِسَابِقَةٍ فِي دِينٍ، وَلَا يُلْحَقُ فِي
مَنْقَبَةٍ مِنْ مَنَاقِبِهِ، يَخْذُو حَذْوَ الرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا)،
وَيُقَاتِلُ عَلَى التَّأْوِيلِ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، قَدْ وَتَرَ فِيهِ
صَنَادِيدَ الْعَرَبِ، وَقَتَلَ أَبْطَاهُ، وَنَاوَشَ ذُؤَابَاهُمْ، فَأَوْدَعَ قُلُوبَهُمْ
أَحْقَادًا بَدْرِيَّةً وَخَيْرِيَّةً وَحُنَيْنِيَّةً وَغَيْرَهُنَّ».

قلنا: إنَّ الحديث في هذه الفقرات مترابط بعضها مع بعض، وتقدّم الحديث
عن عدّة جهات ومقامات لاحظها الدعاء، والكلام في هذه الفقرة عن جملة من

(١) أمالي الصدوق (ص ٦٦ / ح ٣٢ / ٨).

٢٠٢ شرح دعاء الندبة

الخصائص المعنوية والممارسات العملية التي أوجبتها صفات استمرار خطّ الهداية الإلهية.

ونلاحظ أنّ الدعاء المبارك عندما تحدّث عن الجانب العملي أسبقه بالحديث عن الجانب النظري، وعن ملاك الحركة العملية والخصائص المعنوية، وقضية أنّ لكلّ بُعد عملي وكمالات معنوية يمارسها الإنسان بُعداً نظرياً يحمل ملاك الحركة هو أمر ضروري، وتخطّيه يوجب التزلزل العملي والانحراف في الممارسة، لذلك من يسلّط الضوء على الممارسات المنحرفة يجد أنّ منشأ الانحراف العملي يُؤشّر إلى أنّ هناك خللاً فكرياً، وأنّ الخلل الفكري لا بدّ أن يكون من نتاجات عدم حمل ملاك القضايا وأسسها.

الدعاء بدأ بالحديث عن الجانب النظري أولاً، وهو ملاك الحركة العملية، ممّا يعني أنّ الفكر الصحيح هو أساس السلوك السليم. وأنّ كلّ بُعد عملي يحمل وراءه بُعداً نظرياً، أي إنّ السلوكيات لا تكون سليمة إلاّ إذا كانت مستندة إلى فكر صحيح، فالخلل العملي، ينشأ عن خلل فكري.

وحديث الدعاء عن الجانب العملي جاء في هذا السياق، وعن تنوع أشكال الممارسات لعنصر الهداية الإلهي، وكيف تكون مؤثرة في اقتباس المؤمنين منه أبعاد الإيمان والهداية والسير على مقتضى ذلك. ومن بين أبرز الأنواع التي ذكرها الدعاء المبارك:

بِالإمام ٱلإمام يُعرّف أهل الإيمان:

واللون الأوّل من ألوان الممارسة لتلك الصفات أن يكون الإمام عنصر الهداية الإلهي، وهو الشاخص والمعرف للمؤمن المرتبط بالله تعالى، فالمؤمنون بالله تعالى يُعرفون من خلال تمسّكهم بهذا الشاخص، وقد رويت بهذا الصدد العديد من الأخبار، منها:

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٠٣

* في (أمالي الصدوق) بسنده عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ:
«لَوْلَا أَنْتَ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدِي»^(١).

* وفي (الخصال) بسنده عن مكحول، عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله ﷺ: «لَوْلَاكَ مَا عُرِفَ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

* وفي (كشف الغمّة) بسنده عن أبي ذرّ، عن النبي ﷺ: «عَلَيَّ بَابُ عِلْمِي وَهَدْيِي، وَمَيِّنٌ لِأُمَّتِي مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنْ بَعْدِي، حُبُّهُ إِيْمَانٌ وَبُغْضُهُ نِفَاقٌ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ رَأْفَةٌ، وَمَوَدَّتُهُ عِبَادَةٌ»^(٣).

* وفي (كنز الفوائد) بسنده عن الحارث الهمداني، قال: رَأَيْتُ عَلِيًّا عليه السلام جَاءَ حَتَّى صَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «قَضَى قَضَاءُ اللَّهِ ﷻ عَلَيَّ لِسَانَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﷺ أَنَّهُ لَا يُحِبُّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ، وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى»^(٤).

* وفي (أمالي الطوسي) بسنده عن غالب الجهنّي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جدّه، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، أَوْقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي ﷻ، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: قَدْ بَلَوْتُ خَلْقِي، فَأَيُّهُمْ وَجَدْتَ أَطْوَعَ لَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: رَبِّ عَلِيًّا، قَالَ: صَدَقْتَ يَا مُحَمَّدُ، فَهَلْ اتَّخَذْتَ لِنَفْسِكَ خَلِيفَةً يُؤَدِّي عَنْكَ، وَيُعَلِّمُ عِبَادِي مِنْ كِتَابِي مَا لَا يَعْلَمُونَ؟ قَالَ: قُلْتُ: اخْتَرْتُ لِي، فَإِنَّ خَيْرَتَكَ خَيْرٌ لِي، قَالَ: قَدْ اخْتَرْتُ

(١) أمالي الصدوق (ص ١٥٧ / ح ١ / ١٥٠).

(٢) الخصال (ص ٥٨٠ / ح ١).

(٣) كشف الغمّة (ج ١ / ص ٩٢).

(٤) كنز الفوائد (ص ٢٢٥).

لَكَ عَلِيًّا، فَاتَّخَذَهُ لِنَفْسِكَ خَلِيفَةً وَوَصِيًّا، فَإِنِّي قَدْ نَحَلْتُهُ عِلْمِي وَحِلْمِي، وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا، لَمْ يَقْلُهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا أَحَدٌ بَعْدَهُ. يَا مُحَمَّدُ، عَلِيٌّ رَايَةٌ أَهْدَى، وَإِمَامٌ مَنْ أَطَاعَنِي، وَنُورٌ أَوْلِيَائِي، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَلْزَمْتُهَا الْمُتَّقِينَ، مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَقَدْ أَبْغَضَنِي، فَبَشِّرْهُ بِذَلِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: رَبِّ فَقَدْ بَشَّرْتُهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَفِي قَبْضَتِهِ إِنْ يُعَذِّبْنِي فَبِذُنُوبِي لَمْ يَظْلِمْنِي شَيْئًا، وَإِنْ يُتِمَّ لِي مَا وَعَدَنِي فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِي، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَجَلْ قَلْبَهُ، وَاجْعَلْ رَبِيعَهُ الْإِيمَانَ بِكَ، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، غَيْرَ أَنِّي مُحْتَصِصُهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَلَاءِ لَمْ أَخْتَصِّ بِهِ أَحَدًا مِنْ أَوْلِيَائِي، قَالَ: قُلْتُ: رَبِّ أَخِي وَصَاحِبِي، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِي أَنَّهُ مُبْتَلَىٰ وَمُتَبَلَىٰ بِهِ، لَوْلَا عَلِيٌّ لَمْ يُعْرِفْ حِزْبِي وَلَا أَوْلِيَائِي وَلَا أَوْلِيَاءَ رُسُلِي»^(١).

* وفي (كتاب سليم)، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: ... يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَدْنَىٰ مَا يَكُونُ بِهِ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَأَدْنَىٰ مَا يَكُونُ بِهِ كَافِرًا، وَأَدْنَىٰ مَا يَكُونُ بِهِ ضَالًّا؟ قَالَ: «قَدْ سَأَلْتُ فَاسْمَعِ الْجَوَابَ، أَدْنَىٰ مَا يَكُونُ بِهِ مُؤْمِنًا أَنْ يُعْرِفَهُ اللَّهُ نَفْسَهُ فَيَقَرَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنْ يُعْرِفَهُ نَبِيَّهُ فَيَقَرَّ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْبِلَاغَةِ، وَأَنْ يُعْرِفَهُ حُجَّتَهُ فِي أَرْضِهِ وَشَاهِدَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ فَيَقَرَّ لَهُ بِالطَّاعَةِ»، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ جَهَلَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مَا وَصَفْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا أَمَرَ أَطَاعَ، وَإِذَا نُهِىَ انْتَهَىٰ. وَأَدْنَىٰ مَا يَكُونُ بِهِ كَافِرًا أَنْ يَتَدَيَّنَ بِشَيْءٍ فَيَزْعُمَ أَنَّ اللَّهَ أَمْرُهُ بِهِ - مِمَّا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ -، ثُمَّ يَنْصِبُهُ دِينًا فَيَتَبَرَّأَ وَيَتَوَلَّىٰ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي أَمْرُهُ بِهِ. وَأَدْنَىٰ مَا يَكُونُ بِهِ ضَالًّا أَنْ لَا يُعْرِفَ حُجَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَشَاهِدَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ وَفَرَضَ وَلَا يَتَهُ...»^(٢).

(١) أمالي الطوسي (ص ٣٤٣ و ٣٤٤ / ح ٧٠٥ / ٤٥).

(٢) كتاب سليم بن قيس (ص ١٧٥ - ١٧٧).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٠٥

الدعاء عندما يقول: «لَوْلَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ» ليس المقصود بعليٍّ عليه السلام ذاته بمعزل عن إمامته، بل يُؤشّر بها إلى الولاية التي يجب على الناس جميعاً الالتزام بها بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وطبيعي أن يكون مؤشّر البوصلة الإلهية كما هو يُؤشّر لأفراد المؤمنين المعروفين بتمسّكهم بالإمام، كذلك يُؤشّر إلى عناصر الانحراف والضلال، فجاء الدعاء محدثاً قارئه، بقوله: «وَلَوْلَا أَنْتَ يَا عَلِيُّ لَمْ يُعْرِفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدِي، وَكَانَ بَعْدَهُ هُدًى مِنَ الضَّلَالِ».

الإمام عليه السلام الهادي من الضلال وحبل الله المتين وصراطه المستقيم:

هذا المقطع مرتبط ببحث الهداية، وهو من الأبحاث الكلامية والقرآنية المعمّقة، ونذكر من مسأله ما يتيسّر منها.

المعروف أنّ الهداية خاصّة وعمامة، والعمامة منها تكوينية وتشريعية، والتكوينية معناها إعطاء كلّ موجودٍ من موجودات عالم الوجود الاستعداد التامّ والقدرة المؤهّلة لتحقيق الغرض من وجوده، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠)، فكلّ موجود من موجودات هذا الكون قد أعطاه ربُّنا وخالقنا ما يتحقّق به الغرض من وجوده، ويصل به إلى كماله اللاّئق به.

قال السيّد الخوئي رحمته الله: (إنّ الهداية على ما يظهر من موارد استعمالها تُطلق

على معانٍ:

الأوّل: الهداية التكوينية، التي هي إفاضة الوجود على الكائنات، وجعلها منظّمة وخاضعة للسُّنن الكونية، كتبعية وجود المعاليل لوجود عللها، والترتيب الثابت في الحركات والأفاعيل والانفعالات الإدراكية وغير الإدراكية مع ترتيب غايات وأغراض لها، بحيث لا تتحصّل تلك الغايات إلّا على ما جعل الترتيب

عليه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣].

الثاني: الهداية التشريعية، وهي إنزال الكُتُب وإرسال الرُّسُل وسائر أسباب تبليغ الشرائع من الأوصياء وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وهذا القسم من الهداية لا يكون إلا على نحو إراءة الطريق، وأنه أيّ طريق يُوصِل العبد إلى المطلوب لو سلكه باختياره.

الثالث: الهداية الموصلة إلى المطلوب، وهذا يقابل القسم الثاني، إذ ليس لهذا المهدي اختيار قبول الهداية وعدمه، كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] (١).

هذا في الهداية العامة بشقيها، أمّا الهداية الخاصّة فقد ذكرها غير واحد من الأعلام، ومن بين ما ذكروه في بيانها وفي معرض توضيحها:

قال السيّد الخوئي رحمته الله: إمّا (هداية تكوينيّة، وعناية ربّانيّة خصّ الله بها بعض عباده حسب ما تقتضيه حكمته، فيُهيئ له ما به يهتدي إلى كماله ويصل إلى مقصوده، ولولا تسديده لوقع في الغي والضلالة، هذا وقد أُشير إلى هذا القسم من الهداية في غير واحد من الآيات المباركة...) (٢).

وقال السيّد الروحاني رحمته الله: (عناية ربّانيّة خصّ الله بها بعض عباده حسب ما تقتضيه حكمته، فهيأ له ما به يهتدي إلى كماله ويصل إلى مقصوده، ولولا تسديده لوقع في الغي والضلالة) (٣).

(١) مجمع الرسائل (موسوعة السيّد الخوئي) (ج ٤٩ / رسالة في الأمر بين الأمرين / ص ٨٦).

(٢) البيان في تفسير القرآن (ص ٤٩٤).

(٣) فقه الصادق عليه السلام (ج ١٣ / شرح ص ٢١٦).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٠٧

وقال الشيخ السبحاني (حفظه الله تعالى): (تختصُّ بجملة من الأفراد الذين استضاءوا بنور الهداية العامة تكوينها وتشريعها، فتشملهم العناية الخاصة منه سبحانه. ومعنى هذه الهداية هو تسديدهم في مزالق الحياة إلى سبيل النجاة، وتوفيقهم للتزود بصالح الأعمال، ويكون معنى الإضلال في هذه المرحلة هو منعهم من هذه المواهب، وخذلانهم في الحياة، ويدلُّ على ذلك - أن هذه الهداية خاصة لمن استفاد من الهداية الأولى - قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (الرعد: ٢٧)، فعلق الهداية على من اتَّصف بالإنابة والتوجه إلى الله سبحانه. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣)، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، فمن أراد وجه الله سبحانه يمدُّ بالهداية إلى سبيله. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد: ١٧)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِهْلًا فَقَدْ فُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (الكهف: ١٣ و ١٤)^(١).

وقال المولى المازندراني رحمته الله في (شرح الكافي): (قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] دلَّ على أن الإيمان سبب للإيمان، يعني أن الدرجة التحتانية منه سبب لحصول الدرجة الفوقانية، وكذلك الكفر، ومن ثمَّ قيل: الخير والشرُّ يسريان. قوله: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] المراد به الهداية الخاصة المختصة بالأولياء، وهي بصيرة قلبية زائدة على أصل التصديق)^(٢).

(١) مفاهيم القرآن (ج ٦ / ص ٥٠٤).

(٢) شرح أصول الكافي للمازندراني (ج ٨ / ص ١١٢ و ١١٣).

وقال العلامة المجلسي رحمته الله في (بحاره): ﴿وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى﴾، أي هداية إلى الإيمان، أو زدناهم بسبب الإيمان ثباتاً وشدة يقين وصبراً على المكاره في الدين، كما قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، فهذه الهداية الخاصة الربانية زيادة على الإيمان الذي كانوا به متّصفين حيث قال تعالى أولاً: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ولو كان كلّه واحداً، أي كلُّ الإيمان واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحدٍ من المؤمنين فضل على الآخر، لأنَّ الفضل إنّما هو بالإيمان، فلا فضل مع مساواتهم فيه، ولا استوت النعم، أي نعم الله بالهدايات الخاصة في الإيمان، ولا استوى الناس في دخول الجنة أو في الخير والشرّ، وبطل تفضيل بعضهم على بعض بالدرجات والكمالات، واللوازم كلّها باطلة بالكتاب والسنة...^(١).

وقال الفخر الرازي في (تفسيره): (فهذه الهداية الخاصة يجب أن تكون مغايرة لتلك الدعوة العامة، ولا شك أيضاً أن الإقدار والتمكين وإرسال الرُّسل وإنزال الكتب أمور عامّة، فوجب أن تكون هذه الهداية الخاصة مغايرة لكلّ هذه الأشياء)^(٢).

* في (أمالي الصدوق) بسنده عن عبد الله بن عباسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: «يَا عَلِيُّ، أَنْتَ صَاحِبُ حَوْضِي، وَصَاحِبُ لِيوَائِي، وَمُنْجِزُ عِدَاتِي، وَحَبِيبُ قَلْبِي، وَوَارِثُ عِلْمِي، وَأَنْتَ مُسْتَوْدِعُ مَوَارِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَأَنْتَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى بَرِيَّتِهِ، وَأَنْتَ رُكْنُ الْإِيمَانِ، وَأَنْتَ مُصْبِحُ الدُّجَى، وَأَنْتَ مَنَارُ الْهُدَى، وَأَنْتَ الْعَلَمُ الْمَرْفُوعُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، مَنْ تَبِعَكَ نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْكَ هَلَكَ، وَأَنْتَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَأَنْتَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَأَنْتَ قَائِدُ الْغُرِّ الْمَحْجَلِينَ، وَأَنْتَ يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْتَ مَوْلَى مَنْ أَنَا

(١) بحار الأنوار (ج ٦٦ / ص ٥٣ و ٥٤).

(٢) تفسير الرازي (ج ١٧ / ص ٧٦).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٠٩

مَوْلَاهُ، وَأَنَا مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، لَا يُجْبُكَ إِلَّا طَاهِرُ الْوَلَادَةِ، وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا خَبِيثُ الْوَلَادَةِ، وَمَا عَرَجَ بِي رَبِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاءِ قَطُّ وَكَلَّمَنِي رَبِّي إِلَّا قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَبُ عَلَيَّ مِنِّْي السَّلَامُ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ إِمَامٌ أَوْلِيَايَ، وَنُورٌ أَهْلِ طَاعَتِي، فَهَيِّنَا لَكَ يَا عَلِيُّ هَذِهِ الْكَرَامَةُ»^(١).

فالإمام عليه السلام نور لمن استنار به، وحبل هداية مستقيم موصل إلى الله سبحانه وتعالى لمن تمسك به، وهو يُمثّل الضوء في حلقة الظلام، والبصر في أجواء النور والخيط المتين في أمواج الضلال المتلاطمة والطريق المستقيم المميز عن طُرُقَاتِ الاغوجاج ومنعرجات الطُّرُق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الْقَصَص: ٥١).

ثم تحدّث الدعاء عن بعض الملاكات التي أوجبت هذه الممارسات، لأنّ حالة الممارسة والتمسك بالإمام أثناء الممارسة قد يتعرّض إلى إشكال على المتمسكين من قبل المناوئين، فأراد الحديث أن يُجسّد هذه الحالة باعتبارها قيمة عملية ذات بُعد فكري مؤصّل بأُسُس ثابتة، وأنّ - الإمام - الحدّ بين الحقّ والباطل، السرّ هو قرينه من الخطّ الإلهي والتصاقه به، وسابقتها إلى الدين، وتقدّمه في المناقب، وسيره عملياً حذو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتبع الخطّ الإلهي والطريق الوحياني هو نفس الخاتم ولصيق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلكونه - أي الإمام - هو الأقرب إلى الدين وإلى الرسول وإلى الله تعالى، ولكونه الأسبق إليه، ولكونه المتّصف بمناقب الإمامة التي لا يلحقه بها أحد، لكونه كذلك صار هو الميزان في كلّ شيء.

الإمام عليه السلام يدافع عن الدين:

رجع الدعاء ليتحدّث عن الممارسات التي اضطرّ إليها الإمام عليه السلام بعد

(١) أمالي الصدوق (ص ٣٨٢ و٣٨٣ / ح ١٤ / ٤٨٩).

النبي ﷺ، فلولا أن القوم بدلوا دين الله تعالى وأولوه بغير وجهه لما قام ونهض (صلوات الله تعالى عليه) بمهمة حروب التأويل كما بدأ مع النبي ﷺ حروب التنزيل، وكان قد حمل لوائها وهو فتى بين قومه.

قد يقال: إن دعوى أن الجماعة بدلوا في الدين وأولوا فيه بغير وجه وبلا حجة، هذه دعوى مجانية للصواب، وقد تتسم بالمبالغة، ولعل وجه القول بها التحامل ومعاداة القوم والتفر مناهم لما قاموا به من إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن مواقعهم ومراتبهم التي رتبهم الله تعالى فيها.

قلت: الروايات التي نصت على تبديلهم لمعالم الدين عديدة، ومنها:

* في (عِلل الشرائع) بسنده عن أبي إسحاق الأزجاني رَفَعَهُ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «أَتَدْرِي لِمَ أُمِرْتُمْ بِالْأَخْذِ بِخِلَافِ مَا تَقُولُ الْعَامَّةُ؟»، فَقُلْتُ: لَا نَدْرِي، فَقَالَ: «إِنَّ عَلِيًّا ﷺ لَمْ يَكُنْ يَدِينُ اللَّهَ بِدِينِ إِلَّا خَالَفَ عَلَيْهِ الْأُمَّةَ إِلَى غَيْرِهِ إِرَادَةً لِإِبْطَالِ أَمْرِهِ، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا يَعْلَمُونَهُ، فَإِذَا أَفْتَاهُمْ جَعَلُوا لَهُ ضِدًّا مِنْ عِنْدِهِمْ لِيَلْبَسُوا عَلَى النَّاسِ»^(١).

* وفي (وسائل الشيعة) في خبر معتبر عن أبي بصير، عن أبي عبد الله ﷺ، قَالَ: «مَا أَنْتُمْ وَاللَّهِ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَلَا هُمْ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، فَخَالِفُوهُمْ فَمَا هُمْ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ»^(٢).

وعلى هذا الوجه نستطيع فهم ما ورد في عدة أخبار تأمر الفقهاء والعلماء بالأخذ بخلاف ما عليه العامة في معالم الدين ومسائل العقيدة والفقهِ وغيرها مما يخشى منهم عليه. ومما جاء في هذا المعنى:

* في (عِلل الشرائع) بسنده عن علي بن أسباط، قَالَ: قُلْتُ لِلرِّضَا ﷺ:

(١) عِلل الشرائع (ج ٢ / ص ٥٣١ / باب ٣١٥ / ح ١).

(٢) وسائل الشيعة (ج ٢٧ / ص ١١٩ / ح ٣٣٣٦٥ / ٣٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢١١

يَحْدُثُ الْأَمْرُ لَا أَحَدٌ بَدَأَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَكَيْسَ فِي الْبَلَدِ الَّذِي أَنَا فِيهِ أَحَدٌ اسْتَفْتَيْهِ مِنْ مَوَالِيكَ، قَالَ: فَقَالَ: «إِيَّتِ فَقِيهِ الْبَلَدِ فَاسْتَفْتِهِ فِي أَمْرِكَ، فَإِذَا أَفْتَاكَ بِشَيْءٍ فَخُذْ بِخِلَافِهِ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِيهِ»^(١).

* وفي (الكافي): اعْلَمْ يَا أَخِي - أَرْشَدَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ لَا يَسَعُ أَحَدًا تَمَيُّزُ شَيْءٍ مِمَّا اخْتَلَفَ الرَّوَايَةُ فِيهِ عَنِ الْعُلَمَاءِ عليهم السلام بِرَأْيِهِ، إِلَّا عَلَى مَا أَطْلَقَهُ الْعَالِمُ بِقَوْلِهِ عليه السلام: «إِعْرِضُوهُمَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللَّهِ فَخُذُوهُ، وَمَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ فَرُدُّوهُ»، وَقَوْلِهِ عليه السلام: «دَعُوا مَا وَافَقَ الْقَوْمَ، فَإِنَّ الرُّشْدَ فِي خِلَافِهِمْ»^(٢).

وحيث تَمَّتْ الْحِجَّةُ بَعْدَ خَاتِمَةِ النَّبُوَّةِ فِي التَّنْزِيلِ، وَمِنْ شَوَاهِدِ تَمَامِهَا التَّنْزِيلِي مَا رَوَاهُ الشَّيْخُ الْكَلِينِيُّ عليه السلام عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سَمَاعَةَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام، قَالَ: قُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ إِنَّا نَجْتَمِعُ فَتَتَذَكَّرُ مَا عِنْدَنَا فَلَا يَرُدُّ عَلَيْنَا شَيْءٌ إِلَّا وَعِنْدَنَا فِيهِ شَيْءٌ مُسَطَّرٌ، وَذَلِكَ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا بِكُمْ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْنَا الشَّيْءَ الصَّغِيرَ لَيْسَ عِنْدَنَا فِيهِ شَيْءٌ، فَيَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، وَعِنْدَنَا مَا يُشْبِهُهُ، فَتَفِيَسُ عَلَى أَحْسَنِهِ؟ فَقَالَ: «وَمَا لَكُمْ وَلِلْقِيَّاسِ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِالْقِيَّاسِ»، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا جَاءَكُمْ مَا تَعْلَمُونَ فَقُولُوا بِهِ، وَإِنْ جَاءَكُمْ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَهَذَا»، وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ أَبَا حَنِيفَةَ، كَانَ يَقُولُ: قَالَ عَلِيُّ وَقُلْتُ أَنَا، وَقَالَتِ الصَّحَابَةُ وَقُلْتُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَكُنْتَ تَجْلِسُ إِلَيْهِ؟»، فَقُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ هَذَا كَلَامُهُ، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِمَا يَكْتَفُونَ بِهِ فِي عَهْدِهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فَقُلْتُ: فَضَاعَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ عِنْدَ أَهْلِهِ»^(٣).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ١ / ص ٢٤٨ و ٢٤٩ / باب ٢٨ / ح ١٠).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٨ / خطبة الكتاب).

(٣) الكافي (ج ١ / ص ٥٧ / باب البدع والرأي والمقائيس / ح ١٣).

فبعد التمام التنزيلي بأهل البيت عليهم السلام لم تكن المهمة إلا أن يحفظ أمير المؤمنين عليه السلام الدين من التأويل، لأن المنحرفين كان سبيلهم إلى حرف الناس عن مسيرة الاستقامة في التنزيل فلجأوا إلى التأويل، فما كان من خطأ الهداية الإلهي إلا أن يقاتل هؤلاء الضلال على التأويل لا تأخذه فيهم لومة لائم، كما قاتلهم على التنزيل فيما سبق مع أخيه النبي صلى الله عليه وآله الخاتم صلى الله عليه وآله موتراً صناديدهم، وقاتلاً أبطالهم، وساحقاً كبراءهم وقادتهم، فجاءت النتيجة الطبيعية أن تملأ قلوب هؤلاء أحقاداً بدرية وخيرية وحنينية وغيرهن.

هذا هو ذنب الإمام علي عليه السلام، وهذه هي قصته، وقد مرّ عليك في بعض الأخبار أن الله تعالى كتب عليه هذا الابتلاء وهذا الاختبار وشارطه عليه، وقد نهض عليه السلام به ووفى.

المبحث السادس:

كيد أعداء الإسلام لرسول الله ﷺ

في أمير المؤمنين عليّ السلام وفي أهل بيته عليهم السلام

الفقرة العشرون

«فَأَصَبَتْ عَلَىٰ عَدَاوَتِهِ، وَأَكْبَتْ عَلَىٰ مُنَابَدَتِهِ».

إنَّ هذه الفقرة - التي كانت كنتيجة لما عليه الأُمَّة من عناد واستكبار على أولياء الله تعالى - تكشف لنا عن أنَّ تلك المنح الربَّانيَّة والخصائص الإلهيَّة التي اتَّصف بها أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده كانت نتيجتها أن أوجدت أحقاداً في نفوس عدد غير قليل من المسلمين. وتلك الأحقاد والضغائن والعداء لا زالت متجدِّدة ومتأصِّلة وإلى يومنا هذا لأهل البيت عليهم السلام رغم ادِّعاءهم حبِّهم وموالاتهم عليهم السلام.

فعبارة «فَأَصَبَتْ عَلَىٰ عَدَاوَتِهِ» التي يُفسِّرها أهل اللغة بالالتصاق واللجوء^(١)، أي إنَّ الأُمَّة التي رأت تلك الفضائل لأمر المؤمنين عليهم السلام ولم تتحمَّل وجودها فيه، كانت - وللأسف - أنْ لجأت إلى الحقد والعداوة والبغض له عليه السلام، والتصدقت بهذه الحالة حتَّى أصبحت من ملازماتها.

وأما قوله: «وَأَكْبَتْ عَلَىٰ مُنَابَدَتِهِ»، فيُوضِّح الحالة بشكل أكبر، ويرسم لنا بوضوح حال الأُمَّة تجاه أهل البيت عليهم السلام، حيث الانكباب على منابذة أمير المؤمنين عليه السلام ومن ورائه الأئمة عليهم السلام، وفقدان الأُمَّة توازنها وسقوطها وعثرتها في مفارقة شخوصهم عليهم السلام وتركهم وهجرهم.

(١) في لسان العرب (ج ١ / ص ١١١ / مادة ضبأ): (وَصَبَأً: لَصِقَ بِالْأَرْضِ. وَصَبَأَتْ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ مَضْبُوءٌ بِهِ، إِذَا أَلْزَقَهُ بِهَا).

فالمقطع الندبي يُحدِّثنا عن حالة في قَمَّة العداة والبغض قد وصل إليها هؤلاء، إذ إنَّ إضافة المنابذة إلى الانكباب على العداوة تعني أنَّ هؤلاء ينامون ويقعدون على عداوتهم هذه ولا يفارقونها لحظة.

فالأُمَّة فقدت توازنها بسبب هذا البغض، وغفت عليه ملتصقة به، وكلِّما أوجب حدث ما أن تستيقظ كان ما عقدت عليه قلبها من بغض يعود بها إلى حالتها السابقة من سقوط وتعثر في حضيض عداوتهم عليهم السلام، فالسعي الدائم لتأصيل البغض للإمام ولأهل بيته عليهم السلام، والإصرار على مفارقتها، ومن ثمَّ مفارقتهم عن بغض وتعمُّد للهجران والترك، رغم الإيذاء المتكرَّر المستمرَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله بالألفة به عليه السلام وبأهل البيت عليهم السلام والتواصل معهم وحفظهم، بل والاتصاق بهم والانصياع إليهم والانضواء تحت لوائهم عليهم السلام.

ولا نجد عبارة أوفق لحال الأُمَّة في الحديث عمَّا مرَّت به واستمرَّت وتستمرُّ عليه تجاه أهل البيت عليهم السلام من كلام الإمام الصادق عليه السلام المتقدم، والذي وصف الحالة وأنَّ الناس كانوا يسألون أمير المؤمنين عليه السلام عن الشيء الذي لا يعلمون، فإذا أفتاهم بشيء جعلوا له ضدًّا من عند أنفسهم ليلبسوا على الناس^(١).

ولعلَّ نتيجة ذلك ما رويناها قبل صفحات عن الامام الصادق عليه السلام حيث يُقرَّر نتيجة هذه المخالفات والانكباب عليها إلى أن وصل حال هؤلاء أن يقال لنا عنهم: «مَا أَنْتُمْ وَاللَّهِ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا هُمْ فِيهِ، وَلَا هُمْ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، فَخَالَفُوهُمْ فَمَا هُمْ مِنَ الْخَنِيفِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ»^(٢).

فالعموميَّة التي يتحدَّث بها الإمام الصادق عليه السلام عن ما كان يصدر من

(١) قد مرَّ في (ص ٢٠٨) عن علل الشرائع (ج ٢ / ص ٥٣١ / باب ٣١٥ / ح ١)، فراجع.

(٢) وسائل الشيعة (ج ٢٧ / ص ١١٩ / ح ٣٣٣٦٥ / ٣٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢١٧

هؤلاء وتعمدّهم المخالفة، أن يصير الرشد في مخالفتهم كما مرّ عليك، كل ذلك بفعالهم وإصرارهم على بغض أهل البيت عليهم السلام. وقد مرّ عليك وليس ببعيد أن أجر الرسالة مودّتهم، وأن وصية الخاتم عليه السلام حبّهم وودّهم عليهم السلام، ولكن هؤلاء قلبوا الأمر وكان الوصية كانت في بغضهم ومعاداتهم عليهم السلام، بل حتى لو كانت الوصية بمعاداتهم عليهم السلام لما كانت تكون بأزيد ممّا جرى.

ولنذهب إلى روايات أهل البيت عليهم السلام لنطلع من خلالها على بعض ما جرى عليه عليه السلام من هؤلاء وما كان متوقّعا منهم، حتى صارت وصية النبي صلى الله عليه وآله له عليه السلام بالصبر والتحمل.

روى سليم بن قيس رضي الله عنه هذا المقطع تحت عنوان:

تظاهر الأمة على علي عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وبكاؤه عليه:

قال رضي الله عنه: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ، فَأَتَيْتَا عَلَى حَدِيقَةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَحْسَنَهَا مِنْ حَدِيقَةٍ...، فَلَمَّا خَلَا لَهُ الطَّرِيقُ اعْتَنَقَنِي، ثُمَّ أَجْهَشَ بَاكِياً، وَقَالَ: يَا أَبَا الْوَحِيدِ الشَّهِيدِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: ضَعَائِنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ لَا يُبْدُونَهَا لَكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِي، أَحْقَادُ بَدْرٍ وَتِرَاتُ أَحَدٍ، قُلْتُ: فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِي؟ قَالَ: فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِكَ...، فَاصْبِرْ لِظُلْمِ قُرَيْشٍ إِيَّاكَ وَتَظَاهِرِهِمْ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى وَمَنْ تَبِعَهُ، وَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعِجْلِ وَمَنْ تَبِعَهُ، وَإِنَّ مُوسَى أَمَرَ هَارُونَ حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ ضَلُّوا فَوَجَدَ أَعْوَانًا أَنْ يُجَاهِدَهُمْ بِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَعْوَانًا أَنْ يَكْفِ يَدَهُ وَيَحْفَظَ دَمَهُ وَلَا يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ...»^(١).

* * *

(١) كتاب سليم بن قيس (ص ١٣٦ و ١٣٧).

الفقرة الحادية والعشرون

«حَتَّى قَتَلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ».

النتيجة الحتمية لشاخص الحق في ظل مجتمع يعيش تراكمات وبناءات معوجّة أن يبقى وحيداً، وهذا ما حدث مع أمير المؤمنين عليه السلام، وهي النتيجة الطبيعية لكونه بوصلة الحق، ولكون المجتمع الذي كان فيه ميّالاً للباطل وشارباً له ومحباً لكل ما من شأنه أن يوثق العرى القبليّة والمصالح الشخصية والنتائج الآنيّة، بل إن الحال في ذلك المجتمع لمن يقرأ تاريخ تلك الحقبة يرى الكثير من الأفراد الذين كان بالإمكان التعويل على إيمانهم وعقولهم وأفكارهم لم يتحمّلوا منهج الحق.

من هنا جاءت النتيجة طبيعيّة ومتوقّعة في أن يخوض أمير المؤمنين عليه السلام مجموعة من الحروب ضدّ فئات متنوّعة ومتلوّنة عاشت في ذلك المجتمع، واستفادت من وجودها الدّيني بعد غياب رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ إنّ الكيفيّة التي كان ينبغي أن تسير عليها الأمور هي الانتقال الطوعي للسلطة من النبي صلى الله عليه وآله إلى الإمام عليه السلام، لأنّه هو الممثل الطبيعي والحامل للصفات المؤهّلة له، وقد تحدّث عنها الدعاء بشكل وافر على ما مرّ عليك.

ولكن هذا لم يحصل ولم تحصل الأمور على وفق ما رسمه الوحي، لأنّ هناك أطماعاً وبدائل كانت تُدرّس من قبل بعض السلطويّين النفعيين، فكان أن آلت الأمور إلى انقلاب راح ضحيّته الثلّة الأقرب لصاحب الرسالة صلى الله عليه وآله، حتّى وصل الأمر إلى التضحية بالبضعة الطاهرة عليه السلام وسحقها وتكسير أجنحتها وأضلاعها سبيلاً للوصول إلى الحكم. وكان من نتيجتها عزل الحقّ وتهميشه وجعله على الرفّ يتبرّك به القائد الانقلابي متى شاء، وتراكم الزمن، فأنشأ جيلاً أحبّ هذه الظاهرة وبات لا يستسيغ غيرها، لكنّ الإرادة الإلهية عندما شاءت

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢١٩
أن تسنح فرصة جديدة للحق أن يبرز شاهت وجوه من تراكم في نفوسهم حُبُّ
الباطل وكره الحق.

وقد لوّن الحديث الوحياني هذه الجماعات على أشكال قلوبها، وترجمها
بمسميات تنسجم ومعتقدها، فكانت ثلاث مجموعات:
الأولى: الناكثون:

وهم الذين تركوا ما في أيديهم من الحق وتمسكوا بباطل محض، وقد قال
الله تعالى في من لا يستقر الإيمان في قلبه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ
بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ (النحل: ٩٢).
فهؤلاء لا إيمان لهم وإن كانت صورهم وهيئاتهم هيئات أهل الإيمان
وأهل البيعة الظاهرية، وإن كانت عناوينهم التي يدعونها باسم الدفاع عن الدين
وإعادته إلى قواعده، فصدقت التسمية عليهم حقاً.

الثانية: القاسطون:

أولئك الذين أحبوا السلطة والمال، وأحبوا الجاه والرفعة، وكانت تجري
في دمائهم روح العنصرية والتعصب، فهم لم يؤمنوا - ولم يبايعوا - أصلاً لكي
ينكثوا إيمانهم، لكن الظروف أجبرتهم على إظهار الإيمان، فما إن سنحت فرصة
إبراز حقيقتهم حتى جاء وصف القاسطين خير مسمى لهم.

الثالثة: المارقون:

أولئك الجهلاء الحمقى، فهم رجال آمنوا وأحبوا الإيمان وسعوا إلى أن
يتلبسوا به ويبارسوه طقساً يتقربون به إلى الله سبحانه وتعالى، لكن في قلوبهم
نباتات سامة لم يقلعوها، فأمرضت وسرطنت السليم منها، فالجهل والحمق وقلة
البصيرة يؤدبان بالإنسان إلى أن ينزع ثوب الإيمان ويلبس ثوباً أخس مما يلبسه
الشیطان، أولئك هم المارقون، فبعد أن عرفوا علياً عليه السلام حق معرفته وعاشروه،

وقاتلوا تحت لوائه وأكلوا من زاده، وعرفوا مَنْ هو وإلى مَ يرمي، رغم ذلك وقعوا فيما منه هربوا، لأنهم لم يسعوا إلى ما طلبوا صحيحاً، وإنما تصوّروا أنهم يسعون إليه، فيما كانوا أشدّ الناس هرباً وابتعاداً عنه.

قال الإربلي رحمته الله: (ولهذا جعل رسول الله ﷺ القتال على تأويله كالقتال على تنزيله...، وما وجدته من اختلاف الأمة عليه عليه السلام، وتظاهرهم على منابذته ومحاربتة، وشقّ العصا عليه وسبّه على المنابر والتبرّي منه وتبّع أولاده وشيعته من بعده، وقتلهم وإخافتهم في كلّ ناحية وقطر والتقرّب إلى ولاية كلّ زمانٍ بدمائهم والطعن في عقائدهم ومنعهم حقوقهم، بل بغضهم وتطريدهم وتشيدهم)^(١).

وقد تحدّثت الروايات الشريفة عن هذه الفئات كثيراً، ومن بينها:

* في (تفسير القمي): قوله: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]، فإنّها نزلت في أصحاب الجمل، وقال أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل: «وَاللّٰهُ مَا قَاتَلْتُ هَذِهِ الْفِتَّةَ النَّاكِثَةَ إِلَّا بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ...»، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاللّٰهُ لَقَدْ عَاهَدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَلَا إِثْنَيْنِ وَلَا ثَلَاثٍ وَلَا أَرْبَعٍ، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّكَ سَتَقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ وَالْمَارِقِينَ وَالْفَاسِطِينَ، أَفَأُضِيعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ...؟»^(٢).

* وفي (كتاب سليم) نقل قول أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال فيه: «أَشْيَاءُ لَمْ أَجِدْ إِلَى تَرْكِهِنَّ سَبِيلًا، لِأَنَّ الْقُرْآنَ بِهَا أَنْزَلَ عَلَيَّ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ: قِتَالُ النَّاكِثِينَ وَالْفَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ الَّذِي أَوْصَانِي وَعَهْدَ إِلَيَّ خَلِيلِي رَسُولُ اللَّهِ بِقِتَالِهِمْ...»^(٣).

(١) كشف الغمّة (ج ١ / ص ١٢٢).

(٢) تفسير القمي (ج ١ / ص ٢٨٣).

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ٣٩٢).

إخبار أمير المؤمنين عليه السلام عن صفين والنهران:

* في (كتاب سليم): قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «فَلَمَّا وَجَدْتُ أَعْوَانًا بَعْدَ قَتْلِ عُمَرَ عَلَى إِقَامَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَإِحْيَاءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَسْعِنِي الْكَفُّ، فَبَسَطْتُ يَدَيَّ فَقَاتَلْتُ هَؤُلَاءِ النَّاكِثِينَ، وَأَنَا غَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ مُقَاتِلُ الْقَاسِطِينَ بِأَرْضِ الشَّامِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ: صِفَيْنُ، ثُمَّ أَنَا بَعْدَ ذَلِكَ مُقَاتِلُ الْمَارِقِينَ بِأَرْضٍ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ يُقَالُ لَهَا: النَّهْرَوَانُ. أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِتَالِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ الثَّلَاثِ. وَكَفَفْتُ يَدَيَّ لِغَيْرِ عَجْزٍ وَلَا جُبْنٍ وَلَا كَرَاهِيَةٍ لِلِقَاءِ رَبِّي، وَلَكِنْ لِبَطَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِفْظِ وَصِيَّتِهِ. فَلَمَّا وَجَدْتُ أَعْوَانًا نَظَرْتُ فَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ السَّبِيلَيْنِ ثَالِثًا: إِمَّا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ الْكُفْرَ بِاللَّهِ وَالْجُحُودَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَمُعَاجِزَةَ الْأَغْلَالِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَالْإِرْتِدَادَ عَنِ الْإِسْلَامِ»^(١).

* وفي (أمالى الصدوق) بسنده عن أم سلمة في حديث طويل جاء فيه: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، اسْمَعِي وَاشْهَدِي، هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَصِيِّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي، وَقَاضِي عِدَاتِي، وَالذَّائِدُ عَن حَوْضِي. يَا أُمَّ سَلَمَةَ، اسْمَعِي وَاشْهَدِي، هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيِّدُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَقَائِدُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ، وَقَاتِلُ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ النَّاكِثُونَ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يُبَايِعُونَهُ بِالْمَدِينَةِ، وَيَنْكُثُونَ بِالْبَصْرَةِ»، قُلْتُ: مَنْ الْقَاسِطُونَ؟ قَالَ: «مُعَاوِيَةُ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ»، قُلْتُ: مَنْ الْمَارِقُونَ؟ قَالَ: «أَصْحَابُ النَّهْرَوَانِ»^(٢).

* وفي (الغارات): قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «مَنْ عَبَدَ اللَّهَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ قُرِئَ عَلَيْهِ كِتَابِي هَذَا مِنْ سَاكِنِي الْبَصْرَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ ذُو أَنَاةٍ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ قَبْلَ الْبَيِّنَةِ، وَلَا يَأْخُذُ

(١) كتاب سليم بن قيس (ص ٤٣٩).

(٢) أمالي الصدوق (ص ٢٦٣ و ٢٦٤ / ح ١٠ / ٦٢٠).

الْمُذْنِبَ عِنْدَ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَلَكِنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ، وَيَسْتَدِيمُ الْأَنَاءَ، وَيَرْضَى بِالْإِنَابَةِ،
 لِيَكُونَ أَعْظَمَ لِلْحُجَّةِ، وَأَبْلَغَ فِي الْمَعْدِرَةِ. وَقَدْ كَانَ مِنْ شِقَاقِ جُلُكُمُ أَيُّهَا النَّاسُ،
 مَا اسْتَحَقَّقْتُمْ أَنْ تُعَاقَبُوا عَلَيْهِ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ
 مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ، وَأَخَذْتُ بِيَعْتِكُمْ، فَإِنْ تَفُوا بِيَعْتِي، وَتَقَبَّلُوا
 نَصِيحَتِي، وَتَسْتَقِيمُوا عَلَيَّ طَاعَتِي، أَعْمَلُ فِيكُمْ بِالْكِتَابِ [وَالسُّنَّةِ] وَقَصْدِ الْحَقِّ،
 وَأَقِيمُ فِيكُمْ سَبِيلَ الْهُدَى، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَنَّ وَالِيًا بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْلَمُ بِذَلِكَ
 مِنِّي، [وَلَا أَعْمَلُ]. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا صَادِقًا... فَإِنْ خَطَّتْ بِكُمْ الْأَهْوَاءُ الْمُرْدِيَّةُ،
 وَسَفَهُ الرَّأْيِ الْجَائِرِ إِلَيَّ مُنَابِدَتِي تُرِيدُونَ خِلَافِي، فَهَذَا أَنَا ذَا قَرُبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ
 رِكَابِي. وَأَيْمُ اللَّهِ لَئِنْ أَجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ، لِأَوْقَعَنَّ بِكُمْ وَقَعَةً لَا يَكُونُ يَوْمٌ
 الْجَمَلُ عِنْدَهَا إِلَّا كَلَعَقَةٍ لَاعِقٍ، وَإِنِّي لَطَّانٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا تَجْعَلُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ
 سَبِيلًا. وَقَدْ قَدَّمْتُ هَذَا الْكِتَابَ حُجَّةً عَلَيْكُمْ، وَلَيْسَ أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
 كِتَابًا إِنْ أَنْتُمْ اسْتَعَشَشْتُمْ نَصِيحَتِي، وَنَابَذْتُمْ رِسُولِي، حَتَّى أَكُونَ أَنَا الشَّخِصَ
 نَحْوَكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلَامُ»^(١).

لاحظ شدة خطابه ﷺ معهم تعرف حجم الألم الذي خلفه صنيع
 هؤلاء في قلبه وتأثيره إلى أبد الدهر على حال الناس وعقائد المسلمين، فصنيع
 هؤلاء لم يقف عند ساعته، بل أئينه ﷺ منه لا زال مدويًا إلى يوم الناس هذا،
 وجرح أمير المؤمنين ﷺ من هؤلاء لم يندمل بعد ولا يندمل.

* * *

المبحث السابع:

ما وقع على أهل البيت عليهم السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله

وبعد أمير المؤمنين عليه السلام من أنواع البلاء

الفقرة الثانية والعشرون

«وَلَمَّا قَضَىٰ نَحْبَهُ وَقْتَلَهُ أَشْقَىٰ الْأَخْرِينَ يَتَّبِعُ أَشْقَىٰ الْأَوَّلِينَ،
لَمْ يُمَثَّلْ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْهَادِينَ بَعْدَ الْهَادِينَ».

يشير المقطع المبارك إلى نتيجة حتمية للسياسة الإلهية التي كان ينتهجها أمير المؤمنين عليٌّ ؑ في مجتمع دعتة نزعاته وجهله إلى الالتفاف حول أدياء الضلال ورموز الانحراف، فكان أن قضى أمير المؤمنين ؑ شهيداً في محراب الهداية وعرج إلى الله سبحانه وتعالى. ودلالات شهادته في المسجد وفي الصلاة وفي المحراب كبيرة جداً لا يسعنا الوقوف عندها في هذا الشرح المختصر.

ولكن وبشكل مجمل نرى أن الحكمة الإلهية اقتضت لهذا الرجل الرباني الإلهي أن يكون عنصر استخلاص للارتباط في الله والذوبان في ذاته تعالى، فمن ولادته التي كانت في أعظم مسجد وبيت، إلى شهادة في مسجده المعظم، ودفنه في أرض مقدسة أدرجت له، وتضمنت جسد عدة أنبياء - آدم ونوح ؑ، - وصار جسده الطاهر ؑ ضجيع قبريهما، ومجاوراً لهود وصالح ؑ.

نعم هكذا كانت قصة عليٍّ ؑ الذي يُمثّل عنصر الهداية والارتباط بالله سبحانه وتعالى، شخص أرادته حكمة السماء أن يربط العباد بخالقهم فصاغته نموذجاً، بدايته ذوبان وارتباط بذات القدس والعظمة، ونهايته اندكاك وانصهار وعبودية وفناء في ذات الربوبية، هذا هو عليٌّ ؑ.

سُنَّةُ قَتْلِ الْهَدَاةِ وَالْأَوْلِيَاءِ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ:

أمَّا من جانب الشخص الذي قتله فإنَّ المقطع الشريف يشير إلى أنَّ سُنَّةَ قتل الهداة والأولياء هي سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ، وأَنَّهَا تَأْتِي عَلَى يَدِ - ابن ملجم - أَشَقَى وَأَرذَلِ الْخَلْقِ، حيث يصف المقطع الندبي المبارك أنَّ قَاتِلَ وَلِيِّ اللَّهِ هُوَ أَشَقَى خَلْقِ اللَّهِ مِنَ الْآخَرِينَ، وَيَتَّبِعُ فِي نَهْجِهِ وَعَمَلِهِ هَذَا أَشَقَى خَلْقِ اللَّهِ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَهِيَ سِيَاسَةٌ مَاضِيَةٌ لَدَى الْأَشَقِيَاءِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَاقْتِدَائِهِمْ بِالضُّلَالِ وَالْمُنْحَرِفِينَ فِي تَمَرُّدِهِمْ عَلَى إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِقْصَائِهِمْ عَنْ وَظِيفَةِ هِدَايَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ.

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّدُّ الْمُنِيعُ عَنِ التَّعَدِّيِّ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

ويشير المقطع أيضاً إلى ما كان يُمَثِّلُهُ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ من سدِّ منيعٍ تجاه الهجمات والاعتداءات والظلم الذي لحق بأهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والهداة من بعده، فحينما كان موجوداً بينهم كان هو المحامي والمدافع، لكنَّه بعد أن فُقِدَ اجتمعت الأُمَّةُ الظالمةُ على هتك حرمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعصيان أمره في أهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأولياء دينه.

فالعدوان على أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وبالتالي إقصاءه عن الساحة وإدارة شأن الناس، هو مخالفة لأوامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كون أهل بيته والأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من ذرِّيَّتِهِ هُمْ هِدَاةٌ لِلْأُمَّةِ، وَعَصْمَةٌ لَهَا مِنَ الْانْحِرَافِ وَالضُّلَالِ.

هذا العدوان شكَّلَ البداية والمنطلق، وكوَّن الأَرْضِيَّةَ لِلْآخِقِينَ مِنَ الظُّلْمَةِ فِي السَّيْرِ عَلَى نَهْجِ السَّابِقِينَ مِنْهُمْ، فِي إِبْعَادِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإِزْوَاتِهِمْ عَنِ مِمَارَسَةِ دَوْرِهِمْ.

يُحَدِّثُنَا الْمَقْطَعُ عَنِ أَنَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَمْ يُمَثَّلْ، عَلَى مَا سَيَأْتِي مِنْ شَرْحِ الْمَقَاطِعِ الْوَالْحَقَّةِ.

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٢٧

وهذا ما يمكن الاستفادة منه كدلالة على أن الوصية بالأئمة من أهل البيت عليهم السلام، والأمر للأمة باتباعهم هي من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن مخالفتها مخالفة له، وبذلك يمكن لنا أن نستفيد من هذا المقطع المبارك أن هناك أوامر للأمة في وجوب متابعة أهل البيت عليهم السلام لأنهم الهداة لها، وأن هذا الأمر بوجوب الاتباع بين وواضح لدى الأمة، ولكن الأمة - ومع الأسف - خالفت هذه الأوامر ونبذتها وراء ظهرها.

بين الأمر بلزوم المتابعة لأمر المؤمنين والعترة الطاهرة عليهم السلام وبين شدة الإقصاء:

فهذا المقطع النبوي المبارك يشير إلى حقيقة واضحة لدى الأمة في أنها مأمورة باتباع مجموعة من الأئمة الهداة، وأن النص عليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله. ويشير أيضاً إلى وضوح حالة أخرى، وهي أن الإقصاء والإبعاد للأئمة الهداة وترك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله كانت سنة شربها هؤلاء وتشربوا بها، وعاشوا عليها سنين بقاء الأئمة عليهم السلام بينهم. وهذا ما أشرنا إليه سابقاً من أن الأمة وصل بها حال كره علي وأهل بيته عليهم السلام أنها أكتبت على عدوانه، وتمسكت بمنابذته مع أنها مأمورة بنصرتهم ومتابعتهم على ما مر عليك.

ما جرى على أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام في النصوص الروائية والتاريخية:

ومما ورد بما جرى عليه عليه السلام وعليهم عليهم السلام عدّة روايات ونصوص تاريخية، منها:

* في (الإرشاد): (كانت إمامة أمير المؤمنين عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله ثلاثين سنة، منها أربع وعشرون سنة وأشهر ممنوعاً من التصرف على أحكامها،

مستعملاً للتقية والمداراة. ومنها خمس سنين وأشهر ممتحناً بجهاد المنافقين من الناكثين والقاسطين والمارقين، مضطهداً بفتن الضالين، كما كان رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة من نبوته ممنوعاً من أحكامها، خائفاً ومحبوساً وهارباً ومطروداً، لا يتمكن من جهاد الكافرين، ولا يستطيع دفعاً عن المؤمنين، ثم هاجر وأقام بعد الهجرة عشر سنين مجاهداً للمشركين ممتحناً بالمنافقين، إلى أن قبضه الله تعالى إليه وأسكنه جنات النعيم. وكانت وفاة أمير المؤمنين ﷺ قبل الفجر من ليلة الجمعة ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة قتيلاً بالسيف، قتله ابن ملجم المرادي (لعنه الله) في مسجد الكوفة...^(١).

* وفي (أمالى الصدوق) بسنده عن ابن عباس، قال: إن رسول الله ﷺ كان جالساً ذات يوم، إذ أقبل الحسن ﷺ، فلما رآه بكى، ثم قال: «إيَّيَّ يا بُنيَّ»، فما زال يُدنيه حتى أجلسه على فخذه اليماني، ثم أقبل الحسين ﷺ، فلما رآه بكى، ثم قال: «إيَّيَّ يا بُنيَّ»، فما زال يُدنيه حتى أجلسه على فخذه اليسرى، ثم أقبلت فاطمة عليها السلام، فلما رآها بكى، ثم قال: «إيَّيَّ يا بُنيَّة»، فأجلسها بين يديه، ثم أقبل أمير المؤمنين ﷺ، فلما رآه بكى، ثم قال: «إيَّيَّ يا أخي»، فما زال يُدنيه حتى أجلسه إلى جنبه الأيمن، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما ترى واحداً من هؤلاء إلا بكيت، أو ما فيهم من تُسرُّ برؤيته؟ فقال ﷺ: «والذي بعثني بالنبوة، وارضطفاني على جميع البرية، إني وإياهم لأكرم الخلق على الله ﷻ، وما على وجه الأرض نسمة أحب إليَّ منهم. أمّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ فإنه أخي وشقيقي، وصاحب الأمر بعدي، وصاحب لوائي في الدنيا والآخرة، وصاحب حوضي وشفاعتي، وهو مولى كلِّ مسلمٍ، وإمام كلِّ مؤمنٍ، وقائد كلِّ تقىٍّ، وهو وصيي

(١) الإرشاد (ج ١ / ص ٩).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٢٩

وَخَلِيفَتِي عَلَى أَهْلِي وَأُمَّتِي فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَمَاتِي، مُحِبُّهُ مُحِبِّي، وَمُبْغِضُهُ مُبْغِضِي،
وَبَوْلَاتِيهِ صَارَتْ أُمَّتِي مَرْحُومَةً، وَبَعْدَاوَتِهِ صَارَتْ الْمَخَالَفَةُ لَهُ مِنْهَا مَلْعُونَةً، وَإِنِّي
بَكَيْتُ حِينَ أَقْبَلَ لِأَيِّ ذَكَرْتُ غَدَرَ الْأُمَّةِ بِهِ بَعْدِي حَتَّى إِنَّهُ لَيَزَالُ عَن مَقْعَدِي،
وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ بَعْدِي، ثُمَّ لَا يَزَالُ الْأَمْرُ بِهِ حَتَّى يُضْرَبَ عَلَى قَرْنِهِ ضَرْبَةً تُخْضَبُ
مِنْهَا حَيْثُ فِي أَفْضَلِ الشُّهُورِ، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى
لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]...»^(١).

* وفيه بسنده عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه، عن أبي الحسن علي بن
إبن موسى الرضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه الصادق جعفر بن محمد،
عن أبيه الباقر محمد بن علي، عن أبيه زين العابدين علي بن الحسين، عن أبيه سيّد
الشهداء الحسين بن علي، عن أبيه سيّد الوصيين أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب عليه السلام، قال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَنَا ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ
قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ...»، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام:
«فَقُمْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا
الْحَسَنِ، أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْوَرَعُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ ﷻ، ثُمَّ بَكَى، فَقُلْتُ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، أَبْكِي لِمَا يُسْتَحَلُّ مِنْكَ فِي هَذَا الشَّهْرِ،
كَأَنِّي بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي لِرَبِّكَ، وَقَدْ أَنْبَعَثَ أَشَقَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، شَقِيقُ عَاقِرِ
نَاقَةِ ثَمُودَ، فَضْرَبَكَ ضَرْبَةً عَلَى قَرْنِكَ، فَخْضَبَ مِنْهَا حَيْتَكَ»، قَالَ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِي؟ فَقَالَ: فِي
سَلَامَةٍ مِنْ دِينِكَ، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا عَلِيُّ، مَنْ قَتَلَكَ فَقَدْ قَتَلَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَكَ فَقَدْ
أَبْغَضَنِي، وَمَنْ سَبَّكَ فَقَدْ سَبَّنِي، لِأَنَّكَ مِنِّي كَنَفْسِي، رُوحُكَ مِنْ رُوحِي،

(١) أمالي الصدوق (ص ١٧٤ و ١٧٥ / ح ١٧٨ / ٢).

وَطَيْتُكَ مِنْ طَيْتِي، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَنِي وَإِيَّاكَ، وَاصْطَفَانِي وَإِيَّاكَ،
وَاخْتَارَنِي لِلنُّبُوَّةِ، وَاخْتَارَكَ لِلْإِمَامَةِ، فَمَنْ أَنْكَرَ إِمَامَتَكَ فَقَدْ أَنْكَرَ نُبُوَّتِي. يَا عَلِيُّ،
أَنْتَ وَصِيِّي، وَأَبُو وُلْدِي، وَزَوْجُ ابْنَتِي، وَخَلِيفَتِي عَلَى أُمَّتِي فِي حَيَاتِي وَبَعْدَ مَمَاتِي،
أَمْرُكَ أَمْرِي، وَمَنْهَيْكَ نَهْيِي، أَقْسِمُ بِالَّذِي بَعَثَنِي بِالنُّبُوَّةِ وَجَعَلَنِي خَيْرَ الْبَرِيَّةِ، إِنَّكَ
لِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَمِينُهُ عَلَى سِرِّهِ، وَخَلِيفَتُهُ عَلَى عِبَادِهِ»^(١).

* وفي (مجمع البيان): وقد صحَّت الرواية بالإسناد عن عُثْمَانَ بْنِ صُهَيْبٍ،
عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَشَقَى الْأَوْلِيَيْنَ؟»،
قَالَ: «عَاقِرُ النَّاقَةِ»، قَالَ: «صَدَقْتَ، فَمَنْ أَشَقَى الْأَخْرِيْنَ؟»، قَالَ: «قُلْتُ: لَا أَعْلَمُ يَا
رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الَّذِي يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى يَافُوخِهِ -»^(٢).

* وفي (تنقيح المقال): (وضربه ابن ملجم بسيف مسموم على رأسه في
محراب مسجد الكوفة، صبيحة ليلة الجمعة لتسع عشرة ليلة مضين من شهر
رمضان، وتوفي (صلوات الله عليه) ليلة إحدى وعشرين منه)^(٣).

روايات الدفن في الغري:

مما لا خلاف فيه عند الإمامية، بل هو من الضرورات المذهبية مدفن أمير
المؤمنين عليه السلام في الغري في الموضع الذي هو فيه الآن، أخذ هذا الموضع يداً بيد
بلا تردُّد وشكٍّ. ومما يشير إلى ذلك:

* في (تهذيب الأحكام) بسنده عن أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ
اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيْنَ دُفِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: «دُفِنَ فِي قَبْرِ أَبِيهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»،

(١) أمالي الصدوق (ص ١٥٣ - ١٥٥ / ح ٤/١٤٩).

(٢) مجمع البيان (ج ١٠ / ص ٣٧١).

(٣) تنقيح المقال (ج ١ / ص ٢٢٠ و ٢٢١).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٣١

قُلْتُ: وَأَيْنَ قَبْرِ نُوحٍ؟ النَّاسُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: «لَا، ذَاكَ فِي ظَهْرِ الْكُوفَةِ»^(١).

* وفيه بسنده عن الثُّمَالِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي حَدِيثٍ حَدَّثَ بِهِ «أَنَّهُ كَانَ فِي وَصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: أَنْ أَخْرِجُونِي إِلَى الظَّهْرِ، فَإِذَا تَصَوَّبْتَ أَقْدَامَكُمْ وَاسْتَقْبَلْتُمْ رِيحَ فَادْفُونِي، وَهُوَ أَوَّلُ طُورِ سَيْنَاءَ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ»^(٢).

* وفيه بسنده عن إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «نَحْنُ نَقُولُ: بظَهْرِ الْكُوفَةِ قَبْرٌ لَا يَلُودُ بِهِ ذُو عَاهَةِ إِلَّا شَفَاهُ اللَّهُ»^(٣).

* وفي (كامل الزيارات) بسنده عن الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْتَأِقُ إِلَى الْغُرْبِيِّ، قَالَ: «فَمَا شَوْقُكَ إِلَيْهِ؟»، قُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُرَوِّرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، قَالَ: «فَهَلْ تَعْرِفُ فَضْلَ زِيَارَتِهِ؟»، قُلْتُ: لَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، فَعَرَّفَنِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ زِيَارَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَاعْلَمْ أَنَّكَ زَائِرٌ عِظَامِ آدَمَ، وَبَدَنَ نُوحٍ، وَجِسْمَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام»، قُلْتُ: إِنَّ آدَمَ هَبَطَ بِسَرْنَدِيبٍ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ، وَرَعَمُوا أَنَّ عِظَامَهُ فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَكَيْفَ صَارَتْ عِظَامُهُ بِالْكُوفَةِ؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَى نُوحٍ عليه السلام وَهُوَ فِي السَّفِينَةِ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعاً، فَطَافَ بِالْبَيْتِ كَمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَزَلَ فِي الْمَاءِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، فَاسْتَخْرَجَ تَابُوتاً فِيهِ عِظَامُ آدَمَ، فَحَمَلَ التَّابُوتَ فِي جَوْفِ السَّفِينَةِ حَتَّى طَافَ بِالْبَيْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَطُوفَ، ثُمَّ وَرَدَ إِلَى بَابِ الْكُوفَةِ فِي وَسْطِ مَسْجِدِهَا، فَفِيهَا قَالَ اللَّهُ لِلْأَرْضِ: «بَلِّعِي مَاءَكُمْ» [هود: ٤٤]، فَبَلَعَتْ مَاءَهَا مِنْ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ كَمَا بَدَأَ

(١) تهذيب الأحكام (ج ٦ / ص ٣٤ / ح ١٢ / ٦٨).

(٢) تهذيب الأحكام (ج ٦ / ص ٣٤ / ح ١٣ / ٦٩).

(٣) تهذيب الأحكام (ج ٦ / ص ٣٤ / ح ١٤ / ٧٠).

الْمَاءِ مِنْ مَسْجِدِهَا، وَتَفَرَّقَ الْجَمْعُ الَّذِي كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، فَأَخَذَ نُوحٌ التَّابُوتَ فَدَفَنَهُ بِالْغَرِيِّ، وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى تَكْلِيماً، وَقَدَّسَ عَلَيْهِ عِيسَى تَقْدِيساً، وَاتَّخَذَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَاتَّخَذَ عَلَيْهِ مُحَمَّدًا حَبِيباً، وَجَعَلَهُ لِلنَّبِيِّينَ مَسْكناً، وَاللَّهُ مَا سَكَنَ فِيهِ أَحَدٌ بَعْدَ آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ آدَمَ وَنُوحَ أَكْرَمَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَإِذَا زُرْتَ جَانِبَ النَّجْفِ فَزُرْ عِظَامَ آدَمَ وَبَدَنَ نُوحٍ وَجِسْمَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَإِنَّكَ زَائِرُ الْأَبَاءِ الْأَوَّلِينَ، وَمُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَعَلِيًّا سَيِّدَ الْوَصِيِّينَ، فَإِنَّ زَائِرَهُ تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ عِنْدَ دَعْوَتِهِ، فَلَا تَكُنْ عَنِ الْخَيْرِ نَوَاماً^(١).

* وفي (فرحة الغري) بسنده عن عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَصِيرِ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَبْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَدْفُونٌ فِي قَبْرِ نُوحٍ»، قُلْتُ: وَمَنْ نُوحٌ؟ قَالَ: «نُوحُ النَّبِيِّ عليه السلام»، قُلْتُ: كَيْفَ صَارَ هَذَا؟ فَقَالَ: «إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِدِّيقٌ هَيَّاَ اللَّهُ لَهُ مَضْجَعَهُ فِي مَضْجَعِ صِدِّيقٍ. يَا عَبْدَ الرَّحِيمِ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَخْبَرَنَا بِمَوْتِهِ وَبِالْمَوْضِعِ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى حَنُوطاً مِنْ عِنْدِهِ مَعَ حَنُوطِ أَخِيهِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْشُرُ لَهُ قَبْرَهُ، فَلَمَّا قُبِضَ عليه السلام كَانَ فِي مَا أَوْصَى بِهِ ابْنَتُهُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهما السلام إِذْ قَالَ لَهُمَا: إِذَا مِتُّ فَعَسَّلَانِي وَحَنْطَانِي، وَاحْمِلَانِي بِاللَّيْلِ سِرّاً، وَاحْمِلَا يَا بَنِيَّ بِمُؤَخَّرِ السَّرِيرِ وَاتَّبِعَا مُقَدَّمَهُ، فَإِذَا وُضِعَ فَضْعاً، وَادْفِنَانِي فِي الْقَبْرِ الَّذِي يُوضَعُ السَّرِيرُ عَلَيْهِ، وَادْفِنَانِي مَعَ مَنْ يُعِينُكَمَا عَلَى دَفْنِي فِي اللَّيْلِ وَسَوِيَّاهُ^(٢).

* وفي (الإرشاد) بسنده عن جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْبَاقِرَ عليه السلام: أَيْنَ دُفِنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام؟ قَالَ: «دُفِنَ بِنَاحِيَةِ الْغُرِيِّينَ، وَدُفِنَ

(١) كامل الزيارات (ص ٨٩ - ٩١ / ح ٩١ / ٢).

(٢) فرحة الغري (ص ٧٨ / ح ٢١).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٣٣
قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَدَخَلَ قَبْرَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عليهما السلام وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جَعْفَرٍ عليه السلام»^(١).

شبهة مقابل بديهة:

مما هو معروف أنَّ الشُّبُهَات لا تقف عند حدٍّ ولن تقف، حتَّى إنَّ الذات المقدَّسة ووجود الله تعالى قيل بعدم وجوده، رغم أنَّه ورد في وضوح وجوده وضرورة الإيمان به ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام: «كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْكُونُ لِعَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتَى غَبَّتَ حتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ»^(٢).

فإذا كان الأمر في الذات المقدَّسة هكذا فما بالك بغيره؟! ومن بين الأمور الواضحة التي أثرت حولها الشُّبُهَات مدفن أمير المؤمنين عليه السلام في الغريِّ.
قال ابن كثير: (وَدُفِنَ بدار الأمانة بالكوفة خوفاً عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته، هذا هو المشهور، ومَنْ قال: إنَّه حمل عليّ راحلته فذهبت به فلا يُدرى أين ذهب، فقد أخطأ وتكلّف ما لا علم له به ولا يسيغه عقل ولا شرع، وما يعتقده كثير من جهلة الروافض من أن قبره بمشهد النجف فلا دليل على ذلك ولا أصل له، ويقال: إنَّما ذاك قبر المغيرة بن شعبة، حكاه الخطيب البغدادي، عن أبي نعيم الحافظ، عن أبي بكر الطلحي، عن محمد بن عبد الله الحضرمي الحافظ، عن مطر أنَّه قال: لو علمت الشيعة قبر هذا الذي يُعظّمونه بالنجف لرجموه بالحجارة، هذا قبر المغيرة بن شعبة... وقد قيل: إنَّ عليّاً دُفِنَ قبلي المسجد الجامع من الكوفة، قاله الواقدي، والمشهور بدار الأمانة. وقد

(١) الإرشاد (ج ١ / ص ٢٤ و ٢٥).

(٢) إقبال الأعمال (ص ٣٤٨ و ٣٤٩ / ط القديمة).

حكى الخطيب البغدادي عن أبي نعيم الفضل بن دكين، أن الحسن والحسين حوَّلاه فنقلاه إلى المدينة، فدفناه بالبقيع عند قبر فاطمة. وقيل: إنهم لمَّا حملوه على البعير ضلَّ منهم، فأخذته طيء يظنُّونه مالا، فلما رأوا أن الذي في الصندوق ميِّت ولم يعرفوه دفنوا الصندوق بما فيه، فلا يعلم أحد أين قبره، حكاها الخطيب أيضاً. وروى الحافظ ابن عساكر عن الحسن، قال: «دفنت علياً في حجرة من دور آل جعدة». وعن عبد الملك بن عمير، قال: لمَّا حفر خالد بن عبد الله أساس دار ابنه يزيد استخرجوا شيخاً مدفوناً أبيض الرأس واللحية كأنها دُفِنَ بالأمس، فهمَّ بإحراقه، ثم صرفه الله عن ذلك، فاستدعى بقباطي فلَقَّه فيها وطبَّبه وتركه مكانه. قالوا: وذلك المكان بحذاء باب الوردَّاقين ممَّا يلي قبلة المسجد في بيت إسكاف، وما يكاد يقرُّ في ذلك الموضع أحد إلا انتقل منه. وعن جعفر بن محمد الصادق قال: «صُلِّيَ على عليٍّ ليلاً، ودُفِنَ بالكوفة، وعمِّي موضع قبره، ولكنَّه عند قصر الإمارة». وقال ابن الكلبي: شهد دفنه في الليل الحسن والحسين وابن الحنفية وعبد الله بن جعفر وغيرهم من أهل بيته، فدفنوه في ظاهر الكوفة، وعموا قبره خيفة عليه من الخوارج وغيرهم^(١).

فلاحظ كيف جعل الأقوال عديدة ليوهم على الناس الاختلاف.

ثم لاحظ كيف جعل القول الحقَّ آخرها ليُبَعِدَ قبوله، وقد مرَّت عليك روايات مدفنه من طُرُقنا.

وكيف كان، فقد يقال: إنَّ أوَّل من ذكر هذه الشبهة هو أبو جعفر الحضرمي الكوفي المعروف بـ (مُطَيَّن)^(٢).

(١) البداية والنهاية (ج ٧ / ص ٣٦٥ و ٣٦٦).

(٢) تاريخ بغداد (ج ١ / ص ١٤٨).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٣٥

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

١ - بثبوت قبره عليه السلام في موضعه بما مرّ عليك من روايات عديدة، وضرورة ثابتة، فراجع.

٢ - لقد ذكر غير واحد أنّ المغيرة بن شعبة قد دُفِنَ في (الثويّة) وليس في (الغريّ)، والثويّة غير الغريّ، منهم:

أ - ابن الأثير، قال: (الثويّة: هي بضم الثاء وفتح الواو وتشديد الياء، ويقال: بفتح الثاء وكسر الواو: موضع بالكوفة، به قبر أبي موسى الأشعري، والمغيرة بن شعبة)^(١).

ب - ياقوت الحموي، قال: (الثويّة: بالفتح ثمّ الكسر، وياء مشدّدة، ويقال: الثويّة بلفظ التصغير: موضعٌ قريبٌ من الكوفة، وقيل: بالكوفة، وقيل: خريبةٌ إلى جانب الحيرة على ساعةٍ منها، ذكر العلماء أنّها كانت سجنًا للنعمان بن المنذر، كان يجسّس بها من أراد قتله، فكان يُقال لمن حُجِسَ بها: ثوى، أي أقام، فسُمّيت الثويّة بذلك. وقال ابن حبان: دُفِنَ المغيرة بن شعبة بالكوفة بموضعٍ يقال له: الثويّة، وهناك دُفِنَ أبو موسى الأشعريّ في سنة خمسين)^(٢).

٣ - ما دلّ من غير طُرُقنا على أنّ مدفنه عليه السلام بالغريّ، ومنهم:

أ - ابن أبي الدنيا بسنده عن ابن عيَّاش: سألت أبا حصين، وعاصم بن بهدلة، والأعمش وغيرهم، فقلت: أخبركم أحدٌ أنّه صلّى علىّ أو شهد دفنه؟ قالوا: لا. فسألْتُ أباك محمّد بن السائب، فقال: أُخْرِجَ به ليلاً، خرج به الحسن والحسين، وابن الحنفية، وعبد الله بن جعفر، وعدّةٌ من أهل بيتهم، فدُفِنَ في ظهر

(١) النهاية في غريب الحديث (ج ١ / ص ٢٣١).

(٢) معجم البلدان (ج ٢ / ص ٨٧).

٢٣٦ شرح دعاء الندبة

الكوفة، قال [أبو بكر]: فقال: قلت لأبيك: لمُ فَعَلَ به ذلك؟ قال: مخافة أن تنبشه الخوارج أو غيرهم^(١).

ب - أبو الفرج الأصبهاني بسنده عن الحسن بن عليّ الخلا، عن جدّه، قال: قلت للحسن بن علي: أين دفنتم أمير المؤمنين؟ قال: «خرجنا به ليلاً من منزله حتّى مررنا به على مسجد الأشعث، حتّى خرجنا به إلى الظهر بجنب الغري^(٢)».

٤ - تأليف الكتّاب المستقلّة في دفع الشبهة، منها كتاب (فرحة الغريّ في تعيين قبر أمير المؤمنين عليّ) لابن طاوس رحمته الله، حيث أثبت مفصلاً الموضع الحالي ودفع ما قيل، فراجع.

* * *

الفقرة الثالثة والعشرون

«وَالْأُمَّةُ مُصِرَّةٌ عَلَى مَقْتِهِ، مُجْتَمِعَةٌ عَلَى قَطِيعَةِ رَحِمِهِ وَإِقْصَاءِ وُلْدِهِ».

قلنا سابقاً: إنّ هناك حالة اعوجاج فكري وعملي أصيبت بها الأمة بعد شهادة رسول الله ﷺ بانزوائها عن أهل البيت عليهم السلام وميلها بشكل كبير إلى أعدائهم. وهذه الحالة لو كانت الأمة قد وقفت عليها لكان الأمر هيئاً بعض الشيء، إلّا أنّ نصوصاً كثيرة فضلاً عمّا يتحدّث عنه المقطع الندي المبارك يعكس لنا حالة أخرى، وهي حالة كُسيّت فيها قلوب أبناء هذه الأمة بالقسوة والفضاضة والغلظة تجاه أهل البيت عليهم السلام إلى حدّ يصعب تصوّره في بعض الأحيان تجاه أمة عاشت في كنف الرأفة والرحمة المحمّديّة لفترة زمنيّة طويلة، ولكن الواقع الذي يعكس حالة الإصرار على مقت أهل البيت عليهم السلام، والاجتماع لا على عدائهم فقط، بل الاجتماع

(١) مقتل الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام (ص ٧٩ / ح ٦٨).

(٢) مقاتل الطالبين (ص ٢٦).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٣٧

على قتلهم وتقطيع أوصالهم والتنكيل بهم وإقصائهم وإبعادهم وإذلالهم والاستخفاف بهم، بل على كل معنى من المعاني التي تعكسها الحالة الرذيلة والدونية من الضحالة والوضاعة التي اتّصف بها جمهور من المسلمين بعد شهادة النبي صلى الله عليه وآله، حتى وصفهم المقطع الشريف بأنهم مجتمعون على ما يفعلون، من قطع رحم رسول الله صلى الله عليه وآله، وتصغير عظيم منزلتهم، ومنازعتهم، واستعدادتهم.

ومن أشد ما يُعكس روائياً في تصوير هذه الحالة ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة): «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى فُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَأَيْتَهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَنُوا إِنَائِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَارَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْ غَيْرِي، وَقَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُنْتَعَهُ، فَاصْبِرْ مَغْمُومًا، أَوْ مِتْ مُتَأَسِّفًا، فَظَنَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَىٰ، وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقَمِ، وَالْمِ لِقَلْبٍ مِنْ وَخْزِ الشَّفَارِ»^(١).

وعنه عليه السلام: «حَقُّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ، وَحَقِّ رَحِمِهِ أَيْضًا أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ رَحِمِهِمَا، فَرَحِمُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَوْلَىٰ بِالصَّلَاةِ، وَأَعْظَمُ فِي الْقَطِيعَةِ. فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ قَطَعَهَا، وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِمَنْ لَمْ يُعْظَمْ حُرْمَتُهَا. أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ حُرْمَةَ رَحِمِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله حُرْمَةُ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَنَّ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ حُرْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ اللَّهَ أَعْظَمُ حَقًّا مِنْ كُلِّ مُنْعِمٍ سِوَاهُ»^(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «لَمْ نَزَلْ أَهْلَ الْبَيْتِ مُنْذُ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله نُدُلٌ وَنُقْصَىٰ وَنُحْرِمَ وَنُقْتَلُ وَنُطْرَدُ»^(٣).

* * *

(١) نهج البلاغة (ص ٣٣٦ / ح ٢١٧).

(٢) تفسير الإمام العسكري عليه السلام (ص ٣٥).

(٣) بحار الأنوار (ج ٢ / ص ٢١٨ / ح ١٤).

الفقرة الرابعة والعشرون

«إِلَّا الْقَلِيلَ مِمَّنْ وَفِي لِرِعَايَةِ الْحَقِّ فِيهِمْ، فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَسُبِّيَ مَنْ سُبِّيَ، وَأُقْصِيَ مَنْ أُقْصِيَ، وَجَرَى الْقَضَاءُ لَهُمْ بِمَا يُرْجَى لَهُ حُسْنُ الْمَثُوبَةِ».

بعد أن تبين في الفقرات القريبة المتقدمة أن هناك سنة أنشأها الجيل الأول بعد النبي ﷺ وسار عليها المتأخرون، وهي سنة الإقصاء واجتماع الأمة وإصرارها على معاداة أهل البيت عليهم السلام وتقطيع رحمتهم والاستحواذ على حقهم. ولكن مع ذلك الظلم والمقت وما جرى على أهل البيت عليهم السلام وجد القليل ممن وفى لرعاية حقهم والانتهاج بنهجهم والوفاء والولاء لهم، وقد صرحت بذلك العديد من الروايات، من بينها:

* في (رجال الكشي) بسنده عن الحارث النضري بن المغيرة، قال: سمعت عبد الملك بن أعين يسأل أبا عبد الله عليه السلام، قال: فلم يزل يسأله حتى قال له: فهلك الناس إذا؟ فقال: «إي والله يا ابن أعين هلك الناس أجمعون»، قلت: من في الشرق ومن في الغرب، قال: فقال: «إيها فتحت على الضلال، إي والله هلكوا إلا ثلاثة، ثم لحق أبو ساسان وعمار وشثيرة^(١) وأبو عمرة، فصاروا سبعة»^(٢).

* وفي (الأصول الستة عشر): جابر، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: لا ينجو من النار وشدة تعيظها وزفيرها وقرنها وحميمها من

(١) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، قال الشيخ الطوسي رحمه الله في رجاله (ص ٦٨ / الرقم ٩/٦٢٣):

(شربيل وهبيرة وكريب وبريد وسمير، ويقال: شتير، هؤلاء إخوة بنو شريح، قتلوا بصفين، كل واحد يأخذ الراية بعد الآخر حتى قتلوا).

(٢) رجال الكشي (ج ١ / ص ٣٤ و ٣٥ / ح ١٤).

الفصل الثاني: أهل البيت عليه السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٣٩

عَادَى عَلِيًّا وَتَرَكَ وَلَايَتَهُ وَأَحَبَّ مَنْ عَادَاهُ»، فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ مِنْ أَصْحَابِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُحِبُّ عَلِيًّا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ»، قَالَ: «فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْقَلِيلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرٌ، وَمَنْ تَعْرِفِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَتْ: أَعْرِفُ أَبَا ذَرٍّ وَالْمُقَدَّادَ وَسَلْمَانَ، وَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنِّي أَحِبُّ عَلِيًّا بِحُبِّكَ إِيَّاهُ وَنَصِيحَتِهِ لَكَ»، قَالَ: «فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: صَدَقْتِ، إِنَّكَ صِدِّيقَةٌ اِمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَكَ لِلْإِيمَانِ»^(١).

* وفي (سعد السعود) جاء في الحديث القدسي في وصف مَنْ وفي لأهل البيت عليه السلام: «أَنَا السَّلَامُ، وَمَعِيَ السَّلَامُ، وَلِي يَحُتُّ الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامُ، فَمَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ حَفِظُوا وَصِيَّتِي فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّ، وَرَاعُوا حَقِّي، وَخَافُونِي بِالْغَيْبِ، وَكَانُوا مِنِّي عَلَى [كُلِّ] حَالٍ مُشْفِقِينَ»^(٢).

وهذا الذي حصل من افتراق الناس بعد النبي ﷺ إلى فرقتين يجعل الإنسان المسلم على مفرق طريقتين، وهنا يأتي دور العقل الواعي الذي يريد لنفسه وذاته الخلاص في أن يُمَيِّز بين طريقتين - وإن قلَّ أفراد أحدهما إلى حدِّ الندرة - لا بدَّ أن يسلك أحدهما. ولا بدَّ من المراجعة والتنقيب عن الأسباب التي دعت مَنْ كانوا بعد رسول الله ﷺ لممارسة أشنع وأقبح الأفعال تجاه عترته عليه السلام مع تصريح القرآن الكريم على ضرورة احترامهم وتقديمهم، وأتَّهم الميزان في أتباع رسول الله ﷺ.

الدعاء المبارك يعكس لنا صوراً من الممارسات المختلفة والمتعددة على أهل البيت عليه السلام بعد رسول الله ﷺ، وبطبيعة الحال فإنَّ هذه الممارسات مع اختلافها لها درجات متفاوتة، وقد توجد هناك ما لم يذكره التأريخ من فضائع وجرائم بحقِّ العترة الطاهرة عليه السلام.

ولكن الغريب حقاً في كلِّ ذلك أنَّه رغم الإقصاء والمقت وتقليل القدر،

(١) الأصول الستة عشر (ص ٢١٦ و ٢١٧ / ح ٢١٦ / ١٢).

(٢) سعد السعود (ص ١١٠).

فضلاً عن القتل والسبي والتنكيل، نجد اليوم أن أهل البيت عليهم السلام متربعون على القمّة في حُبّ الناس لهم فضلاً عن المسلمين.

وفي المتون الحديثيّة نجد أن الكثير من روايات أهل البيت عليهم السلام عكست لنا هذه الحالة، فعن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يتحدث عمّا جرى عليهم - أي أهل البيت عليهم السلام -، فيقول عن شهر المحرم: «إِنَّ الْمُحَرَّمَ شَهْرٌ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحْرِمُونَ فِيهِ الْقِتَالَ، فَاسْتَحَلَّتْ فِيهِ دِمَاؤُنَا، وَهَتَكَ فِيهِ حُرْمَتُنَا، وَسَبَى فِيهِ ذَرَارِيْنَا وَنَسَاؤُنَا، وَأُضْرِمَتِ النَّيْرَانُ فِي مَضَارِبِنَا، وَأَنْتَهَبَ مَا فِيهَا مِنْ ثَقَلِنَا، وَلَمْ تُرْعَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُرْمَةٌ فِي أَمْرِنَا. إِنَّ يَوْمَ الْحُسَيْنِ أَقْرَحَ جُفُونَنَا، وَأَسْبَلَ دُمُوعَنَا، وَأَذَلَّ عَزِيزَنَا بِأَرْضِ كَرْبٍ وَبَلَاءٍ، وَأَوْرَثَنَا الْكَرْبَ وَالْبَلَاءَ إِلَى يَوْمِ الْإِنْقِضَاءِ، فَعَلَى مِثْلِ الْحُسَيْنِ فَلْيَبِكِ الْبَاكُونَ...»^(١).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام عند دخول المدينة بعد وقعة كربلاء: «وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ النَّبِيَّ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ فِي قِتَالِنَا كَمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ فِي الْوَصَايَةِ بِنَا لَمَا زَادُوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا بِنَا»^(٢).

وفي حديث للإمام الحسن عليه السلام مع جدّه المصطفى ﷺ يتحدث له عن مصارعهم وهي شتى: «يَا أَبَاهُ، لَقَدْ دَخَلْتَ بَيْتَنَا، فَمَا سُرِرْنَا بِشَيْءٍ كَسُرُّورِنَا بِدُخُولِكَ، ثُمَّ بَكَيتَ بُكَاءً غَمَّانَا، فَمَا أَبْكَاكَ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَتَانِي جَبْرَيْلُ عليه السلام أَنْفَاءً، فَأَخْبَرَنِي أَنَّكُمْ قَتَلْتُمْ، وَأَنَّ مَصَارِعَكُمْ شَتَّى، فَقَالَ: يَا أَبَاهُ، فَمَا لِمَنْ زَارَ قُبُورَنَا عَلَيَّ تَشْتَتَيْهَا؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أُولَئِكَ طَوَائِفُ مِنْ أُمَّتِي يَزُورُونَكُمْ فَيَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَاتِ، وَحَقِيقُ عَلَيٍّ أَنْ آتِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى أُخَلِّصَهُمْ مِنْ أَهْوَالِ السَّاعَةِ وَمِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيُسْكِنَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»^(٣).

(١) أمالي الصدوق (ص ١٩٠ / ح ٢/١٩٩).

(٢) الملهوف على قتلى الطفوف (ص ١١٧).

(٣) كامل الزيارات (ص ١٢٥ و ١٢٦ / ح ٩/١٤٠).

عجيب أمر هذه الأمة التي ما زال قسط كبير منها وإلى يوم الناس هذا ينتهك حرمة أهل البيت عليهم السلام بأساليب وألوان وأشكال مختلفة، لاحظ كلام الإمام السجاد عليه السلام وكأنه يخاطب هؤلاء جميعاً: «أَنَا ابْنُ الشَّهِيدِ بِسَطِّ الْفِرَاتِ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلَا، أَنَا ابْنُ مَنْ هُتِكَتْ حَرِيمُهُ، وَسَلِبَتْ نِعْمُهُ، أَنَا ابْنُ مَنْ انْتَهَبَ مَالَهُ وَسَبَّيَتْ عِيَالَهُ، أَنَا ابْنُ مَنْ قُتِلَ صَبْرًا، فَتَلَقَّى بِذَلِكَ فَخْرًا. أَيُّهَا النَّاسُ، نَاشَدْتُكُمْ اللَّهَ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كَتَبْتُمْ إِلَى أَبِي بِالْخُدَعِ وَالْغَدْرِ، وَأَعْطَيْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ بِالْبَيْعَةِ وَالْأَيْمَانِ، فَنَكَتُمْ عَمَّا أَقْرَرْتُمْ لَهُ، ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، قَتَلْتُمُوهُ وَخَذَلْتُمُوهُ، فَتَبَّ لَكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَسُوءَ رَأْيِكُمْ. بَأَيِّ عَيْنٍ تَنْظُرُونَ إِلَى جَدِّي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ يَقُولُ لَكُمْ: قَتَلْتُمْ عِرَّتِي، وَهَتَكْتُمْ حُرْمَتِي، فَلَسْتُمْ مِنْ أُمَّتِي؟»^(١).

نعم، ما حصل للعترة الطاهرة عليهم السلام تصديق لظن إبليس في إغواء الناس وصرْفهم عن العترة الطاهرة وجعلهم أعداء لهم عليهم السلام بدلاً من اتِّخاذهم أولياء وهداة، ففي الخبر: قَالَتْ زَيْنَبُ [عَلَيْهَا السَّلَامُ]: فَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مُلْجَمٍ (لَعَنَهُ اللَّهُ) أَبِي عليه السلام، وَرَأَيْتُ أَثَرَ الْمَوْتِ مِنْهُ، قُلْتُ لَهُ: يَا أَبَهْ، حَدَّثَنِي أُمُّ أَيْمَنَ بِكَذَا وَكَذَا، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ، فَقَالَ: «يَا بِنْتِي، الْحَدِيثُ كَمَا حَدَّثْتِكِ أُمُّ أَيْمَنَ، وَكَأَنِّي بِكَ وَبِبَنَاتِ أَهْلِكَ سَبَايَا هَذَا الْبَلَدِ أَذْلَاءَ خَاشِعِينَ، نَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ، فَصَبْرًا صَبْرًا، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَغِيْرُكُمْ وَغَيْرُ مُحِبِّكُمْ وَشَيْعَتِكُمْ، وَلَقَدْ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ حِينَ أَخْبَرَنَا بِهَذَا الْخَبْرِ أَنَّ إبْلِسَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَطِيرُ فَرَحًا، فَيَجُولُ الْأَرْضَ كُلَّهَا فِي شَيْطَانِيهِ وَعَفَارِيْتِهِ،

(١) تحفة الأزهار (ج ٢ / ص ١٢٣).

فَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الشَّيَاطِينِ، قَدْ أَدْرَكْنَا مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ الطَّلِبَةَ، وَبَلَّغْنَا فِي هَلَاقِهِمْ
الْغَايَةَ، وَأَوْرَثْنَاهُمْ النَّارَ إِلَّا مَنْ اعْتَصَمَ بِهَذِهِ الْعِصَابَةِ، فَاجْعَلُوا شُغْلَكُمْ بِتَشْكِيكَ
النَّاسِ فِيهِمْ، وَحَمْلِهِمْ عَلَى عَدَاوتِهِمْ، وَإِغْرَائِهِمْ بِهِمْ وَأَوْلِيَائِهِمْ، حَتَّى تَسْتَحْكِمَ
ضَلَالَةَ الْخَلْقِ وَكُفْرَهُمْ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُمْ نَاجٌ، وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَهُوَ
كَذُوبٌ، أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ مَعَ عَدَاوتِكُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَلَا يَضُرُّ مَعَ مَحَبَّتِكُمْ وَمُؤَالَاتِكُمْ
ذَنْبٌ غَيْرَ الْكِبَائِرِ»^(١).

* * *

الفقرة الخامسة والعشرون

«إِذْ كَانَتْ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ، وَسُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا، وَلَنْ يُخْلِفَ
اللَّهُ وَعْدَهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

أهميّة استعراض مسيرة الأئمة عليهم السلام في التضححية وبناء العقيدة الحقّة:
يتحدّث المقطع الأنف الذكر بفقراته المتعدّدة عن حقيقة لا بدّ أن نذكّر بها
أنفسنا دائماً، حيث من الضروري أن نلتفت إلى قضية مهمّة وهي أنّ وجودنا
مرهونٌ بسلامة عقيدتنا واستقامة ديننا، لأنّها الأساس الذي يُحدّد قيمة حياتنا
ووجهة مصيرنا، كلّ ما عدا ذلك زائل، مهما بلغت مكانته أو قيمته في أعين
الناس، ولنا في الأئمة عليهم السلام وما جرى عليهم من أحداث جسام، كما يعرضه هذا
الدعاء المبارك، أسوةً وقدوةً علياً في الثبات على المبادئ والتضححية في سبيل الله.

(١) بحار الأنوار (ج ٤٥ / ص ١٨٣ / ح ٣٠).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٤٣

فكون الأرض ملكاً لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، لم يمنع أن يُبتلى أهل البيت عليهم السلام بما جرى عليهم من أشد أنواع الظلم والتنكيل، على الرغم من أنهم كانوا يمتلكون القدرة الكاملة على سحق الظلمة، وعيش حياة مريحة في رفاهية وسلام، إلا أنهم اختاروا الصبر والتمسك بالحق، مُجسّدين بذلك النموذج الأعلى في الإيثار والوفاء بالمسؤولية الرسالية في هداية الناس والدفاع عن الحق والشريعة.

هذا الدعاء المبارك يحمل بين طياته رسائل تربوية عظيمة، فضلاً عن التأكيد على أبعاد عقائدية عميقة وترجمة تاريخية دقيقة لما وقع للأئمة عليهم السلام من أحداث.

البُعد الأخلاقي والتربوي للدعاء يخاطب ضمير الإنسان ووجدانه، ليضعه أمام حقيقة وجودية عميقة: قف قليلاً، وتأمل في مصيرك، فأنت زائل لا محالة، فماذا أعددت من زاد لسفرك الأبدي؟
إن الله سبحانه وتعالى في هذا المقطع يُبرز وعده الثابت لأهل البيت عليهم السلام، ووعد الله لا يُخلف.

الأرض ستؤول إلى وارثها الشرعي، الإمام المهدي عليه السلام الذي سيملؤها قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

هذا الوعد الإلهي يتجاوز البُعد الزمني ليُعطي للأمة أملاً مستداماً وعدالةً منتظرةً، كما أن الدعاء يُشير إلى أن المتقين سينالون نصيباً من هذا الإرث، لأن العاقبة لهم كما أكد القرآن الكريم والدعاء على ذلك.

وهنا يبرز السؤال الجوهرى الذي يجب أن يُقلى ضمائرنا: كيف نكون من المتقين؟ كيف نتهياً لننال شرف العاقبة مع الوارثين، محمد وآله الطيبين الطاهرين؟

هذا السؤال لا يتطلب إجابة نظرية فقط، بل يستدعي جهداً عملياً في التزكية والإصلاح والعمل الصالح.

ويزداد الأسى والحزن عمقاً عندما نستحضر ما جرى على أهل البيت عليهم السلام، حيث نقرأ في النصوص عن مظلوميّتهم ومعاناتهم، وكيف ضيّعت الأمة أولياءها وشفعاءها الذين كانوا السبيل إلى هدايتها وصلاحها. هذه المظلوميّة ليست مجرد حدث تاريخي، بل هي نقطة تأمل عميقة في ما يمكن أن يحدث عندما تهمل الأمة مبادئها وقيادتها الربّانية.

لكننا نجد في وعد الله تعالى العزاء الكبير: أن الله تعالى لن يضيّعهم، وأنهم سيُنصرون في نهاية المطاف، وسيعوّضهم الله تعالى بما يُقرُّ أعينهم وأعين شيعتهم وأتباعهم. هذا الوعد الإلهي المؤكّد بنصوص القرآن الكريم يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، ليكون درساً للأمة بأنّ الحقّ مهما طال معاناته سيظهر ويتصر، وأنّ أهل البيت عليهم السلام هم القدوة والمثال في الصبر والثبات على طريق الحقّ.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥).

* في (الاحتجاج): قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «وَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَمَنْ الْقُرْآنَ إِلَّا رَسْمُهُ، وَغَابَ صَاحِبُ الْأَمْرِ بِإِضْاحِ الْغَدْرِ لَهُ فِي ذَلِكَ، لِاسْتِمَالِ الْفِتْنَةِ عَلَى الْقُلُوبِ حَتَّى يَكُونَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ أَشَدَّهُمْ عِدَاوَةً لَهُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُؤَيِّدُهُ اللَّهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَيُظْهِرُ دِينَ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى يَدَيْهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ...»^(١).

(١) الاحتجاج (ج ١ / ص ٣٨٢).

* وفي (الكافي) بسنده عن أبي خالد الكائلي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيِّ عليه السلام: «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» ﴿١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، أَنَا وَأَهْلُ بَيْتِي الَّذِينَ أَوْرَثَنَا اللَّهُ الْأَرْضَ، وَنَحْنُ الْمُتَّقُونَ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا لَنَا»^(١).

* وفيه بسنده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَأَقَطَّعَهُ الدُّنْيَا قَطِيعَةً، فَمَا كَانَ لِآدَمَ عليه السلام فَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَا كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ لِلْأُمَّةِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٢).

* وفي (مناقب آل أبي طالب): مِمَّا كَتَبَ عليه السلام إِلَى أَبِي أَحْسَنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ بَابُوَيْهِ الْقُمِيِّ: «... عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ وَانْتَظَارِ الْفَرَجِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَفْضَلُ أَعْمَالٍ أُمَّتِي أَنْتَظَرُ الْفَرَجِ، وَلَا يَزَالُ شِيعَتُنَا فِي حُزْنٍ حَتَّى يَظْهَرَ وَلَدِي الَّذِي بَشَّرَ بِهِ النَّبِيُّ، يَمَلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَاصْبِرْ يَا شَيْخِي يَا أَبَا أَحْسَنِ عَلِيًّا وَأْمُرْ جَمِيعَ شِيعَتِي بِالصَّبْرِ، فَ» «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» ﴿١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَمِيعِ شِيعَتِنَا، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ»^(٣).

نعم، حالنا التأسي بحال أمامنا ﷺ - ومن أول لحظة ولادته - ساجداً لوجهه، جاثياً على ركبتيه، رافعاً سبَابتيه، وهو يقول: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ [وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ]، وَأَنَّ جَدِّي مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَبِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»، ثُمَّ عَدَّ إِمَامًا إِمَامًا إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَيَّ نَفْسِي، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، وَأَتِّمِّمْ لِي أَمْرِي، وَتَبَّتْ وَطْأَتِي، وَإِمْلَأِ الْأَرْضَ بِي عَدْلًا وَقِسْطًا»^(٤).

(١) الكافي (ج ١ / ص ٤٠٧ / باب أن الأرض كلها للإمام عليه السلام / ح ١).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٤٠٩ / باب أن الأرض كلها للإمام عليه السلام / ح ٧).

(٣) مناقب آل أبي طالب (ج ٣ / ص ٥٢٧).

(٤) كمال الدين (ص ٤٢٨ / باب ٤٢ / ح ٢).

٢٤٦ شرح دعاء الندبة

فذات الأخبار المروية عنهم تُفسر لنا - مضافاً إلى ما تقدّم - وجه ما يخفى علينا من حكمة ما يجري عليهم وما نزل من عظيم البلاء الذي لا تطيقه الجبال ولا يتحمّل سماعه كلُّ ذي بال، هذا وهم بهذه المنزلة العظيمة والمقام الشامخ المدلول عليه صريحاً من النبي ﷺ، فلكي لا تذهب بالمؤمن المذاهب، تأتي هذه الأخبار لتُلفت المؤمن وتُوقفه على وجوه من الحكمة تريح باله وتذهب كدر نفسه وأساها على ما جرى ووقع في العترة المصطفوية الطاهرة ﷺ.

* * *

المبحث الثامن:

ما ينبغي للمؤمنين تجاه

أهل البيت عليهم السلام في مواساتهم بما حلّ فيهم

الفقرة السادسة والعشرون

«فَعَلَى الْأَطَائِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا
وَأَهْلِهِمَا) فَلْيَبْكُوا بَابًا كَوْنًا، وَإِيَّاهُمْ فَلْيَتَذَبَّرُوا النَّادِبُونَ».

في هذه الفقرة المباركة من الدعاء نجد أن الأسلوب الدعائي - بعد أن بيّن من خلال الفقرات المتقدمة الحقائق الملكوتية لأهل البيت عليهم السلام والصفات التي يتمتعون بها ومقامهم السامي، والذي ينبغي أن يُحفظ في الأرض كما هو محفوظ في السماء - ما هو الأشبه بالممارسة العملية من الداعي، حيث يُطلب منه: لتكن حالتك العملية وسلوكك الجوارحي هو ما يأتي من فقرات الدعاء - التي سنسلط الضوء عليها -.

البكاء على الأطائب من أهل البيت عليهم السلام:

وهنا مجموعة من النكات التي ينبغي أن يُلتفت إليها:

أن طلب البكاء لم يكن - في خصوص هذا الدعاء - على كل الأطاييب، بل نجد حالة التبعض، فلم يقل الدعاء: (فعلى الأطاييب)، بل قال: «فَعَلَى الْأَطَائِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ»، وكأنه يشير إلى أن ما وقع من أسى يستدعي البكاء والندب، لم يكن على كل من ينتسب إلى النبي ﷺ، بل أنه لخصوص العترة الطاهرة منهم، ولخصوص من قرن الله تعالى طاعته بطاعتهم، فالمراد من الأطاييب هنا هم خصوص من تحلى بصفات الكمال وتنزه عن كل ما يشينه، ولعله إشارة إلى العصمة وآية إذهاب الرجس، ولذلك عطف المقطع الندي المبارك أن الأطاييب من أهل البيت عليهم السلام كما هم من محمد ﷺ عن طريق فاطمة عليها السلام، هم من علي عليه السلام عن

طريق فاطمة عليها السلام، لذلك قال: «مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا)»، وهذا لا يعني منع البكاء عن غيرهم في غير مورد ومناسبة، فعلى الأولياء والصلحاء والشهداء من أهل البيت عليهم السلام ومن غيرهم يجوز البكاء وفي بعض الموارد يُستحبُّ، كما في البكاء على حمزة سيّد الشهداء عليه السلام، ولكن في خصوص البكاء في هذا الدعاء يحتمل أن يكون لما أشرنا إليه خصوصية.

فبعد أن ذكرنا الدعاء بالأطياب من أهل البيت عليهم السلام، وقرأ لنا ما مرَّ عليهم جاء دور ما ينتظره منا ويطلبه كمارسة عملية تناسب طاقتنا، والتفجّع على تلك التصرفات المشينة التي وقعت على هؤلاء الأطياب عليهم السلام، وبدأ بالبكاء الذي هو أول الممارسات العملية الراضية لتلك التصرفات والمخالفات التي وقعت على أهل البيت عليهم السلام.

ثم انتقل الدعاء مترقياً في طلباته من المؤمنين في الممارسات حزناً ووجداً وتألماً وتأثراً على ما جرى على أهل البيت عليهم السلام، فانتقل إلى الحالة الأخرى وهي حالة الندب، والتي طلب أن تكون جماعية كما في البكاء.

فلا يكفي في البكاء على أهل البيت عليهم السلام لما جرى عليهم أن يكون فردياً، بل ليكي الباكون جماعات جماعات، فلم يقل ليكي الباكي، بل «الْبَاكُونَ».

وهكذا ليندب النادبون بنحو الجماعات والمجموعات ولا يقصر على الفرد والأفراد، إظهاراً لمظلومية هذا البيت الطاهر أطهر بيت خلقه الله تعالى.

ولا تنس أيها العزيز ما قرأته من فجائع ودواهٍ مرّت على أهل هذا البيت المعظم ممّا قرأت من روايات، وهي عشر معشار ما وقع عليهم، وبعض يسير ممّا هو مسجّل في كُتُب الحديث والتاريخ ممّا يحكي عن الذي جرى عليهم عليهم السلام.

ولعلّ المطلوب: الندب بعد البكاء، أي إنني أدعو أهل البيت عليهم السلام أن يأتوني ويشاهدوا ما أنا فيه من بكاء ووجد عليهم.

وفي الأخبار الكثير من الآثار المترتبة على البكاء والندب على الأطايب من العترة الطاهرة عليهم السلام، ومنها:

* في (الملهوف على قتلى الطفوف): ... فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ حُطْبَتِهِ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِ الْحَسَنِ، وَيَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَهَذَا نِ أَطَائِبُ عِزَّتِي، وَخِيَارُ ذُرِّيَّتِي، وَأَرْوَمَتِي، وَمَنْ أَحْلَفُهَا فِي أُمَّتِي، وَقَدْ أَخْبَرَنِي جِبْرَائِيلُ عليه السلام أَنَّ وَلَدِي هَذَا مَقْتُولٌ مُحْدُولٌ، اللَّهُمَّ فَبَارِكْ لَهُ فِي قَتْلِهِ، وَاجْعَلْهُ مِنْ سَادَاتِ الشُّهَدَاءِ، اللَّهُمَّ وَلَا تُبَارِكْ فِي قَاتِلِهِ وَخَاذِلِهِ»، قَالَ فَضَحَّ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «أَتَبْكُونَهُ وَلَا تَنْصُرُونَهُ؟»، ثُمَّ رَجَعَ صلى الله عليه وآله وَهُوَ مُتَعَبٌ مِنَ اللَّوْنِ مُحَمَّدُ الْوَجْهِ، فَخَطَبَ خُطْبَةً أُخْرَى مُوجِزَةً وَعَيْنَاهُ تَهْمَلَانِ دُمُوعًا، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَأَرْوَمَتِي، وَمَزَاجَ مَائِي، وَشَمْرَةَ فُؤَادِي، وَمُهَجَّتِي، لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، أَلَا وَإِنِّي أَنْتَظِرُهُمَا، وَإِنِّي لَا أَسْأَلُكُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَا أَمَرَنِي رَبِّي، أَمَرَنِي أَنْ أَسْأَلُكُمْ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، فَانظُرُوا أَلَا تَلْقَوْنِي عِدًّا عَلَى الْحَوْضِ وَقَدْ أَبْغَضْتُمْ عِزَّتِي وَظَلَمْتُمُوهُمْ، أَلَا وَإِنَّهُ سَرَدُ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ رَايَاتٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الْأُولَى رَايَةٌ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ، وَقَدْ فِرَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ، فَتَفَفُّ عَلَيَّ، فَأَقُولُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَسُؤُونَ ذِكْرِي، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ مِنَ الْعَرَبِ، فَأَقُولُ لَهُمْ: أَنَا أَحْمَدُ نَبِيِّ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فَيَقُولُونَ: نَحْنُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا أَحْمَدُ، فَأَقُولُ لَهُمْ: كَيْفَ خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي فِي أَهْلِي وَعِزَّتِي وَكِتَابِ رَبِّي؟ فَيَقُولُونَ: أَمَّا الْكِتَابُ فَضَيَّعْنَاهُ، وَأَمَّا عِزَّتُكَ فَحَرَصْنَا عَلَى أَنْ نُبِيدَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ عَنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ، فَأُولِي عَنْهُمْ وَجْهِي، فَيَصْدِرُونَ ظِمَاءً عَطَاشًا، مُسَوَّدَةً وَجُوهُهُمْ. ثُمَّ تَرِدُ عَلَيَّ رَايَةٌ أُخْرَى أَشَدُّ سَوَادًا مِنَ الْأُولَى، فَأَقُولُ لَهُمْ: كَيْفَ خَلَفْتُمُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ، كِتَابِ رَبِّي

وَعِثْرَتِي؟ فَيَقُولُونَ: أَمَّا الْأَكْبَرُ فَخَالَفْنَا، وَأَمَّا الْأَصْغَرُ فَخَذَلْنَاهُمْ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزَقٍ، فَأَقُولُ: إِلَيْكُمْ عَنِّي، فَيَصْدِرُونَ ظَهَاءَ عِطَاشًا، مُسَوِّدَةً وُجُوهُهُمْ. ثُمَّ تَرُدُّ عَلَيَّ رَايَةً أُخْرَى تَلْمَعُ وُجُوهُهُمْ نُورًا، فَأَقُولُ لَهُمْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّقْوَى، نَحْنُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَنَحْنُ بَقِيَّةُ أَهْلِ الْحَقِّ، حَمَلْنَا كِتَابَ رَبَّنَا، فَأَحْلَلْنَا حَلَالَهُ وَحَرَّمْنَا حَرَامَهُ، وَ أَحْبَبْنَا ذُرِّيَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَنَصَرْنَاهُمْ مِنْ كُلِّ مَا نَصَرْنَا مِنْهُ أَنْفُسَنَا، وَقَاتَلْنَا مَعَهُمْ مَنْ نَاوَاهُمْ، فَأَقُولُ لَهُمْ: أَبَشِّرُوا فَأَنَا نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا كَمَا وَصَفْتُمْ، ثُمَّ أَسْقَيْهِمْ مِنْ حَوْضِي، فَيَصْدِرُونَ مَرَوِّينَ مُسْتَبْشِرِينَ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَدِينَ»^(١).

* وفي (كامل الزيارات) بسنده عن عبد الله بن بكير، قال: حَجَجْتُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ -، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، لَوْ نُبِشَ قَبْرُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هَلْ كَانَ يُصَابُ فِي قَبْرِهِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ بَكِيرٍ، مَا أَعْظَمَ مَسَائِلِكَ، إِنَّ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَأَخِيهِ فِي مَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ يُرْزَقُونَ وَيُحْبَرُونَ، وَإِنَّهُ لَعَنَ يَمِينَ الْعَرْشِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى زُورَارِهِ، وَإِنَّهُ أَعْرَفُ بِهِمْ وَبِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَمَا فِي رِحَالِهِمْ مِنْ أَحَدِهِمْ بَوْلِدِهِ، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى مَنْ يَبْكِيهِ، فَيَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَيَسْأَلُ أَبَاهُ الْأَسْتِغْفَارَ لَهُ، وَيَقُولُ: أَيُّهَا الْبَاكِي، لَوْ عَلِمْتَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ لَفَرِحْتَ أَكْثَرَ مِمَّا حَزَنْتَ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ»^(٢).

* وفي (أمالي الصدوق) بسنده عن علي بن الحسن بن علي بن فضال، عن أبيه، قال: قَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ تَذَكَّرَ مُصَابِنَا وَبَكَى لِمَا أُرْتُكِبَ مِنَّا كَانَ مَعَنَا فِي دَرَجَتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ ذَكَرَ بِمُصَابِنَا فَبَكَى وَأَبَكَى لَمْ تَبْكْ عَيْنُهُ

(١) الملهوف على قتلى الطفوف (ص ١٤ - ١٦).

(٢) كامل الزيارات (ص ٢٠٦ / ح ٢٩٢ / ٨).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٥٣

يَوْمَ تَبْكِي الْعُيُونُ، وَمَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يُحْيَا فِيهِ أَمْرًا لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ»^(١).

* وفي (المزار لابن المشهدي) في ندبة الإمام عليه السلام لجدّه الشهيد القليل عليه السلام:
«... فَلَمَّا أَخْرَجْتَنِي الدُّهُورُ، وَعَافَيْتَنِي عَنْ نَصْرِكَ الْمَقْدُورُ، وَلَمْ أَكُنْ لِمَنْ حَارَبَكَ مُحَارِبًا، وَلِمَنْ نَصَبَ لَكَ الْعَدَاوَةَ مُنَاصِبًا، فَلَا تُدْبِنَنَّ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَلَا بَكِيْنًا عَلَيْكَ بَدَلَ الدَّمُوعِ دَمًا، حَسْرَةً عَلَيْكَ وَتَأْسَفًا عَلَيَّ مَا دَهَاكَ وَتَلَهَّفًا، حَتَّى أَمُوتَ بِلَوْعَةِ الْمَصَابِ وَغُصَّةِ الْإِكْتِيَابِ...»^(٢).

* وفي (مقاتل الطالبيين) روي عن الإمام الباقر عليه السلام في حكاية ندبة أمّ البنين عليها السلام: «وَكَاثَتْ أُمُّ الْبَنِيْنَ أُمَّ هُوْلَاءَ الْأَرْبَعَةِ الْإِخْوَةَ الْقَتْلَى تَخْرُجُ إِلَى الْبَيْعِ، فَتَنْدُبُ بَنِيهَا أَشْجَى نُذْبَةً وَأَحْرَقَهَا، فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ إِلَيْهَا يَسْمَعُونَ مِنْهَا، فَكَانَ مَرَوَانُ يَجِيءُ فِيمَنْ يَجِيءُ لِدَلِكْ، فَلَا يَزَالُ يَسْمَعُ نُذْبَتَهَا وَيَبْكِي»^(٣).

* وفي (مصباح المهجّد) عن الإمام الباقر عليه السلام: «... ثُمَّ لِيَنْدُبِ الْحُسَيْنَ عليه السلام وَيَبْكِيهِ وَيَأْمُرُ مَنْ فِي دَارِهِ مِمَّنْ لَا يَتَّقِيهِ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ، وَيُقِيمُ فِي دَارِهِ الْمُصِيبَةَ بِإِظْهَارِ الْجُرْعِ عَلَيْهِ، وَلِيَعَزَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمُصَابِهِمْ بِالْحُسَيْنِ عليه السلام...»^(٤).

مشروعية البكاء خصوصاً على سيد الشهداء وأهل البيت والصدّيقة الطاهرة عليها السلام:

يدّعي البعض أنّ البكاء عموماً وعلى أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص، دونما استنادٍ إلى حجةٍ أو مسوّغٍ واضحٍ.

(١) أمالي الصدوق (ص ١٣١ / ح ١١٩ / ٤).

(٢) المزار لابن المشهدي (ص ٥٠١).

(٣) مقاتل الطالبيين (ص ٥٦).

(٤) مصباح المهجّد (ص ٧٧٢).

والجواب عن هذه الإشكالية يكون من جهات:
الجهة الأولى: الروايات الشريفة تُجيز البكاء:

حيث وردت عدة روايات فيها الكفاية لدفع هذه الإشكالية، كما توجد العديد من الطوائف من الروايات التي رتبت جملةً من الآثار على البكاء، سواء في خصوص مصاب سيد الشهداء عليه السلام أو في عموم مصائب أهل البيت عليهم السلام، وبالتالي فهي تدلُّ على الجواز، بل الاستحباب من باب أولى، ومنها:

الطائفة الأولى: حيث دلت على أن البكاء عليهم عليهم السلام يمنع دخول النار، كما في الخبر المروي عن فضيل بن فضالة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مَنْ ذُكِرْنَا عِنْدَهُ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ حَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَلَى النَّارِ»^(١).

الطائفة الثانية: أنه يوجب دخول الجنة، كما في الخبر المروي عن محمد بن ابن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليهما السلام دَمَعَةً حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ بَوَّأَهُ اللَّهُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ عُرفاً يَسْكُنُهَا أَحْقَابًا...»^(٢)، والطوائف عديدة ذُكرت في كتاب (كامل الزيارات) من غفران الذنوب، وخط الخطايا، والحضور عند الموت، وإسعاد الصديقة الطاهرة عليها السلام^(٣).

الجهة الثانية: البكاء على الميت مباح وجائز شرعاً:

كما يظهر من فعل النبي ﷺ والصديقة الطاهرة عليها السلام، حيث بوب غير واحد من رواة العامة في ذلك عن النبي ﷺ، ومنهم صاحب (المصنّف)، ومما

(١) كامل الزيارات (ص ٢٠٧ / ح ١٢/٢٩٦).

(٢) كامل الزيارات (ص ٢٠١ / ح ١/٢٨٥).

(٣) راجع: كامل الزيارات (ص ٢١١ / ح ٦/٣٠٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٥٥
رواه: «وَأَنَا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ، تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَجِدُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا
يُسْخِطُ الرَّبَّ»^(١).

الجهة الثالثة: الإجماع على جوازه، بل التواتر:

وَمَنْ ذَكَرَهُ عِدَّةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ، مِنْهُمْ:

أ - العلامة الحلبي رحمته الله، قال: (البكاء جائز إجماعاً وليس بمكروه، قبل
خروج الروح وبعدها، قال الصادق عليه السلام: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَاءَتْهُ
وَفَاةُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ كَانَ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ كَثُرَ بُكَاءُوهُ
عَلَيْهَا جِدًّا، وَقَالَ: كَانَا يُحَدِّثَانِي وَيُؤَانِسَانِي فَذَهَبَا جَمِيعًا». ويجوز النوح
والندب بتعداد فضائله واعتماد الصدق، لأن فاطمة عليها السلام كانت تنوح على
النبي ﷺ، فتقول: «يَا أَبَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ، يَا أَبَتَاهُ إِلَى جِبْرَائِيلَ أَنْعَاهُ، يَا
أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ»^(٢).

ب - صاحب الجواهر رحمته الله، قال: (ثم إنه لا ريب في جواز البكاء على
البيته نصاً وفتوى للأصل، والأخبار التي لا تقصر عن التواتر معني من بكاء
النبي ﷺ على حمزة وإبراهيم عليهما السلام وغيرهما، وفاطمة عليها السلام على أبيها وأختها،
وعلي بن الحسين عليهما السلام على أبيه حتى عدَّ هو وفاطمة عليهما السلام من البكائين الأربعة،
إلى غير ذلك مما لا حاجة لنا بذكره، بل ربما يظهر من بعض الأخبار استحبابه
عند اشتداد الوجد)^(٣).

* * *

(١) المصنّف للصنعاني (ج ٣ / ص ٥٥٢ و ٥٥٣ / ح ٦٦٧٢).

(٢) نهاية الأحكام (ج ٢ / ص ٢٨٩).

(٣) جواهر الكلام (ج ٤ / ص ٣٦٤).

الفقرة السابعة والعشرون

«وَلِيْلِهِمْ فَلْتُدْرِفِ (فَلْتُدْرِ) الدُّمُوعُ، وَلِيَصْرُخِ الصَّارِخُونَ،
وَيَضِجَ الضَّاجُونَ، وَيَعِجَ الْعَاجُونَ، أَيَّنَ الْحَسَنُ أَيَّنَ الْحُسَيْنُ،
أَيَّنَ أَبْنَاءُ الْحُسَيْنِ».

في هذه الفقرات يتحدث الدعاء عن بعض الممارسات العملية تأثراً بما جرى على أهل البيت عليهم السلام من ظلم وقتل وسبي وإقصاء.

ذرف الدموع على مصائب أهل البيت عليهم السلام:

الحالة الثالثة التي يتحدث عنها الدعاء من هذه الممارسات هي: ذرف الدموع.

و(الذرف) كما جاء في كُتُب اللغة هو جريان الدمع وانصبابه^(١)، فالدعاء يقول للمؤمن الداعي: إِنَّ عَلَى مِثْلِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام لَتَكُنْ دُمُوعُكَ غَزِيرَةً وَتَنْصَبُ صَبًّا، لِأَنَّهُمْ - ولما جرى عليهم - أهل لأن تواسيهم بذلك.

* في (تفسير القمي) بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، قَالَ: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليهما السلام يَقُولُ: أَيُّمَا مُؤْمِنٍ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام دَمَعَةً حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ بَوَّأَهُ اللَّهُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَسْكُنُهَا أَحْقَابًا، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ دَمَعَةً حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدِّهِ لِأَذَى مَسَّنَا مِنْ عَدُونِنَا فِي الدُّنْيَا بَوَّأَهُ اللَّهُ مَبُوءًا صَدَقَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَسَّهُ أَذَى فِينَا فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى تَسِيلَ دَمَعُهُ عَلَى خَدِّهِ مِنْ مَضَاضَةِ مَا أُوذِيَ فِينَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ الْأَذَى وَآمَنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَخَطِهِ وَالنَّارِ»، قَالَ: وَحَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ

(١) في تهذيب اللغة (ج ١٤ / ص ٣٠٤ / مادة ذرف): (قال الليث: الذرف صبُّ الدَّمْعِ).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٥٧

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «مَنْ ذَكَرَنَا أَوْ ذُكِرْنَا عِنْدَهُ فَخَرَجَ مِنْ عَيْنِهِ دَمْعٌ مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١).

* وفي (رجال الكشي) بسنده عن زَيْدِ الشَّحَّامِ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْكُوفِيِّينَ، فَدَخَلَ جَعْفَرُ بْنُ عَمَّانَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَفَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا جَعْفَرُ»، قَالَ: لَبَّيْكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَقُولُ الشُّعْرَ فِي الْحُسَيْنِ عليه السلام وَتُحِيدُ»، فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، فَقَالَ: «قُلْ»، فَأَنْشَدَهُ عليه السلام وَمَنْ حَوْلُهُ حَتَّى صَارَتْ لَهُ الدُّمُوعُ عَلَى وَجْهِهِ وَحَيْثَهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا جَعْفَرُ، وَاللَّهِ لَقَدْ شَهِدْتُكَ مَلَائِكَةُ اللَّهِ الْمُقْرَبُونَ هَاهُنَا يَسْمَعُونَ قَوْلَكَ فِي الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَقَدْ بَكَوْنَا كَمَا بَكَيْنَا أَوْ أَكْثَرَ، وَلَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ يَا جَعْفَرُ فِي سَاعَتِهِ الْجَنَّةَ بِأَسْرِهِا وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ...»^(٢).

ثم ينتقل الدعاء بالداعي إلى ممارسة أخرى - وهي الرابعة - من المواسة العملية، وهي: التألم والتفجع الشديد والصراخ بصوت عالٍ ما وقع عليهم^(٣).

* في (مثير الأحزان): قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: بَيْنَمَا أَنَا عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ إِذْ دَخَلَتْ صَارِخَةً تَصْرُخُ، وَقَالَتْ: قُتِلَ الْحُسَيْنُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَعَلَوْهَا مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ نَارًا، وَوَقَعَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا^(٤).

(١) تفسير القمي (ج ٢ / ص ٢٩١ و ٢٩٢).

(٢) رجال الكشي (ج ٢ / ص ٥٧٤ و ٥٧٥ / ح ٥٠٨).

(٣) البكاء: هو خروج الدموع من العين مصحوباً أو غير مصحوبٍ بصوت، تعبيراً عن حزن أو فرح أو خشوع. والعيول: هو صوت البكاء المرتفع المصحوب بالندب أو النذب، ويُعبّر غالباً عن حزن شديد أو رثاء. والصراخ: رفع الصوت عند استغاثة أو انفعال. والضجيج: صوت مرتفع مختلط. راجع: لسان العرب والقاموس المحيط في مادة كل معنى منها.

(٤) مثير الأحزان (ص ٧٥).

* وفي (كامل الزيارات) بسنده عن ابن عباس قال: المَلَكُ الَّذِي جَاءَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يُخْبِرُهُ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّوحَ الْأَمِينَ، مَنْشُورَ الْأَجْنِحَةِ بَاكِيًا صَارِحًا، قَدْ حَمَلَ مِنْ تُرْبَةِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ تَفُوحُ كَالْمِسْكِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَتُفْلِحُ أُمَّتِي تَقْتُلُ فَرَخِي - أَوْ قَالَ: فَرَخَ ابْنَتِي -؟»، فَقَالَ جَبْرَائِيلُ: يَضْرِبُهَا اللَّهُ بِالْإِخْتِلَافِ، فَتَخْتَلِفُ قُلُوبُهُمْ»^(١).

* وفي (الملهوف على قتلى الطفوف): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَاءَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي لَمَّةٍ مِنْ نِسَائِهَا، فَيَقَالُ لَهَا: أُدْخِلِي الْجَنَّةَ، فَتَقُولُ: لَا أُدْخِلُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا صَنَعَ بِوَلَدِي مِنْ بَعْدِي، فَيَقَالُ لَهَا: أَنْظِرِي فِي قَلْبِ الْقِيَامَةِ، فَتَنْظُرُ إِلَى الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمًا لَيْسَ عَلَيْهِ رَأْسٌ، فَتَصْرُخُ صَرْخَةً، فَأَصْرُخُ لِصْرَاحِهَا، وَتَصْرُخُ الْمَلَائِكَةُ لِصْرَاحِهَا»^(٢).

ضجيج النفوس المكلومة بالألم:

لم يكتفِ الدعاء بذلك، بل طلب حالة خامسة أشدَّ من الحالات المتقدمة في ندبة أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ والتفجُّع عليهم، وهي بالطلب من المؤمنين أن يصيحوا مستغيثين ضاجين لفجاعة ما جرى على أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا يكفي البكاء ولا الندب ولا ذرف الدموع ولا الصراخ، بل لا بدَّ لهم من الضجيج والعجيج - أي ذلك الصياح العالي الصوت -، وكأنَّ الدعاء يريد أن يقول: ابكِ بكاء غير عادي بذرف الدموع، واصرخ وضجَّ وعجَّ بأعلى صوتك، متفجعاً لما مرَّ على أهل البيت عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنَّ ما مرَّ عليهم استثنائي غير عادي، فلا بدَّ أن تكون مواساتك غير عادية.

(١) كامل الزيارات (ص ١٣١ / ح ٧/١٤٨).

(٢) المهوف على قتلى الطفوف (ص ٨٢).

* في (كامل الزيارات) بسنده عن مسمع بن عبد الملك كَرْدِينِ الْبَصْرِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «يَا مَسْمَعُ، أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، أَمَا تَأْتِي قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام؟»، قُلْتُ: لَا، أَنَا رَجُلٌ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَعِنْدَنَا مَنْ يَتَّبِعُ هَوَىٰ هَذَا الْخَلِيفَةِ، وَعَدُونَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ مِنَ النَّصَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَسْتُ أَمْنُهُمْ أَنْ يَرْفَعُوا حَالِي عِنْدَ وُلْدِ سُلَيْمَانَ فَيَمَثُلُونَ بِي، قَالَ لِي: «أَفَمَا تَذَكَّرُ مَا صُنِعَ بِهِ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَتَجَزَعُ؟»، قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ، وَأَسْتَعْبِرُ لِذَلِكَ حَتَّىٰ يَرَىٰ أَهْلِي أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَأَمْتَنِعُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّىٰ يَسْتَبِينَ ذَلِكَ فِي وَجْهِي، قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ دَمْعَتَكَ، أَمَا إِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يُعَدُّونَ مِنْ أَهْلِ الْجَزَعِ لَنَا، وَالَّذِينَ يَفْرَحُونَ لِفَرَحِنَا، وَيَحْزَنُونَ لِحُزْنِنَا، وَيَخَافُونَ لِحُوفِنَا، وَيَأْمُنُونَ إِذَا أَمْنَا، أَمَا إِنَّكَ سَتَرَىٰ عِنْدَ مَوْتِكَ حُضُورَ آبَائِي لَكَ، وَوَصِيَّتَهُمْ مَلِكَ الْمَوْتِ بِكَ، وَمَا يَلْقَوْنَكَ بِهِ مِنَ الْبَشَارَةِ أَفْضَلُ، وَمَلِكُ الْمَوْتِ أَرْقُ عَلَيْكَ وَأَشَدُّ رَحْمَةً لَكَ مِنَ الْأُمِّ الشَّفِيقَةِ عَلَيَّ وَلِدَهَا»، قَالَ: ثُمَّ اسْتَعْبَرَ وَاسْتَعْبَرْتُ مَعَهُ، فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَيَّ خَلْقَهُ بِالرَّحْمَةِ، وَخَصَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ بِالرَّحْمَةِ. يَا مَسْمَعُ، إِنَّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ لَتَبْكِي مِنْذُ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام رَحْمَةً لَنَا، وَمَا بَكَى لَنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَكْثَرَ، وَمَا رَقَاتُ دُمُوعِ الْمَلَائِكَةِ مِنْذُ قُتِلْنَا، وَمَا بَكَى أَحَدٌ رَحْمَةً لَنَا وَلِمَا لَقِينَا إِلَّا رَحْمَةً اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ الدَّمْعَةُ مِنْ عَيْنِهِ، فَإِذَا سَالَتْ دُمُوعُهُ عَلَيَّ خَدَّهُ فَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ دُمُوعِهِ سَقَطَتْ فِي جَهَنَّمَ لَأَطْفَأَتْ حَرَّهَا حَتَّىٰ لَا يُوجَدَ لَهَا حَرٌّ، وَإِنَّ الْمَوْجَعَ لَنَا قَلْبُهُ لَيَفْرَحُ يَوْمَ يَرَانَا عِنْدَ مَوْتِهِ فَرَحَةً لَا تَزَالُ تِلْكَ الْفَرَحَةُ فِي قَلْبِهِ حَتَّىٰ يَرِدَ عَلَيْنَا الْحَوْضُ، وَإِنَّ الْكَوْثَرَ لَيَفْرَحُ بِمُحِبِّنَا إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُدِيْقُهُ مِنْ ضُرُوبِ الطَّعَامِ مَا لَا يَشْتَهِي أَنْ يَصْدَرَ عَنْهُ. يَا مَسْمَعُ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَمْ يَسْتَقِ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَهُوَ فِي بَرْدِ الْكَافُورِ وَرِيحِ الْمِسْكِ وَطَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ، أَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، وَالْأَيِّنَ مِنَ الزُّبْدِ، وَأَصْفَىٰ مِنَ الدَّمْعِ، وَأَذْكَىٰ مِنَ الْعَنْبَرِ، يَخْرُجُ مِنْ تَسْنِيمٍ، وَيَمُرُّ بِأَنْهَارٍ

الْجَنَانِ، يَجْرِي عَلَى رَضْرَاضِ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، فِيهِ مِنَ الْقَدْحَانِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، يُوجَدُ رِيحُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ، قَدْحَانُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَاللُّوَانِ الْجَوْهَرِ، يَفُوحُ فِي وَجْهِ الشَّارِبِ مِنْهُ كُلُّ فَائِحَةٍ حَتَّى يَقُولَ الشَّارِبُ مِنْهُ: يَا لَيْتَنِي تَرَكْتُ هَاهُنَا، لَا أَبْغِي بِهَذَا بَدَلًا، وَلَا عَنْهُ تَحْوِيلًا. أَمَا إِنَّكَ يَا ابْنَ كَرْدِينَ مِمَّنْ تَرَوَى مِنْهُ، وَمَا مِنْ عَيْنٍ بَكَتْ لَنَا إِلَّا لِنُعَمَّتْ بِالنَّظَرِ إِلَى الْكَوْثَرِ، وَسُقِيَتْ مِنْهُ...»^(١).

هذا حال البكاء، فكيف بحال غيره من الوجد عليهم عليه السلام؟

* وفيه بسنده عَنْ صَفْوَانَ الْجَمَّالِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: سَأَلْتُهُ فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ وَنَحْنُ نُرِيدُ مَكَّةَ، فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا لِي أَرَاكَ كَثِيبًا حَزِينًا مُنْكَسِرًا؟ فَقَالَ: «لَوْ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ لَشَعَلَكَ عَنْ مَسْأَلَتِي»، قُلْتُ: فَمَا الَّذِي تَسْمَعُ؟ قَالَ: «إِنْتِهَالَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى اللَّهِ عز وجل عَلَى قَتْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَتْلَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، وَنُوحِ الْجَنِّ وَبُكَاءِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ حَوْلَهُ وَشِدَّةِ جَزَعِهِمْ، فَمَنْ يَتَهَنُّ مَعَ هَذَا بِطَعَامٍ أَوْ بِشَرَابٍ أَوْ نَوْمٍ...»^(٢).

* وفيه أيضاً بسنده عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «إِنَّ جَبْرَائِيلَ عليه السلام أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْحُسَيْنُ عليه السلام يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَقْتُلُهُ»، قَالَ: «فَجَزَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم»، فَقَالَ: «أَلَا أُرِيكَ التُّرْبَةَ الَّتِي يُقْتَلُ فِيهَا؟»، قَالَ: «فَحَسَنَ مَا بَيْنَ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ الْحُسَيْنُ عليه السلام حَتَّى التَّمَّتِ الْقِطْعَتَانِ، فَأَخَذَ مِنْهَا، وَدَحِيَّتْ فِي أَسْرَعٍ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: طُوبَى لَكَ مِنْ تُرْبَةٍ، وَطُوبَى لِمَنْ يُقْتَلُ حَوْلَكَ...»^(٣).

ثم يتساءل الدعاء عن أن هذه المواساة لا بد أن تكون لكل فرد من أفراد

(١) كامل الزيارات (ص ٢٠٣ - ٢٠٦ / ح ٧ / ٢٩١).

(٢) كامل الزيارات (ص ١٨٧ / ح ٢٦٣ / ٢٣).

(٣) كامل الزيارات (ص ١٢٧ و ١٢٨ / ح ١٤٢ / ١).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٦١

أهل البيت عليهم السلام الأطياب، وهو في تلك الحالة الراقية الرفيعة من المواسة غير العادية، فليصح بأعلى صوته وهو باكٍ عمّا جرى على خصوص الإمام الحسن بن علي عليهما السلام بعد أن مرّ في المقاطع السابقة ما جرى على علي عليه السلام، فيسأل الداعي أين الحسن عليه السلام؟

ماذا حدث للحسن عليه السلام، أرعى حقّ رعايته، وحفظت فيه حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله، أم انتهكت تلك الحرمة إلى أن قُتل مسموماً لم تُرَع فيه لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا لبضعته آية حرمة؟!

ثمّ والداعي في هذه الحالة القصوى من التفجّع والتألم يسأل عن الإمام الحسين عليه السلام الشهيد بطفوف كربلاء وما جرى عليه، ذلك الذي هزّ أركان العرش، وكشف عن قبيح ما كان يتسترّ أعداء أهل البيت عليهم السلام عنه بالدين، فالإمام الحسين عليه السلام كشف الزيف ومزّق الأقنعة، ولكنّ الدعاء يريد أن يتحدث عمّا جرى على الإمام الحسين عليه السلام من قتل وسبي للحرمة وانتهاك لكلّ مقدّس أمر الناس بصيانتته، ولكنّ هؤلاء تظافروا واجتمعوا على هتكه.

نداء: أين الحسين عليه السلام؟

هو نداء تفيض منه القلوب وجعاً وحنيناً، نداء يتجاوز حدود الزمان والمكان ليصل إلى كلّ قلب يعي معنى التضحية في هداية الناس وإقامة الدين الحقّ، نداء يحمل معه الألم العميق لفقد الإمام الحسين عليه السلام، ويوقظ في الأرواح الشعور بالمسؤولية تجاه مبادئ الدين الذي ضحّى من أجله سيّد الشهداء عليه السلام. ليس هذا السؤال بسؤالٍ عن مكانٍ جسدي، بل هو تساؤل يعصف بالروح عن غياب رمز العدالة والمبدأ، تساؤل ينادي الضمير ليعيد النظر في معنى الحقّ والثبات، الحسين عليه السلام هو تجسيد القيم الإلهية على الأرض، هو الذي أقام الصلاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر حتّى آخر رمق من حياته.

وعندما يُقال: «أَيْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، فإنَّما يُراد البحث عن أثر تلك القِيمِ في واقعنا، يُراد استنهاض الإرادة الإنسانيَّة التي كادت تخبو أمام هيمنة الطغاة. هو نداء يُطلِّقه المؤمن حين يرى الباطل مستشرياً دون مقاومة، حين يشعر أنَّ الأرض التي ارتوت بدماء الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الطاهرة قد ابتعدت عن مقاصده السامية، إِنَّه نداء يُذكِّرنا بأنَّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن غائباً يوماً عن قلوب المؤمنين، بل هو الحاضر الذي يُلهم الأحرار في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يُذكِّرنا بأنَّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمِت، بل هو حيٌّ في كلِّ خطوة نحو إصلاح الأُمَّة وفي كلِّ صوت يصدح بالحقِّ.

«أَيْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» هو تساؤل عن العدالة المهدورة، عن الرحمة التي حملها الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لكلِّ مظلوم، عن الشجاعة التي واجه بها طغيان يزيد. حين ننادي «أَيْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» فإنَّما نبحث عن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في أعماقنا، في مواقفنا اليوميَّة، في تمسُّكنا بالمبادئ التي استشهدَ من أجلها، إِنَّه سؤال يفتح أبواباً من التأمل حول مسؤوليَّتنا تجاه رسالة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، هل نحن حقاً على دربه؟ هل حملنا أمانته كما يليق؟

«أَيْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» نداء يرتفع في كربلاء القلوب، في تلك المساحات التي لا تزال تَحترق بحبِّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وولائه، إِنَّه نداء يُوقظ فينا روح الطفِّ، حيث كان الموقف موقفاً لله تعالى، حيث صرخت الدماء في وجه الظلم والطغيان. «أَيْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» ليس نداءً للغائب، بل هو دعوة إلى الحاضر أن يكون حسينيّاً في فكره وعمله وسيرته.

الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو نور الهداية الذي أضاء في ظلمات الاستبداد، وهو الامتداد الحقيقي للرسالة المحمديَّة، وعندما يُقال: «أَيْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ» فإنَّما يُطلِّب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في المواقف، في الكلمة، في الثبات على الحقِّ مهما عظمت التضحيات، الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو العهد الذي أخذه الله تعالى على كلِّ مؤمن بأنَّ ينصر المظلوم ويقف في وجه الظالم.

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٦٣

«أَيْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام» هو صوت كربلاء الذي لا يزال يهزُّ وجدان الإنسانية، صوت يطالبنا أن لا نكون فقط باكين على مصاب الحسين عليه السلام، بل حاملين لرسالته، عاملين بها، سائرين على خطاه، حيثما كان الظلم هناك يكون النداء «أَيْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام» ليسألنا هل استجبنا لنداء الحق؟ هل كنا على قدر المسؤولية أم أننا تخلينا عن إرث الطفِّ وعهده؟

«أَيْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام» هو دمعة تذرّفها الأرض على مَنْ رفع راية الإصلاح، وصرخة تُطلقها السماء تطلب من المؤمنين أن يكونوا نوراً في عتمة هذا العالم، إنّه السؤال الذي يُعيد للأمة وجدانها الضائع، ويسكب في قلوبها المعاني الخالدة للوفاء والشهادة والصبر والثبات.

«أَيْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام» حينها لا يمتلك أيُّ شارح لهذه الفقرة إلا أن يُجيب: بكرلاء.

* * *

الفقرة الثامنة والعشرون

«صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ، وَصَادِقٌ بَعْدَ صَادِقٍ، أَيْنَ السَّبِيلُ بَعْدَ السَّبِيلِ، أَيْنَ الْخَيْرَةُ بَعْدَ الْخَيْرَةِ، أَيْنَ الشُّمُوسُ الطَّالِعَةُ، أَيْنَ الْأَقْتَارُ الْمُنِيرَةُ، أَيْنَ الْأَنْجُمُ الزَّاهِرَةُ، أَيْنَ أَعْلَامُ الدِّينِ وَقَوَاعِدُ الْعِلْمِ».

البيان الإجمالي للفقرة:

يشير هذا المقطع النبوي المبارك إلى الحالات التي مرّت على أهل البيت عليهم السلام من مأس، فعبّر عنها بتعابير مختلفة، إشارة إلى أنواع من العداء المغلظ من قبل الأمة تجاه مَنْ وصّى بهم النبي ﷺ وجعل مودّتهم أجر رسالته التي أنقذ بها

البشريّة - من حضيض ما كانت تعيشه فكراً وسلوكاً منحرفاً - إلى أسمى نموذج يرتقي إليه البشر في التعايش ونيل الكمال. فرغم هذه الوصية المغلظة قرآنيّاً ونبويّاً في حفظهم واحترامهم وتبجيلهم - لأنّها أجز ما في الأُمّة من نعيم -، ولكن المحزن المؤسف أنّ الإصرار والتعنّت من قِبَل الأُمّة في التناول على أهل البيت عليهم السلام وانتهاك كلّ حرمة لهم، فجاء الدعاء صرخة في نفس القارئ تسأل عن هذه العترة الموصى بها وما حلّ بها.

تسأل عن صفات أفراد هذه العترة، وهل أنّ الذي ينبغي من الأُمّة تجاههم هو التكريم والتبجيل أو السحق والتنكيل؟
فيسأل عن أبناء الإمام الحسين عليه السلام بعد أن تحدّث عمّا جرى عليه عليه السلام بكربلاء.

فالعبرة الواردة والقائلة: «أَيْنَ أَبْنَاءِ الْحُسَيْنِ» تشير إلى الامتداد الطبيعي للنبيّ الأكرم ﷺ، وكأَنَّها تخاطب الضمير الإنساني، بعد أن يئست من ضمير الأُمّة التي انتشلها خاتم الأنبياء والرُّسل ﷺ، وجعلها أرقى الأمم برسالته التي ضحّى بكلّ وجوده من أجل أن يرسيها، فيسأل الدعاء - ليقول للداعي: لا بدّ لك يا من تقرأ هذا الدعاء أن تسأل - عن الامتداد الطبيعي للنبيّ الخاتم ﷺ وما جرى عليهم.

ثمّ يقول الدعاء للقارئ، وسأتلو عليك بعض صفاتهم:
إِنَّ الَّذِينَ أَقْصَوْا وَقُتِلُوا وَانْتَهَكَتْ حُرْمَاتِهِمْ وَتَمَّ التَّجَاوُزُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْتَهَكَ كِرَامَةَ الْإِنْسَانِ، وَيُصَغِّرَ قَدْرَهُ، وَيَحِطُّ مِنْ مَنْزِلَتِهِ، أُنْعَلِمَ أَنَّ هَؤُلَاءَ هُمْ صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ؟!!

وهنا لا بدّ أن ينقدح في ضمير القارئ سؤال مفاده: هل أنّ الصالح يُقدّم ويُحترم أو أنّه يُهان ويُعتدى عليه؟!!

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٦٥

ثم يتلو بقية الصفات ويقدم في ذهن القارئ نفس السؤال: وصادق بعد صادق، أين السبيل بعد السبيل؟

فإذا كان السبيل إلى الله يُنتهك ويُعبَد، فكيف سيكون بعدئذ

الوصول؟!!

ثم يتابع الدعاء تلاوة الصفات الذاتية التي توجب التقديس:
«أَيْنَ الْخَيْرِ بَعْدَ الْخَيْرِ، أَيْنَ الشُّمُوسِ الطَّالِعَةِ، أَيْنَ الْأَقْتَمَارِ الْمُنِيرَةِ، أَيْنَ
الْأَنْجُمِ الزَّاهِرَةِ، أَيْنَ أَعْلَامِ الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْعِلْمِ».

فالدعاء يريد أن يسأل عن أشخاص هذه صفاتهم، أنهم أنجم تزهروا للسائلين، وأعلام تهدي الضالين، وقواعد رصينة ترفع جهل المتعلمين، وأقمار منيرة تنير دروب الحائرين، وضياء وهَّاج طالع لا يغيب، يفتح النوافذ لقلوب العابدين.

أناس هذه صفاتهم، وهذه الأهداف من وجودهم، كان حريٌّ بالأمة التي شاء القدر أن يكونوا بين ظهرائي أفرادها، أن يقام لكل واحدٍ منهم في نفس كل فردٍ من أفراد هذه الأمة شاخص التقديس الذي لا يمكن أن ينحني يوماً أمام أيِّ انحراف وضلال، وصخرة لا تُحرِّكها قواصف وعواصف أهواء الرجال، ولكنَّ الأسف كلُّ الأسف، والحسرة كلُّ الحسرة، أن الأمة التي أريد لها أن تحترم وتُقدِّس أهل البيت عليهم السلام، انتهكت حرمتهم، وداست عليهم، ولم ترعَ فيهم لرسول الله ﷺ أيَّ حقٍّ وإن كان صغيراً.

وفي الروايات - وهي كثيرة - ما يشير إلى تلك المعاني والخصائص التي تضمَّنها المقطع، سيأتي ذكر بعضها في كلِّ مقطع مقطع.

* * *

«صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ».

عبارة تنبض بالتسلسل الإلهي في الإصلاح والهداية، ترمز إلى استمرارية النور الإلهي الذي لا ينقطع في الأرض.

إنَّهَا تُصَوِّرُ الْقِيَمَ وَالرَّسَالَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، اِمْتِدَاداً لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَتَصَدِيقاً لَوَعْدِهِ بِأَنْ يَبْعَثَ فِي كُلِّ زَمَانٍ مَنْ يُقِيمُ مَقَامَ الْحُجَّةِ وَيُقِيمُ أَمْرَ الدِّينِ.

هي تعكس عمق الحكمة الإلهية في تعاقب الصالحين كحماة للرسالة السماوية ومصايح للهداية، فهم ليسوا مجرد أفراد، بل سلسلة متصلة من النفوس الطاهرة المعصومة التي تحمّلت أعباء الرسالة وهموم هداية الناس، وواجهت الظلم والضلال بصدق وصبر.

كُلُّ صَالِحٍ مِنْهُمْ يُسَلِّمُ الرَّايَةَ لِلَّذِي يَلِيهِ، فَيَكُونُ الْاِمْتِدَادَ الطَّبِيعِيَّ لِتِلْكَ الْمَهْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْطَفِئُ شَعْلَتُهَا مَهْمَا اشْتَدَّتْ ظُلُمَاتُ الْجَهْلِ وَالطَّغْيَانِ. فِي كُلِّ «صَالِحٍ بَعْدَ صَالِحٍ» يَتَجَلَّى مَعْنَى الْاِسْتِمْرَارِ الْإِلَهِيِّ فِي حِفْظِ الدِّينِ، مِنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ، وَمِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مُوسَى، وَمِنْ عِيسَى إِلَى مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ)، ثُمَّ إِلَى الْأَوْصِيَاءِ الطَّاهِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِينَ هُمْ أُمَّةٌ الْحَقُّ وَرِعَاةُ الْإِسْلَامِ. هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَحْمِلُ وَعِداً بِالْخُلَاصِ وَتَجَدُّداً دَائِماً لِلْأَمَلِ، حَيْثُ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ بِلَا حُجَّةٍ.

كُلُّ صَالِحٍ فِي هَذِهِ السَّلْسَلَةِ الْإِلَهِيَّةِ هُوَ لَبِنَةٌ فِي بِنَاءِ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ، يُكَمِّلُ مَا بَدَأَهُ الَّذِي قَبْلَهُ، وَيُهَيِّئُ الطَّرِيقَ لِلَّذِي بَعْدَهُ، لِيُظَلَّ الدِّينَ مُحْفُوظاً وَالنُّورَ مَمْتِداً. «صَالِحٌ بَعْدَ صَالِحٍ» لَيْسَتْ مَجْرَدَ كَلِمَاتٍ، بَلْ هِيَ عَهْدٌ إِلَهِيٌّ، وَوَعْدٌ بِحِفْظِ الرَّسَالَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَرِثُ الْأَرْضَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ.

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٦٧

«صَادِقٌ بَعْدَ صَادِقٍ».

هو التعبير الذي ينقل عمق استمرارية النور الإلهي في الأرض، حيث لا يخلو زمان من حاملٍ للحقِّ، صادقٍ في قوله وفعله، يُصدِّق مَنْ قبله، ويُمهِّد لمن يأتي بعده، هذه العبارة ليست مجرد وصفٍ للشخص، بل هي بيانٌ لعقيدة عميقة تتمثل في تسلسل الهداية الربانية، حيث يكون الصدق هو الميزان الذي يتجلى في صفوة خلق الله تعالى الذين اصطفاهم لحمل أمانة الرسالة.

هي عنوان النقاء والاستقامة، الذي يربط بين الأنبياء والأوصياء والأئمة الطاهرين عليهم السلام.

فالصادقون هم الذين جسّدوا رسالة السماء في واقع الأرض، وهم الذين صدّقوا الله تعالى في العهد الذي أخذ منهم يوم أقرّوا بالعبودية المطلقة له، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٢٢)، وامتدّ هذا الصدق إلى مَنْ بعثهم هداةً للخلق، فهم صادقون في الوعد، صادقون في الكلمة، وصادقون في تجسيد الحقِّ.

هذه العبارة تشير أيضاً إلى أنّ الصدق ليس مجرد فضيلة شخصية، بل هو منهج حياة ومسار إلهي يتجلى في الصادقين جيلاً بعد جيل، الإمام الصادق عليه السلام الذي حمل هذا الاسم الشريف كان مثلاً لهذا الامتداد.

هو الشعار الذي يجعل الأمة تتصل بحبل الهداية الإلهي، ويدعوها لتسير على خطى هؤلاء الصادقين الذين لم يُغيروا ولم يُبدّلوا.

* في (تفسير القمي) بسنده عن زُرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «... وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، قال:

«التَّيِّبِينَ» رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، «وَالصَّادِقِينَ» عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «وَالشُّهَدَاءِ» الْحَسَنُ وَالحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، «وَالصَّالِحِينَ» الْأَئِمَّةُ، «وَحَسُنَ أَوْلِيَاكَ رَفِيقًا» ﴿١١٦﴾ «الْقَائِمُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(١).

* وفي (الكافي) بسنده عن بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعِجَلِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» ﴿١١٦﴾ [التوبة: ١١٩]، قَالَ: «إِيَّانَا عَنِّي»^(٢).

* وفي (تفسير العياشي): عَنْ أَبِي حَمَزَةَ الثَّمَالِيِّ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا بَا حَمَزَةَ، إِنَّمَا يَعْبُدُ اللَّهُ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ، فَأَمَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ كَانَتْ يَعْْبُدُ غَيْرَهُ هَكَذَا ضَالًّا»، قُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، وَمَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ؟ قَالَ: «يُصَدِّقُ اللَّهَ وَيُصَدِّقُ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَوَالَاةِ عَلِيٍّ وَالْإِيْتِمَامِ بِهِ، وَيَأْتِمَّةِ أَهْلِي مَنْ بَعْدِهِ، وَالْبِرَاءَةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَكَذَلِكَ عَرَفَانُ اللَّهِ»، قَالَ: قُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، أَيُّ شَيْءٍ إِذَا عَمَلْتَهُ أَنَا اسْتَكْمَلْتُ حَقِيقَةَ الْإِيْمَانِ؟ قَالَ: «تَوَالِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَتُعَادِي أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَتَكُونُ مَعَ الصَّادِقِينَ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ...»^(٣).

* * *

«أَيْنَ السَّبِيلُ بَعْدَ السَّبِيلِ».

هي تعبير عن شوق المؤمن إلى هداة الحق الذين يضيئون الطريق أمام الإنسانية، يسأله قلبٌ ملتحق بفقدانهم، ويُدرك عقله أنهم السبيل الذي لا ضياع معه. السبيل الأوَّل كان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم تبعه سبيل بعد سبيل، حتَّى حُتِمَ بالنبيِّ

(١) تفسير القمِّي (ج ١ / ص ١٤٣).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٢٠٨) باب ما فرض الله ﷻ ورسوله ﷺ من الكون مع الأئمة عَلَيْهِ السَّلَامُ / ح (١).

(٣) تفسير العياشي (ج ٢ / ص ١١٦ / ح ١٥٥).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٦٩

الأعظم محمد صلى الله عليه وآله، وأكملة بأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين حملوا لواء الهداية حتى آخر وصي من الأوصياء عليهم السلام.

وكأنّ الداعي يقول: أين هم من يأخذون بأيدينا لنصل إلى الهداية الحقّة؟ أين الطريق الذي تتوالى خطواته عبر الأنوار القدسيّة، حيث يُورث كل سبيل من سبقه نور الهداية ومعاني الرسالة؟

هو تذكير بأنّ الأرض لا تخلو من حجّة، وأنّ الله جعل لكلّ زمان سبيلاً يواصل رسالة السماء، كما قال عليه السلام: «أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ» (الأنعام: ١٥٣)، وهذا السبيل هو صراط الأنبياء والأئمة الذين جاؤوا ليكونوا علامات الطريق للسائرين.

إنّه تساؤل ينبض بالشوق إلى وليّ الله الأعظم، الإمام الحجّة المنتظر عليه السلام، الذي هو السبيل بعد كل سبيل، والموعود بإقامة العدل ونشر النور الإلهي في أرجاء الأرض.

إنّه نداء الحائرين الذين يُدركون أنّ السبيل ليس فقط درباً يُرى بالعين، بل هو نورٌ يُرى بالبصيرة، وسلامةٌ يُدركها القلب في حضرة هداة الحقّ.

* في (تفسير القمّي) بسنده عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»، قال: «نَحْنُ السَّبِيلُ، فَمَنْ أَبِي فَهَذِهِ السُّبُلُ فَقَدْ كَفَرُوا...»^(١).

* وفيه: عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» [يوسف: ١٠٨]، يعنّي نفسه، ومن تبعه يعنّي عليّ بن أبي طالبٍ وآل محمد عليهم السلام»^(٢).

* * *

(١) تفسير القمّي (ج ١ / ص ٢٢١).

(٢) تفسير القمّي (ج ١ / ص ٣٥٨).

«أَيْنَ الْخَيْرَةِ بَعْدَ الْخَيْرَةِ».

الْخَيْرَةَ لَيْسُوا مَجْرَدَ شَخْصِيَّاتٍ تَارِيخِيَّةٍ، بَلْ هُمْ وَجُودَاتٌ مَعْصُومَةٌ زَكِيَّةٌ تُثَلُّ وَاسْطَةً فَيُضِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْأَرْضِ.

وَالسُّؤَالُ عَنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنِ شَوْقِ الْأُمَّةِ إِلَى الْإِمْتِدَادِ الرُّوحِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا مَصْدَرَ عَزَّتِهَا وَكِرَامَتِهَا، إِنَّهُمْ مِيزَانُ الْحَقِّ.

هَذَا النِّدَاءُ يَحْمِلُ مَعْنَى الْيَقِينِ بِأَنَّ الْخَيْرَةَ لَا يَغِيبُونَ دُونَ أَنْ يَتْرَكُوا أَثَرَهُمْ، فَهَمُ نُورٌ يَمْتَدُّ عَبْرَ الْعُصُورِ، وَكَأَنَّ السُّؤَالَ يُذَكِّرُنَا بِأَنَّنا وَإِنْ افْتَقَدْنَا هُمْ فِي الظَّاهِرِ، إِلَّا أَنَّ أَثَرَهُمْ لَا تَزَالُ مَائِلَةٌ فِي تَعَالِيمِهِمْ وَعَدَالَتِهِمْ، فَهَمُ عَلَيْهِمُ هُمُ الَّذِينَ يُثَبِتُونَ أَنَّ الْعَدْلَ لَا يَمُوتُ، وَأَنَّ الْحَقَّ لَا يُهْزَمُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ حُجَّةٌ تَقِيمُ الدِّينَ وَتَحْمِيهِ.

فَهَذَا السُّؤَالُ يَحْمِلُ بَعْدَ عَقَائِدِيًّا عَمِيقًا حِينَ يَقُودُنَا إِلَى الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي هُوَ آخِرُ الْخَيْرَةِ وَمَوْعُودُ اللَّهِ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، إِنَّهُ لَيْسَ تَسَاوُلًا عَنِ الْغِيَابِ، بَلْ هُوَ تَأَكِيدٌ عَلَى أَنَّ الْغِيَابَ لَنْ يَكُونَ دَائِمًا، وَأَنَّ النُّورَ سَيَعُودُ لِيَمْلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا بَعْدَ أَنْ مُلِئَتْ جَوْرًا.

فَهَذَا النِّدَاءُ لَيْسَ مَجْرَدَ تَعْبِيرٍ عَنِ أَلَمِ الْفَقْدِ، بَلْ هُوَ دَعْوَةٌ لِلتَّمَسُّكِ بِخَطِّ الْخَيْرَةِ، وَالْإِعْدَادِ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَعُودُ فِيهِ آخِرُهُمْ لِيَقِيمَ دَوْلَةَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ.

هُوَ نِدَاءٌ يُشْعِلُ الْأَمَلَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّهم جَزْءٌ مِنْ هَذَا الْخَطِّ الْمُبَارَكِ، وَأَنَّ دَوْرَهُمْ هُوَ الثَّبَاتُ عَلَى الْعَهْدِ حَتَّى يَظْهَرَ مَنْ يُعِيدُ لِلْحَقِّ هَيْبَتَهُ.

* فِي (تَأْوِيلِ الْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ) بِسَنَدِهِ عَنِ الْفُضَيْلِ، عَنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ» [الدخان: ٣٢]، قَالَ: «الْأُمَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»^(١).

(١) تأويل الآيات الظاهرة (ج ٢ / ص ٥٧٤ / ح ٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٧١

* وفي (أمالي المفيد) بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ الثَّعَلِيِّ الْمَوْصِلِيِّ أَبِي نَوْفَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليهما السلام يَقُولُ: «نَحْنُ خَيْرَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَشَيْعَتُنَا خَيْرَةُ اللَّهِ مِنْ أُمَّةٍ نَبِيَّهِ ﷺ»^(١).

* * *

«أَيْنَ الشُّمُوسُ الطَّالِعَةُ، أَيْنَ الْأَقْمَارُ الْمُنِيرَةُ».

عبارة تتأمل في غياب الهداة الإلهيين الذين يُشكّلون المحور الأساس للنظام الربّاني في الكون.

هؤلاء ليسوا مجرد رموز معنويّة، بل هم التجسّد الكامل للهداية الإلهيّة، وأدوات الفيض الإلهي في الحياة البشريّة.

هو تعبير عن الأنوار الكبرى، والقيم المطلقة التي تنبثق من مشكاة النبوة والإمامة.

هؤلاء الشموس ليسوا مجرد أشخاص، بل هم مركز النور الإلهي، يحملون بين جنباتهم الشريعة والرحمة والقيادة المتّصلة بالله تعالى، كالشمس التي تنير كلّ شيء دون تفريق.

وتمثّل الامتداد العملي والواقعي لهذا النور في الحياة، الأقمار تُوضّح لنا كيف يمكن للحقيقة المطلقة أن تنعكس في الظروف المتغيّرة والزمن الممتدّ، فكما أنّ القمر يجعل ضوء الشمس قريباً وممكن الوصول، كذلك يفعل الهداة الذين يجعلون من الحقيقة الإلهيّة واقعاً عملياً يتجلّى في كلّ شيء في العبادة والقيادة وغيرهما.

(١) أمالي المفيد (ص ٣٠٨ / المجلس ٣٦ / ح ٦).

في البعد العقائدي، هذا النداء يشير إلى حقيقة مستمرة: أن الله تعالى لا يترك الأرض بلا حجة، فالغياب الظاهري للإمام المنتظر عليه السلام هو اختبار لبصيرة الإنسان وقدرته على الاستمرار في الطريق رغم الغيوم التي تحجب النور الظاهر. هو نداء لمن يبحث عن الإشراق الذي يُعيد للوجود توازنه، وعن الذين يحملون القدرة على مواجهة الظلام الشامل بالفكر والعلم والبصيرة.

* في (الكافي) بسنده عن سهل، عن محمد، عن أبيه، عن أبي محمد، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝١﴾، قال: «الشَّمْسُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِهِ أَوْضَحَ اللَّهُ عز وجل لِلنَّاسِ دِينَهُمْ»، قال: قُلْتُ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢﴾ قال: «ذَلِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَفَثَهُ بِالْعِلْمِ نَفْثًا»، قال: قُلْتُ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٣﴾، قال: «ذَلِكَ أئِمَّةُ الْجُورِ الَّذِينَ اسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ دُونَ آلِ الرَّسُولِ ﷺ، وَجَلَسُوا مَجْلِسًا كَانَ آلُ الرَّسُولِ أَوْلَىٰ بِهِ مِنْهُمْ، فَغَشُوا دِينَ اللَّهِ بِالظُّلْمِ وَالْجُورِ، فَحَكَى اللَّهُ فِعْلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾»، قال: قُلْتُ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٥﴾، قال: «ذَلِكَ الْإِمَامُ مِنْ ذُرِّيَةِ فَاطِمَةَ عليها السلام، يُسْتَلُّ عَنْ دِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَجْلِيهِ لِمَنْ سَأَلَهُ، فَحَكَى اللَّهُ عز وجل قَوْلَهُ، فَقَالَ: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٦﴾ [الشمس: ١ - ٤]»^(١).

* * *

«أَيْنَ الْأَنْجُمُ الزَّاهِرَةُ».

هذا النداء يُعبّر عن البحث عن تلك النجوم المضيئة في سماء الإنسانية، النجوم التي جعلت رموزاً للهداية، ومصايح تنير للناس طريقهم في عتمة

(١) الكافي (ج ٨ / ص ٥٠ / ح ١٢).

الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار، الكمالات) ٢٧٣
الحياة، هم الأئمة الطاهرون الذين يُمثلون تجلياً حياً للعلم الإلهي والحكمة
الربانية.

هي تُعبر عن جمال الكمال الإنساني الذي يتحقق عندما يصبغ الإنسان
بنور الله تعالى، ويصبح وسيلة للهداية والعطاء.

في البعد العقائدي، سؤال عن غياب هؤلاء الحُجج الذين هم زينة
الأرض وأمانها، مصداقاً للحديث لقول النبي ﷺ: «النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ
السَّمَاءِ، وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي»^(١).

وهم وإن غابوا جسداً، فإن نورهم يبقى في شخص غائبهم عليهم السلام.
هذا النداء يستبطن شوقاً للظهور الموعود للإمام المهدي عجل الله فرجه، الذي هو
نجم الزمان الزاهر، والذي سيعيد للأرض نورها وعدلها.

ومع ذلك، فإن النداء لا يخلو من دعوة ضمنية للمؤمن أن يكون هو
الآخر نجماً زاهراً في مجاله، يُنير من حوله بسلوكه وأفعاله، مقتدياً بهؤلاء الأنجم
الذين كانوا وما زالوا قدوة للبشرية جمعاء.

* في (الكافي) بسنده عن معروفي بن خربوذ، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:
«إِنَّمَا نَحْنُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، كُلَّمَا غَابَ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ حَتَّى إِذَا أَسْرْتُمْ بِأَصَابِعِكُمْ
وَمِلْتُمْ بِأَعْنَاقِكُمْ عَيَّبَ اللَّهُ عَنْكُمْ نَجْمَكُمْ، فَاسْتَوَتْ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَعْرِفْ
أَيُّ مِنْ أَيٍّ، فَإِذَا طَلَعَ نَجْمُكُمْ فَاحْمَدُوا رَبَّكُمْ»^(٢).

* وفي (مناقب آل أبي طالب) بسنده عن أنس، قال: صَلَّى بِنَا رَسُولِ اللَّهِ
صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَلَمَّا انْفَتَلَ مِنَ الصَّلَاةِ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ: «مَعَاشِرَ
النَّاسِ مَنْ انْفَتَدَ الشَّمْسُ فَلَيْسَتْ مَسْكُ بِالْقَمَرِ، وَمَنْ انْفَتَدَ الْقَمَرُ فَلَيْسَتْ مَسْكُ

(١) كمال الدين (ص ٢٠٥ / باب ٢١ / ح ١٨).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٣٣٨ / باب في الغيبة / ح ٨).

بِالزُّهْرَةِ، وَمِنْ اِفْتَقَدَ الزُّهْرَةَ فَلَيْسَتْ مَسْكُ بِالْفَرْقَدَيْنِ»، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَنَا الشَّمْسُ، وَعَلِيُّ الْقَمَرُ، وَفَاطِمَةُ الزُّهْرَةُ، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ الْفَرْقَدَانِ»... عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ: فَإِذَا فَقَدْتُمُ الْفَرْقَدَيْنِ فَتَمَسَّكُوا بِالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَمَّا النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ فَهُمْ الْأُمَّةُ التَّسْعَةُ مِنْ صُلْبِ الْحُسَيْنِ، وَالتَّاسِعُ مَهْدِيهِمْ^(١).

* * *

«أَيْنَ أَعْلَامِ الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْعِلْمِ».

هذا النداء يعكس ألم الفقد وحيرة الأمة أمام غياب أعلام الدين، وحُجَجِ الله الذين جسّدوا جوهر الدين وشيّدوا صروح العلم. هم أولئك الذين جعلهم الله تعالى مناراً للهدى وأدلاءً على الحقِّ، وعلموا الناس كيف يعيشون وفق تعاليم السماء. هؤلاء ليسوا مجرد مفسّرين أو شارحين، بل هم ممثّلو الحقيقة الإلهية بكلِّ تجلّياتها، الذين يستمدّون علمهم من المصدر الأزلي. في البعد العقائدي، هذا النداء يرتبط بحقيقة انتظار الإمام المهدي عليه السلام، الذي هو علم الدين الأكبر وقاعدة العلم الحية، والذي سيعيد للعلم والدين حضورهما الكامل.

هو ليس مجرد تساؤل عن الحضور، بل هو استنهاض لإرادة الأمة بأن تستعدّ لاستقبال مَنْ يعيد للدين مكانته وللعلم إشراقه، ويدعوها للثبات على مَنْ كانوا ولا يزالون أساس استمرار الحقِّ. وبهذا يتمّ الفصل الثاني من هذا الشرح، والله تعالى ولوليه عليه السلام الحمد والمنّة.

* * *

(١) مناقب آل أبي طالب (ج ١ / ص ٢٤٢).

الفصل الثالث:

الندبة للإمام عليه السلام

المبحث الأول:

صفات الإمام عليه السلام في الدعاء وما تفرع

عليها من خصائص وآثار ودلالات

في هذا الفصل وال فقرات التالية منه سنلاحظ أنّ الدعاء المبارك ذكر العديد من الخصائص التي تفرّعت على عدّة صفات، ورَتَّب جملة من الآثار على تلكم الصفات، وتعرّض لها تباعاً في عدّة فقرات، وفي كلّ فقرة سنتناول عدّة مقاطع بحسب البحوث التي تتعرّض لها المفاهيم المذكورة فيها وما يلازمها من مسائل في العقيدة المهدويّة وتفاصيلها.

الفقرة التاسعة والعشرون

«أَيْنَ بَقِيَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنَ الْعِتْرَةِ الْهَادِيَةِ».

في هذه الفقرة يسأل الداعي عن إمكانية الوصول إلى الإمام عليه السلام بعد غيبته، وهل يمكن معرفة مكانه؟

فبعد أن استعرض الدعاء ما وقع على العترة الهادية من مصائب ومحن مرّت عليك من خلال فقرات هذا الدعاء، يتجلّى في لسان الحال الذي يُعبّر عنه الدعاء سؤال عميق نابع من هذه المآسي والفجائع: هل بقي من هذه العترة فرد معصوم موجود؟

وإذا كان الجواب بالإيجاب، فأين هو؟

أليس ممّا قرأناه أنّ وجود فرد من العترة المعصومة هو قرين للقرآن الكريم، لا يفصل عنه ما دامت الدنيا قائمة؟

ولكننا - مع ذلك - لا نشاهد هذه البقية بأعيننا، ممّا يجعل السؤال

بـ (أين) مشروعاً بل ومُلحاً، وإذا كانت بقيّة العترة موجود، ولكنه غائب عن الأنظار، فهل من سبيل للوصول إليه، ونصرته، وتحقيق الغاية المرجوة من وجوده؟

الحديث عن هذه الفقرة يقع في عدّة نقاط:

النقطة الأولى: عدم خلو الأرض من إمام معصوم من أهل البيت عليه السلام:
قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٦).

جاء هذا المفهوم القرآني في إطار قصّة النبي شعيب عليه السلام، قال (عزّ من قائل):
﴿وإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (هود: ٨٤ - ٨٦).

وعن هذا المعنى جاء في (الكافي) بسنده عن عمّار بن زاهر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْقَائِمِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «لَا، ذَلِكَ اسْمٌ سَمَى اللَّهُ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلَا يَتَسَمَّى بِهِ بَعْدَهُ إِلَّا كَافِرٌ»، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، كَيْفَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «يَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] (١).

في شرح المولى المازندراني عليه السلام (الكافي): (قوله: قَالَ: يَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ)، الإضافة في (بَقِيَّةَ اللَّهِ) لامية، كبيت الله وطاعة الله، وبقيّة

(١) الكافي (ج ١ / ص ٤١١ و ٤١٢ / باب نادر / ح ٢).

الشيء: ما بقي منه، والبقية أيضاً: ما يُنتظر وجوده ويُترقب ظهوره من (بقيت الرجل أبقيته) إذا انتظرتَه ورقبته، وإنما سُمِّي الصاحب عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك لأنه بقية الأنبياء والأوصياء السابقين، ويُنتظر وجوده، ويُترقب ظهوره. قوله: (ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾)، أي خليفة الله الباقي، وانتظار ظهوره خير لكم إن كنتم مؤمنين به. وهذا التفسير أحسن مما قيل من أن المراد بقية الله طاعته وانتظار ثوابه والحالة الباقية لكم من الخير أو ما بقي لكم من الحلال^(١).

وهذا الفهم يحمل دلالة عميقة ترتبط بمفهوم بقية الله، وأنه هو خليفة الله الباقي في الأرض، أي ذلك الإمام المعصوم المنتظر عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يُمثل امتداداً للولاية الإلهية، وأن الإيمان به وانتظار ظهوره فيه الخير الحقيقي للناس، بشرط أن يكونوا مؤمنين به وبوظيفته الإلهية.

وهذا الفهم يبرز بصورة أعمق مقارنة بما ذُكر من أن بقية الله تقتصر وتشير إلى طاعته تعالى، أو انتظار ثوابه، أو ما بقي للإنسان من الحلال الطيب، أو حتى الحالة الباقية من الخير في حياة المؤمن، فقط. فهي وإن كانت مفاهيم حق، ولكن القصر عليها لا يُعبّر بشكل كامل عن البعد الخاص المرتبط بالإمام الخليفة الذي يُشكّل صلة الوصل المستمرة بين الأرض والسماء، ووجوده يُعدّ ضماناً لاستمرار الخير والهداية على ما تقدّم في عدة مواضع من هذا الشرح.

ثم الملاحظ أن الإضافة في (بقية) إلى الله تعالى هي على حدّ الإضافات الوجودية الحقيقية، كإضافة الدين إلى الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وإضافة خلق الموجودات إليه، قال تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان: ١١)، فالحجة هو بقية الله تعالى، وقد قضى أن لا تخلو العترة الهادية من بقية ووجود دائم بين الناس،

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني (ج ٧ / ص ٤٨ و ٤٩).

فعندما يقول الداعي: «أَيْنَ بَقِيَّةُ اللَّهِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنَ الْعِثْرَةِ الْهَادِيَةِ» هو يشير إلى الارتباط بين الأرض والسماء الذي جسده الإمام عليه السلام في حديثه مع أحمد بن إسحاق رضي الله عنه.

* في (كمال الدين) بسنده عن أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري، قال: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليهما السلام وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنِ الْخَلْفِ [مِنْ] بَعْدِهِ، فَقَالَ لِي مُبْتَدئًا: «يَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يُخْلِ الْأَرْضَ مِنْذُ خَلَقَ آدَمَ عليه السلام، وَلَا يُخْلِهَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ مِنْ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، بِهِ يَدْفَعُ الْبَلَاءَ عَنِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَبِهِ يُنْزَلُ الْغَيْثُ، وَبِهِ يُخْرَجُ بَرَكَاتُ الْأَرْضِ»، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، فَمَنْ الْإِمَامُ وَالْخَلِيفَةُ بَعْدَكَ؟ فَهَضَّ عليه السلام مُسْرِعًا، فَدَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ خَرَجَ وَعَلَى عَاتِقِهِ غُلَامٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ الْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مِنْ أَبْنَاءِ الثَّلَاثِ سِنِينَ، فَقَالَ: «يَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ، لَوْلَا كَرَامَتُكَ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَعَلَى حُجَجِهِ مَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ ابْنِي هَذَا، إِنَّهُ سَمِيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَنِيَّتُهُ، الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مِلْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا. يَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ، مِثْلُهُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِثْلُ الْخَضِرِ عليه السلام، وَمِثْلُهُ مِثْلُ ذِي الْقَرْنَيْنِ، وَاللَّهُ لَيَغِيْبَنَّ غَيْبَةً لَا يَنْجُو فِيهَا مِنْ الْهَلَكَةِ إِلَّا مَنْ نَبَّهَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْقَوْلِ بِإِمَامَتِهِ، [وَأَوْفَقَهُ] فِيهَا [لِلدُّعَاءِ بِتَعْجِيلِ فَرَجِهِ]»، فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا مَوْلَايَ، فَهَلْ مِنْ عِلْمَةٍ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا قَلْبِي؟ فَتَنَقَّ الْغُلَامُ عليه السلام بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ، فَقَالَ: أَنَا بَقِيَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالْمُنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ، فَلَا تَطْلُبْ أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ يَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ...»^(١).

لقد ذكر أهل البيت عليهم السلام أن الإمام المهدي عليه السلام هو بقية الله للناس من ذرية المصطفى ﷺ المطهرين، فهو بقية الله تعالى في أرضه وخليفته وحجته كما في الخبر. إنَّ قَوْلَهُ: «بَقِيَّةُ اللَّهِ» تُعْبَرُ عَنِ الْغُصْنِ الطَّاهِرِ الْوَحِيدِ الْبَاقِيِ مِنْ تِلْكَ

(١) كمال الدين (ص ٣٨٤ و ٣٨٥ / باب ٣٨ / ح ١).

الشجرة المباركة، الذي يُمثل امتداداً للولاية الإلهية في الأرض. ومن لطيف ما نطقت به الآية الكريمة، والتي سيتحدّث بها إمامنا عند ظهوره المبارك، أنّها تصف هذه البقية الإلهية بأنّها خير لكم أيّها الناس من كلّ شيء آخر.

فهذا الوجود الربّاني هو خير لكم من آبائكم وأمهاتكم، ومن زوجاتكم وأبنائكم، وخير من أموالكم ومناصبكم ومقاماتكم، بل هو خير من كلّ شيء تملكونه أو تطمحون إليه. إنّهُ خير من علم العالم، وخير من صلاة المصلّي، ودعاء الداعي، وخير من قربات كلّ متقرّب، إذ إنّ قيمته لا تُقارن بأيّ قرب أو عمل حين يكون بمعزل عنه وعن قربه.

هذه البقية الإلهية ليست مجرد رمز للخلاص أو الرجاء، بل هي محور الوجود الذي به يتحقّق الخير الأعظم لكلّ البشريّة، وهو خير لا يضاهاه بأيّ جهد بشري أو إنجاز دنيوي، هذا إنّ كنتم من المؤمنين، فإنّ الآية تقول: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفعلاً هو امتحان صعب، فهل تجد في نفسك أنّ الإمام الحجّة ﷺ وبقية الله في أرضه هو خير من كلّ شيء عداه وسواه؟

النقطة الثانية: هل يمكن اللقاء بالإمام ﷺ؟ وأين موطن الإمام ﷺ بعد غيبته؟

من الأسئلة المتجدّدة السؤال عن موضع الإمام الغائب ﷺ، وإمكان الاتصال به والتشرف بحضرته ﷺ.

وقد جاءت الإجابات ومنذ ذلك الزمان على لسان آبائه الطاهرين عليهم السلام وهم يحكون عن غيبته وما سيجري فيها، وعلى لسانه ﷺ أيضاً، أنّ اللقاء به ليس متاحاً بالطريقة التي كانت في زمان آبائه الطاهرين عليهم السلام، وإنّما في دائرة أضيق في زمان غيبته الصغرى، بل وفي أيّامه التي عاشها في كنف والده الإمام

العسكري عليه السلام بحيث لا يراه جميع الناس إلا من تيسر له ذلك عن طريق السفراء أو مباشرة، وأمّا في الغيبة الكبرى فاللقاء به نادر جدًّا، ولا يكون إلا في ضمن شرائط وأسباب وظروف لا نعلم بها، ولا نعلم متى وأين تقع فيقع اللقاء. وهذا ما استُفيد من عمومات ما دلَّ على وقوع الغيبة فيه عليه السلام، وسيأتي بحث عن هذه النقطة في فقرة: «عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَرَى الْخَلْقَ وَلَا تُرَى».

ومن جميل ما ورد في هذا الشأن ما روي عن طلب الزهري اللقاء بالإمام عليه السلام، وقد أنفق في سبيل هذا الأمر مالا عظيماً، ففي (الغيبة للطوسي):
عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: طَلَبْتُ هَذَا الْأَمْرَ طَلَبًا شَاقًّا حَتَّى ذَهَبَ لِي فِيهِ مَالٌ صَالِحٌ، فَوَقَعْتُ إِلَى الْعَمْرِيِّ وَخَدَمْتُهُ وَكَزَمْتُهُ وَسَأَلْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ صَاحِبِ الزَّمَانِ عليه السلام، فَقَالَ لِي: لَيْسَ إِلَيَّ ذَلِكَ وَصَوْلٌ، فَخَضَعْتُ، فَقَالَ لِي: بَكَرَ بِالْغَدَاةِ، فَوَافَيْتُ، فَاسْتَقْبَلَنِي وَمَعَهُ شَابٌّ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجَهًّا، وَأَطْيَبِهِمْ رَائِحَةً بَهِيَاةَ التُّجَارِ، وَفِي كُمِّهِ شَيْءٌ كَهَيَاةِ التُّجَارِ، فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ دَنَوْتُ مِنَ الْعَمْرِيِّ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ، فَعَدَلْتُ إِلَيْهِ، وَسَأَلْتُهُ فَأَجَابَنِي عَنْ كُلِّ مَا أَرَدْتُ، ثُمَّ مَرَّ لِيَدْخُلَ الدَّارَ - وَكَانَتْ مِنَ الدُّورِ الَّتِي لَا يَكْتَرُثُ لَهَا -، فَقَالَ الْعَمْرِيُّ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْأَلَ سَلِّ فَإِنَّكَ لَا تَرَاهُ بَعْدَ ذَا، فَذَهَبْتُ لِأَسْأَلَ فَلَمْ يَسْمَعْ وَدَخَلَ الدَّارَ، وَمَا كَلَّمَنِي بِأَكْثَرٍ مِنْ أَنْ قَالَ: «مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ أَخَّرَ الْعِشَاءَ إِلَى أَنْ تَشْتَبِكَ النُّجُومُ، مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ أَخَّرَ الْغَدَاةَ إِلَى أَنْ تَنْقُضِيَ النُّجُومُ»، وَدَخَلَ الدَّارَ^(١).

إنَّ ممَّا يُكْدِرُ الْخَاطِرَ وَيُجْزِنُ الْمُؤْمِنَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِمَامِ عليه السلام مَوْطِنٌ يَسْتَقِرُّ فِيهِ وَيَكُونُ عِلْمًا عَلَى وَجُودِهِ وَيُقَصَّدُ إِلَيْهِ، فَالْغَيْبَةُ مَنَعَتْ تَحْدِيدَ مَكَانٍ مَعَيَّنٍ ثَابِتٍ، وَإِنْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ رَضَوَى عَلَى مَا سِيَّاتِي فِي فِقْرَةٍ: «أَبْرَضَوَى أَوْ غَيْرَهَا أَمْ ذِي طُوَى».

(١) الغيبة للطوسي (ص ٢٧١ / ح ٢٣٦).

* في (الكافي) بسنده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْبَةٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي غَيْبَتِهِ مِنْ عَزْلَةٍ، وَنَعْمَ الْمَنْزِلُ طَيِّبَةً، وَمَا بِثَلَاثِينَ مِنْ وَحْشَةٍ»^(١).

* وفي (المزار) بسنده عن أبي عبد الله أحمد بن إبراهيم، قال: شَكَوْتُ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَانَ شَوْقِي إِلَى رُؤْيَةِ مَوْلَانَا عليه السلام، فَقَالَ لِي: (مَعَ الشَّوْقِ تَشْتَهِي أَنْ تَرَاهُ؟)، فَقُلْتُ لَهُ: نَعَمْ، فَقَالَ لِي: (شَكَرَ اللَّهُ لَكَ شَوْقَكَ، وَأَرَاكَ وَجْهَكَ فِي يُسْرٍ وَعَافِيَةٍ، لَا تَلْتَمِسُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنْ تَرَاهُ، فَإِنَّ أَيَّامَ الْغَيْبَةِ تَشْتَاقُ إِلَيْهِ، وَلَا تَسْأَلُ الْاجْتِمَاعَ مَعَهُ إِثْمًا عَزَائِمُ اللَّهِ وَالتَّسْلِيمُ لَهَا أَوْلَى، وَلَكِنْ تَوَجَّهْ إِلَيْهِ بِالزِّيَارَةِ...)^(٢).

* * *

الفقرة الثلاثون

«أَيْنَ الْمَعْدُّ لِقَطْعِ دَابِرِ الظُّلْمَةِ، أَيْنَ الْمُتَطَرُّ لِإِقَامَةِ الْأُمَّتِ
وَالْعُوجِ، أَيْنَ الْمُرْتَحِي لِإِزَالَةِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ، أَيْنَ الْمُدَّخِرُ
لِتَجْدِيدِ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ، أَيْنَ الْمُتَخَيِّرُ لِإِعَادَةِ الْمِلَّةِ
وَالشَّرِيعَةِ، أَيْنَ الْمُؤَمِّلُ لِإِحْيَاءِ الْكِتَابِ وَحُدُودِهِ، أَيْنَ مُحِبِّي
مَعَالِمِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ، أَيْنَ قَاصِمُ شَوْكَةِ الْمُعْتَدِينَ، أَيْنَ هَادِمُ أْبْنِيَةِ
الشَّرِكِ وَالنَّفَاقِ، أَيْنَ مُبِيدُ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ،
أَيْنَ حَاصِدُ فُرُوعِ الْغِيِّ وَالشَّقَاقِ (النَّفَاقِ)، أَيْنَ طَامِسُ آثَارِ

(١) الكافي (ج ١ / ص ٣٤٠ / باب في الغيبة / ح ١٦).

(٢) المزار لابن المشهدي (ص ٥٨٥).

الرِّبِّيعِ وَالْأَهْوَاءِ، أَيْنَ قَاطِعُ حَبَائِلِ الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ، أَيْنَ
مُبِيدُ الْعُتَاةِ وَالْمَرَدَّةِ، أَيْنَ مُسْتَأْصِلُ أَهْلِ الْعِنَادِ وَالتَّضْلِيلِ
وَالْإِلْحَادِ».

هذه الفقرة من الدعاء المبارك بمقاطعها المتعددة تتحدث عن عدة صفات
تشارك جميعها في غاية واحدة، وهي إماتة الظلم والجور وإقامة العدل والدين،
وهذه الصفات المذكورة في هذه الفقرة من بين أبرز صفات الإمام عليه السلام،
وخصائصه الكثيرة، كصفة المنتظر المعد، والمرتجى المؤمل، والمبيد والحاصد،
والطامس القاطع، والمستأصل للظلم والجور والعدوان، والمتخير لإقامة الأمت
والعوج في الأمة والإنسانية جمعاء، والمدخر لإعادة الملة والشريعة ومعالم الدين
كما كانت، وغير ذلك مما تحدثت عنه الفقرة، والداعي ومع كل فقرة يتلوها يسأل
عن مكان إمامه عليه السلام وأين هو؟
وأتى له بمعرفة مكانه!

المعدُّ لقطع دابر الظلمة:

الإمام المهدي عليه السلام في عقيدتنا هو الذي أعدته السماء لاستئصال جذور
الظلمة، وامتى ما استأصلت جذورهم سيستأصل الظلم ويُطهّر الأرض من كل
جور، وإذا أُزيل الجور والظلم عن الأرض سعدَ الناس، وهنت المعيشة، إذ إنَّ
الهدف الأسمى من بعث الأنبياء عليهم السلام هو إرساء العدل ورفع الظلم وتطهير
الأرض منه، لتفتح فُرص الإقبال على الله سبحانه وتعالى وعبادته دون رادع أو
مانع، من ظلم ظالم أو جور جائر.

وقد صرّح المقطع عن أن الإمام المهدي عليه السلام قد أعدَّ إعداداً إلهياً بمقتضى
الحديث عن أوصافه وما يترتب عليها من آثار والتي يُرْتَلُّها الداعي لهذا الدعاء،

فكون الإمام المهدي ﷺ - بحسب الفقرات المتقدمة - هو ابن الحُجَج والبراهين، وابن الصراط المستقيم، وأنه السراج المنير، وابن المطهرين والهداة المهديين، يقتضي أنه بقیة الله في أرضه، لأنه هو الخاتم من الأوصياء، ولا بد من بقاء بقيتهم، على ما مرَّ آنفاً.

كل هذه الصفات وغيرها تُؤكِّد لنا أن الإعداد في الإمام المهدي ﷺ هو إعداد إلهي على كل المستويات، العقائدية والفكرية والسلوكية والإدارية والاقتصادية وكل زاوية ومنحى من مناحي الإعداد.

فالإمام ﷺ نور الله تعالى في الأرض الذي أعدته السماء لمهمة إلهية. هذا ما يريد أن يتحدث عنه هذا المقطع، فيقول: أيها الناس، يا من تقرأون هذا الدعاء، اعلموا أن إمامكم الغائب قد أعدته السماء وهيئته بتهيئة وإعداد خاص لمهمته الكبرى ليقطع دابر الظلمة.

فإذا كانت السماء تُخبر أتباعها عن رجل الغيب الموعود وتقول لهم: أعددنا لكم إمامكم إعداداً خاصاً وادخرناه لمهمة مقدسة، فالسؤال المنطقي: ما هي الوظيفة تجاه هذا الرجل الإلهي؟

الجواب: أن وظيفتكم تجاه إمامكم ﷺ انتظاره في غيبته، ونصرته الدائمة وعند ظهوره ليقوم بأداء مهمته، فيقطع عنكم دابر الظلمة ولا يُبقي لهم من وجود يُذكر، وسيأتي الحديث عن نصرته في غيبته وعند ظهوره في معرض الحديث عن فقرة «بِأبي أَنْتَ وَأُمِّي وَنَفْسِي لَكَ الْوَقَاءُ وَالْحِمَى».

الدعاء يقول: أيها الناس، إن هذا الرجل المعدّ إعداداً إلهياً ليس فقط سيحارب الظلمة، وإنما يتعقبهم ليستأصل جذورهم، فيقطع دابرهم، وقد ورد في روايات كثيرة تتحدث عن كون الإمام المهدي ﷺ هو المعدُّ لهذه المهمة المقدسة، ومن تلك الأخبار ما ورد عن النبي ﷺ: «... أَلَا إِنَّ خَاتِمَ الْأَيْمَةِ مِنَّا

أَلْقَائِمُ الْمَهْدِيِّ، أَلَا إِنَّهُ الظَّاهِرُ عَلَى الدِّينِ، أَلَا إِنَّهُ الْمُتَّقِمُ مِنَ الظَّالِمِينَ، أَلَا إِنَّهُ فَاتِحُ
الْحُصُونِ وَهَادِمُهَا، أَلَا إِنَّهُ فَاتِحُ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَ الشَّرِكِ، أَلَا إِنَّهُ مُدْرِكُ بِكُلِّ نَارٍ
لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ ﷺ...»^(١).

هل الإمام آلة للقتل والحرب؟

إن قلت: على هذا فإنكم تُصوِّرون الامام ﷺ آلة للقتل والحرب، وهذا
ما يقوله الأعداء، وما يوجب تنفير الناس من قضيتته وعدم تقبلها على هذا
التصوير^(٢).

قلت:

١ - من المعلوم أن أول ما يقوم به عند ظهوره إقامة الحجّة الواضحة،
حيث سيخطب في الناس وفي أقدس بقعة عند المسلمين، ولكن مع ذلك يقوم
هؤلاء بسفك الدماء في هذا المكان المقدّس، فإذا عساه يفعل مع أناس لا
يخضعون لميزان من عقل أو حكمة، ولا يتمسكون بمنهج يتم من خلاله
التحاور معهم؟ فإمّا أن يتركهم يفعلون ما يجلو لهم دون رادع، أو يقاتلهم بعد
فشل محاولات الحوار معهم، كلُّ منصفٍ يختار الثاني.

٢ - أن حدود الحرب وعدد القتلى مقارنةً مع فتح العالم كله إذا ما تمّ
قياسه لأيّ حرب سابقة عليه من حيث قصر الفترة الزمنية التي لا تتجاوز
الأشهر المعدودة ومن حيث عدد القتلى، فإنّه قياس مع الفارق جدًّا، فمن المعيب
ذكر هذه الإشكاليّة مع ما سينتج عنها، ولكن مجازاةً لعقول هؤلاء نقول ذلك.

٣ - يحقُّ لنا أن نسأل أصحاب هذا القول: ماذا سيفعل المنقذ والمخلص

(١) روضة الواعظين (ص ٩٧).

(٢) راجع: أصول مذهب الشيعة الإمامية (ج ٢ / ص ٨٧٥ / بحث سيرة القائم المنتظر).

الذي ينتظرون حسب زعمهم مع المعاندين له؟ فليراجعوا ما في مصادرهم وما يُنقل بهذا الصدد قبل التكلّم بدون معرفة، إنّ نصوصهم تتحدّث عن أضعاف مضاعفة - إن قُبلت - في ما يقوم به.

في الحقيقة إنّ هذه الشُّبهات ما هي إلاّ محاولات للتغطية والتشويه في ذات الوقت.

حالة الانتقام في روايات الظهور لا تنسجم مع العدل الإلهي:

إن قلت: إنّ ما يقوم به الإمام ﷺ حالة انتقام، لا ينسجم مع منظومة العدل التي نقرأها في الآيات والروايات، فقد يقال: إنّ في بعض الروايات أنّ الدماء والقتل كثير حتى قيل عنه على لسان بعض المنحرفين: إنه آلة للقتل، وأنّ همّة القتل والأخذ بالثأر.

قلت: إنّ وصف فعل الإمام ﷺ بالعدوان المحض ومن دون مبرّر هذا من المغالطة، إذ إنّ فعله ﷺ ليس حالة انتقام غير مبرّر، وإنّما هو استرجاع حقّ مسلوب للمستضعفين على طول خطّ الزمان، وهو نوع من أنواع تطبيق القانون بحقّ المتجاوزين.

هو قصاص قانوني ولغة دينية للمطالبة بالحقوق المسلوقة، حاله حال ما تقوم به أيّ دولة من الدول في الدفاع ضدّ الانتهاك الذي يداهم هذه الدولة أو تلك وتُراق من أجل ذلك الدماء، فمع ذلك لا يُعدّ عند أحد نقصاً أو عيباً.

ثمّ إنّ العدل هو وضع الشيء في موضعه، والقصاص من أجلّ مفاهيم العدل - على ما يأتي مفصّلاً في الأخذ بالثأر، وأنّه ثقافة إنسانية ودينية وقانونية - ولا تغيب عن أذهاننا صورة الميزان الذي يُوَضَع خلف القضاة في جميع المحاكم العالمية مع أنّهم يحكمون على المتّهمين بأقسى أنواع العقوبات، فهل سمعنا أحداً قال: إنّهم ظلمة ومنتقمون، وما يقومون به لا ينسجم مع منظومة العدل؟!!

هذا، وجميع الإلهيين يعتقدون أن الله تعالى خلق الجنة والنار، وجعل النار داراً يعاقب فيها الظلمة والمفسدين، فهل - والعياذ بالله تعالى - يقال: إن هذا ظلم ولا ينسجم مع منظومة العدل ومقولة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، إن هذا لا ينبغي أن يصدر من شخص يحترم عقله وفكره. هذه في الحقيقة ليست إشكالية، وإنما تهمة، نشأت من عدم الفهم للمفاهيم وحالة خلط بينها.

هل يهاجم الدعاء العرب؟

قد يقال: إن الدعاء يُوجّه سهامه صوب فئة معينة، وكأنه يهاجم العرب بالخصوص، حتى قيل: (... ولم يكتفِ منتظرهم بهذا، بل إنه يقوم بقتل عامٍّ شاملٍ للجنس العربي واستئصال وجوده، ولذلك فإن أخبارهم تعد العرب بملحمة على يد غائبهم...، ما بقي بيننا وبين العرب إلا الذبح...، ولا يخفى أن تخصيص العرب بالقتل يدلُّ على تغلغل الاتجاه الشعبي لدى واضعي هذه الروايات، وهي تُبين مدى العداوة للجنس العربي لدى مؤسسي الرفض والرغبة في التشفي منهم...^(١).

ولكننا نقول:

- ١ - المتحدّث بهذه الشبهة والتهمة من المسلمين - بحسب الظاهر - والقرآن يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، فالولاء الوحيد الثابت في ضمن المتغيّرات هو الولاء العقائدي التقوي، والتخندق وراء القومية مخالف لأصول المبادئ الإسلامية، وإذا تزاحم الولاء القومي مع الديني، فالتعاليم الدينية تُقدّم الثاني على الأول بلا تردّد.
- ٢ - ممّا لا شكّ فيه أنّ الحجّة المهدى ﷺ عربي، وأنّ جملة من قادة جيشه

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية (ج ٢ / ص ٨٧٦ و ٨٧٧).

وجنوده من العرب، وفي رواياتنا ما يشير إلى أن بعضاً من خُصص قاداته هم من العرب، كاليمني وشعيب بن صالح التميمي وغيرهما.

٣ - أن الإمام المهدي ﷺ عندما يخرج يقتفي أثر رسول الله ﷺ، وإذا رجعنا إلى طريقة النبي الأكرم ﷺ في تعامله مع الأعداء فإننا نجد أن أكثر حروبه كانت مع قريش ومع العرب بعد عصيانهم وجحودهم، فهل يصح أن يذم النبي الأكرم ﷺ؟

٤ - ما هو حال العرب عند ظهور الإمام ﷺ في روايات من يستشكل على عقيدتنا في مهدي آل محمد ﷺ؟

حال العرب في لسان روايات المستقبل عند السُّنة:

- أ - في (صحيح البخاري): «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ»^(١).
- ب - في (مسند أحمد): «يُبَايِعُ لِرَجُلٍ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ، فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ فَلَا تَسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ»^(٢).
- ج - في (صحيح مسلم): ... يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «هُمْ قَلِيلٌ»^(٣).

في نصوص أخرى تتحدث عن هروبهم وتركهم لمكة والمدينة، وذهابهم لبيت المقدس، وما عساهم يفعلون هناك؟ ولم تُهجر مكة والمدينة التي جعلها النبي الأكرم ﷺ آمنة من الفتن حتى فتنة الدجال حسب زعمهم؟

* * *

(١) صحيح البخاري (ج ١١ / ص ١٠ / باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شرٍ قد اقترب».

(٢) مسند أحمد (ج ١٣ / ص ٤٧٤ / ح ٨١١٤).

(٣) صحيح مسلم (ج ٨ / ص ٢٠٧).

«أَيْنَ الْمُنْتَظَرُ لِإِقَامَةِ الْأَمْتِ وَالْعَوَجِ».

وجود الحجّة المنتظر عليه السلام إنّما هو لتصحيح دين الله تعالى بعد انحرافه واعوجاجه، وهو الذي يرجوه الناس ويرجون ظهوره لأجل أن يزِيل عنهم الجور والعدوان الذي وقع عليهم من أعداء الدّين، فهو عليه السلام الذي ينتظره كلُّ مظلوم، وكلُّ إنسان مؤمن فهو على موعد حتمي ويطرّق فيه مجيء إمامه عليه السلام ليعود عليه بالخير والبركة، وهو لا يعلم متى يجيء، ولأجل عدم علمه بوقت قدومه الحتمي سيكون انتظاره وتوقُّع مجيئه دائماً، ومن ثمَّ فإنَّ هذا الإنسان المؤمن لا يملُّ من هذا الانتظار أو ييأس منه، لأنَّه على يقين بأنَّ الموعود سيأتي، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ٩)، وأنَّ هذا الإمام المنتظر سوف يقضي حاجته ويرفع كربته.

انتظار خروجه عليه السلام صباحاً ومساءً:

على الإنسان المؤمن بالحجّة بن الحسن عليه السلام أن يكون انتظاره لإمامه عليه السلام في كلِّ وقت وحين، وقد دلَّت الروايات والأدعية على ذلك، ومما روي في هذا المعنى:

* (الغيبة للنعماني) بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورِ الصَّيْقَلِ، عَنْ أَبِيهِ مَنْصُورٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِذَا أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ يَوْمًا لَا تَرَى فِيهِ إِمَامًا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ فَاحْبِبْ مَنْ كُنْتَ تُحِبُّ، وَأَبْغِضْ مَنْ كُنْتَ تُبْغِضُ، وَوَالِ مَنْ كُنْتَ تُوَالِي، وَانْتَظِرِ الْفَرَجَ صَبَاحًا وَمَسَاءً»^(١).

وعدم رؤية الإمام وكونه عليه السلام في غيبته لا يلغي الانتظار له، بل هو الموجب له والمحقّق، والانتظار ليس هو بمعنى عدم الفعل، كيف ذاك وقد عبّرت عنه روايات أخرى بأنَّه عمل، بل وأفضل الأعمال؟

(١) الغيبة للنعماني (ص ١٦١ / باب ١٠ / فصل ٢ / ح ٣).

إنَّ ما ينبغي علينا الابتداء به في نهارنا هو ما ينبغي علينا الانتهاء به - التصحيح بذكره والتمسية بذكره عليه السلام -، فسلامنا وارتباطنا مع الإمام عليه السلام في الابتداء لا بدَّ أن يستمرَّ إلى الانتهاء، بل عندما يغشى الليل إلى أن يتجلى النهار ثانيةً. هكذا ينبغي أن يكون انتظارنا حيويًا ومتجسِّدًا، وكأنَّ الإمام عليه السلام ماثلٌ أمامنا ونُجسِّد ارتباطنا به في كلِّ حالة وفعل وزمان وفكرة وغيرها.

آثار تسجلها الروايات الشريفة للمنتظر والانتظار:

وإذا أردنا التُّبُّع روائياً في الانتظار والمنتظر - من آثار تكوينية واعتبارية نلاحظ أنَّها نزلت المنتظر - للإمام الغائب عليه السلام - منزلة سامية، حيث وصفته بالعديد من الأوصاف، منها:

ما ورد في رواية طويلة عن الإمام زين العابدين عليه السلام حيث جاء فيها: «... إنَّ أَهْلَ زَمَانٍ غَيَّبَتْهُ الْقَائِلِينَ بِإِمَامَتِهِ وَالْمُنْتَظِرِينَ لِظُهُورِهِ أَفْضَلُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْطَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا صَارَتْ بِهِ الْعَيْبَةُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمَشَاهِدَةِ، وَجَعَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِينَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ، أُولَئِكَ الْمُخْلِصُونَ حَقًّا، وَشِيعَتُنَا صِدْقًا، وَالِدُّعَاءُ إِلَى دِينِ اللَّهِ ﷻ سِرًّا وَجَهْرًا...»^(١).

والرواية تفيد:

١ - أنَّهم أفضل أهل كلِّ زمان، وهو بُعد نفسي إيجابي كبير كما هو بُعد

فكري وعقائدي.

٢ - أعطاهم الله تعالى العقول التي ترى الغيب شهادةً.

٣ - أعطاهم الله تعالى الأفهام والمعرفة التي بها يثبتون على هذه العقيدة،

وصارت الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة.

(١) لقراءة الحديث وهو من روائع الأحاديث، راجع: كمال الدين (ص ٣١٩ و ٣٢٠ / باب ٣١ / ح ٢).

٤ - هم بمنزلة المجاهدين بالسيف بين يدي رسول الله ﷺ، فهم مجاهدون حقاً بانتظارهم.

٥ - وهم المخلصون حقاً، وهذا تنزيل عقائدي في أعلى مراتب الصفات الكمالية التي يسعى من أجلها المؤمن.

٦ - وهم شيعتنا صدقاً، وهذا التنزيل ممّا لا يضاهيه شيء لمن يقرأ الروايات التي تتحدّث عن صفات الشيعة.

٧ - وهم الدعوة إلى دين الله تعالى سرّاً وجهراً، فهم منزّلون منزلة أعظم وظيفه على الإطلاق: الدعوة إلى الله تعالى.

٨ - وفي نفس المصدر نجد أنّ الإمام الصادق عليه السلام يصفهم بأنهم: «... أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يخزنون»^(١).

وفي روايات أخرى تصف انتظارهم بالعبادة وأنه أفضلها، بل أحب الأعمال إلى الله ﷻ، فهي في ذات الوقت الذي نزلته منزلة العمل العبادي جعلته أفضل العبادات وأحبّها إلى الله ﷻ، ومن روايات هذه الطائفة:

١ - عن رسول الله ﷺ: «... انْتَظَرُ الْفَرَجَ عِبَادَةً»^(٢).

٢ - وعنه ﷺ أيضاً: «انْتَظَرُ الْفَرَجَ بِالصَّبْرِ عِبَادَةً»^(٣)، وهو قد يُفهم منه التقييد بالصبر، ويمكن القول: إنّه يتحدّث عن رُتَب مختلفة لعبادة الانتظار، ولكل رتبة منها مقتضياتها.

٣ - وعنه ﷺ أيضاً: «أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي انْتَظَرُ الْفَرَجَ مِنْ اللَّهِ ﷻ»^(٤)،

(١) كمال الدين (ص ٣٥٧ / باب ٣٣ / ح ٥٤).

(٢) أمالي الطوسي (ص ٤٠٥ / ح ٩٠٧ / ٥٥).

(٣) الدعوات للراوندي (ص ٤١ / ح ١٠١).

(٤) كمال الدين (ص ٦٤٤ / باب ٥٥ / ح ٣).

وهي تتحدث عن كون الانتظار أفضل الأعمال الواقعة والصادرة من أمة النبي ﷺ، سواء كان عبادياً أم لم يكن.

٤ - وعن أمير المؤمنين ع، عن رسول الله ﷺ، قال: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ إِنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(١).

٥ - وروي عن الإمام موسى بن جعفر، عن أمير المؤمنين ع، أنه سُئِلَ: «أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: إِنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(٢).

وقد أُطلق لفظ (أفضل العبادة) متعلقاً بأشياء كثيرة، منها:

«أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ إِنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(٣)، كما ورد هكذا «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الصَّبْرُ وَالصَّمْتُ وَإِنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(٤)، وورد في نص آخر: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ شَيْئَانِ: الصَّبْرُ وَإِنْتِظَارُ الْفَرَجِ»^(٥).

وكيف ما كان فلا يضُرُّ أن يكون للعبادة موارد عديدة هي أفضل من غيرها مع فضل الموارد الأخرى.

حقيقة التنزيل للانتظار:

عندما تقول الروايات: إن الانتظار عبادة، فهل هذا تنزيل حقيقي أو ادعائي؟ وبلحاظ أي أثر من آثار العبادة يريد الشارع المقدس أن يُنزل الانتظار؟ تقدمت عدة طوائف من الروايات نزلت الانتظار منزلة الفرج، وأن المنتظرين كالمجاهدين، وأتَمَّ أولياء الله تعالى حقاً وغيرها. وكلامنا في التنزيل

(١) كمال الدين (ص ٢٨٧ / باب ٢٥ / ح ٦).

(٢) معاني الأخبار (ص ١٩٩ / باب معنى الغايات / ح ٤).

(٣) مُحْفَ الْعُقُول (ص ٤٠٣).

(٤) مُحْفَ الْعُقُول (ص ٢٠١).

(٥) معدن الجواهر (ص ٢٦).

ليس مع تلك العناوين مع ما لها من الأهمية، إنما مع التنزيل بلحاظ العبادة والعمل، فالانتظار في نظر الروايات عمل، بل أحب الأعمال، وعبادة، بل أفضلها - أو من أفاضلها -.

كيف يتحقق الانتظار؟

بعد ما تقدم من معنى الانتظار يتبين أن له عدة مراتب تحدثت الروايات عن أسماها، فعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال ذات يوم: «ألا أخبركم بما لا يقبل الله تعالى من العباد عملاً إلا به؟»، فقلت: بلى، فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده [ورسوله]، والإقرار بما أمر الله، والولاية لنا، والبراءة من أعدائنا - يعني الأئمة خاصة^(١) -، والتسليم لهم، والورع والاجتهاد والطمأنينة، والانتظار للقائم عليه السلام»، ثم قال: «إن لنا دولة يجيء الله بها إذا شاء»، ثم قال: «من سره أن يكون من أصحاب القائم فليتنظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه، فجدوا وانتظروا، هنيئاً لكم أيها العصاة المرحومة^(٢)».

فلاحظ أن الحديث أكد على أن بعضاً مما لا يقبل الله تعالى العمل إلا به هو الانتظار، وقد ذكرت موارد تحقيقه صريحة.

فهناك فرق كبير بين شخص ينتظر الإمام عليه السلام ويرقب حضوره ولكنه لا يعمل عملاً يعجل ويسهل ويسرع في حضور من يترقبه، وشخص آخر يقوم بعمل أو عملين أو بعض الأعمال التي من شأنها أن تسرع في فرج ومجيء من ينتظر، بينما هناك شخص ثالث يعمل بكل وسعه، بل وفي بعض الأحيان يهدر

(١) يبدو أن هذا إدراج من الراوي.

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٠٧ / باب ١١ / ح ١٦).

وقت راحته ومطعمه وأنسه، وحتى ماله ونفسه في سبيل أن يتعجل فرج الغائب المنتظر، وبين الحد الأول والثاني في الانتظار مراتب كثيرة جداً، وكل واحدة منها لها أجرها وفضلها وثوابها، بل ولها آثارها المقرّبة من الإمام ﷺ.

والقرب من الإمام ﷺ له مراتب كثيرة أيضاً، نظير ما كان القرب من أمير المؤمنين وبقية الأئمة عليهم السلام من أصحابهم، فلكل واحد مرتبة ومقامه، ونشوء ذلك كله بسبب ما يقوم به من أعمال تُقربه إلى الإمام ﷺ، ففرق بين مَنْ يسمع بالانتظار، وبين شخص رهن كل وجوده وبذل ما عنده وهو على حالة التلهّف والترقب للإمام ﷺ في سبيل أن يمن الله سبحانه عليه، وأن يكون سبباً في تعجيل ظهور صاحب العصر والزمان ﷺ.

من هنا جاء قول رسول الله ﷺ المتقدّم: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَنْتَظَرُ الْفَرَجِ»^(١). وهذه العبادة كما في الصلاة حيث يختلف المصلون وتختلف صلاة كل واحد منهم، فكذلك الانتظار.

أمّا إذا لاحظنا الدعاء المبارك، وكيف يجعل خطاب المنتظر لإمامه ﷺ سائلاً عنه، وعين الداعي لا يكاد يستقرّ فيها الدمع، وهي تخاطبه ﷺ: «أَيْنَ الْمُنتَظَرُ لِإِقَامَةِ الْأَمْتِ وَالْعَوَجِ»، فالدعاء لم يذكر المنتظر ﷺ بمعزل عن تلك الوظيفة الشريفة التي سيقوم بها ويهارس من خلالها تثبيت العدل وفسح المجال أمام المؤمنين لأداء شعائر الدين وممارستها. فانتظار لهكذا شخص حريٌّ به أن يكون كما قال الإمام الكاظم عليه السلام: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ أَنْتَظَرُ الْفَرَجِ»^(٢). فلا صلاة نفل ولا زكاة وصدقة ولا صيام مستحب ولا نوافل ولا ولا، أفضل من عبادة الانتظار.

(١) كمال الدين (ص ٢٨٧ / باب ٢٥ / ح ٦).

(٢) تحف العقول (ص ٤٠٣).

مقام المنتظرين:

- وقد ذكرنا في بحث مستقل^(١) عدّة مقامات للمتظرين، منها:
- * رفقاء الرسول ﷺ: وقد دلّت عليه بعض الروايات ذكرناها هناك وكذلك ما يأتي بعده، وهكذا.
 - * الشهداء قبل الظهور.
 - * بمنزلة مَنْ كان في فسطاط رسول الله ﷺ.
 - * المجاهدون بين يدي رسول الله ﷺ.
 - * النية تقوم مقام الإصلاّت بالسيف، وهي من درجات الانتظار:
- في (نهج البلاغة): «الزُّمُوا الْأَرْضَ، وَأَصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ، وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى الْأَسْتَكْمِ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ الْنِيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاتِهِ لِسَيْفِهِ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلاً»^(٢).
- * مضاعفة الأعمال مرتبة من المراتب.
 - * نفس الانتظار فرج.
 - * القول بالنصرة نصره.
 - * الدعاء من مراتب الانتظار.
 - * العمل بالورع ومحاسن الأخلاق من درجات الانتظار وتُصيّر صاحبها من أنصار الإمام ﷺ.

(١) مجلّة الموعود (العدد ١٧ / ص ٢٠٩) تحت عنوان: (نصرة الدولة المهديّة بين البشريّة والإعجاز).

(٢) نهج البلاغة (ص ٢٨٢ و ٢٨٣ / الخطبة ١٩٠).

*** أفضل العبادة:**

في (المحاسن): عَنِ النَّوْفَلِيِّ، عَنِ السَّكُونِيِّ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنِ آبَائِهِ، عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «أَفْضَلُ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِ أَنْتَظِرُ فَرَجَ اللَّهِ»^(١).

* * *

«أَيْنَ الْمُرْتَجِي لِإِزَالَةِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ».

الإمام الحجّة ﷺ مرتجى أهل الأرض ليرسي العدل ويقيم القسط، وهو مدّخر السماء الذي غيبتته الإرادة الإلهية لزمان قرّرتة هي فقط لا غيرها، مدّخر ليقوم بمهمّة بثّ الحياة في روح الدين، وكأنّ هذين المقطعين يحكيان لنا حالة الانتظار عند الناس وحالة الأذخار عند السماء، فكما أنّ الناس ينتظرون مَنْ يقيم لهم العدل، فإنّ السماء تنتظر من الناس أَنْ يتهيّؤوا لترسل لهم رجلها الذي ينفخ روح الحياة في ما مات من الفرائض والسّنن، فيرتفع به ﷺ الجور والظلم عن المعدّين، إنّها صرخة من الصارخين لطلب النجدة بإظهار المغيّب.

أيّها الداعون، اعلموا يقيناً أنّه لا مكان للشكّ أو الريبة في أنّ المرتجى ليس مجرد فكرة وهميّة أو خرافة نسجها الأمل الفارغ، ولا هو أطروحة ثقافية أو نتيجة واقع عصفت به الظروف فخُلِقَ الانتظار، إنّما المرتجى هو مدلول واضح يُعبّر عن شخص حقيقي، موجود ومعروف، ذي خصائص حدّتها الروايات الشريفة المعصومة بأدقّ التفاصيل.

إنّه شخصيّة إلهيّة مصنوعة بعناية ربّانيّة، كما صنعت العديد من الشخصيات المعصومة التي جاءت قبله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً

(١) المحاسن (ج ١ / ص ٢٩١ / ح ٤٤٠).

٣٠٠ شرح دعاء الندبة

مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ (طه: ٣٩)، هذه الشخصية التي قَدَّرَ اللهُ سبحانه وتعالى أن تكون معصومة، متفردة في مكانتها ومهامها. إنَّ الناس تنتظر قدوم هذه الشخصية المباركة، ليُخَفَّفَ عنهم معاناتهم، ويزيل عن كاهلهم أعباء الظلم والجور الذي تراكم على مرَّ العصور والأزمان. إنَّه رجل إلهي، وأدَّخرته يد العناية الإلهية، وأخفته وغيبته عن الناس لموانع وحكم عديدة منعه عن أداء مهمته في تطبيق فرائض الله وسُنن أنبيائه في العاجل.

وما أجمل أن يُعبَّرَ الدعاء بـ «المُرْتَجِي» عندما يعكس لحن خطاب الناس وشوقهم للإمام المهدي عليه السلام، فيما يعكس لحن خطاب المدَّخر وظيفة سماوية في إخفاء الإمام عليه السلام.

يُعَلِّمنا هذا الدعاء المبارك كيفية سؤال الباري تعالى والإلحاح عليه بأن يُظهِر لنا إمامنا المؤمِّل الغائب، نسأله لا لأجل قضاء حوائجنا الشخصية فقط - وإن كان طلبها ممدوحاً -، بل لأجل أنَّ ظهوره عليه السلام سيكون سبباً لإظهار الدِّين وبث الحياة في سُننه وآياته التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

نداؤنا واستغاثتنا عن مكان المرغوب إليه والمتوقَّع منه عليه السلام أن يُرْجِع الحدود الشرعية إلى نصابها، لأنَّه محيي الآثار والداال على الطريق الموصل إلى الأحكام والدِّين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القَصَص: ٥١).

التفكير الإستراتيجي في طريق العقيدة المهدوية:

كُلُّ يوم يمرُّ يزداد اليقين بالحاجة للمخلص المهدي عليه السلام. فكلَّمًا وضع عقلاء البشر حلولاً للمشاكل المستديمة وجدوا أنفسهم في دوامة التعقيد والتخبُّط وازدياد المشاكل.

وهذا ليس تنظيراً للعقيدة المهدويّة، ومحاولة للاستفادة من سقطات الآخرين والصعود على ركامها، إنّها الحقيقة.

فهذه البسيطة بساكنيها، بكلّ إمكاناتها وعقولها وطاقاتها ومصالحها لا تكاد تخطو إلاّ خطوات متعثّرة في سبيل تحقيق أهداف الإصلاح المعلنة.

ولو قدّر لها أن تُحقّق طموحها في الإصلاح لما تواتت لحظة في تحقيقه، لما سيكسبها إنْ حقّقته من رهان في إسقاط عقيدة المخلّص الإسلاميّة الوحيانيّة - باعتبار أنّ أغلب النظم التي رفعت راية الإصلاح هي بعيدة عن أجواء الوحي والارتباط بالسماء -.

إنّ المسلمين وخصوصاً أصحاب الحقّ هم الذين ينبغي لهم اليوم أن يستثمروا هذه الحاجة للمهدويّة، لإرساء هذه العقيدة وتجزيرها في نفوس الناس، ومن ثمّ جعلها نخطّ معالم السلوك السويّ للبشر، لتحصيل حالة التهيؤ المطلوب لإظهارها للعلن.

إنّ المسلمين قبل غيرهم، وأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام منهم خاصّة، مدعوون اليوم لأنّ يُعطوا للمهدويّة استحقاقاً يجعلها في قمّة الأولويّات، وهي كذلك بحسب الواقع والوحي إلاّ أنّ تأخيرها وتقديم غيرها عليها إنّما هو من الناس أنفسهم.

فلا بدّ أن تتقدّم على المال والسياسة والفكر، ولا بدّ أن تأخذ حظّاً من الجهد والوقت، لأنّها أمّ الحاجات وملبيّة الرغبات.

فأية رغبة وأعلى أمنية تحملها البشريّة فإنّ المهدويّة قادرة على إيجادها، وأية معضلة عجز عن حلّها الجميع فإنّها أيضاً كفيلة بحلّها.

إنّه لا بدّ أن نعي جيّداً أنّنا بحاجة إليها، ويجب أن نُوفّر كلّ الإمكانيات لإحلالها محلّها المناسب لتقوم هي بدورها بحلّ عُقد واقعنا، وتنظيم أمورنا، فهي هبة السماء لنا.

إشكالية تعطيل حدود الكتاب و معالم الدين:

سؤال: إذا كان الأمر كذلك، لماذا تعطلت حدود الكتاب؟ ولماذا ماتت معالم الدين كي نقوم بالدعاء من الله تعالى لإظهاره؟
وقبل الجواب:

١ - لا بدّ من المراجعة للوقوف على الأسباب التي كانت وراء تعطيل حدود الكتاب وإخفاء معالم الدين، ومن هم الأشخاص الذين وقفوا وراء ذلك، إذ إنّنا نعلم عقائدياً أنّ الله الحكيم أرسل نبيّه المعصوم ﷺ خاتماً للدين البين المبين، قال تعالى: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، فكيف بعد هذا كلّ تنحرف المسيرة الإسلامية ليقبى الألم على ما حصل من انحراف وتفريط بالمعصومين ﷺ؟

فأنت أين ما توجهت في بقاع المسلمين في شرقها أو غربها لا تجد إلاّ ومن يعتصره الألم والأسى على انحراف الدين وتغيّر مساره، وهذا الأمر مدعاة للبحث والتنقيب للوقوف على ما أوجب حصول هذا الحادث الفظيع، خصوصاً وأنّ القرآن الكريم حذّر منه وأيّما تحذير، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

ولا بدّ من التكلّم عن هذا الأمر بالطرق الصحيحة والليّاقات المرسومة من قبل أهل بيت العصمة ﷺ، وعدم الخوف من شبهة أنّ هذا أمر قد مضى واندثر، ولا ننكأ الجراح ما دام أمر الأمة ماشياً، كيف يُعقل هذا بعد أن بات من الواضحات أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين ما يلقلق به المسلمون الآن ويحسبونه ديناً، وبين ما جاء به النبيّ المصطفى ﷺ؟! فالمرجعة والبحث والتنقيب هي السلاح الوحيد الآمن لمن أراد أن ينجو من سلوك طريق أعوج منحرف.

وهذا البحث هو الذي سيقودنا إلى السؤال الثاني، أي: أين أهل الدين ومن يحمل هويته؟

فإن من يجهد نفسه في البحث والتنقيب سيجد أن هناك دلائل واضحة ومتكثرة في ركام ما زوره المتزلفون ونسبه الانتهازيون والنفعيون إلى الدين، يُستفاد منها تشخيص المتدينين وتشكيل هويتهم الحقيقية التي تمثل وثيقة السير الآمن في مسالك الغابات التي حوت - وعلى طول هذا الخط الزماني الطويل - الآلاف من الذئاب لتفترس حاملي هذه الهوية وتمنعهم من سلوك طريقهم، فرغم أن النفق مظلم، والطريق شائك وطويل، فإن أصحاب الهوية والمتدينين الأصلاء أولئك الذين تمسكوا بالجمرة وساروا بها ولم يبالوا ما دام مصيرهم النجاة والفوز، أولئك هم الذين تمسكوا بهدي أهل البيت ﷺ تحت ظل الشياطين وفي ظلم المطامير وقعر السجون، أولئك هم أهل الدين وحملة هويته وشيعة أهل بيت نبيه ﷺ.

٢ - القراءة الأولى لهذا المقطع تقتضي أن الإمام ﷺ يُحيي معالم الدين على مستوى الفكر والعقيدة والعمل، ولكننا إذا تعمقنا نجد أن الفقرة تُصرح بإحياء أمر آخر، فبالإضافة إلى إحياء معالم الدين فإنه ﷺ سوف يُحيي أهله - إحياء معالم الدين وأهله -، ومن هم أهله؟

أهل معالم الدين على ما مرّ عليك في عدّة روايات هم العترة الطاهرة ﷺ، وسوف يهدي إليهم المهدي ﷺ، بل في الروايات علة تسميته بذلك لهديته إلى هذا الأمر الخفي المغفول عنه.

فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجَلَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا قَامَ الْقَائِمُ ﷺ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ جَدِيدًا، وَهَدَاهُمْ إِلَى أَمْرٍ قَدْ دُتِرَ فَضْلٌ عَنْهُ الْجُمْهُورُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْقَائِمُ مَهْدِيًّا لِأَنَّهُ يَهْدِي إِلَى أَمْرٍ قَدْ ضَلُّوا عَنْهُ...»^(١).

(١) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨٣).

قال الشيخ الصدوق عليه السلام: (وفي الأثر: «أَنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا إِسْمُهُ، وَمَنْ أَلْفَرَّانِ إِلَّا رَسْمُهُ»، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، فَكَانَ اللَّهُ ﻋَﻠَيْكَ يَبْعَثُ فِي كُلِّ وَقْتٍ رَسُولًا يُجَدِّدُ لَتِلْكَ الْأُمَّةِ مَا أَنْمَحَى مِنْ رَسُولِ الدِّينِ. وَاجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ إِلَّا مَنْ لَا يُلْتَفَتُ إِلَى اخْتِلَافِهِ، وَدَلَّتِ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ أَنَّ اللَّهَ ﻋَﻠَيْكَ قَدْ خَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَوَجَدْنَا أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي اسْتِعْلَاءِ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ وَالضَّلَالِ عَلَى الْهُدَى بِحَالٍ زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ الدَّارَ الْيَوْمَ دَارُ كُفْرٍ وَلَيْسَتْ بِدَارِ الْإِسْلَامِ»^(١).

فهل يُعَقَّلُ أَنَّ رَوَايَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَمْ تَشْرُ إِِلَيْهِ؟ وَكَيْفَ وَصَفْتَهُ بِأَنَّهُ قَدْ ضَلَّ عَنْهُ وَخَفِيَ عَلَى النَّاسِ؟! أَلَيْسَ هَذَا التَّعْبِيرُ يَنَاسِبُ كَوْنَ الْمَعْبَرِ عَنْهُ بِهِ مَوْجُودًا مُتَنَاوِلًا؟

فإنَّ معنَى خفائه بلا شكٍّ ليس مطبقاً.

نعم، هو مندثر، فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِذَا قَامَ الْقَائِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ...، هَدَاهُمْ إِلَى أَمْرٍ قَدْ دُثِرَ فَضْلٌ عَنْهُ أَجْمَعُونَ...»^(٢).

ولكنه فطري جبلي، فعن محمد بن علي عليه السلام، عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، قال: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْمَهْدِيُّ مَهْدِيًّا لِأَنَّهُ يَهْدِي لِأَمْرِ خَفِيِّ، يَهْدِي لِمَا فِي صُدُورِ النَّاسِ»^(٣).

والآن لنقف على حقيقة هذا الأمر، وبيان هذا المصداق المهدي إليه من قبل حجة الله في أرضه مهدي آل محمد عليهم السلام.

(١) كمال الدين (ص ٦٦).

(٢) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨٣).

(٣) دلائل الإمامة (ص ٤٦٦ / ح ٥٥١ / ٥٥).

* في (تفسير العياشي): عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى الْحَلَبِيِّ، قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلِيًّا: «... ثُمَّ يَنْطَلِقُ - أَي الْمَهْدِيِّ ﷺ - فَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ (عَلَيْهِ وَآلِهِ السَّلَامُ)، وَالْوَلَايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلِيًّا، وَالْبَرَاءَةَ مِنْ عَدُوِّهِ...»^(١).

* وفي (تفسير فرات الكوفي): قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدٍ مُعَنَّأً، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلِيًّا: «... فَإِذَا قَامَ الْقَائِمُ عَرَفُوا كُلَّ نَاصِبٍ عَلَيْهِ، فَإِنَّ أَقْرَبَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ الْوَلَايَةُ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ أَوْ أَقْرَبَ بِالْحِزْبِ فَأَدَّاهَا كَمَا يُؤَدِّي أَهْلُ الذِّمَّةِ»^(٢)، فتكون الولاية هي المدار في تشخيص المؤمن من غيره.

* وفي (بصائر الدرجات) بسنده عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عَلِيًّا، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ الشَّيْعَةَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ٢﴾ [النبا: ١ و ٢]، قَالَ: فَقَالَ: «ذَلِكَ إِلَيَّ إِنْ شِئْتُ أَخْبَرْتُهُمْ، وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَخْبِرْهُمْ»، قَالَ: فَقَالَ: «لَكِنِّي أَخْبِرُكَ بِتَفْسِيرِهَا»، قَالَ: فَقُلْتُ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١﴾، قَالَ: فَقَالَ: «هِيَ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا»، قَالَ: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ: مَا لِلَّهِ آيَةٌ أَكْبَرُ مِنِّي، وَلَا لِلَّهِ مِنْ نَبِيٍّ عَظِيمٍ أَعْظَمُ مِنِّي، وَلَقَدْ عُرِضَتْ وَلَايَتِي عَلَى الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ فَأَبَتْ أَنْ تَقْبَلَهَا»، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ٧٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ٧٨﴾ [ص: ٦٧ و ٦٨]، قَالَ: «هُوَ وَاللَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيًّا»^(٣).

حيث يظهر أن أمير المؤمنين عَلِيًّا هو النبا العظيم الذي عُرِضَتْ ولايته على الناس، وسوف يُهدى إليه، وأنَّ أشدَّ ما سيواجهه المهدي ﷺ من الناس هو هدايتهم إلى ولاية عليِّ عَلِيًّا، لأنَّها أمر جديد، وهو على العرب شديد.

(١) تفسير العياشي (ج ٢ / ص ٥٦ و ٥٧ / ح ٤٩).

(٢) تفسير فرات الكوفي (ص ٢٩٢ و ٢٩٣ / ح ٨ / ٣٩٥).

(٣) بصائر الدرجات (ص ٩٦ و ٩٧ / ج ٢ / باب النوادر من الأبواب في الولاية / ح ٣).

* وفيه بسنده عن أبي بصير، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ وِلَايَتَنَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْأَمْصَارِ...»^(١)، إذ يظهر منه أنَّ الولاية ليس فقط قد فُطِرَ الناس عليها، بل إنَّها قد عُرِضَتْ على الجميع.

* وفي (تأويل الآيات الظاهرة) بسنده عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، قال: «هِيَ الْوِلَايَةُ»^(٢)، فهنا يظهر جلياً أنَّ الفطرة هي الولاية، وأنها قد فُطِرَ عليها الناس كلهم.

* وفي (تفسير القمي) بسنده عن أبي بصير، قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، قال: «هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيُّ اللَّهِ، إِلَى هَاهُنَا التَّوْحِيدُ»^(٣).

يتبيّن من خلال ذلك أنَّ الوعيد والتهديد بالقصم والهدم ليس للكلّ إنّما لمن ترك ذلك، بعد أن وضح أنَّ المتمسّكين بالحقّ وإن كانوا قلة إلا أنّ وجودهم قويٌّ ومؤثّر رغم قلتهم بالنسبة إلى مَنْ خالفهم، وتأثيرهم الحقّاني مستمرٌّ ويزداد وعلى طول الخطّ وفي كلّ زمانٍ، ولا يخلو منهم وجود ومكان في العادة، وهو الذي يتمثّل بأفراد بهذه الطائفة المنصورة المؤيَّدة بتسديد الله وبرعاية وليّه الأعظم ﷺ، أمّهم شيعة أهل البيت عليه السلام، وهم الذين يحملون الآهات والأين والنجوى والحنين، فيُنشِدون هذه الترنيمات، ويخاطبون الباري ﷻ بإخراج المؤمن لإحياء الدّين المندرس.

(١) بصائر الدرجات (ص ٩٧ / ج ٢ / باب النوادر من الأبواب في الولاية / ح ٤).

(٢) تأويل الآيات الظاهرة (ج ١ / ص ٤٣٥ / ح ٣).

(٣) تفسير القميّ (ج ٢ / ص ١٥٥).

هذه المقاطع لا يقتصر فيها الطلب على إظهار الإمام المهدي ﷺ كي يقضي على الجماعات المعتدية والظالمة، وإنما يشمل أكثر من بُعد، فهو دعاء للقضاء على شوكة ما ينمو في نفوسنا من ظلم فيما بيننا، ومما يوجب الضعف والوهن في عزائمنا، وما يوجب ضعف إرادتنا وينخر في عزائمنا ويهبط من معنوياتنا.

إنه دعاء على الأفكار المحرّفة، وعلى السلوكيات المنحرفة، وعلى الأفراد المنحرفين، وعلى الجماعات المنحرفة.

ليست هذه الفقرة من هذا الدعاء العظيم مخصّصة للدعاء بالانتقام من أشخاص بأعيانهم أو جماعة بعينها فقط، إنما هو دعاء يطلب القضاء ابتداءً من الفكرة والتصور والخطرة إلى السلوك إلى الأفراد فالجماعات، فكلُّ معتدٍ وكلُّ شوكة اعتداء يشملها مضمون هذا الدعاء.

فها أنت عزيزي أيها القارئ ترى أن المقطع الشريف لم يجعل الوظيفة في قصب شوكة المعتدين على الأفراد أو الجماعات، أو أنّها قصرت نظرها إلى الجانب المادّي الخارجي فقط، بل تعمّ وتشمل إزالة وقصب كلّ اعتداء، اعتداء في الدّين أو السلوك أو الأفكار أو غيرها.

* * *

«أَيْنَ مُبِيدُ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ».

ما زال الحديث الاستفهامي عن محلّ صاحب الصفات الفاتقة والمقامات الجليلة، ومنّ يقوم بسحق وإفناء أهل الفسوق والعصيان والطغيان، منّ يهلك الجماعة التي انفصلت عن الدّين وعُراه.

اعلم أيها العزيز أن الفاسق والعاصي والطاغي هو الذي يعرف الحق ويعرف فضله ثم يجانبه وينفصل عنه ميلاً إلى الباطل وحُباً به، ومنفعة منه، يلهث وراء ما هو أدنى لأجل التمكن من الدنيا، ويترك ما هو أعلى وإن كان الآن لا يرى ولكنه متيقن الحصول ولو آجلاً.

أمّا إذا أصبح أهل الفسق والعصيان والطغيان جماعة، وأنس بعضهم ببعض، وزين لهم الشيطان أعمالهم فجعل بعضهم يُزين للبعض الآخر، فإن شرهم سيكون عظيماً ويصعب إصلاحهم، وكلما تجذّر الفسوق فيهم وانعقدت عليه قلوبهم وغاصت جذور انفصالهم عن الدين في نفوسهم واجتمعت أهواؤهم على الابتعاد عن أحكامه وسُننه، فإن إصلاحهم بعد ذلك يكون عزيزاً.

والمقطع يتحدّث عن أمثال هؤلاء، فيقول: إن الإمام المدّخر سيخرج في زمان يكون فيه الفسوق والعصيان والطغيان ومن يارسه ليس أفراداً، وإنما جماعات وشعوب وقبائل تجتمع كلها على الباطل وعلى ترك الدين والانفصال عنه، ويتراكم ذلك في قلوبهم، ولا بدّ لإصلاح الأرض وإحيائها من إزالتهم، فلا بدّ من إبادتهم.

إن الجماعة التي تتفق كلمتها على معاداة الدين وتركه، وتتشبّه بكل صنوف الترويج للعصيان وتجاهر بالعناد، ويكون شعارها الفسوق، فتعثوا في الأرض إفساداً وعصياناً، ولا تقف عند هذا الحدّ، بل تُروّج له وتزيد على الحدّ وتفيض في ابتعادها وطغيانها وعصيانها، فتمنع المؤمنين عن ممارسة حقهم، لا بل تمارس الباطل وتجهر به وتدافع عنه وتزيّنه للناس، وتُصوّر الحقّ باطلاً وتمنع عنه وتعاقب عليه.

إن المجتمع إذا صار على هذه الشاكلة وسار على هذا المنوال فإنه مجتمع

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٣٠٩

لا ينفعه الإصلاح، ولن يجدي معه النصح، ولن يثمر فيه الوعظ، فلا بدّ والحال هذه من أن يخرج مبيد أهل الفسوق والعصيان والطغيان فيرث الأرض ويجعلها بيد الصالحين بعد أن يهلك ويبيد ويستأصل منها الفاسقين والعاصين والطاغين.

عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥]، الشَّيْبَانِيُّ فِي (كَشْفِ الْبَيَانِ)، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ آيَةٌ مَخْصُوصَةٌ بِصَاحِبِ الْأَمْرِ الَّذِي يَظْهَرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيُبِيدُ الْجَبَابِرَةَ وَالْفَرَاعِنَةَ، وَيَمْلِكُ الْأَرْضَ شَرْقًا وَعَرْبًا، فَيَمْلَأُهَا عَدْلًا، كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا»^(١).

* * *

«أَيْنَ حَاصِدُ فُرُوعِ الْغِيِّ وَالشَّقَاقِ».

لا شك أن هناك ظلماً غرس وزرع في نفوس البعض، وصارت له فروع وأغصان، بل وأثمر في نفوس أشخاص آخرين وتوسّع على مرّ الزمان، فالأوائل من أهل الظلم والغِيّ كانوا يُظهِرون خلاف ما يُبطنون، بينما يُخبرنا أهل بيت العصمة أنّ هؤلاء هم جذور الغواية، ومن نفوسهم الشريرة خرجت فروع الشقاق والظلم، حتّى صار أهل الغِيّ والشقاق أجيالاً، وكلُّ جيل يُورث الذي يليه فنون الغواية وأصول الشقاق، فصار من العسير بمكان أن تُعالج هذه الفروع إلاّ بالاجتثاث - من نفوس الناس -، ولا يمكن أن تُهدّب أو تُشدّب، بل لا بدّ من الحصاد والتفتيت، فكما أنّ أهل الخير عند الظهور سيحصدون

(١) البرهان في تفسير القرآن (ج ٤ / ص ٢٥٤ / ح ٨٠٩٩ / ١٣).

٣١٠ شرح دعاء الندبة

فعالهم التي أنبتوها وسارت عليها الفروع تلو الفروع من المؤمنين، فكذلك وفي المقابل فإن أهل الغي والشقاق سيحصدون ما بنوا عليه أفكارهم وعقائدهم وما فرّعوه وورثوه لمن تبع غوايتهم.

إنّه لا بدّ أن يأتي يوم الحصاد وسيبيّن حينئذٍ لمن زرع الخير ماذا سيحصد، ولمن زرع الشقاق ماذا سيكسب، وأي شيء سيجني.

وهذا لا يعني الحكم على الناس بمصائر غيرهم، بل إننا نؤمن ونعتقد أنّ العقيدة يتخذها الإنسان دون أيّ إلقاء أو ضغط، ويتفرّع عليها سلوكه دون أيّ جبر.

فهذا المقطع الشريف يتحدّث عن زمان الحصاد في دولة الإمام المهدي عليه السلام، وأنّ في هذا اليوم ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٨)، فإنّ البناء الفكري والعقائدي الذي ينتج عنه السلوك السويّ والعمل الصالح ليس وليد اللحظة والساعة، إنّما وليد جهود كبيرة، وساعات طويلة وأشهر وسنين من الجهد والمراقبة والاستقامة والتفكير السويّ والاتباع الصحيح، كما الزارع، فإنّه يأتي في أوقات الحصاد ليحصد ما يزرع، وينظر إلى من زرعوا وماذا يحصدون.

وفي الخبر عن الإمام العسكري عليه السلام: «... وَكَأَنَّكَ يَا بُنَيَّ بِتَأْيِيدِ نَصْرِ اللَّهِ [وَأَقْدَانِ، وَتَيْسِيرِ الْفَلَجِ وَعُلُوِّ الْكَعْبِ] [وَأَقْدَانِ]... تَلُوذُ بِفِنَائِكَ مِنْ مَلَأَ بَرَاهِمُ اللَّهِ مِنْ طَهَارَةِ الْوَلَادَةِ، وَنَفَاسَةِ التُّرْبَةِ، مُقَدَّسَةً قُلُوبَهُمْ مِنْ دَسِّ النِّفَاقِ، مُهَذَّبَةً أَفْئِدَتِهِمْ مِنْ رِجْسِ الشَّقَاقِ...»^(١).

* * *

(١) كمال الدّين (ص ٤٤٩ / باب ٤٣ / ح ١٩).

«أَيْنَ طَامَسُ آثَارِ الزَّيْغِ وَالْأَهْوَاءِ».

لقد ملأ الظلم والتجبر عالماً، وكأنا نعيش في عالم تحكمه قوانين الوحوش، في ظل هذا الجو الخانق يلتمس المؤمن الداعي من خلال هذه المقاطع نسأت السماء بالفرج، ويسأل عن رجل الزمان، ومتى يقوم ليطمس آثار أهل الزيغ والأهواء ويُنظف الأرض من برائن أفعالهم وشنيع ممارساتهم؟

متى يقوم المدخر المعصوم بكل طاقته التي انبثقت من الطاقة الإلهية المطلقة ليخلص البشرية ويُنجيها من الجور السائد عليها؟

إلحاح وتضرع من كل داعٍ بهذا الدعاء العظيم أن يُخرج الله تعالى لطفه ويُظهره من غيبته ليُمحي بقايا ما رسمه الزائفون عن الحق، ويُحرب آثار المائلين إلى الباطل، فيعمد إلى طمس ودفن تلك البقايا من أعلام الفئة التي اتبعت الشيطان واستهواها إبليس اللعين، فذهب بها الحُبُّ الباطل والاعتقاد المنحرف والأهواء الفارغة إلى الزيغ عن الصراط، والوقوع في حيرة التغريب والإفساد في هذه الأرض، بعد أن ابتعدوا عن الهدى، فصار ابتعادهم وحيرتهم سبيلاً للشيطان لأن يصيدهم بحبائله ويُوقعهم في مخالفة الاستقامة، والجنوح إلى الكذب والتضليل والافتراء، فاندurst في نفوسهم مصابيح الفطرة، وانمحت من قلوبهم أنوار الانقياد للحقيقة الجبلية، فصاروا باتباعهم آثار وأعلام أهل الخلاف والانحراف، سُنَّة يسير عليها اللاحقون، ممن فرغت قلوبهم من حُبِّ الله تعالى، فصاروا أئمة ضلال يقتدي بهم أهل الزيغ ويتبعون آثار أهوائهم، لأنهم لا عقل لهم، وبتراكم الزمن أصبحوا أعلاماً تقود كل متمايل ومرتعج إلى ضلالهم.

يأتي الداعي ليطلب من رجل الاستقامة أن يُعدّل الاعوجاج ولو بأن

يطمس تلك الآثار التي أصبحت أعلاماً يتبّعها أهل الزيغ والأهواء، وأن لا تأخذه بهم رحمة ورأفة ولين، لأن ما هم عليه لا ينفع معه إلا القطع والاستئصال بعد أن صار سلوكهم - فضلاً عن فكرهم وعقيدتهم - هو تعمّد الكذب وصناعة الافتراء لمن علق بهم من الأذئاب، لأجل إبعاد أتباعهم عن الهداية، وتسويل النفوس لمن ضعفت همته وقعدت به عقيدته لاتباعهم.

إن هؤلاء المفترين لا بدّ من قطع نهارهم لتغرب شمسهم بيد المبيد المتقم، هؤلاء لا ينفع معهم أيّ دواءٍ إلاّ الإبادة والإهلاك، لشدة إقبال نفوسهم على الفساد، وقوّة عقد قلوبهم على الرذيلة، فقد تمردوا على كلّ السنن التي تدعوهم للهداية، وصمّوا أسمعهم وأبصارهم وقلوبهم عن الاستماع، فأضحوا لا يقبلون الموعدة، ولا يُجِبُّون إلاّ الفساد والرذيلة، فعتوا وتمردوا وطغوا، لخبث نفوسهم وشرّانية أرواحهم.

كلّ ذلك لأنّ الدّين لم ينبت في قلوبهم، ولم يسقوه بماء الهداية ليثمر في نفوسهم جميل الاستماع من الهداة.

هؤلاء لا بدّ لهم من مستأصل يقطع جذورهم، لأنّهم تجاوزوا كلّ ما يمكن أن يُرجعهم إلى صوابهم.

هؤلاء الضّلال الملحدون أضاعوا أنفسهم وأضاعوا من اتّبعهم، بما فعلوا بأنفسهم حيث أوجبوا تيهانها عن الطريق وبعدها عن الجادة، فخرسوا وصاروا سبباً في خسران الآخرين، فصاروا خراباً دائماً أينما حلّوا.

لذا يسأل الداعي من الإمام المهدي ﷺ أن يطمس على أهل الزيغ وعلى آثارهم، لزيغهم عن الهدى وميلهم بأهوائهم إلى الضلال، فلا بدّ من قطع حبال كذبهم وافتراءهم، حتّى لا يضلّوا من الناس آخرين، ويطلب منه بالبحر أن يبدهم لعتوّهم وتمردهم، فيستأصل عنادهم وتضليلهم وإلحادهم.

ومن بين أجمل ما ورد في هذا المعنى ما نُقِلَ عن الإمام العسكري عليه السلام وحديثه لولده الحجة ﷺ: «... فَعِنْدَهَا يَتَلَأُّ صُبْحُ الْحَقِّ، وَيَنْجَلِي ظِلَامُ الْبَاطِلِ، وَيَقْصِمُ اللَّهُ بِكَ الطُّغْيَانَ، وَيُعِيدُ مَعَالِمَ الْإِيْمَانِ، يَظْهَرُ بِكَ اسْتِقَامَةُ الْأَفَاقِ...، تَهْتَرُّ بِكَ أَطْرَافُ الدُّنْيَا بِهَجَّةٍ، وَتَنْشُرُ عَلَيْكَ أَغْصَانُ الْعِزِّ نَضْرَةً، وَتَسْتَقِرُّ بَوَانِي الْحَقِّ فِي قَرَارِهَا، وَتَوُوبُ شَوَارِدُ الدِّينِ إِلَى أَوْكَارِهَا، تَتَهَاطَلُ عَلَيْكَ سَحَابُ الظَّفَرِ، فَتَخْنُقُ كُلَّ عَدُوٍّ، وَتَنْصُرُ كُلَّ وَلِيٍّ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ جَبَّارٌ قَاسِطٌ، وَلَا جَاحِدٌ غَاطِطٌ، وَلَا شَانِيٌّ مُبْغِضٌ، وَلَا مُعَانِدٌ كَاشِحٌ...»^(١).

وفي الدعاء له ﷺ: «اللَّهُمَّ عَجِّلْ فَرَجَهُ، وَأَيِّدْهُ بِالنَّصْرِ، وَأَنْصُرْ نَاصِرِيهِ، وَأُخْذِلْ خَادِلِيهِ، وَدَمِّرْ عَلَى مَنْ نَصَبَ لَهُ وَكَذَّبَ بِهِ، وَأُظْهِرْ بِهِ الْحَقَّ، وَأَمِتْ بِهِ الْبَاطِلَ، وَاسْتَقِمْ بِهِ عِبَادَكَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الدُّلِّ، وَانْعَشْ بِهِ الْبِلَادَ، وَأُقْتَلْ بِهِ جَبَابِرَةَ الْكُفْرِ، وَاقْصِمْ بِهِ رُؤُوسَ الضَّلَالَةِ، وَذَلِّلْ بِهِ الْجَبَّارِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَأَبْرِ بِهِ الْمُنَافِقِينَ وَالنَّكَائِبِينَ وَجَمِيعَ الْمُخَالِفِينَ وَالْمُلْحِدِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا، وَسَهْلِهَا وَجَبَلِهَا حَتَّى لَا تَدَعَ مِنْهُمْ دِيَارًا، وَلَا تُبْقِيَ لَهُمْ آثَارًا، وَتُطَهِّرَ مِنْهُمْ بِلَادَكَ، وَاشْفِ مِنْهُمْ صُدُورَ عِبَادِكَ، وَجَدِّدْ بِهِ مَا امْتَحَى مِنْ دِينِكَ، وَأَصْلِحْ بِهِ مَا بَدَّلَ مِنْ حُكْمِكَ وَغَيْرَ مَنْ سُنَّتِكَ حَتَّى يَعُودَ دِينُكَ بِهِ وَعَلَى يَدَيْهِ غَضًّا جَدِيدًا صَحِيحًا لَا عَوَجَ فِيهِ وَلَا بَدْعَةَ مَعَهُ حَتَّى تُطْفِئَ بِعَدْلِهِ نِيرَانَ الْكَافِرِينَ...»^(٢).

طمس الإمام ﷺ لأهل الزيغ لغة رجعية لا تنسجم مع تعاليم الدين:
 إن قلت: هذه لغة رجعية متخلفة لا تنسجم مع لغة بناء دولة عالمية ينادي بها الإسلام و ينتظرها الجميع، نعم هي تنسجم مع لغة العشيرة والقبيلة فتنادي بلغة القتل والإبادة والسحق.

(١) كمال الدين (ص ٤٥٠ / باب ٤٣ / ح ١٩).

(٢) كمال الدين (ص ٥١٣ و ٥١٤ / باب ٤٥ / ح ٤٣).

قلتُ:

١ - مَنْ الذي له صلاحية تحديد أن هذا رجعي ومتخلف ولا ينسجم مع لغة بناء الدولة؟ هل هي الثقافة العامة للمجتمع وما يُعبّر عنه بالعرف، أو هي الثقافة الخاصة لمجتمع معيّن وإن لم يعرف أجواء الإسلام وطريقته في تشريع الأحكام؟
فإن كان الأوّل - الدول المتحضّرة - فالعرف ببابك، فإنّهم لا يأنفون من الانتقام وسحق أعدائهم بشتّى الطُّرُق والأساليب، فطيلة هذه القرون المتهادية إلى يومك هذا، هذا هو حال الدول وطريقته في القضاء على أعدائهم.
وإن كان الثاني فإنّ لزوم الإنصات له هو أوّل الكلام، فضلاً عن أن يُؤخَذ بتحديدته.

٢ - إن لغة الإسلام هي لغة النظام والقانون، فكما لا يسمح بالقتل غير المبرّر والظلم، كذلك لا يسمح باستلاب الحقوق والتعدّي عليها من قبل المتطاولين، فلكي نعيش حالة الاتّزان في حفظ الأنفس والأموال والنظام لا بدّ من قوّة ردع بها يخشى المعتدي من سطوة النظام والحاكم بالحقّ وأنه يُؤخَذ بجرمه لو اعتدى.

٣ - مَنْ قال: إن لغة المعاقبة القاسية لعنة الظلمة هي لغة ظلامية ومنفّرة؟ على العكس تماماً هي لغة استرداد الحقوق والدفاع عنها.



الفقرة الحادية والثلاثون

«أَيْنَ مُعِزُّ الْأَوْلِيَاءِ وَمُذِلُّ الْأَعْدَاءِ، أَيْنَ جَامِعُ الْكَلِمَةِ (الْكَلِمِ)
عَلَى التَّقْوَى، أَيْنَ بَابُ اللَّهِ الَّذِي مِنْهُ يُوتَى، أَيْنَ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي
إِلَيْهِ يَتَوَجَّهُ الْأَوْلِيَاءُ، أَيْنَ السَّبَبُ الْمُتَّصِلُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ،
أَيْنَ صَاحِبُ يَوْمِ الْفَتْحِ وَنَاشِرُ رَايَةِ الْهُدَى، أَيْنَ مُؤَلَّفُ شَمْلِ

الصَّلَاحِ وَالرِّضَا، أَيَّنَ الطَّالِبُ بِدُحُولِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَبْنَاءِ
الْأَنْبِيَاءِ، أَيَّنَ الطَّالِبُ (المُطَالِبُ) بِدَمِ الْمَقْتُولِ بِكَرْبَلَاءَ، أَيَّنَ
الْمَنْصُورُ عَلَى مَنْ إِعْتَدَى عَلَيْهِ وَافْتَرَى، أَيَّنَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي
يُجَابُ إِذَا دَعَا، أَيَّنَ صَدْرُ الْخَلَائِقِ ذُو الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، أَيَّنَ ابْنُ
النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى، وَابْنُ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى، وَابْنُ خَدِيجَةَ الْعَرَّاءِ،
وَابْنُ فَاطِمَةَ الْكُبْرَى، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَنَفْسِي لَكَ الْوِقَاءُ
وَالْحِمَى».

تتضمَّن الفقرة الحادية والثلاثون من الدعاء المبارك سلسلة من الأسئلة
التي تتناول العديد من المفاهيم العقائدية العميقة، والتي ترتبط بالصفات الإلهية
والقيادية للإمام المهدي ﷺ، فيما يلي توضيح للمفاهيم التي تم الإشارة إليها في
هذه الفقرة تابعا:

«أَيَّنَ مُعِزُّ الْأَوْلِيَاءِ وَمُذِلُّ الْأَعْدَاءِ».

ذكر غير واحد أنَّ العزة تأتي على عدة معانٍ، منها: الجليلُ الشريفُ، ومنها
القليلُ الوجود والمنقطع النظر، فالشيء العزيز في أحد معانيه غير الموجود دائما،
وقليل الوجود^(١).

قال الفخر الرازي: (العزيز هو النفيس القليل النظر، أو المحتاج إليه
القليل الوجود، يقال: عزَّ الشيء إذا قلَّ وجوده مع أنه محتاج إليه)^(٢).
وهذا ينسجم مع عدة صفات للمولى ﷺ، فهو المنقطع الوجود من بني

(١) راجع: اشتقاق أسماء الله (ص ٢٣٧ - ٢٤٠).

(٢) تفسير الرازي (ج ٢٨ / ص ٧٩).

البشر، بل هو الواحد الباقي من أهل العصمة، وهو الغائب رغم قيام الوجود والكون به، وهو الجليل الشريف ﷺ.

وهذا الجليل الشريف يعتزُّ المؤمنون سواء في غيبته أو عند ظهوره.

جاء في بعض زياراته ﷺ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُعَزَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُدَلِّ الْكَافِرِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ الظَّالِمِينَ»^(١).

ونحن من سيعتزُّ به وبولايته ورعايته، جاء في توقيعه ﷺ إلى الشيخ المفيد رحمته: «... فَإِنَّا نُحِيطُ عِلْمًا بِأَنْبَاءِكُمْ، وَلَا يَعْرُبُ عَنَّا شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَمَعْرِفَتِنَا بِالذَّلِّ الَّذِي أَصَابَكُمْ مُذْ جَنَحَ كَثِيرٌ مِنْكُمْ إِلَى مَا كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ عَنْهُ شَاسِعًا، وَنَبَدُوا الْعَهْدَ الْمَأْخُودَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّا غَيْرُ مُهْمَلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ، وَلَا نَاسِينَ لِذِكْرِكُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَنَزَلَ بِكُمْ اللَّأْوَاءُ، أَوْ إِصْطَلَمَكُمُ الْأَعْدَاءُ...»^(٢).

نحن نعلم أنَّ الإمام المهدي رحمته هو خليفة الله تعالى في أرضه، وأنَّه الوحيد في زماننا الذي يتَّصف بأعلى صفات الكمال من المخلوقين، والله تعالى وهَّاب العزَّة لمن يشاء، ومُعَلِّي ورافع مَنْ يُحِبُّ، قد أعطى هذه الصفة لوليِّه الإمام المهدي رحمته هو المخوَّل في زمان إمامته عن وضع عزَّة الله تعالى على مَنْ يتأهَّل لها، وهو الذي وصفه الله تعالى بأنَّه راحة الأولياء والمنتقم من الأعداء^(٣).

فليُعلم أنَّ حالة القوَّة والمنعة التي سوف يمنحها ظهور الإمام المهدي رحمته لأتباعه تُشكِّل حصناً واقياً من الوقوع في محذور المخالفات حيث يُمكنهم وجوده المبارك من تحصيل ملكة الإباء والشموخ الذي به يعلنون ويرتفعون من

(١) المزار لابن المشهدي (ص ٦٧١).

(٢) الاحتجاج (ج ٢ / ص ٣٢٣).

(٣) راجع: المحتضر (ص ١٦٣).

غير تعالٍ وتكبرٍ، وهذه العزّة المهدويّة مطلقة، فلا تنحصر في زاوية معيّنة أو أفعال خاصّة أو صفة محدّدة، فهي عزّة فكر وعقيدة وسلوك.

إذا رجعنا إلى الآيات والروايات الشريفة نجد أنّها تُحدّد بشكل واضح أنّ مصدر العزّة الحقيقيّة هو الله تعالى، ومنه تتفرّع كلُّ عزّة حقّة إلى أوليائه، ومنهم إلى العباد كلُّ حسب قدرته ومكانته وطاعته، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩)، ومن هذه العزّة الذاتية تفرّعت كلُّ عزّة.

فالعزّة الذاتية هبة إلهيّة لمن هو أهل لها، هذه العزّة الممتزجة بالقوّة والقدرة من جهة والرحمة والرافة من جهة أخرى بمقتضى قوله تعالى: ﴿... الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩).

هذه العزّة الإلهيّة المهدويّة لا تقع على محلٍّ لا يتأهل لها «وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِنِي بِالْكِبْرِ»^(١)، فهي لا تنال من قبل من أذلّ نفسه بالمعصية وأهانها بالكبر - وبقي في حضيض المعصية -، فمن يخضع ويضعف أمام نزواته ويكون سهل الانقياد أمام الشهوة يتشكّل في نفسه مانع من التلبّس بالعزّة، ويكون قلب مثل هكذا شخص ذليلاً وإنّ تظاهر بالكبر والتغطرس، وكم شاهدنا الطغاة في نهاياتهم كيف يكونون أذلاء متصاغرين، وبالتالي ستتولّد حالة العداء للإمام ﷺ من أمثال هؤلاء، عدااء فكري أو عقائدي أو سلوكي وربّما كلّها، فمن يحمل هذا الخُلُق الذميم في نفسه لا يفسح المجال لخلُق رفيع مثل العزّة.

وفي المقطع الشريف يريد الدعاء المبارك من الفرد المؤمن أن يجاهد نفسه ليوصلها إلى حالة من القوّة والمنعة تمنع من الوقوع في الذلّ الموجب لعداوة الإمام ﷺ وأتباعه.

وليعلم أنّ للعزّة العديد من المناشئ - وكذا الذلّة -، ومن مناشئ العزّة

(١) الصحيفة السجّاديّة (ص ١١٠ / الدعاء ٥٥).

الاعتزاز بالله تعالى أو بالإمام عليه السلام أو بالعلم أو الجاه أو المال أو السلطة، وكلُّ نحو من أنحاء العزّة يُمثّل وجهاً من وجوه ما يترتّب عليها من آثار، فالعزّة الاجتماعية تختلف آثارها عن عزّة التقوى أو العملية أو غير ذلك، وكلُّ ما قلناه في العزّة يأتي في الدلّة.

وكلُّ عزّة زائفة إلا ما رجعت لله تعالى وللإمام عليه السلام.

روي عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: «إِنَّ الْإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ، وَنِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَصَلَاحُ الدُّنْيَا، وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ...، وَمَفْرَعُ الْعِبَادِ فِي الدَّاهِيَةِ النَّادِ...، نِظَامُ الدِّينِ، وَعِزُّ الْمُسْلِمِينَ، وَعَيْظُ الْمُنَافِقِينَ، وَبَوَارُ الْكَافِرِينَ...»^(١).

* * *

«أَيْنَ جَامِعِ الْكَلِمَةِ (الْكَلِمِ) عَلَى التَّقْوَى».

يتحدّث المقطع الأنف الذكر عن حتمية صيرورة التقوى العنصر المشترك الذي سيجتمع عليه الناس في زمان ظهور الإمام عليه السلام، فيسأل الداعي من خلال مناجاته هذه ويالحاح على الله تعالى أن يُقرّب ذلك اليوم، فما أجمله من زمان نرى فيه اجتماع كلمة الناس على التقوى، وكلُّ وجود من الموجودات ممّا نراه وما لا نراه يسير في هذا الطريق، وتصير الحالة العامة والطبيعية هي التعامل بالتقوى والعمل والاجتماع عليها.

في ذلك الزمان الذي يكون فيه مصدر القرار متمثلاً بالإمام عليه السلام، يُجبرنا هذا المقطع أنه عليه السلام سيقوم بمعالجة كلِّ جروحنا وآلامنا، فهو المهيمن على الأرض، بل الكون، فتهيمن بذلك سمة الرحمة والتقوى والأنس بين الناس وجميع المخلوقات بعدما غُطّيت ولقرون متهادية بفسق الغلظة والظلم.

(١) الكافي (ج ١ / ص ٢٠٠ / باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته / ح ١).

إِنَّ الإِمَامَ ﷺ سَيَجْمَعُ النَّاسَ عَلَى كَلِمَةِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فَتَتَحَقَّقُ بِذَلِكَ الْعِبُودِيَّةَ الْحَقَّةَ مِنْهُمْ، وَيَتَكَرَّمُ بَنُو آدَمَ بِهَذِهِ التَّقْوَى بِأَجْمَعِهِمْ، فَتُخْرَجُ لَهُمُ الْأَرْضُ، بَلِ السَّمَاءُ ثَمَرَاتِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢ و ٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ الَّذِي يُمَثِّلُ الْعَيْشَ فِيهِ طَمُوحُ كُلِّ نَبِيلٍ وَتَقِي سَيُوجَدُ أَعْلَى نَمُودَجٍ سَتَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ مِنَ التَّقْوَى حَيْثُ سَتَظْهَرُ التَّقْوَى عَلَى صَعِيدِ الطَّاعَةِ وَالْعِبُودِيَّةِ، وَعَلَى صَعِيدِ الْأَخْلَاقِ وَالسَّلُوكِ الْعَمَلِيِّ، وَعَلَى صَعِيدِ الْفِكْرِ وَالْبُعْدِ الْمَعْرِفِيِّ، وَعَلَى صَعِيدِ الْعَقِيدَةِ وَالْبُعْدِ الْإِيمَانِيِّ، وَبِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ مَصَادِقُ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام: ١١٥)، فَالْصِدْقُ عَلَى الْمَسْتَوَى الْمَعْرِفِيِّ وَالْعِلْمِيِّ، وَالْعَدْلُ عَلَى الْمَسْتَوَى الْعَمَلِيِّ وَالسَّلُوكِيِّ، فَلَا تَذْهَبُ شَرْقًا وَلَا غَرْبًا إِلَّا وَجَدْتَ أَنَّ التَّقْوَى هِيَ الْمِيزَانُ الَّذِي يَتَعَامَلُ بِهِ النَّاسُ وَيَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ.

وَسَوْفَ يَأْتِي الْمَزِيدُ مِنَ التَّفْصِيلِ عِنْدَ الْحَدِيثِ فِي فِقْرَةِ «تَرَى أَتَرَانَا نَحْفُ بِكَ وَأَنْتَ تَوُّمُ الْمَلَأَ وَقَدْ مَلَأَتْ الْأَرْضُ عَدْلًا».

* فِي (كَمَالِ الدِّينِ) بِسَنَدِهِ عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ، قَالَ: قَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ حُجَجُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَخُلَفَاؤُهُ فِي عِبَادِهِ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى سِرِّهِ، وَنَحْنُ كَلِمَةُ التَّقْوَى، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَنَحْنُ شُهَدَاءُ اللَّهِ وَأَعْلَامُهُ فِي بَرِيَّتِهِ، بِنَا يُمَسِّكُ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَبِنَا يُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيُنْشُرُ الرَّحْمَةَ، وَلَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ مِّنَّا ظَاهِرٍ أَوْ خَافٍ، وَلَوْ خَلَّتْ يَوْمًا بِغَيْرِ حُجَّةٍ لَمَاجَتْ بِأَهْلِهَا كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ بِأَهْلِهِ»^(١).

(١) كَمَالِ الدِّينِ (ص ٢٠٢ و ٢٠٣ / بَاب ٢١ / ح ٦).

وذكر العلامة المجلسي رحمته الله في معرض بيانه للرواية ما نصّه: (بيان: قوله عليه السلام: «نَحْنُ كَلِمَةُ التَّقْوَى»، إشارة إلى قوله تعالى: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى» [الفتح: ٢٦]، وفسرها المفسرون بكلمة الشهادة، وبالعقائد الحقّة، إذ بها يتّقى من النار، أو هي كلمة أهل التقوى، وإطلاقها عليهم إمّا باعتبار أنّهم عليهم السلام كلمات الله يُعبّرون عن مراد الله، كما أنّ الكلمات تُعبّر عمّا في الضمير، أو باعتبار أنّ ولايتهم والقول بإمامتهم سبب للاتّقاء من النار، ففيه تقدير مضاف، أي ذو كلمة التقوى)^(١).
ولعلّها تشير إلى ما ذكرناه سابقاً عند الحديث عمّا يهدي إليه المهدي عليه السلام، فهو يهدي إلى كلمة التقوى أي إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فيجمع الناس على كلمة التقوى أي يجمع الناس على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَا كَلِمَةُ اللَّهِ الَّتِي يَجْمَعُ بِهَا الْمَفْرَقَ وَيُفْرَقُ بِهَا الْمُجْتَمَعُ»^(٢).

* * *

«أَيْنَ بَابُ اللَّهِ الَّذِي مِنْهُ يُؤْتَى، أَيْنَ وَجْهُ اللَّهِ
الَّذِي إِلَيْهِ يَتَوَجَّهُ الْأَوْلِيَاءُ».

نحن على يقين في أنّ الله تعالى هو الخالق للكون، وأنّه مدبّرهُ، وهو اللطيف بعباده، وأنّه (عزّ اسمه) جعل من عباده مَنْ يكون واسطة في نيل المطالب واستجابة الدعاء، وعلى الإنسان أن يبحث عن هذه الوسطة، وأن يسأل عنها، لأنّ الخير النازل من الباري تعالى قد انحصر نزوله بهذه الوسطة.

هذا المقطع الشريف حصر الدخول إلى الحضرة الإلهية ونيل خيرها

(١) بحار الأنوار (ج ٢٣ / ص ٣٥ / ذيل الحديث ٥٩).

(٢) مختصر بصائر الدرجات (ص ٣٣ و ٣٤).

بالدخول عبر الباب، والتوجه عبر وجهه الذي جعله في خلقه، إذ يُمثل الوجه بالنسبة لكل شيء يضاف إليه المدخل إلى حقيقة ذلك الشيء ومفتاح الوصول، فالوجه في الأشياء هو المعبر عنها، ويحمل الوجه في الإنسان فضلاً عن الكثير من المخلوقات أهم قنوات الاتصال بالأشياء الأخرى، فيحمل الحواس الرئيسية التي من خلالها تتم عملية الاتصال، والتي من خلالها يُعبر عن حقيقته وأفكاره وغير ذلك مما يحويه أو يحمله.

فكون الإمام ﷺ باب الله تعالى ووجهه معناه أنه المدخل إلى تحصيل كل كمال ومنفعة، كلمة الباب أُضيفت إلى (الله تعالى)، وهو الاسم الذي يُعبر عنه أنه مجمع كل صفة خير - جامع صفات الجمال والمنتزه عن صفات الجلال -، فكل ما خلف الباب يصدر عن الإمام ﷺ، إذ هو الباب الحصري في زماننا، فما يفتح منه فهو، وما ينغلق عليه فلا يمكن تحصيله من جهة أخرى.

في (الكافي) بسنده عن أبي الصّامتِ الخُواني، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «فإن رسول الله ﷺ باب الله الذي لا يُوتى إلا منه، وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله ﷻ، وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وجري للأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد»^(١).

وهنا يتجلى معنى الزيارة المباركة له: «السّلام عليك يا باب الله الذي لا يُوتى إلا منه»^(٢)، فإنه لا يمكن الإتيان إلى الله تعالى في زماننا إلا من هذا الباب.

وهكذا يُلاحظ ما في الوجه بلحاظ الأشياء التي يضاف إليها، ويأخذ صفاتها ويضفي عليها ما يحمل من معنى جليل ومفهوم سامي.

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٩٨ / باب أن الأئمة عليهم السلام هم أركان الأرض / ح ٣).

(٢) المزار لابن المشهدي (ص ٥٨٦).

وجه الأولياء:

ففي المقطع الشريف أضاف الداعي الوجه إلى الله تعالى، وهو بحسب تعبير أهل الاختصاص (فإن لفظة الله تعالى) من مختصات الذات الإلهية، وهو الجامع لجميع صفات الجمال - كل صفة كمال وحسن -، والمنزه عن جميع صفات الجلال - التي ينتزه الباري عن الاتصاف بها كالجسمية والحد والزمان والمكان -، وهو أعظم اسم من أسمائه تعالى.

وأصله من آله أي المألوه والمعبود، أو من آله وهو الذي تحيرت به العقول فألهته فعبدته لما يحمل من الجمال والكمال.

وهذه الإضافة تُعطي دلالة واضحة أن قصد الباري في كل الأمور لا يكون إلا عن طريق الإمام عليه السلام، وكل وجه سوى هذا الوجه فإنه هالك، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصاص: ٨٨).

الروايات الشريفة تسفر عن معنى كون الإمام عليه السلام هو الوجه واليد:

* في (بصائر الدرجات) بسنده عن ابن المغيرة، قال: كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، قَالَ: «مَا يَقُولُونَ فِيهِ؟»، قُلْتُ: يَقُولُونَ: يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا وَجْهَهُ، فَقَالَ: «يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا وَجْهَهُ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ، وَنَحْنُ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ»^(١).

* وفي (الكافي) بسنده عن أبي سلام النخاس، عن بعض أصحابنا، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «نَحْنُ الْمَثَانِي الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عليه السلام، وَنَحْنُ وَجْهُ اللَّهِ نَتَقَلَّبُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَنَحْنُ عَيْنُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَيَدُهُ الْمَبْسُوطَةُ بِالرَّحْمَةِ عَلَى عِبَادِهِ، عَرَفْنَا مَنْ عَرَفْنَا، وَجَهِلْنَا مَنْ جَهِلْنَا، وَإِمَامَةَ الْمُتَّقِينَ»^(٢).

(١) بصائر الدرجات (ص ٨٦ / ج ٢ / باب ٤ / ح ٦).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٤٣ / باب النوادر / ح ٣).

وليس بين أظهرنا اليوم سوى خاتم الأئمة وإمام الزمان ﷺ الذي هو وجه الأولياء.

هذا كله في الوجه، أمّا في الباب فقد أورد شيخ القميين أبو جعفر محمد بن الحسن الصفار رحمته الله المتوفى سنة (٢٩٠هـ) في كتابه (بصائر الدرجات) ستة عشر حديثاً تحت عنوان: (باب في الأئمة أنّهم حجّة الله وباب الله وولاية أمر الله ووجه الله الذي يؤتى منه وجنب الله وعين الله وخزنة علمه (جلّ جلاله وعمّ نواله)). ومما جاء فيه ما رواه بسنده عن أسود بن سعيد، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام، فأنشأ يقول ابتداءً من غير أن يسئل: «نحن حجّة الله، ونحن باب الله، ونحن لسان الله، ونحن وجه الله، ونحن عين الله في خلقه، ونحن ولاة أمر الله في عبادته»^(١).

كما روى ثقة الإسلام الكليني رحمته الله العديد من هذه الروايات^(٢)، منها ما ذكرناه عن الصفار، وغيرها. كما روى رحمته الله في (باب أن الأئمة هم أركان الأرض)^(٣) عدة أخرى من الأحاديث بنفس المضمون جاء في بعضها كما في الحديث الأوّل الذي رواه بسنده عن الفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ما جاء به عليّ عليه السلام أخذ به، وما نهي عنه أنتهي عنه، جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد عليه السلام، ولمحمد عليه السلام الفضل على جميع من خلق الله تعالى، المتعقب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقب على الله وعلى رسوله، والرأى عليه في صغيرة أو كبيرة على حدّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذي من سلكه غيره هلك...»^(٤)، والحديث طويل أخذنا منه مورد الشاهد.

(١) بصائر الدرجات (ص ٨١ / ج ٢ / باب ٣ / ح ١).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٤٣ وما بعدها / باب النوادر).

(٣) الكافي (ج ١ / ص ١٩٦ وما بعدها / باب أن الأئمة هم أركان الأرض).

(٤) الكافي (ج ١ / ص ١٩٦ / باب أن الأئمة هم أركان الأرض / ح ١).

وقال المولى المازندراني رحمته الله في (شرح أصول الكافي): «وَنَحْنُ بَابُ اللَّهِ» أي باب علمه وتوحيده وأحكامه وأسراره بجميع ما جاء الرسول رحمته الله، وذلك ظاهر، إذ كلُّ أحد لم يسمع ذلك منه رحمته الله، ولا يجوز له التكلم فيه برأيه على قدر عقله، فوجب أن يعلمه مَنْ يقوم مقامه بأمره وأمر ربّه، وهم الأئمة عليهم السلام، فهم أيضاً باب هذه المعارف، ولا يدخل أحد بيت المعرفة إلا بهذا الباب، ثم شرح الفقرات الأخرى من الحديث^(١).

فالباب الذي يُعتبر المدخل إلى الشيء، ولا يمكن الدخول إلا عن طريقه، خصوصاً إذا كان الباب واحداً، قال النبي الأكرم رحمته الله عن هذا الباب مشخصاً مصداقه بقوله رحمته الله: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا»^(٢).

نزول البركات على يد الحجة رحمته الله لا ينافي حجية الأئمة عليهم السلام والرسول رحمته الله:

إن قلت: يظهر ممّا تقدّم أنّ ما ينزل من السماء وما يناله الناس من آثار وبركات وأرزاق هي عن طريق إمام العصر رحمته الله، وهذا كأنه ينفي فوائد وجود رسول الله رحمته الله والأئمة عليهم السلام وانعدام تأثيرهم بعد وفاتهم، وهذا ممّا لا يصحُّ التفكير به، فضلاً عن القول به وتبنيه.

قلت: كون الأئمة عليهم السلام واسطة الفيض الإلهي ممّا لا شكّ فيه، فهم بعد رسول الله رحمته الله الذين تجري على أيديهم مقدرات الكون، فيهم تُنال البركة والرحمة، ولكن هذا لا يمنع أن تكون مجريات الأمور بنحو نظام الأسباب والمسببات وعلى نحو التراتبية الطولية، فمقدرات الأمور تنزل من الله تعالى إلى

(١) شرح أصول الكافي (ج ٤ / ص ٢٢٩).

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام (ج ٢ / ص ٧١ و٧٢ / باب ٣١ / ح ٢٩٨).

رسول الله ﷺ، ثم إلى أمير المؤمنين عليهما السلام، وهكذا إلى صاحب الزمان ﷺ، وصعوداً الأمر كذلك، فالإمام ﷺ هو المباشر لأُمور الناس لمكان إمامته الفعلية، وهم عليهما السلام وسائط صعود الأمور منه ﷺ ووسائط نزولها.

وقد صرّحت بعض النصوص في ذلك سؤالاً وجواباً، وبيّنت الترتيب المتقدم في الأمور، فقد روى الشيخ الطوسي رحمه الله في كتاب (الغيبة)، قال: أخبرني الحسين بن عبيد الله، عن أبي عبد الله الحسين بن علي بن سفيان البرزقري رحمه الله، قال: حدثني الشيخ أبو القاسم الحسين بن روح رحمه الله، قال: اختلف أصحابنا في التفويض وغيره، فمضيت إلى أبي طاهر بن بلال في أيام استقامته فعرفته الخلاف، فقال: أخزني، فأخزته أياماً، فعُدت إليه، فأخرج إليّ حديثاً بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إذا أراد الله أمراً عرضهُ على رسول الله ﷺ، ثم أمير المؤمنين عليهما السلام وسائر الأئمة واحداً بعد واحدٍ إلى أن ينتهي إلى صاحب الزمان عليهما السلام، ثم يخرج إلى الدنيا، وإذا أراد الملائكة أن يرفعوا إلى الله ﷻ عملاً عرض على صاحب الزمان عليهما السلام، ثم يخرج على واحدٍ بعد واحدٍ إلى أن يعرض على رسول الله ﷺ، ثم يعرض على الله ﷻ، فما نزل من الله فعلى أيديهم، وما عُرج إلى الله فعلى أيديهم، وما استغنوا عن الله ﷻ طرفة عين^(١)، وهو صريح في عرض الأمور صعوداً ونزولاً على إمام الزمان ﷺ.

وكذلك روى الشيخ المفيد رحمه الله في (الاختصاص) بسنده عن يونس بن عبد الرحمن، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «ليس شيء يخرج من عند الله إلا بديء برسول الله، ثم بأمير المؤمنين، ثم بمن بعده، ليكون علم آخرهم من عند أولهم، ولا يكون آخرهم أعلم من أولهم»^(٢)، وكان الحديث جاء

(١) الغيبة للطوسي (ص ٣٨٧ / ح ٣٥١).

(٢) الاختصاص (ص ٢٦٧).

لدفع دخل مقدر من أن الإمام الأخير سوف يكون أعلم ممن تقدمه، لإحاطته بها عند من تقدم وزيادة، وفي هذا المضمون عدة روايات جاء في بعضها: «... ثم الأذنى فالأذنى حتى ينتهي إلى صاحب الأمر الذي في زمانه»^(١).

وفي (بصائر الدرجات) بسنده عن سليمان، قال: ... قلت: فتزادون شيئاً يخفى على رسول الله ﷺ؟ قال: «لا، إنما يخرج الأمر من عند الله، فتأتيه به الملك رسول الله ﷺ، فيقول: يا محمد، ربك يأمرك بكذا وكذا، فيقول: انطلق به إلى علي، فيأتي علياً عليه السلام، فيقول: انطلق به إلى الحسن، فيقول: انطلق به إلى الحسين، فلم يزل هكذا ينطلق إلى واحد بعد واحد حتى يخرج إلينا»، قلت: فتزادون شيئاً لا يعلمه رسول الله ﷺ؟ فقال: «ويحك كيف يجوز أن يعلم الإمام شيئاً لم يعلمه رسول الله ﷺ والإمام من قبله؟»^(٢).

وروى الشيخ الطوسي رحمه الله في (أماله) بسنده عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «لولا أنا نزاد لأنفدنا»، قال: قلت: جعلت فداك، تزادون شيئاً ليس عند رسول الله ﷺ؟ قال: «إنه إذا كان ذلك أتى النبي ﷺ فأخبر، ثم إلى علي عليه السلام، ثم إلى واحد بعد واحد، حتى ينتهي إلى صاحب هذا الأمر»^(٣).

* * *

«أين السبب المتصل بين الأرض والسماء».

يتحدث هذا المقطع الشريف عن جملة من المعاني السامية التي حملها أهل البيت عليهم السلام بإمامتهم للأمة وخلافتهم عن الله تعالى في الكون، والإمام

(١) بصائر الدرجات (ص ٤١٤ / ج ٨ / باب ٩ / ح ٧).

(٢) بصائر الدرجات (ص ٤١٣ / ج ٨ / باب ٩ / ح ٥).

(٣) أمالي الطوسي (ص ٤٠٩ / ح ٦٨ / ٩٢٠).

المهدي ﷺ هو ختام الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وهو حامل هذه الألقاب ومجسدها في زماننا هذا.

فهو يُعطي دلالة أن الاتصال بين الأرض والسماء - وليس المراد بالأرض المعنى المتبادر منها عند إطلاقها، بل المراد بها الجهة الأدنى والسماء الجهة الأعلى - إنما يحتاج إلى سبب، وهذا السبب من جنس من يربطهم بالسماء، فالبشر يحتاجون إلى شخص من جنسهم يكون الاتصال بالسماء عن طريقه ﴿... بَشَرًا رَسُولًا﴾، ولكنه يُوحى إليه، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠).

وأن هذا الاتصال الذي اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون بواسطة بشر، اقتضت في ذات الوقت أن يحمل مؤهلات ومواصفات خاصة تمكنه من أداء هذه الوظيفة، وهو ما يُعرف بالعصمة.

فالإمام ﷺ هو الحبل المتصل بين الأرض والسماء، وهو الوحيد في زماننا الذي عن طريقه يصل للبشرية مقدرات أمورهم، على ما تقدّم في المقطع السابق. ولكن مع الأسف أن هذا الحبل الموجود والذي اقتضته الضرورة ولا بدّ منه بين السماء والأرض لا يمكن لنا أن نراه ونباشر معه ما نحتاج ونريد بسبب غيبته عنّا، وسيأتي في فقرة «بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُعَيَّبٍ لَمْ يَجُلْ مِنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَارِحٍ مَا نَزَحَ عَنَّا» الحديث عن الغيبة وأدلتها وآثارها، ولكن هذا لا يمنع من حصول أثر الارتباط به بالسماء، لأنّه الطريق الوحيد للاتصال بها.

* في (كمال الدين) بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ إِبرَاهِيمَ بْنِ مَهْزِيَارٍ أَنَّهُ وَرَدَ الْعِرَاقَ شَاكًا مُرْتَادًا، فَخَرَجَ إِلَيْهِ: ﴿قُلْ لِلْمَهْزِيَارِيِّ: قَدْ فَهَمْنَا مَا حَكَيْتَهُ عَنْ مَوَالِينَا بِنَاحِيَتِكُمْ، فَقُلْ هُمْ: أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، هَلْ أَمْرٌ إِلَّا بِمَا هُوَ كَائِنٌ

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ أَوْلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَكُم مَعَاقِلَ تَأْوُونَ إِلَيْهَا، وَأَعْلَامًا تَهْتَدُونَ بِهَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ ظَهَرَ الْمَاضِي (أَبُو مُحَمَّدٍ) (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ)، كَلَّمَا غَابَ عِلْمُ بَدَا عِلْمٌ، وَإِذَا أَفَلَ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَلَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ فَطَرَ قَدْ قَطَعَ السَّبَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، كَلَّا مَا كَانَ ذَلِكَ وَلَا يَكُونُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَيُظْهِرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهِونَ. يَا مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، لَا يَدْخُلُكَ الشُّكُّ فِيمَا قَدِمْتَ لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّي الْأَرْضَ مِنَ حُجَّةٍ...»^(١).

الوسائط بين السماء والأرض منهج إلهي:

حقيقة الارتباط بالسماء كانت لغاية، وإن هذه الغاية التي يتجه إليها الإنسان تكوينياً، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْ قِيَمَهُ﴾ (الانشقاق: ٦)، لا تتم إلا أن يكون هناك وسائط يقع على عاتقهم تأمين هذه المهمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٥١)، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠)، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ (النساء: ٤٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢).
وقد حفلت كتب الأخبار بأشكال مختلفة من الآثار لبيان هذه الحقيقة، وإليك جملة منها:

* في (الكافي) بسنده عن منصور بن حازم، قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ أَجَلٌ وَأَكْرَمٌ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ بِخَلْقِهِ، بَلِ الْخَلْقُ يُعْرَفُونَ بِاللَّهِ، قَالَ: «صَدَقْتَ»، قُلْتُ: إِنَّ مَنْ عَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ لِذَلِكَ الرَّبِّ رِضًا وَسَخَطًا،

(١) كمال الدين (ص ٤٨٦ و ٤٨٧ / باب ٤٥ / ح ٨).

وَأَنَّهُ لَا يُعْرَفُ رِضَاهُ وَسَخَطُهُ إِلَّا بِوَحْيٍ أَوْ رَسُولٍ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِهِ الْوَحْيُ فَقَدْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ الرَّسُلَ، فَإِذَا لَقِيَهُمْ عَرَفَ أَنَّهُمْ الْحُجَّةُ، وَأَنَّ لَهُمُ الطَّاعَةَ الْمَفْتَرَضَةَ. وَقُلْتُ لِلنَّاسِ: تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ هُوَ الْحُجَّةَ مِنْ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ؟ قَالُوا: بَلَى، قُلْتُ: فَحِينَ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ الْحُجَّةَ عَلَى خَلْقِهِ؟ فَقَالُوا: الْقُرْآنُ، فَتَنَظَرْتُ فِي الْقُرْآنِ فَإِذَا هُوَ يُجَاوِزُ بِهِ الْمُرْجِي وَالْقَدْرِي وَالزَّنْدِيْقِي الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِهِ حَتَّى يَغْلِبَ الرَّجَالَ بِخُصُومَتِهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَكُونُ حُجَّةً إِلَّا بِقِيَمٍ، فَمَا قَالَ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ كَانَ حَقًّا، فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ قِيَمَ الْقُرْآنِ؟ فَقَالُوا: ابْنُ مَسْعُودٍ قَدْ كَانَ يَعْلَمُ، وَعُمَرُ يَعْلَمُ، وَحَدِيثُهُ يَعْلَمُ، قُلْتُ: كُلُّهُ؟ قَالُوا: لَا، فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يُقَالُ: إِنَّهُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا كَانَ الشَّيْءُ بَيْنَ الْقَوْمِ فَقَالَ هَذَا: لَا أَدْرِي، وَقَالَ هَذَا: لَا أَدْرِي، وَقَالَ هَذَا: أَنَا أَدْرِي، فَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قِيَمَ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ طَاعَتُهُ مُفْتَرَضَةً، وَكَانَ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّ مَا قَالَ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ حَقٌّ، فَقَالَ: «رَحِمَكَ اللَّهُ»^(١).

* وفي (الغيبة للنعماني): قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَلَا إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي هَبَطَ بِهِ آدَمُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَجَمِيعَ مَا فَضَّلْتَ بِهِ النَّبِيِّينَ إِلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ فِي عِتْرَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، فَأَيْنَ يَتَاهُ بِكُمْ، بَلْ أَيْنَ تَذْهَبُونَ يَا مَنْ نُسِخَ مِنْ أَصْلَابِ أَصْحَابِ السِّفِينَةِ هَذَا مَثَلُهَا فِيكُمْ، فَكَمَا نَجَا فِي هَاتِيكَ مَنْ نَجَا فَكَذَلِكَ يَنْجُو مَنْ هَذِهِ مَنْ يَنْجُو، وَيَلْ لَنْ تَخْلَفَ عَنْهُمْ»^(٢).

إن هذه الوسائط تمثل المرأة التي تعكس لنا إرادة الله سبحانه وتعالى ومنهجه الذي وضعه لإيصالنا إليه، وإن هذا المنهج حصري، ومن يريد أن يأمن

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٦٨ و ١٦٩ / باب الاضطرار إلى الحجّة / ح ٢).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٥١).

٣٣٠ شرح دعاء الندبة

على نفسه من الهلاك وينجو يوم القيامة، عليه أن يصل من خلاله، فعليه تقبل ما يقوله الأولياء وطاعتهم.

جاءت هذه الفقرة المباركة لتحدثنا عن هذه الحالة التي زرعتها السماء في الأرض وقد اقتضتها تكوينية الإنسان وعجزه عن إدراك ما به يرتبط بالله سبحانه وتعالى، فلم يبق له من سبيل إلا أن يلجأ لتلك الوسائط التي بمقدار ارتباطه بها تعكس في مرآة روحه صور العبودية، ليُجسدها بعد ذلك عملاً تطبيقياً.

* * *

«صَاحِبُ يَوْمِ الْفَتْحِ».

تحدث القرآن الكريم وكذا الروايات الشريفة عن الفتح ويومه في عدة آيات وروايات من بينها:

* في (تفسير القمي): «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ» [الصف: ١٣]، يعني في الدنيا بفتح القائم، وأيضاً قال: فَتْحُ مَكَّةَ^(١).

* وفي (كمال الدين) بسنده عن ثابت بن دينار، عن سيّد العابدين عليّ بن الحسين، عن سيّد الشهداء الحسين بن عليّ، عن سيّد الأوصياء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْأَيُّمَةُ مِنْ بَعْدِي اثْنَا عَشَرَ، أَوْ هُمْ أَنْتَ يَا عَلِيُّ، وَآخِرُهُمُ الْقَائِمُ الَّذِي يَفْتَحُ اللَّهُ ﷻ عَلَى يَدَيْهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا»^(٢).

* وفي رواية ثالثة قيّدت النفع تبعاً للآية الشريفة: «قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ

(١) تفسير القمي (ج ٢ / ص ٣٦٦).

(٢) كمال الدين (ص ٢٨٢ / باب ٢٤ / ح ٣٥).

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٣٣١

الَّذِينَ... ﴿ (السجدة: ٢٩)، بأنَّ النِّعَ إِنَّمَا يَحْصِلُ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ لِمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ وَيُوقِنُ بِأَنَّ الْإِمَامَ ﷺ صَاحِبَ الْفَتْحِ ^(١).

وهذا المقطع الشريف من دعاء الندبة المبارك يتساءل عن صاحب هذا الفتح وعن اليوم الذي طال انتظاره، رغم أنَّ الآيات والروايات الشريفة وصفته بأنَّه قريب، وأنَّه مبین محبوب.

نعم حلول ذلك اليوم قريباً مشروط بالإيمان والتقوى، فعسى هذه النفس تركز إليهما ليأتي خير الفاتحين بصاحب يوم الفتح.

خطوات في طريق يوم الفتح:

اعلم أنَّه سيسبق ظهور الإمام ﷺ جملة من العلامات - سنشير إليها بعد قليل -، وتنتهي بظهوره ﷺ فترة الغيبة التامة الكبرى. تبدأ تدريجياً أحداث الظهور بالتكشُّف، وينتهي بذلك عصر طويل عاشته البشرية بعيدة عن مباشرة إمامها، وحُرِّمَت طيلة قرون عديدة منه.

كيف يعرف الإمام ﷺ أن وقت خروجه قد حان؟

هناك العديد من الطُّرُق التي يمكن أن يتعرَّف الإمام ﷺ من خلال أيِّ منها على وقت ظهوره، ومنها:

١ - بتحقيق العلامات التي دلَّت على أوان الظهور، فهو جزماً عارف بانطباقها على مصاديقها الحقيقية.

٢ - أنَّه ﷺ يعلم ذلك من خلال النداء باسمه واسم أبيه ﷺ، وهو الأقدر على معرفة هذا النداء وتمييزه، فعن أبي بصير، قال: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «يُنَادَى بِاسْمِ الْقَائِمِ: يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، قُمْ» ^(٢).

(١) راجع: ينابيع المودة (ج ٣ / ص ٢٤٦ / باب ٧١ / ح ٣٧).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٨٧ / باب ١٤ / ح ٦٤).

٣ - قتل النفس الزكية التي يرسلها الإمام عليه السلام إلى مكة المكرمة حيث ورد عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل إلى أن قال: «يَقُولُ الْقَائِمُ عليه السلام لِأَصْحَابِهِ: يَا قَوْمَ إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَا يُرِيدُونَنِي، وَلَكِنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِمْ لِأَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَنْبَغِي لِيُثْبِتُوا أَنْ يَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ. فَيَدْعُو رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَيَقُولُ لَهُ: ائْمِضْ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَقُلْ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنَا رَسُولُ فُلَانٍ إِلَيْكُمْ، وَهُوَ يَقُولُ لَكُمْ: إِنَّا أَهْلُ بَيْتِ الرَّحْمَةِ، وَمَعْدِنُ الرِّسَالَةِ وَالْخِلاَفَةِ، وَنَحْنُ ذُرِّيَّةُ مُحَمَّدٍ وَسَالَةَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّا قَدْ ظَلَمْنَا وَأَضْطَهَدْنَا وَقَهَرْنَا وَابْتَزَّ مِنَّا حَقَّنَا مُنْذُ قُبِضَ نَبِيُّنَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، فَنَحْنُ نَسْتَنْصِرُكُمْ فَانصُرُونَا. فَإِذَا تَكَلَّمْتَ هَذَا الْفَتَى بِهَذَا الْكَلَامِ أَتَوْا إِلَيْهِ فَدَبَّحُوهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَهِيَ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ، فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ الْإِمَامَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَلَا أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَا يُرِيدُونَنَا، فَلَا يَدْعُونَهُ حَتَّى يُخْرَجَ فِيهِبُطُ مِنْ عَقَبَةِ طَوًى فِي ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَثَلَاثَةَ عَشَرَ...»^(١).

٤ - لو لم يكن بيدنا نصٌّ يدلُّ على كيفية معرفته عليه السلام بزمان خروجه، فإنَّنا نجزم بعد القطع بعصمته وإمامته أنَّ اتِّصاله بالغيب يقتضي أن يعلم بزمان خروجه إذا حان موعده على نحو الجزم. وليس حصول هذه الأمور على نحو مانعة الجمع، فقد تجتمع مع بعضها وقد تحصل واحدة منها.

كيف يمكن لنا أن نعرفه عليه السلام إذا خرج؟

١ - بانطباق العلامات التي تقدَّم الحديث عنها على نحو الجزم أو الاطمئنان، قال الشيخ النعماني رحمته الله: (هذه العلامات... وتواترها واتِّفاقها موجبة ألا يظهر القائم عليه السلام إلا بعد مجيئها وكونها)^(٢).

(١) بحار الأنوار (ج ٥٢ / ص ٣٠٧ / ح ٨١)، عن سرور أهل الإيمان (ص ٩٣ و ٩٤).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٩١).

٢ - أن لا يُسئل عن شيء إلا أجاب عنه، كما ورد ذلك عن الإمام الباقر عليه السلام: «... وَلَا يُسْئَلُ عَنْ شَيْءٍ بَيْنَ صَدَفَيْهَا إِلَّا أَجَابَ»^(١).

٣ - أن يظهر الإعجاز على يديه^(٢).

٤ - انتشار العلم من نفسه ونطقه للإمام عليه السلام بالخروج، وكذا نطق

السيف:

* في (كمال الدين) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل جاء فيه: «... وَهَكَذَا يَكُونُ سَبِيلُ الْقَائِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ عِلْمٌ إِذَا حَانَ وَقْتُ خُرُوجِهِ ائْتَشَرَ ذَلِكَ الْعَلَمُ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْطَقَهُ اللَّهُ ﷻ، فَنَادَاهُ: أُخْرِجْ يَا وَلِيَّ اللَّهِ فَاقْتُلْ أَعْدَاءَ اللَّهِ، وَلَهُ سَيْفٌ مُغَمَّدٌ إِذَا حَانَ وَقْتُ خُرُوجِهِ ائْتَلَعَ ذَلِكَ السَّيْفُ مِنْ غَمْدِهِ، وَأَنْطَقَهُ اللَّهُ ﷻ، فَنَادَاهُ السَّيْفُ: أُخْرِجْ يَا وَلِيَّ اللَّهِ فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَقْعُدَ عَنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ...»^(٣).

علامات الظهور من أين جاءت؟ وما هي دلالتها؟

ذُكِرَ معرفة ظهور الإمام ﷺ عدّة علامات، وجاءت الأخبار بذكرها، قال الشيخ المفيد عليه السلام: (قد جاءت الأخبار بذكر علامات لزمان قيام القائم المهدي عليه السلام وحوادث تكون أمام قيامه وآيات ودلالات، فمنها: خروج السفيناني، وقتل الحسيني...)، ثم ذكر العشرات من العلامات إلى أن قال: (كما جاءت بذلك الأخبار، ومن جملة هذه الأحداث محتومة ومنها مشترطة، والله أعلم بما يكون، وإنّما ذكرناها على حسب ما ثبت في الأصول وتضمّنها الأثر المنقول)^(٤).

(١) الغيبة للنعماني (ص ٢٤٩ و ٢٥٠ / باب ١٣ / ح ٤١).

(٢) المسائل العشر في الغيبة (ص ١٢٢).

(٣) كمال الدين (ص ١٥٥ و ١٥٦ / باب ٧ / ح ١٧).

(٤) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٦٨ - ٣٧٠).

كما وذكر الشيخ الطبرسي رحمته الله عين عبارته المتقدمة^(١).

قال الشيخ النعماني رحمته الله: (هذه العلامات التي ذكرها الأئمة عليهم السلام مع كثرتها واتصال الروايات وتواترها واتفاقها موجبة ألا يظهر القائم عليه السلام إلا بعد مجيئها وكونها، إذ كانوا قد أخبروا أن لا بد منها، وهم الصادقون، حتى إنه قيل لهم: نرجو أن يكون ما نُؤمّل من أمر القائم عليه السلام ولا يكون قبله السفيناني، فقالوا: «بلى والله، إنه لمن المحتوم الذي لا بد منه»، ثم حققوا كون العلامات الخمس التي أعظم الدلائل والبراهين على ظهور الحق بعدها، كما أبطلوا أمر التوقيت، وقالوا: «من روى لكم عنا توقيتاً فلا تهابوا أن تكذبوه كائناً من كان، فإننا لا نُوقّت»، وهذا من أعدل الشواهد على بطلان أمر كل من ادّعى أو ادّعى له مرتبة القائم ومنزلته، وظهر قبل مجيء هذه العلامات...^(٢)^(٣).

فما أدقها من عبارة، وأخصره من تعبير عن أمور عديدة.

وبذلك يتبين لنا أن معنى العلامات وماهيتها في كونها حوادث تكون قبل قيام الإمام عليه السلام أو معه، وتكون دالة على ظهوره.

تقسيم العلامات إلى المحتوم وغيره:

ذكرت الروايات عدّة تقسيمات للعلامات من أهمها انقسامها إلى المحتومة وغير المحتومة، ومما دلّ على ذلك:

ما روي عن مُعَلَّى بْنِ خُنَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ:

(١) تاج الموالي (ص ٧٠ - ٧٤).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٩١ و ٢٩٢).

(٣) من أجل ما تمتاز به المهدوية أن الاستدلال عليها متعدد الجوانب أو الجهات، وتعدّ روايات العلامات قبل قيام الإمام عليه السلام من أدلة صححتها.

«مِنَ الْأَمْرِ مَحْتُومٌ، وَمِنْهُ مَا لَيْسَ بِمَحْتُومٍ، وَمِنَ الْمَحْتُومِ خُرُوجُ السُّفْيَانِيِّ فِي رَجَبٍ»^(١).

وفي نصٍّ آخر عن مُرَّانَ بْنِ أَعْيَنَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجْلاً مُسَمًّى عِنْدَهُ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا أَجْلَانِ: أَجْلٌ مَحْتُومٌ، وَأَجْلٌ مَوْقُوفٌ»، فَقَالَ لَهُ مُرَّانُ: مَا الْمَحْتُومُ؟ قَالَ: «الَّذِي اللَّهُ فِيهِ الْمَشِيئَةُ»، قَالَ مُرَّانُ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَجْلُ السُّفْيَانِيِّ مِنَ الْمَوْقُوفِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «لَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْمَحْتُومِ»^(٢).

وفي نصٍّ ثالث: «وَإِنَّ السُّفْيَانِيَّ مِنَ الْمَحْتُومِ الَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ»^(٣).

وتلاحظ تعريف الإمام عليه السلام للمحتوم بأنه لا بدَّ منه، وقسمه على كون

السفياي منه.

العلامات المحتمومة:

- ١ - روى الشيخ الصدوق رحمته الله بسند تام^(٤) عن عُمَرَ بْنِ حَنْظَلَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «قَبْلَ قِيَامِ الْقَائِمِ خَمْسُ عَلَامَاتٍ مَحْتُومَاتٍ: الْيَمَانِيُّ، وَالسُّفْيَانِيُّ، وَالصَّيْحَةُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ، وَالْحَسْفُ بِالْيَدَاءِ»^(٥).
- ٢ - وروى الشيخ الطوسي رحمته الله عن أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ

(١) الغيبة للنعماني (ص ٣١٠ و ٣١١ / باب ١٨ / ح ٢).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٣١٢ و ٣١٣ / باب ١٨ / ح ٥)؛ هذا ولكن الصحيح ما ورد في بحار الأنوار (ج ٥٢ / ص ٢٤٩ / ح ١٣٣) عن الغيبة للنعماني، وفيه: قَالَ لَهُ مُرَّانُ: مَا الْمَحْتُومُ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَكُونُ غَيْرُهُ»، قَالَ: وَمَا الْمَوْقُوفُ؟ قَالَ: «هُوَ الَّذِي اللَّهُ فِيهِ الْمَشِيئَةُ...»، فراجع.

(٣) الغيبة للنعماني (ص ٣١٣ / باب ١٨ / ح ٦).

(٤) سوى الحسين بن الحسن بن أبان، ويمكن توثيقه بعدة وجوه ذُكرت في محلها. أمّا عمر بن حنظلة فقد تقدّمت وجوه توثيقه، فراجع.

(٥) كمال الدين (ص ٦٥٠ / باب ٥٧ / ح ٧).

الله ﷺ: «إِنَّ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ: خُرُوجُ السُّفْيَانِيِّ مِنَ الْمَحْتُومِ، وَالنِّدَاءُ مِنَ الْمَحْتُومِ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمَحْتُومِ، وَأَشْيَاءُ كَانَتْ يَقُولُهَا مِنَ الْمَحْتُومِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «وَإِخْتِلَافُ بَنِي فُلَانٍ مِنَ الْمَحْتُومِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الرَّزِيَّةِ مِنَ الْمَحْتُومِ...»^(١).

ومنه يظهر أنَّ عدد المحتوم أكثر مما في النص السابق.

هذا، وليعلم أنه ليس كل ما ورد في نص هو من علامات الظهور، بل بعضها لعله من علامات أشرط الساعة.

٣ - وذكرت عدة مصادر وعدة روايات بأسانيد مختلفة: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ هَذَا الْأَمْرِ انْكِسَافَ الْقَمَرِ لِحَمْسٍ تَبَقَى، وَالشَّمْسِ لِحَمْسٍ عَشْرَةَ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَعِنْدَهُ يَسْقُطُ حِسَابُ الْمُنَجِّمِينَ»^(٢).

وفي نص آخر أنها آية لم تكن منذ أهبط الله آدم ﷺ أبداً، حتى إن بعضهم أراد أن يصحح للإمام ﷺ، فقال: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، تَنَكَّسِفُ الشَّمْسُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَالْقَمَرُ فِي النِّصْفِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ﷺ: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا تَقُولُ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ لَمْ تَكُونَا مُنْذُ هَبَطَ آدَمُ ﷺ»^(٣).

وهذا اللسان قد يدخل في الحتميات.

٤ - روى الشيخ النعماني رحمه الله بسند تام عن عبد الملك بن أعين، قال: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ ﷺ، فَجَرَى ذِكْرُ الْقَائِمِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: أَرْجُو أَنْ يَكُونَ عَاجِلاً وَلَا يَكُونَ سُفْيَانِيًّا، فَقَالَ: «لَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْمَحْتُومِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ»^(٤).

(١) الغيبة للطوسي (ص ٤٣٥ / ح ٤٢٥).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٨٠ / باب ١٤ / ح ٤٦)، كمال الدين (ص ٦٥٥ / باب ٥٧ / ح ٢٥).

(٣) الكافي (ج ٨ / ص ٢١٢ / ح ٢٥٨).

(٤) الغيبة للنعماني (ص ٣١٢ / باب ١٨ / ح ٤).

٥ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «النداء من المحتوم، والسفياي من المحتوم، واليماي من المحتوم، وقتل النفس الزكية من المحتوم، وكف يطلع من السماء من المحتوم»، قال: «وفرعة في شهر رمضان توقيظ النائم، وتفرغ اليقظان، وتخرج الفتاة من حدرها»^(١).

العلامات غير الحتمية:

والمراد من غير الحتمي من العلامات هو ما يمكن أن يقع وما يمكن أن لا يقع، بخلاف الحتمي الذي لا بد منه.

روى الشيخ النعماني عليه السلام بسند تام عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث طويل ذكر فيه العلامات، جاء فيه: «... أولها اختلاف بني العباس...، ومناد ينادي من السماء...، فأول أرض تحرب أرض الشام، ثم يختلفون عند ذلك على ثلاث رايات: راية الأصبه، وراية الأبقع، وراية السفياي، فيلتقي السفياي بالأبقع فيقتلون، فيقتله السفياي ومن تبعه، ثم يقتل الأصبه، ثم لا يكون له همة إلا الإقبال نحو العراق، ويمر جيشه بقرقيسياء، فيقتلون بها، فيقتل بها من الجبارين مائة ألف، ويبعث السفياي جيشاً إلى الكوفة...، فيصيبون من أهل الكوفة قتلاً وصلباً وسبياً، فبينما هم كذلك إذ أقبلت رايات من قبل خراسان...، ومعهم نفر من أصحاب القائم...، ويبعث السفياي بعثاً إلى المدينة، فينفر المهدي منها إلى مكة...، حتى يدخل مكة خائفاً يترقب على سنة موسى بن عمران عليه السلام...، فينزل أمير جيش السفياي البيداء، فينادي مناد من السماء: يا بيداء، بيدي القوم، فيخسف بهم...»، إلى أن يقول: «... والقائم يومئذ بمكة...، فيجمع الله عليه أصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً...»^(٢).

(١) الغيبة للنعماني (ص ٢٦١ و ٢٦٢ / باب / ح ١١).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٨٨ - ٢٩١ / باب ١٤ / ح ٦٧).

وقد ذكر الشيخ المفيد عليه السلام جملة من العلامات غير الحتمية، بل وبعض المحتومة بما نصه: (قَدْ جَاءَتْ الْأَخْبَارُ بِذِكْرِ عِلَامَاتٍ لِمَازِنِ قِيَامِ الْمَهْدِيِّ عليه السلام وَحَوَادِثَ تَكُونُ أَمَامَ قِيَامِهِ وَآيَاتٍ وَدَلَالَاتٍ، فَمِنْهَا: خُرُوجُ السُّفْيَانِيِّ، وَقَتْلُ الْحُسَيْنِيِّ، وَاخْتِلَافُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْمَلِكِ الدُّنْيَاوِيِّ، وَكُسُوفُ الشَّمْسِ فِي النَّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَخُسُوفُ الْقَمَرِ فِي آخِرِهِ عَلَى خِلَافِ الْعَادَاتِ، وَخَسْفُ الْبَيْدَاءِ، وَخَسْفُ الْمَغْرِبِ، وَخَسْفُ الْمَشْرِقِ، وَرُكُودُ الشَّمْسِ مِنْ عِنْدِ الزَّوَالِ إِلَى وَسْطِ أَوْقَاتِ الْعَصْرِ، وَطُلُوعُهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، وَقَتْلُ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ بظَهْرِ الْكُوفَةِ فِي سَبْعِينَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَذَبْحُ رَجُلٍ هَاشِمِيٍّ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَهَدْمُ سُورِ الْكُوفَةِ، وَإِقْبَالُ رَايَاتِ سُودٍ مِنْ قِبَلِ خُرَاسَانَ، وَخُرُوجِ الْيَمَانِيِّ، وَظُهُورِ الْمَغْرِبِيِّ بِمِصْرَ وَتَمَلُّكِهِ لِلشَّامَاتِ، وَنُزُولِ التُّرْكِ الْجَزِيرَةَ، وَنُزُولِ الرُّومِ الرَّمْلَةَ، وَطُلُوعِ نَجْمٍ بِالْمَشْرِقِ يُضِيءُ كَمَا يُضِيءُ الْقَمَرُ ثُمَّ يَنْعَطِفُ حَتَّى يَكَادَ يَلْتَقِي طَرْفَاهُ، وَحُمْرَةُ تَظْهَرُ فِي السَّمَاءِ وَتَنْتَشِرُ فِي أَفَاقِهَا، وَنَارٌ تَظْهَرُ بِالْمَشْرِقِ طَوَّالًا وَتَبْقَى فِي الْجَوِّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَخَلْعُ الْعَرَبِ أَعْتَبَهَا وَتَمَلُّكُهَا الْبِلَادَ وَخُرُوجُهَا عَنْ سُلْطَانِ الْعَجَمِ، وَقَتْلُ أَهْلِ مِصْرَ أَمِيرِهِمْ، وَخَرَابُ الشَّامِ، وَاخْتِلَافُ ثَلَاثَةِ رَايَاتٍ فِيهِ، وَدُخُولُ رَايَاتِ قَيْسٍ وَالْعَرَبِ إِلَى مِصْرَ، وَرَايَاتِ كِنْدَةَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَوُرُودُ حَيْلٍ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ حَتَّى تُرْبَطَ بِفِنَاءِ الْحِيرَةَ، وَإِقْبَالُ رَايَاتِ سُودٍ مِنَ الْمَشْرِقِ نَحْوَهَا، وَبَثْقُ فِي الْفَرَاتِ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَاءُ أَرْقَةَ الْكُوفَةِ، وَخُرُوجُ سِتِّينَ كَذَّابًا كُلُّهُمْ يَدْعِي النُّبُوَّةَ، وَخُرُوجُ إِثْنَيْ عَشَرَ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ كُلُّهُمْ يَدْعِي الْإِمَامَةَ لِنَفْسِهِ، وَإِحْرَاقُ رَجُلٍ عَظِيمِ الْقَدْرِ مِنْ شِيعَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ بَيْنَ جَلُولَاءَ وَخَانِقِينَ، وَعَقْدُ الْجَسْرِ مِمَّا بَلَى الْكَرْخَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، وَارْتِفَاعُ رِيحِ سُودَاءَ بِهَا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَزَلْزَلَةٌ حَتَّى يَنْخَسِفَ كَثِيرٌ مِنْهَا، وَخَوْفٌ يَشْمَلُ أَهْلَ الْعِرَاقِ، وَمَوْتُ ذَرِيْعٍ فِيهِ، وَنَقْصُ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالشَّمَرَاتِ، وَجَرَادٌ يَظْهَرُ فِي أَوَانِهِ وَفِي غَيْرِ أَوَانِهِ

حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى الزَّرْعِ وَالْغَلَّاتِ، وَقَلَّةٌ رَيْعٌ لِمَا يَزْرَعُهُ النَّاسُ، وَاخْتِلَافٌ صِنْفَيْنِ مِنَ الْعَجَمِ، وَسَفْكٌ دِمَاءٍ كَثِيرَةٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَخُرُوجُ الْعَبِيدِ عَنْ طَاعَةِ سَادَاتِهِمْ وَقَتْلُهُمْ مَوَالِيَهُمْ، وَمَسْخُ لِقَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ حَتَّى يَصِيرُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وَعَلَبَةً الْعَبِيدِ عَلَى بِلَادِ السَّادَاتِ، وَنِدَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَسْمَعَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّ أَهْلِ لُغَةٍ بَلَّغَتِهِمْ، وَوَجْهٌ وَصَدْرٌ يَظْهَرَانِ مِنَ السَّمَاءِ لِلنَّاسِ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ، وَأَمْوَاتٌ يُنْشَرُونَ مِنَ الْقُبُورِ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا فَيَتَعَارَفُونَ فِيهَا وَيَتَزَاوَرُونَ، ثُمَّ يُخْتَمُ ذَلِكَ بِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ مَطْرَةً تَتَّصِلُ، فَتُحْيَا بِهَا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا، وَتُعْرِفُ بَرَكَاتِهَا، وَتَزُولُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّ عَاهَةِ عَنْ مُعْتَقِدِي الْحَقِّ مِنْ شِيعَةِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَعْرِفُونَ عِنْدَ ذَلِكَ ظُهُورَهُ بِمَكَّةَ، فَيَتَوَجَّهُونَ نَحْوَهُ لِنُصْرَتِهِ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ^(١).

أين يكون الإمام ﷺ أوائل ظهوره؟

تذكر الروايات أن الإمام ﷺ يكون في المدينة، ومنها ما رواه الشيخ النعماني رحمه الله بسند صحيح عن الإمام الباقر عليه السلام: «... وَيَبْعَثُ السُّفْيَانِيُّ بَعْثًا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَيَنْفِرُ الْمَهْدِيُّ مِنْهَا إِلَى مَكَّةَ، فَيَبْلُغُ أَمِيرَ جَيْشِ السُّفْيَانِيِّ أَنَّ الْمَهْدِيَّ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ، فَيَبْعَثُ جَيْشًا عَلَى أَثَرِهِ، فَلَا يَدْرِكُهُ حَتَّى يَدْخُلَ مَكَّةَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ عَلَى سُنَّةِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ...»^(٢).

اجتماع الـ (٣١٣):

بعد عدة أحداث، ومنها إرسال الإمام ﷺ النفس الزكية إلى أهل مكة وقتلهم له، يتحرك الإمام ﷺ، فقد ورد: «... فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ الْإِمَامَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ:

(١) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٦٨ - ٣٧٠).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٨٨ - ٢٩١ / باب ١٤ / ح ٦٧).

أَلَا أَخْبَرْتُمْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَا يُرِيدُونَنا، فَلَا يَدْعُونَهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ فِيهِبُطُ مِنْ عَقَبَةِ طُوًى فِي ثَلَاثِيئَةٍ وَثَلَاثَةِ عَشَرَ رَجُلًا عِدَّةَ أَهْلِ بَدْرٍ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، فَيُصَلِّي فِيهِ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، وَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، ثُمَّ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُصَلِّي عَلَيْهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَضْرِبُ عَلَى يَدِهِ وَيَبَايِعُهُ جَبْرَيْلُ وَمِيكَائِيلُ...»^(١).

خطبة الإمام ﷺ في مكة:

في نصٍّ صحيح جاء فيه: «... فَيَقُومُ الْقَائِمُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ فَيُصَلِّي وَيَنْصَرِفُ وَمَعَهُ وَزِيرُهُ...»، ثمَّ يُخَاطَبُ بِالنَّاسِ وَهِيَ خُطْبَةٌ مُحَاجَّةٌ يَذْكُرُ فِيهَا صَلَاتَهُ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْقُرْآنَ إِلَى أَنْ يَقُولَ: «... أَلَا إِنَّا نَسْتَنْصِرُ اللَّهَ الْيَوْمَ وَكُلَّ مُسْلِمٍ، وَيَجِيءُ وَاللَّهِ ثَلَاثِيئَةً وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فِيهِمْ خَمْسُونَ امْرَأَةً يَجْتَمِعُونَ بِمَكَّةَ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، قَزَعًا كَقَزَعِ الْحَرْيفِ، يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا...، يُبَايِعُونَهُ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَمَعَهُ عَهْدُ نَبِيِّ اللَّهِ وَرَأْيَتُهُ وَسِلَاحُهُ وَوَزِيرُهُ مَعَهُ، فَيُنَادِي الْمُنَادِي بِمَكَّةَ بِاسْمِهِ وَأَمْرِهِ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّىٰ يَسْمَعَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ، اسْمُهُ اسْمُ نَبِيِّ، مَا أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ فَلَمْ يُشْكَلْ عَلَيْكُمْ عَهْدُ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَرَأْيَتُهُ وَسِلَاحُهُ، وَالنَّفْسُ الرَّزِيَّةُ مِنْ وُلْدِ الْحُسَيْنِ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ هَذَا فَلَا يُشْكَلْ عَلَيْكُمْ الصَّوْتُ مِنْ السَّمَاءِ بِاسْمِهِ وَأَمْرِهِ...»^(٢).

والأحداث كثيرة والبحث في تفاصيلها يُخْرِجُنَا عَنْ رِسْمِ الشَّرْحِ.

بلوغ ملكه جميع الأرض:

فقد روي عن رسول الله ﷺ: «... وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَيَجْرِي سُنَّتُهُ

(١) بحار الأنوار (ج ٥٢ / ص ٣٠٧ / ح ٨١)، عن سرور أهل الإيمان (ص ٩٤).

(٢) تفسير العياشي (ج ١ / ص ٦٤ - ٦٦ / ح ١١٧).

فِي الْقَائِمِ مِنْ وُلْدِي، فَيَبْلُغُهُ شَرْقَ الْأَرْضِ وَغَرْبَهَا...، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ بِهِ عَدْلًا
وَقِسْطًا كَمَا مِلْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا^(١).

أيها الموالى لا تُوَقِّتْ وَتُطَبِّقْ مَا لَمْ تَجْزَمْ:

من الطبيعي أن يستعجل الإنسان، فهو قد خُلِقَ من عجل، ومن الطبيعي
أن يستعجل المؤمن الخير ويسارع إليه، إذ قد ندبه الله تعالى لذلك، لكن في عدّة
روايات ورد الذمُّ للاستعجال!

من هنا يفتح أماننا باب صعب لمن ولجه بغير منهج ودراية، وسهل لمن
سار على نهج الهداية باتباعه آثار أهل الولاية.

نحنُ نعلمُ أننا نعيش في زمان غيبية وانتظار، وهي حالة بطبيعتها تورثنا
صفة الترقّب، فيؤكّد لدينا الاستعجال للمتربّب، وهنا جاء منهج أهل البيت عليهم السلام
بذمّ المستعجلين رغم ممدوحية الانتظار ومحبوبية أن يُعجّل الله تعالى بفرج العدل
الغائب، وأينا يكره أن يرى العدل منتشرًا؟

إلّا أنّه لَمَّا كان للاستعجال آفات جسام وأمراض فتّاقة تُهلك
الإنسان ومن سار خلفه، فقد جاء النهي من أهل البيت عليهم السلام عن
الاستعجال موائماً للحالة التي نعيشها، فنحنُ في زمن التمحيص نعيش بين
زوايا ثلاثة:

الأولى بكذب الوقتين، والثانية بهلاك المستعجلين، والزاوية الثالثة بنجاة
المسلمين، وكانت النتيجة: وإلينا يصيرون.

فالوقّات رغم أنّه يُنظرُ إلّا أنّ الخير جاء بتكذيبه لاستعجاله.
فَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَثِيرٍ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ

(١) كمال الدّين (ص ٣٩٤ / باب ٣٨ / ح ٤).

٣٤٢ شرح دعاء الندبة

مِهْزَمٌ، فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي نَنْتَظِرُ مَتَى هُوَ؟ فَقَالَ:
«يَا مِهْزَمٌ، كَذَبَ الْوَقَاتُونَ، وَهَلَكَ الْمُسْتَعْجِلُونَ، وَنَجَا الْمُسْلِمُونَ»^(١).

أَمَّا الْمُنْتَظَرُ لِلْإِسْتِعْجَالِ وَالْمُتَلَبِّسِ بِهِ فَهُوَ هَالِكٌ، لِأَنَّهُ سَيَصِيرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ
الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ اتِّبَاعاً وَانْحِرَافاً، إِذْ لَمْ يَأْنِ أَوْانِهِمْ، وَهُوَ مُسْتَعْجِلٌ فِي النَّتِيجَةِ، فَلَا بَدَّ
أَنْ يَتَّبِعَ أَشْخَاصاً أُخْرَ غَيْرِهِمْ، فَيَكُونُ قَدْ أَهْلَكَ نَفْسَهُ وَأَضَلَّ غَيْرَهُ، وَهُوَ الصِّفَةُ
الْعَمَلِيَّةُ لِهَذَا الْمَرَضِ.

فِيمَا يَكُونُ الْمُسْلِمُ صَائِراً مَعَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ كَمَا قُلْنَا مِنْ مَعَانِي
حَدِيثِ الثَّقَلَيْنِ فِي الْإِتِّبَاعِ وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّمَسُّكِ.

فَلِمَ الْعَجَلَةُ^(٢) إِذَا كَانَ غَيْرَ الْمُسْتَعْجِلِ هُوَ النَّاجِي وَالْمُسْتَعْجِلُ هَالِكٌ
وَمُنْحَرِفٌ وَضَالٌّ؟

أَفِيَعْقَلُ أَنْ يَطْلُبَ الْعَاقِلُ اسْتِعْجَالاً فِيهِ هَلَاكُ نَفْسِهِ وَمَنْ يُسِيرُ خَلْفَهُ؟
أَلَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَرَوَّى وَنَلْتَمَسَ مِنْ مَعِينٍ مَا رَفَدْنَا بِهِ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مُخَارِجَ نَجَاةٍ، فَنَبْتَعِدَ بِذَلِكَ عَنْ تِيهِ الْأَفْكَارِ وَالنَّظَرِيَّاتِ؟

لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِاسْتِعْجَالِ الْخَيْرِ مِنَ الْبَسْطَاءِ وَتَرْوِيحِ النَّظَرِيَّاتِ مِنْ غَيْرِ
الْعُلَمَاءِ، إِذْ الصَّالِحُ الْعَاقِلُ قَاصِدٌ لِلنَّجَاةِ، فَلَا يُرَوِّجُ لِنَظَرِيَّةٍ بَاطِلَةٍ يَكُونُ بِهَا ضَالًّا
لِنَفْسِهِ وَمُضَالًّا بِتَصْدِيرِهَا لِغَيْرِهِ إِلَّا لِلْإِسْتِعْجَالِ، فَلِمَ الْعَجَلَةُ؟

التوقيت وأدلة ذمه:

التوقيت: هو ذكر وقت محدد بيوم أو شهر من سنة معينة أو غيرهما من

(١) الكافي (ج ١ / ص ٣٦٨ / باب كراهية التوقيت / ح ٢).

(٢) قال الراغب في مفرداته (ص ٣٢٣ / مادة عجل): (العجلة طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو
من مقتضى الشهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامة القرآن، حتّى قيل: العجلة من الشيطان).

الفصل الثالث: الندبة للإمام عليه السلام ٣٤٣

الألفاظ الدالة عليها، كالعقد والقرن، أو ما يفهم العرف أنه تحديد، وهذا يتنافى وما ذكرته الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

فعن أبي خالد الكابلي يسأل الإمام الباقر عليه السلام عن التوقيت، فيجيبه عليه السلام:
«... سَأَلْتَنِي وَاللَّهِ يَا أَبَا خَالِدٍ عَنْ سُؤَالٍ مُّجْهِدٍ، وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ أَمْرٍ مَا كُنْتُ مُحَدِّثًا بِهِ أَحَدًا، وَلَوْ كُنْتُ مُحَدِّثًا بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ...»^(١).

وفي نص آخر: «... مَنْ أَخْبَرَكَ عَنَّا تَوْقِيَةً فَلَا تَهَابَنَّ أَنْ تُكَذِّبَهُ، فَإِنَّا لَا نُوقِّتُ لِأَحَدٍ وَقْتًا»^(٢).

وعندما سُئِلَ الإمام الحجّة عليه السلام عن ذلك، أجاب عليه السلام في توقيع إسحاق بن يعقوب: «... وَأَمَّا ظُهُورُ الْفَرَجِ فَإِنَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَكَذَبَ الْوَقَاتُونَ»^(٣).
من أدلة بطلان التوقيت: ما يمكن أن يُستدل به على بطلان التوقيت من وجوه من غير ما روي أعلاه أمور، منها:

١ - الأصل في معرفة المستقبل على نحو الجزم واليقين ممنوعة، لأنه من الغيب، والاطلاع عليه ليس متيسراً لكل أحد، قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب: ٦٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ (لقمان: ٣٤).

وفي خصوص الإمام الحجّة بن الحسن عليه السلام وظهوره، فقد روي في أنه عليه السلام من الغيب، وأنه عليه السلام كالساعة، فعن الإمام الرضا عليه السلام: «... وَأَمَّا مَتَى فَإِخْبَارٌ عَنِ الْوَقْتِ، فَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى يَخْرُجُ الْقَائِمُ مِنْ دُرِّيَّتِكَ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: مَثَلُهُ مَثَلُ السَّاعَةِ الَّتِي ﴿لَا

(١) الغيبة للنعماني (ص ٢٩٩ و ٣٠٠ / باب ١٦ / ح ٢).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٣٠٠ / باب ١٦ / ح ٣).

(٣) كمال الدين (ص ٤٨٣ - ٤٨٥ / باب ٤٥ / ح ٤).

يُجَلِّئُهَا لَوْ قَتِيلًا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴿[الأعراف: ١٨٧]﴾^(١).

٢ - أن الوقت كان معلوماً عند أهل البيت عليهم السلام، ولكن الناس أشاعته وكشفتها فرفعه الله تعالى، ومما دلّ على أنه كان موجوداً عندهم عدّة نصوص، منها:
 أ - عن إسحاق بن عمّار الصيرفي، قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «قَدْ كَانَ لِهَذَا الْأَمْرِ وَقْتُ، وَكَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ، فَحَدَّثْتُمْ بِهِ وَأَدَعْتُمُوهُ، فَأَخَّرَهُ اللَّهُ عز وجل»^(٢).

ب - عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قُلْتُ لَهُ: مَا لِهَذَا الْأَمْرِ أَمَدٌ يُنْتَهَى إِلَيْهِ وَيُرِيحُ أَبْدَانَنَا؟ قَالَ: «بَلَى، وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَدَعَيْتُمْ فَأَخَّرَهُ اللَّهُ»^(٣).
 ج - عن أبي حمزة، قال: سَمِعْتُ الْبَاقِرَ عليه السلام يَقُولُ: «يَا ثَابِتُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَانَ وَقْتُ هَذَا الْأَمْرِ فِي سَنَةِ السَّبْعِينَ، فَلَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ عليه السلام اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ فَأَخَّرَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ، فَحَدَّثْنَاكُمْ بِذَلِكَ فَأَدَعَيْتُمْ وَكَشَفْتُمْ قِنَاعَ السِّرِّ، فَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِهَذَا الْأَمْرِ بَعْدَ ذَلِكَ وَقْتًا عِنْدَنَا، ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِي وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]»^(٤).

٣ - ما دلّ على أنه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله تعالى ذلك اليوم حتى يخرج المهدي عليه السلام، وهو يدلّ على تعدّد التوقيت له عليه السلام.
 ومما روي في ذلك ما نقله الشيخ الصدوق رحمته الله في باب الوصية من لدن آدم عليه السلام حيث قال: (... وقد وردت الأخبار الصحيحة بالأسانيد القوية أن

(١) كمال الدين (ص ٣٧٢ و ٣٧٣ / باب ٣٥ / ح ٦).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٣٠٣ / باب ١٦ / ح ٨).

(٣) الغيبة للنعماني (ص ٢٩٩ / باب ١٦ / ح ١).

(٤) الغيبة للنعماني (ص ٣٠٣ و ٣٠٤ / باب ١٦ / ح ١٠).

رسول الله ﷺ أوصى بأمر الله تعالى (...)، إلى أن يقول: (وأوصى الحسن بن عليّ إلى ابنه حجّة الله القائم بالحقّ الذي لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً^(١)).
فكونه ﷺ يخرج حتماً ولو في آخر يوم يكشف عن عدم القدرة على تحديد هذا اليوم بنحو الجزم والعلم.

تطابق الأسماء لا يعني العلامية:

وقد ادّعى الانطباق جماعة، ظناً منهم أنّ التطابق في الأسماء أو الصفات أو الألقاب كاليمني أو الخراساني أو غيرها كافٍ في إثبات ذلك، فإنّ المشابهة في الاسم أو اللقب أو بعض الصفات الجسديّة غير كافية، إذ يوجد في زمانٍ واحدٍ منها المئات بل أكثر، فيكون الجزم بها لبعضهم دون غيرهم ترجيح بلا مرجح.
ومما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في مقام تعجبهم ممّن يقوم بتطبيق الأشخاص والأولياء والأحداث خطأً، ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «قَبْلَ هَذَا الْأَمْرِ السُّفْيَانِيُّ وَالْيَمَانِيُّ وَالْمُرَوَّانِيُّ وَشُعَيْبُ بْنُ صَالِحٍ، فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا هَذَا؟!»^(٢)، وذكر المحقق في هامش الحديث تفسيراً له: (أي كيف يقول محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن طباطبا: إني القائم؟).

وفي (الغيبة للنعماني) في سؤال ابن حازم للإمام الصادق عليه السلام وزعم أحد المغيريّة أنّ محمّد بن عبد الله بن الحسن هو القائم، والدليل على ذلك أنّ اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أب النبي ﷺ، فجاء الجواب: إِنْ كُنْتَ تَأْخُذُ بِالْأَسْمَاءِ فَهُوَ ذَا فِي وُلْدِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ، فَقَالَ لِي: إِنَّ هَذَا

(١) من لا يحضره الفقيه (ج ٤ / ص ١٧٧ / ح ٥٤٠٢).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٦٢ / باب ١٤ / ح ١٢).

إِبْنُ أَمَّةٍ - يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ -، وَهَذَا ابْنُ مَهْيَرَةَ - يَعْنِي مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ -، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَمَا رَدَدْتَ عَلَيْهِ؟»، فَقُلْتُ: مَا كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ أُرَدُّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «أَوْ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّهُ ابْنُ سَيِّئَةٍ - يَعْنِي الْقَائِمَ عَلَيْهِ -؟»^(١).

الإمام هو الساعة:

ومما روي في هذا المعنى ما رواه الشيخ الصدوق عليه السلام، قال: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زِيَادِ بْنِ جَعْفَرِ الْهَمْدَانِيِّ عليه السلام، قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ صَالِحِ الْهَرَوِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ دِعْبَلَ بْنَ عَلِيٍّ الْخَزَاعِيَّ يَقُولُ: أَنشَدْتُ مَوْلَايَ الرَّضَا عَلِيَّ بْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَصِيدَتِي...، بَكَى الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بُكَاءً شَدِيداً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ فَقَالَ لِي: «... وَبَعَدَ الْحَسَنُ ابْنَهُ الْحُجَّةَ الْقَائِمَ الْمُنْتَظَرَ فِي غَيْبَتِهِ، الْمَطَاعُ فِي ظُهُورِهِ، لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يُخْرِجَ فِيمَلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مِلَّتْ جَوْرًا، وَأَمَّا مَتَى فإِخْبَارٌ عَنِ الْوَقْتِ، فَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ النَّبِيَّ عليه السلام قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى يُخْرِجُ الْقَائِمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مِثْلُهُ مِثْلُ السَّاعَةِ الَّتِي ﴿لَا يُجَلِّهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]»^(١).

ففي جملة من النصوص ومنها ما تقدم أن الإمام المهدي عليه السلام مثله مثل الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا هو، ولا تأتي إلا بغتة، وأن ظهوره مما يتوقع صباحاً ومساءً، جاء عنصر المفاجئة من أبرز عناصر الظهور، وركزت عليه النصوص مع أن هناك عناصر أخرى لا ينبغي إغفالها بحال من الأحوال،

(١) الغيبة للنعماني (ص ٢٣٥ / باب ١٣ / ح ١٢).

(٢) كمال الدين (ص ٣٧٢ و ٣٧٣ / باب ٣٥ / ح ٦).

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٣٤٧

الظهور منظومة تعتمد على عناصر كثيرة وكواشف متعددة من أهمها الإيمان أنَّ الغيب هو الفاعل المؤثر في الأحداث.

عنصر المفاجأة في الظهور:

عنصر المفاجأة قد نتحير به، ونتحير في فرضه، كما قد نتحير أنه ﷺ كيف سيظهر بشكل مفاجئ، وبأنَّ الحدث خارج عن سياقاته الطبيعيَّة، وآثاره لا يمكن احتسابها في إطار أفضل الإمكانيات المتاحة، مثلاً لو نظرنا إلى فايروس كورونا وما حصل في أيَّامه وأصاب العالم وأقعد الدول المقتدرة عن اتِّخاذ مواقف حقيقيَّة وأصابها بالعجز والحمول، لماذا؟

لأنَّ عنصر المفاجأة فيه كان سريعاً، وليس معنى ذلك أنه لم يكن معلوماً سابقاً، كيف وقد تقدَّم الحديث بما يناسب عن وضع العلامات له ﷺ من قِبَل أهل البيت عليهم السلام؟

شاهد ممَّا شاهدناه من حدث - فايروس كورونا - وكيف وقع وكيف تمَّ التعامل معه، هذا ينبغي أن يُشكَّل لنا نافذة نتعلَّم منها كيفية التعامل مع الأحداث بروية وضمن أصول معتمدة، وليس بالاعتماد على أفكار ارتجالية وتصرفات وليدة الحدِّث.

إذا رجعنا إلى النصوص مرَّةً أُخرى نجدها عاجلت نظائر هذه الأحداث بشكل كلي، ووضعت ضوابط محدَّدة لضبط التعامل مع الوقائع الجزئية وفي أيِّ زمان أو مكان حصلت.

علامية الصيحة بعيدة عن التلاعب:

وليكن معلوماً أنَّ الصيحة من أهمِّ العلامات إن لم تكن أهمَّها، فهي بعيدة عن يد التلاعب والادِّعاء، لأنَّها سماوية ومرتبطة بالغيب مباشرة، في ذات

الوقت حدّدت النصوص محدّدات غاية في الضبط والإتقان لمن يلاحظها، فهي من حيث الزمان محدّدة، ومن حيث الكيف محدّدة.

فهي بلسان ممثّل الغيب إلى الأرض جبرئيل عليه السلام.

وعندما يُسأل الإمام عليه السلام عن السبيل لمعرفة الصيحة المحقّقة من المبطلّة،

فإنّه عليه السلام يُجيب أنّ مَنْ يعرفها هو مَنْ عرف مسبقاً بها!

أي مَنْ تعامل معها وفق الضوابط المحدّدة من قبل أهل الغيب المطّلعين

على جزئياتها وأدقّ تفاصيلها، وليس من المنطقي أن نعرف الصيحة تفصيلاً دون

أن نعرف الأحداث الأخرى المؤثّرة فيها، أو أنّها علامة لأجل ماذا، هذا هو

معنى المعرفة ضمن الآليات والضوابط - أي من خلال المعرفة بروايات أهل

البيت عليهم السلام، ومنه نطلق إلى فهم عنصر المفاجأة في القضية المهدويّة حتّى لا

تكون عرضة للتفسيرات المنفلتة والتطبيقات المستعجلة والانفعاليّة.

إنّ القضية المهدويّة على عاتقها رسم النهاية السعيدة للعالم، والتي تقدّمها

الآلاف من الأنبياء والصلحاء كلّهم كانوا في دائرة الإعداد لهذا الحدّث، فليس

من المنطقي أن تُوضَع أدواتها بيد أشخاص انفعاليين أو أصحاب نزعات

مصلحيّة، إنّها الفاعل الأوّل في الأحداث وليس المنفعل الأخير المترجم على

لسان الجهّال والمسترسدين، هذا الحدّث العالمي المشاهد من قبلنا جميعاً دون تميّز

في أيّ شيء بجميع حيثيّاته رسالة لفهم تأثير الغيب الفاعل ينبغي أن نُدرّكه

ونقرأه كما يُراد لنا قراءته ضمن آليّاته ومحكماته.

الاستعداد التام لظهور الإمام عليه السلام بلا توقيت وتطبيق:

نسمع في المجالس والأندية أنّ الأحداث تسير باتجاه قرب ظهور الإمام عليه السلام،

وهي مقولة صادقة إلى حدّ كبير، فإنّ الأحداث من زمن الرسول عليه السلام تسير

باتجاه النهاية، وإنّما قبل النهاية هو حتميّة ظهور الإمام عليه السلام، فمن الطبيعي أن

يكون لكلِّ حَدَثٍ مدخلية في ظهور الإمام ﷺ، ولكن الذي ينبغي أن يلتفت إليه وبعناية عاملان: الأوّل منها - وهو الأهم - ما هو مقدار حظنا من هذه الأحداث إيجاباً في ظهوره ﷺ.

ومعنى ذلك أنّ كلّ فرد من المؤمنين ينبغي أن يكون له دور إيجابي فعّال، على المستوى الفردي والنفسي في علاقته مع الإمام ﷺ، ومقدار ذلك في تقريب فرج الإمام ﷺ، فضلاً عن أن يكون له دور اجتماعي في هذا الحدّث الكوني الكبير. وهنا تأتي مرحلة الإعداد والاستعداد، فلا بدّ على الفرد أن يعدّ نفسه بشكل دقيق لأن يكون عنصراً فعّالاً ومؤثراً بحركة الظهور من خلال عدّة عوامل شرعية وأخلاقية وسلوكية، فلا بدّ أن يلتزم بمضامين الشريعة التزاماً حرفياً ولا يجيد عن ذلك، فضلاً عن خُلُقهِ الرفيع المؤثّر في المجتمع، المترجم كل ذلك إلى سلوك عملي ينهض بالأفراد الآخرين إلى حالة التأسّي بهذا الفرد الذي ما انفكّ يعدّ نفسه استعداداً للظهور المقدّس.

فالإنسان المؤمن الذي تقع في رأس قائمة أولوياته - بعد نعمة الاتّباع لأهل البيت والتسليم لهم والانقياد والطاعة لما صدر عنهم ﷺ - مسألة الظهور للحجّة المنتظر ﷺ، يبحث عن كلّ صغيرة وكبيرة تُؤثّر إيجاباً في تفعيل هذه العقيدة لدى نفسه، كما أنّه يسعى جاهداً لإزالة ما يُؤثّر على ضعفها أو خمولها فضلاً عن انحسارها بسبب العوامل السلبية، داخلية كانت في نفسه، أو خارجية من محيطه.

تأثير الفرد المهدوي في المجتمع:

أمّا العامل الآخر فهو عامل اجتماعي، فكما يُطلّب من الفرد أن يؤسّس لنفسه عقيدة وثقافة وسلوكاً يُؤثّر إيجاباً في تعجيل فرج المولى، فكذلك على المستوى الاجتماعي ينبغي أن يكون هذا الفرد مؤثراً في تشكيل بيئة مهدوية تُؤثّر

٣٥٠ شرح دعاء الندبة

إيجاباً في دفع الناس اتّجاه الاهتمامات المهدويّة، ونشر ثقافة الانتظار من خلال المجالس والأندية التي تفتقر كثيراً لهذه الثقافة.

فالفرد الذي أعدّ لنفسه منهجاً صحيحاً في هذا المضمار لا بدّ أن لا يجعله حبيساً في أدراج أفق النفس، بل لا بدّ من إخراجه من خلال سلوك يارسه، أو فكر ينشره، لتكون بذلك حظوته عند إمامه عليه السلام كحظوة إبراهيم الخليل عليه السلام عند ربّه، إذ جعل أُمَّةً رغم فرديّته، لأنّه حمل على مستوى الفكر والسلوك هموم إنقاذ الأُمَّة بأسرها من براثن ما كانت تعيشه.

وهكذا المأمول من الفرد المهدوي الذي أعدّ نفسه إعداداً صحيحاً للظهور.

فكلُّ حَدَثٍ نراه اليوم له مدخليّة، ولكنّه لا بدّ أن ينضبط في إطار الشريعة المقدّسة، ولا بدّ أن يتحدّد بحدود ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام. وسيأتي عند شرح الفقرة: «بِأبي أنتَ وأمِّي وَنَفْسِي» ما يرتبط بالمقام من جهة وجوب نصرته وإن قبل قيام دولته.

* * *

«نَاشِرُ رَايَةِ الْهُدَى».

يتحدّث هذا المقطع الندي المبارك عن الراية وأهمّيّتها في أدبيّات الولاء، حيث تُمثّل الراية قديماً، بل ولا زالت رمزاً من رموز العزّة والإباء، وتُجسّد عقيدة الانتماء.

أعلام الدول يُضحّي لأجل رفعتها وعلوّها الكبار والصغار، ولا يسمحون بإهانتها أو التجاوز عليها وإن كلف ذلك المال والنفس.

ليس للراية أو العلم أي قيمة إذا جُرد عن الإضافة، وتبرز قيمته بما يُضاف إليه، وإلا فلا يعدو مظهر العلم الخارجي سوى قطعة قماش ذات قيمة زهيدة مالياً، ولكن بعد إضافته لشيء مقدّس يتقدّس بذلك، فإضافتها للوطن يُصيرها مُثْله، وإضافتها لشخص يجعلها مُثْله، وهكذا.

تُطلق الراية مجازاً على ذوات وأشخاص بعد انصهارهم في العقيدة أو الفكرة التي يؤمنون بها، فيكونون راية للحقّ وعلامة عليه، بهم يُعرف الحقُّ والهدى والعدل كما تجسّد ذلك في كون النبي الأكرم ﷺ علامة للرحمة ومكارم الأخلاق، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام علامة للحقّ والهدى، وكذلك الإمام الحسن عليه السلام علامة للكرم، والإمام الحسين عليه السلام علامة للإباء والعزّة، والإمام المهدي عليه السلام علامة للعدل والقسط، وهكذا.

هذا، ولا يخفى أن جميع الأئمة عليهم السلام هم راية الهدى ومصباح الدجى، فعن عمَرَ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيَّ عَهْدًا، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ بَيْنَهُ لِي، قَالَ: اسْمَعْ، قُلْتُ: سَمِعْتُ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ عَلِيًّا رَايَةُ الْهُدَى بَعْدَكَ، وَإِمَامٌ أَوْلِيَايَ، وَنُورٌ مِّنْ أَطَاعِنِي، وَهُوَ الْكَلِمَةُ الَّتِي أَلْزَمَهَا اللَّهُ الْمُتَّقِينَ، فَمَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَقَدْ أَبْغَضَنِي، فَبَشِّرْهُ بِذَلِكَ»^(١).

فجعل الله تعالى على لسان نبيه الكريم ﷺ الإمام علياً عليه السلام راية الهدى وعلامة على الطاعة وحبّ المؤمنين له.

إنّ المقطع الشريف - كما جملة من الروايات - يتحدث عن كون الإمام المهدي عليه السلام هو ناشر راية الهدى، بولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي هو راية الهدى لدين محمد ﷺ على ما تقدّم في بيان هداية المهدي وإلى ماذا يهدي.

(١) أمالي الطوسي (ص ٢٤٥ / ح ٤٢٨ / ٢٠).

هذه الراية التي يتحدث عنها الإمام زين العابدين عليه السلام، فيقول: «... أئمة الناس إن الله تعالى وله الحمد ابتلانا أهل البيت ببلاءٍ، حسنٍ حيث جعل راية المهدي والعدل والتقى فينا، وجعل راية الضلالة والردى في غيرنا...»^(١).

هذا، وتحدثت أخبار أخرى عن راية لها قدرة تكوينية بالإضافة لبعدها العقائدي في الهداية، فعن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لما اتقى أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البصرة نشر الراية - راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -، فزلزلت أقدامهم، فما اصفرت الشمس حتى قالوا: آمنا يا ابن أبي طالب...، ولما كان يوم صفين سألوه نشر الراية، فأبى عليهم، فتحملوا عليه بالحسن والحسين عليهما السلام وعمار بن ياسر رضي الله عنه، فقال للحسن: يا بني، إن للقوم مدة يبلغونها، وإن هذه راية لا ينشرها بعدي إلا القائم (صلوات الله عليه)»^(٢).

* * *

«مؤلف شمل الصلاح والرضا».

يتحدث هذا المقطع الشريف عن المهمة التي يقوم بها الإمام المهدي عليه السلام، وتعد من أولى أولويات قيامه بالعدل والقسط، حيث يقوم بجمع الناس وشمل الأمة على كلمة صالحة - كلمة التوحيد -، وبها يصلح أمر الأمة، ويرضى بعضها على بعض، ويرضى الله تعالى عنها بهذا.

يقوم عليه السلام بعد ظهوره وبعد انتشار الفرقة والنزاعات بين الناس بشكل كبير حتى يصعب أن تجد فرداً من أفراد الأمة ليس له منازعة في دين أو فكر أو

(١) مناقب آل أبي طالب (ج ٣ / ص ٣٠٥).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٣١٩ / باب ١٩ / ح ١).

دنيا، هذا لا يعني أن هذه الحالة لم تكن موجودة مسبقاً إلا أنّها ستكون على أشدها قبل أو ان ظهوره، فيقوم بالمهمة التي ادّخر من أجلها، وهي لم شمل الناس والتأليف بينهم.

وفي المقطع دلالة لطيفة على أنّه لا يقوم بجمع الشمل بين الناس وأفراد الأمة وحسب، بل إنّه يقوم بتأليف قلوب هذه الأمة، وكأنّ المقطع يقول: إنّ الجمع الذي سوف يحصل في زمانه ظاهري وواقعي، شمل تراه العين وتأليف وتألف في أعماق النفس وداخل القلوب.

اعلم أنّ جمع الناس ليس بالأمر العسير لمن له إمكانات ولديه قدرات، ولكن أنّ يجمع جميع الناس ويؤلف بين قلوبهم هذه مهمة نادرة، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٣).

وجمع الناس وتأليف قلوبهم يتبع الأمر الذي عليه يجتمعون وتتألف لأجله قلوبهم، والمقطع الشريف يُبيّن أنّ ما يتألفون عليه هو الصلاح - مطلق الصلاح وعلى مختلف الأصعدة وفي جميع الميادين -، فإنّ الاجتماع على كلّ أمر صلاح هو ما سيقوم به، وليس ذلك وحسب، بل إنّهم يقومون بذلك وهم على الرضا والقبول لوجود الإمام المهدي ﷺ بين ظهرانيهم، فهو الذي يهديهم إلى هذا الجمع الفريد والنادر، حيث لم يسبق للكون أن شاهد هذه الحالة من الجمع على الصلاح والرضا.

بعض خصائص دولة الصلاح والرضا:

بعد أن تضع الحرب أوزارها، بل وفي أثنائها، تبدأ مرحلة بناء الدولة المهدوية، ودلّت الأخبار على الدولة ومعالمها والأحكام والآثار التي ستضمّننها، ومنها:

*** إقامة العدل، والحكم بين أهل الأديان في بداية الدولة بكتبهم:**

ومما دلَّ على ذلك ما رواه الشيخ النعماني رحمته الله بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «... إِذَا قَامَ قَائِمُ أَهْلِ الْبَيْتِ قَسَمَ بِالسَّوِيَّةِ، وَعَدَلَ فِي الرَّعِيَّةِ، فَمَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْمَهْدِيُّ مَهْدِيًّا لِأَنَّهُ يَهْدِي إِلَى أَمْرِ خَفِيِّ، وَيَسْتَخْرِجُ التَّوْرَةَ وَسَائِرَ كُتُبِ اللَّهِ سبحانه مِنْ غَارٍ بِأَنْطَاكِيَّةَ، وَيَحْكُمُ بَيْنَ أَهْلِ التَّوْرَةِ بِالتَّوْرَةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ بِالْإِنْجِيلِ، وَبَيْنَ أَهْلِ الزَّبُورِ بِالزَّبُورِ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ، وَتُجْمَعُ إِلَيْهِ أَمْوَالُ الدُّنْيَا مِنْ بَطْنِ الْأَرْضِ وَظَهْرِهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ: تَعَالَوْا إِلَيَّ مَا قَطَعْتُمْ فِيهِ الْأَرْحَامَ، وَسَفَكْتُمْ فِيهِ الدِّمَاءَ الْحَرَامَ، وَرَكِبْتُمْ فِيهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ سبحانه، فَيُعْطِي شَيْئًا لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلَهُ، وَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا وَنُورًا كَمَا مِلَأَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا وَشَرًّا»^(١).

*** اكتمال العقول وانتشار دين الإسلام:**

ومما دلَّ على ذلك ما رواه الشيخ الكليني رحمته الله بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ، فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ، وَكَمَلَتْ بِهِ أَحْلَامُهُمْ»^(٢).

وروى الشيخ المفيد رحمته الله: (إِذَا قَامَ الْقَائِمُ عليه السلام حَكَمَ بِالْعَدْلِ، وَارْتَفَعَ فِي أَيَّامِهِ الْجَوْرُ، وَأَمِنَتْ بِهِ السُّبُلُ، وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ بَرَكَاتَهَا، وَرَدَّ كُلُّ حَقٍّ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَمْ يَبْقَ أَهْلٌ دِينٍ حَتَّى يُظْهِرُوا الْإِسْلَامَ، وَيَعْتَرِفُوا بِالْإِيْمَانِ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وَحَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِحُكْمِ دَاوُدَ وَحُكْمِ مُحَمَّدٍ عليه السلام (...)^(٣).

(١) الغيبة للنعماني (ص ٢٤٢ و ٢٤٣ / باب ١٣ / ح ٢٦).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٢٥ / كتاب العقل والجهل / ح ٢١).

(٣) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨٤).

*** كثرة البركات وطول الأعمار:**

ومما ورد في ذلك ما روي عن المفضل بن عمر، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ قائمنا إذا قام أشرفت الأرض بنور ربها، واستغنى العباد عن ضوء الشمس، وذهبت الظلمة، ويعمر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ذكر لا يولد فيهم أنثى، وتظهر الأرض كنوزها حتى يراها الناس على وجهها، ويطلب الرجل منكم من يصله بهاله ويأخذ منه زكاته فلا يجد أحداً يقبل منه ذلك، استغنى الناس بما رزقهم الله من فضله»^(١).

وعنه عليه السلام، قال: «إذا قام قائم آل محمد عليه السلام بنى في ظهر الكوفة مسجداً له ألف باب، واتصلت بيوت أهل الكوفة بنهري كربلاء»^(٢).

*** يعلم الأحكام والقرآن كما نزل:**

ومما ورد في ذلك ما رواه الشيخ المفيد عليه السلام أيضاً عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «إذا قام قائم آل محمد عليه السلام ضرب فساطيط لمن يعلم الناس القرآن على ما أنزل الله ﷻ...»^(٣).

*** إخراج العلم المكنون وبنه بين الناس:**

ومما ورد في ذلك ما رواه قطب الدين الراوندي عليه السلام بسنده عن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «العلم سبعة وعشرون جزءاً، فجميع ما جاءت به الرسل جزءان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الجزئين، فإذا قام القائم أخرج الخمسة والعشرين جزءاً فبثها في الناس، وضم إليها الجزئين حتى يبتها سبعة وعشرين جزءاً»^(٤).

(١) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨٦).

(٤) الخرائج والجرائح (ج ٢ / ص ٨٤١ / ح ٥٩).

* اختلاف حساب السنين ونزول الملائكة على المؤمنين وخدمتهم لهم:
ومما ورد في ذلك ما رواه الشيخ المفيد عليه السلام عن عبد الكريم الخنعمي، عن
أبي عبد الله عليه السلام، قال: «... تطول له الأيام والليالي حتى تكون السنة من سنيه
مقدار عشر سنين من سنيكم...»^(١).

وروى الطبري الشيعي عليه السلام بسنده عن محمد بن فضيل، عن أبي الحسن
الرضا عليه السلام، قال: «إذا قام القائم يأمر الله الملائكة بالسلام على المؤمنين، والجلوس
معهم في مجالسهم، فإذا أراد واحد حاجة أرسل القائم من بعض الملائكة أن يحمله،
فيحمله الملك حتى يأتي القائم، فيقضي حاجته، ثم يرده، ومن المؤمنين من يسير في
السحاب، ومنهم من يطير مع الملائكة، ومنهم من يمشي مع الملائكة مشياً، ومنهم
من يسبق الملائكة، ومنهم من تتحاكم الملائكة إليه، والمؤمنون أكرم على الله من
الملائكة، ومنهم من يصيره القائم قاضياً بين مائة ألف من الملائكة»^(٢).

وروى الشيخ المفيد عليه السلام عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «...
مقدار كل سنة عشر سنين من سنيكم هذه، ثم يفعل الله ما يشاء»، قال: قلت له:
جعلت فداك، فكيف تطول السنون؟ قال: «يأمر الله تعالى الفلك بالبوث وقلة
الحركة، فتطول الأيام لذلك والسنون»، قال: قلت له: إنهم يقولون: إن الفلك
إن تغير فسد، قال: «ذلك قول الزنادقة...»^(٣).

شبهة حكم المهدي عليه السلام بغير شريعة الإسلام وجوابها:

قال بعض السلفية: (... بل إن الحكم والقضاء في دولة المنتظر يُقام على
غير شريعة المصطفى...، إذا قام قائم آل محمد حكم بحكم داود وسليمان ولا

(١) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨١).

(٢) دلائل الإمامة (ص ٤٥٤ و ٤٥٥ / ح ٤٣٤ / ٣٨).

(٣) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٨٥).

يسأل بيّنة...، ولا يحتاج إلى بيّنة...، أنظر كيف يحلم واضعو هذه الروايات - الذين لبسوا ثوب التشيع زوراً وبهتاناً - بدولة تحكم بغير شريعة الإسلام^(١).

قلتُ: في مقام دفع هذه الفرية، الحديث يقع في نقاط:

١ - أن النصوص التي ذكرت حكم الإمام ﷺ بحكم داود عليه السلام فسّرت وجه هذا الحكم: «لَا يَسْأَلُ بَيِّنَةً، يُعْطِي كُلَّ نَفْسٍ حَقَّهَا»^(٢).

ووجه التشبيه بداود أنّه كان يحكم بعلمه لا يحتاج إلى بيّنة، كذلك هو ﷺ كما ورد: «حَكَمَ فِيهِمَا بِحُكْمِ اللَّهِ لَا يُرِيدُ عَلَيْهِمَا بَيِّنَةً»^(٣)، وهذا النصُّ يُفسّر حكم داود أنّه حكم الله، ولأنّه واقعي لا يحتاج إلى بيّنة.

٢ - في باب القضاء يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه فكيف بالمعصوم، وممّا ورد في ذلك:

أ - قال البهوتي: (وله ﷺ أن يقضي ويفتي وهو غضبان، وأن يقضي بعلمه ويحكم لنفسه وولده، ويشهد لنفسه وولده، ويقبل شهادة مَنْ يشهد له ﷺ أو لولده، لحديث خزيمه، ولأنّه معصوم)^(٤).

ب - قال ابن قدامة: (... بناءً على أنّ القاضي هل له أن يقضي بعلمه؟ على روايتين، لأنّ قاضي دمشق أخبره به في علمه، ومذهب الشافعي في هذا كقول القاضي هاهنا)^(٥).

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ج ٢ / ص ٨٧٢).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ٣٩٧ و ٣٩٨ / باب في الأئمة عليهم السلام أنّهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود... / ح ٢).

(٣) الكافي (ج ٣ / ص ٥٠٣ / باب منع الزكاة / ح ٥).

(٤) كشف القناع (ج ٥ / ص ٣٧).

(٥) المغني (ج ١١ / ص ٤٧٨).

- ج - قال ابن رشد: (إنَّ العلماء أجمعوا على أنَّ القاضي يقضي بعلمه)^(١).
 د - قال ابن عبد البر: (... ففي هذا الخبر قضاء عمر بعلمه فيما قد علمه قبل ولايته)^(٢)، وفيه قصَّة ينبغي عدم تفويت مراجعتها.

شبهة أن دولة الإمام المهدي ﷺ تخالف أحكام الإسلام:

إن قيل: إنَّ دولة الإمام المهدي ﷺ تخالف أحكام الإسلام في عدَّة موارد، منها ما نقله هذا المستشكل، قال القفاري: (... وكذلك يُغَيَّر منتظرهم شريعة الإسلام فيما يتعلَّق بالجزية من أهل الكتاب، وتنصُّ رواياتهم أنَّ منتظرهم بهذا المنهج يخالف هدي رسول الله ﷺ، فتقول: «وَلَا يَقْبَلُ صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ الْجِزِيَّةَ، كَمَا قَبِلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، انتهى كلامه.
 وليته أكمل الرواية حيث قالت: «وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]»^(٣).
 ثم قال: (ويكفي هذا الاعتراف في تأكيد خروجه عن سُنَّة رسول الله ﷺ وتبديله لها عمداً...)^(٤).

والجواب عنها:

- ١ - أنَّ وضع الجزية من مختصَّات الحاكم المعصوم، فله فرضها وله رفعها.
 ٢ - أنَّ خصوصيَّة الإمام ﷺ في هذا الحكم ظاهرة في النصِّ الذي بتره صاحب الشبهة، فلخصوصيَّة إظهار الدِّين لا يأخذ الجزية.

(١) بداية المجتهد (ج ٢ / ص ٣٨٥).

(٢) الاستذكار (ج ٧ / ص ٩٥).

(٣) تفسير العيَّاشي (ج ٢ / ص ٦٠ / ح ٤٩).

(٤) أصول مذهب الشيعة الإماميَّة الاثني عشرية (ج ٢ / ص ٨٧١ و ٨٧٢).

٣ - أن هناك نصوص أخرى تدلُّ على أن اليهودي والناصري وغيرهم يعطون الجزية^(١)، فإذا لم تُقَيَّد تلك بزمان معيَّن، فالتعارض ثم التساقط وترجع للأصل في المسألة.

شبهة أن الإمام المهدي ﷺ سيُغيَّر كتاب الله ﷻ:

إن قيل: كيف يُسَوَّغ لكم متابعة الإمام المهدي ﷺ وهو سيُغيَّر كتاب الله تعالى، وهذا ما قاله نفس المستشكل السابق: (وتصف روايات أخرى عندهم ما يقوم به منتظرهم من محاولة لصرف الناس عن القرآن بدعوى أنه محرَّف، وإخراج كتاب آخر مخالف له، وسعيه لتضليل الناس بدعوى أن كتابه هو الكتاب الكامل الذي أنزل على رسول الله ﷺ، وقيام (العجم) بالسعي لنشره بين الناس، وتعليمهم إيَّاه، ومواجهتهم صعوبة بالغة لتغيير ما في أفئدة الناس وأذهانهم من كتاب الله...، أمَّا تفصح عن مكنون نفوس واضعيها وأهدافها ضدَّ شريعة الإسلام...، وأنَّ منازعتهم لحكم ولاة المسلمين...، يرمي إلى إزالة الحكومة الإسلامية لإقامة دولة أخرى في مكانها تحكم بحكم القائم الموعود)^(٢). ويقول: (... وهكذا يقوم المزعوم بأمر جديد، وكتاب جديد، وسُنَّة جديدة، وقضاء جديد...)^(٣).

والجواب عنها:

١ - لسأل صاحب الشبهة: ألم تروِ مصادر الحديث عندك: «يُوشك الإسلام أن يُدرَس فلا يبقى إلا اسمه، ويُدرَس القرآن فلا يبقى إلا رسمه»^(٤)،

(١) راجع: تفسير فرات الكوفي (ص ٢٩٢ و ٢٩٣ / ح ٨/٣٩٥).

(٢) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ج ٢ / ص ٨٧٤).

(٣) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ج ٢ / ص ٨٨٢ و ٨٨٣).

(٤) كنز العمال (ج ١١ / ص ١٨١ / ح ٣١١٣٧).

٣٦٠ شرح دعاء الندبة

وفي نصٍّ آخر: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه»^(١)؟

فما معنى اندراس القرآن والإسلام وعدم بقاء شيء منهما؟ والنص الآخر يُعبّر: «لا يبقى»، فهل مَنْ يُرجع الإسلام إلى عهد رسول الله ﷺ يكون قد أتى بدين جديد؟!!

روى مسلم في صحيحه: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»^(٢)، مع أن عدد المسلمين الآن أضعاف مضاعفة بالقياس إليه حينما بدأ، فليست الغربة المقصودة هنا غربة عدد وإنما غربة أحكام وتعاليم، وهو ما يؤكد أن المهدي ﷺ عندما يخرج هو الذي سيرجع الإسلام جديداً، ويُخرجه من غربته ويُعيد سنة رسول الله ﷺ كما صدرت منه.

فما سيأتي به الإمام المهدي ﷺ نحن مدعون له مسلمون به، لأن ساكن السماء قبل ساكن الأرض عنه راضٍ.

وقد كان بإمكان صاحب الشبهة أن يراجع تفسير الآية: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣)، في كتبه ليعرف ما يقوم به المهدي ﷺ^(٣). والغريب أن هؤلاء يتهموننا بما في كتبهم، وكأن هناك داءً فيهم لا دواء له، وقد لاحظنا في شُبُهات مرّت نظير هذا.

يقول الطبري: (... ذلك عند خروج عيسى حين تصير الملل كلها واحدة...، إذا خرج عيسى ﷺ أتبعه أهل كل دين)^(٤)، فلا ينقضي العجب أن

(١) خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٤٨).

(٢) صحيح مسلم (ج ١ / ص ٩٠).

(٣) يُراجع: تفسير الطبري، والسمعي، والواحي، والثعلبي، وغيرها.

(٤) تفسير الطبري (ج ١٠ / ص ١٥٠).

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٣٦١

المهدي ﷺ إذا قضى بحكم داود عليه السلام صار يهودياً وعلماً ومانسوتياً، أمّا إذا اتّبعوا عيسى عليه السلام فهم موحدون مسلمون، ولا أدري لماذا عيسى وليس المهدي؟!

٢ - الإسلام الجديد والكتاب الجديد والقضاء الجديد، هو على من لم يسمع به يكون جديداً وليس ابتداءً في الدين، وهو إنّما جاء لنشر الدين وهداية الكون إليه.

وهو جديد لأنّ الناس لم يطبقوه بشكل صحيح وإن كان أصله موجوداً بين ظهرائهم.

* * *

«أَيْنَ الطَّالِبِ بِدَمِ الْمُقْتُولِ بِكَرْبَلَاءِ».

هذا المقطع الندي هو مقطع الحزن والعاطفة، وفي ذات الوقت هو بصيص الأمل للمحزونين المكلومين والمظلومين، والذي من خلال الإيمان بما سيتحقّق على يد المنتقم، فإنّهم يأملون في أن يبصر كلّ مؤمن مظلوم في المستقبل تحقّق الوعد الإلهي في تجسيد الوفاء بالاعتصام. ومن المعلوم أنّ تحقّق النتائج مرهون بالمقدّمات المستقيمة والمفاهيم الصحيحة.

وأنّ آية عمليّة إصلاح لا بدّ أن تأخذ في مسارها بوعدين:

البعد المفاهيمي: وهذا ما قام به الرسول الأكرم ﷺ.

والبعد العملي: المتمثّل بسلوك الإمام الحسين عليه السلام حيث خرج يطلب الإصلاح في أمة جدّه ﷺ بعد انحراف المفاهيم ليرتّب على هذا انحراف

٣٦٢ شرح دعاء الندبة

السلوك على أيدي أصحاب الأغراض النفعيّة، فتمثّلت ثورة الحسين عليه السلام بعملية إرجاع المفاهيم الإنسانيّة والإسلاميّة إلى نصابها الصحيح من خلال عملية الإصلاح التي خرج عليه السلام من أجلها.

ليكتمل كل ذلك على يد صاحب العصر والزمان عليه السلام.

ومن هذا المنطلق يجب أن نفهم القضية الحسينيّة وارتباطها بالقضية المهديّة.

إشكالية الثأر بطلب دم الإمام الحسين عليه السلام من قبل الإمام الحجة عليه السلام:

تدلّ جملة من الروايات الشريفة على أن الإمام المهدي عليه السلام عندما يخرج سيطلب بالقصاص والثأر من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وواجهت هذه الروايات جملة من النقود، وحاولت أن تُوجد بيئة تستهدف مفهوم الثأر إلى الحدّ الذي يُوجب التشنيع والاستهجان على من يستعمل هذا المفهوم.

وفي ثنايا شرح هذه الفقرة نقوم بتسليط الضوء بشكل مناسب لما يُثار حول مقولة الثأر ودفع ما أثير عليها.

الثأر: (الطلب بالدم، وقيل: الدم نفسه...) (١).

والظاهر أن مفهوم الثأر يختلف عند المجتمعات رغم أنه من أقدمها لديهم. ولعلّ الأنسب أن يقال: الثأر حقٌّ عند شخص أو جهة يُؤخذ قصاصاً. ويُعدُّ الأخذ بالثأر - ضمن نطاق (الجروح قصاص) - من العادات الاجتماعيّة، فلا تخلو أمة من وجود حالات الثأر، يتجلّى ذلك بأدنى مطالعة لتاريخ الأمم القديم والحديث، فإنّ مفردة الثأر من أدبيّات كلّ أمة، وما ينبغي أن يقال: هل هو ثأر انتقام أم ثأر نظام؟

(١) لسان العرب (ج ٤ / ص ٩٧ / مادة ثأر).

فتأر أمة للدفاع عن عرضٍ مغتصب هو ثأر مقدّس ودفاع مشروع، وثأر أمة للدفاع عن السيادة والعلم والوطنية والأمن ومقام الجلالة وما إلى ذلك هو دفاع مشروع تقرُّه القوانين ويتبعه العقلاء في كلِّ البلدان. وكما أنّ للدول مقدّسات، وكذا للنظم الاجتماعية والعقلانية سيادة وهيبة، كذلك توجد مقدّسات للنظم الدينية والدساتير الشرعية، والأشخاص القائمون على حفظ هذا النظام - أبرزهم الأنبياء والأئمة عليهم السلام - فانتهاك حقوقهم والتعدّي عليهم من أوضح مصاديق انتهاك السيادة الدينية، والمطالبة بحقوقهم - أخذ الثأر - من أوضح مصاديق الدفاع المقدّس وحفظ النظام.

الثأر عند الأمم ومراحل تطوّره:

ثقافة الثأر في المجتمعات من القضايا الواضحة، فإنّ التاريخ البشري شهد العديد من الصراعات التي نجمت عن طلب الثأر، وهذا الثأر نجم عنه صراع آخر، وهكذا.

فالثأر غريزة بشرية لا يخلو منها أحد، وإن كان العقلاء والحكماء يروّضون هذه الغريزة ويجعلونها في دائرة النفع والفائدة.

ثقافة الثأر موجودة لدى جميع المجتمعات الإنسانية، نعم هي تتعنون بعنوان القانون فتكون قصاصاً، وبمعنوان الانتقام فتكون ثأراً، فلو لا الثأر القانوني أو الانتقامي لما انتظمت الحياة ولأصبحت غابة، ولكان الطغاة والمجرمون والسُّراق هم السادة على البشرية.

نعم تجاوزُ الحدِّ في الانتقام خلّف العديد من الكوارث في الصراعات وعلى جميع الجغرافيات.

فإذا قرأنا التاريخ الإنساني فإننا لا نجد أيّ استثناء، فلم يخلُ زمان أو مكان من حوادث الثأر.

حتّى في التاريخ الحديث للأمم التي تدّعي الرقيّ والتطوّر نجد حالات الثأر والانتقام بوضوح، ويكفي في هذا الصدد ما حصل من قبل الأمريكيّين مع اليابانيّين والانتقام منهم بسبب الهجوم على (بيرل هاربور)^(١). كما أنّ أغلب ما قام به النازي هتلر هو عمليّات ثأر وانتقام لما لحق بألمانيا من ذلّ وهوان في معاهدات سابقة، وهكذا لمن يتصفّح تاريخ الأمم الأوروبيّة والأمريكيّة وغيرها سواء الحديثة منها أم القديمة^(٢).

أمّا الأمثلة على واقع ذلك في القبائل العربيّة التي كان يحكمها النظام القبلي فكثيرة، قد سطرها التراث الشعري والنثري للعرب قبل الإسلام، أمّا بعده فمن تسلّط على رقاب المسلمين بعد النبي ﷺ جسّد مبدأ الثأر والانتقام من العائلة النبويّة بوضوح، وواقعة الطفّ أجلى مصداق.

هذا من أجل مصاديق الظلم والخروج عن الحق. ويبدو أنّه عندما نرجع إلى أوّليّات مبدأ الثأر نجد أنّه وُضِعَ كقانون يحمي الفرد من أن يؤخذ غيلةً وغدرًا من قبل أقرب مقرّبيه^(٣).

فنظام الثأر قانون يحمي الفرد، وتطوّر بتطوّر الأفراد والمجتمعات، فتوسّع ليدخل في نطاق العشيرة أو القبيلة أو السلطة لكي تحميه من وقوع الأذى والإهانة أو التعدي على حقوقه أو الاعتداء عليه، فالثأر الذي سنّه الأفراد لحفظ نفوسهم وممتلكاتهم واعتباراتهم، تطوّر إلى قانونٍ عامّ ينشده وينادي به الجميع

(١) غارة جويّة نفّذتها القوّات اليابانيّة عام (١٩٤١م) على الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ، أسفر الهجوم عن قتل ما يقرب من (٣٠٠٠) شخص، فكان الردّ الأمريكي ثأراً قاسياً.

(٢) تشير بعض الدراسات إلى أنّ حُسن الكرة الأرضيّة كان يعيش النزاعات وحروب الأخذ بالثأر في منتصف القرن الماضي.

(٣) الثأر طبيعة بشريّة أم نظام اجتماعي للدكتور قاسم عبده قاسم، مقال منشور من قبل دار عين للدراسات، بتصرّف.

لِيُحَقِّقَ العَدَالَةَ لَهُمْ، فَعَامِلُ حِفْظِ التَّوَازُنِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ يَكْمُنُ فِي القَانُونِ الَّذِي تَرْجِعُ بِنِيَّتِهِ إِلَى حِفْظِ الحَقُوقِ المَتَمَثِّلِ بِأَخْذِ الثَّأْرِ مِمَّنْ يَتَطَاوَلُ عَلَى الآخَرِينَ بِعُقُوبَاتٍ جَزَائِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ حَسَبِ القَوَانِينِ وَالأَعْرَافِ وَالتَّقَالِيدِ، فَالثَّأْرُ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ هُوَ فِي الحَقِيقَةِ الوَجْهِ غَيْرِ المَرْتَبِيِّ لِلقِصَاصِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الأَفْرَادِ وَالمَجْتَمَعَاتِ.

الثَّأْرُ مَقُولَةٌ حَقٌّ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ (الإِسْرَاءُ: ٣٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البَقَرَةُ: ١٧٩)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المَائِدَةُ: ٤٥).

يُظْهِرُ مِنْ هَذِهِ الآيَاتِ وَأَمْثَالِهَا أَنَّ شَرَعَ الإِسْلَامُ - بَلْ كُلُّ شَرَعٍ - قَدْ سَنَّ فِي قَانُونِهِ نِظَامَ العُقُوبَةِ، بَلْ إِنَّ العُقُوبَةَ هِيَ حَيَاةُ النِّظَامِ، وَالإِقَامَةُ نِظَامِ القِصَاصِ أُصُولٌ وَقَوَاعِدٌ مِنَ الشُّهُودِ وَالبَيِّنَاتِ وَالتَّحْتِثُ فِي إِثْبَاتِ الحَقُوقِ، ثُمَّ يَأْتِي دَوْرُ القِصَاصِ فِي اسْتِرْدَادِ الحَقُوقِ.

الثَّأْرُ وَالقِصَاصُ عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ:

الكِتَابُ المُقَدَّسُ يَقُولُ الكَثِيرَ بِشَأْنِ الإِنْتِقَامِ، وَتَحْمِلُ الكَلِمَاتُ العِبْرِيَّةَ وَاليُونَانِيَّةَ المُتَرَجِمَةَ (نِقْمَةٌ) أَوْ (إِنْتِقَامٌ) أَوْ (ثَأْرٌ) فَكِرَةَ العُقَابِ فِي مَعْنَاهَا الأَصْلِيَّةِ، وَمِمَّا وَرَدَ بِشَأْنِ ذَلِكَ فِي وَصِيَّةِ الرَّبِّ لِمُوسَى وَأَمْرِهِ بِالإِنْتِقَامِ: (وَأَمْرُ الرَّبِّ لِمُوسَى: أَنْتَقِمِ نِقْمَةَ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ المَدْيَانِيِّينَ)^(١)، وَفِي سَفَرِ صَمُوئِيلِ الأَوَّلِ (١٤ - ٣٢): وَثَارَ الشَّعْبِ عَلَى الغَنِيمَةِ، فَأَخَذُوا غَنِمًا وَبَقْرًا وَعِجُولًا، وَذَبَحُوا عَلَى الأَرْضِ

(١) مَوْقِعُ إِجَابَاتِ أَسْئَلَةِ كِتَابِيَّةِ (gotquestions)، حَوْلَ سِوَالٍ: (مَاذَا يَقُولُ الكِتَابُ المُقَدَّسُ بِشَأْنِ الإِنْتِقَامِ؟).

وأكل الشعب على الدم)، وتنقل لنا بعض عبارات المزامير عبارات الانتقام: (خاصم يا ربّ مخاصمي، قاتل مقاتلي، امسك مجناً وترساً وانهض إلى معونتي، واشرع رحماً وصدّ تلقاء مطاردي، اقض لي يا الله، وخاصم مخاصمي، بك ننطح مضايقيننا بسمك ندوس القائمين علينا)^(١).

وفي معجم اللاهوت الكتابي يقول: (الانتقام في لغتنا اليوم يعني إيقاع العقاب على التعدي بالردّ على الشرّ بالشرّ، أمّا في لغة الكتاب فيشير الانتقام أولاً إلى استعادة البرّ، وإلى الانتصار على الشرّ... كان على أعضاء القبيلة، في المجتمعات الرّحل التي كان إسرائيل منها عند نشأته، أن يتبادلوا تولّي الحماية والدفاع عن ذواتهم، أمّا عند حدوث قتل إنسان فكان وليّ الدم ويُعرف عندهم باسم (جويل) هو الذي يأخذ بثأر القبيلة فيقتل القاتل (عدد ٢١/٣٥) غير أنّه بجانب باعث التضامن، كان ثمة اقتناع بأنّ الدم المسفوك، كدم هابيل، يقتضي الثأر (راجع: تكوين ٤/١٠، أيّوب ١٦/١٨) على هذا النحو كان ينبغي صيانة العدل، وحتّى بعد أن صار إسرائيل شعباً حضرياً فقد حافظ على هذه العادة (راجع: صموئيل ٣/٢٢ - ٢٧)، وقد يقال عن يوم الربّ: إنّه يوم الانتقام (إرميا ٤٦/١٠)، حينئذ سيثأر الله للعدل كما سيثأر لشرفه، وبهذا المعنى يمكن القول بأنّ الله وحده يستطيع أن ينتقم (لنفسه) برّ، عدل، خلاص، انتقام: ذلك ما سيأتي به يوم الربّ (إشعيا ٥٩/١٧ - ١٨)، فبقدر ما يكون شعب إسرائيل أميناً على العهد، يستطيع أن يرفع شكواه إلى (جويل) إلى (إله النقمات))^(٢).

(١) المزمور (٥/٤٤) و(١/٤٣) و(١/٣٥ - ٣).

(٢) في موقع البشارة، الموسوعة المسيحية العربية الإلكترونية.

روايات القصاص في كتاب (وسائل الشيعة)^(١):

ومن بين تلك الأحاديث الكثيرة التي تضمَّنتها الأبواب الأنفة الذكر:

١ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا ضَرَبَ رَجُلًا سَوْطًا لَضْرَبَهُ اللَّهُ سَوْطًا مِنْ نَارٍ»^(٢).

٢ - وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، «... لِأَنَّ مَنْ هَمَّ بِالْقَتْلِ فَعَرَفَ أَنَّهُ يُقْتَصُّ مِنْهُ فَكَفَّ لِذَلِكَ عَنِ الْقَتْلِ كَانَ ذَلِكَ حَيَاةً لِذِي هَمِّ بِقَتْلِهِ، وَحَيَاةً لِهَذَا الْجَانِي الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ، وَحَيَاةً لِغَيْرِهِمَا مِنَ النَّاسِ إِذَا عَلِمُوا أَنَّ الْقِصَاصَ وَاجِبٌ لَا يَجْتَرُونَ عَلَى الْقَتْلِ مَخَافَةَ الْقِصَاصِ»^(٣).

٣ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي حَدِيثٍ يَقُولُ فِيهِ الرَّاويُّ: سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ قَتَلَهُ الْقِصَاصُ، لَهُ دِيَةٌ؟ فَقَالَ: «لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يُقْتَصَّ مِنْ أَحَدٍ»، وَقَالَ: «مَنْ قَتَلَهُ أَحَدٌ فَلَا دِيَةَ لَهُ»^(٤)، وَفِي نَصِّ آخَرَ: «مَنْ أُقْتِصَّ مِنْهُ فَهُوَ قَتِيلُ الْقُرْآنِ»^(٥).

وهذه الأحاديث ظاهرة، بل بعضها صريح في أن الشريعة الإسلامية أقرت القصاص، وأن به حياة الناس ونظام المجتمع وردعاً للاعتداء، وأنها نظمت عملية العقاب وردع المخالفة وحفظ النظام الفردي والاجتماعي بدقة عالية، ووضعت لكل اعتداء مهما صغر حجمه عقاباً يناسبه وبعقوبات مختلفة ذكرتها الروايات مفصلاً، وأشارت النصوص السابقة إلى بعض منها.

(١) وسائل الشيعة (ج ٢٩ / ص ٩ - ٤٠٤).

(٢) وسائل الشيعة (ج ٢٩ / ص ٢٢ و ٢٣ / ح ٣٥٠٥٥ / ٧).

(٣) وسائل الشيعة (ج ٢٩ / ص ٥٣ و ٥٤ / ح ٣٥١٣٤ / ٦).

(٤) وسائل الشيعة (ج ٢٩ / ص ٦٣ / ح ٣٥١٥٧ / ١).

(٥) وسائل الشيعة (ج ٢٩ / ص ٦٤ / ح ٣٥١٥٨ / ٢).

النَّارُ وَعُقُوبَةُ الإِعْدَامِ فِي مَسْأَلَاتِ الْقَوَانِينِ:

نعتمد في هذه القراءة على ما صدر من الأُمَمِ المُتَّحِدةِ في إطار سلسلة اجتماعات - بين عامي (٢٠١٢ - ٢٠١٤م) - عقدتها المفوضية السامية لحقوق الإنسان، تناولت فيها عقوبة الإعدام وخلفياتها وما إلى ذلك، وجاء من ضمن البحوث المنشورة^(١) بحث حمل عنوان (أديان العالم وعقوبة الإعدام) نقتبس منه عدَّة مواضع:

عند البوذية: (... تشير الأدلَّة إلى أنَّ معظم دول جنوب شرق آسيا طبَّقت عقوبة الإعدام قبل وقت طويل منذ نشوء البوذية وانتشارها في الهند في فترة (٤٠٠) إلى (٥٠٠) سنة قبل الميلاد).

(توموكو ساساكي)، وهو عضو سابق في البرلمان الياباني تناول موضوع القصاص بقوله: (يُعدُّ القصاص أحد التعاليم الأساسية في البوذية اليابانية، فإذا ما ارتكب شخص عملاً شريراً فعليه أن يُكفِّر عن ذلك من حياته، فإذا أزهقت روحاً فعليك أن تُقدِّم حياتك مقابل ذلك).

يقول (شريلا براهوبادا) مؤسس حركة (هاري كريشنا): (إنَّ السبب وراء معاقبة القاتل بالقتل هو كي لا يعاني في حياته الأخرى الذنب العظيم الذي اقترفه...).

مقوِّمات بناء الدولة في الإسلام وعلاقتها بما جرى على سيِّد الشهداء ﷺ:

جاء الإسلام كشرية مكمِّلة لما سبق من الشرائع، وامتداد لها لبناء

(١) الابتعاد عن عقوبة الإعدام (الحجج، التوجُّهات، الآفاق) لإيفان شيمونوفيتش (ص ١٧٥ - ١٨٥). يُراجع بحث أديان العالم وعقوبة الإعدام لماريو مارازيتي، المتحدِّثة باسم جمعيَّة سانت إيجيدو، وعضو حالي في البرلمان الإيطالي.

الإنسان، حيث تكفّلت قوانينه بجميع مناحي الحياة، فما من حادثة أو حركة إلاّ ولها الحكم المناسب والتقنين الذي يتكفّل حفظ الحقوق والواجبات.

فمنذ بدايات الإسلام، كان دور النبيّ الأكرم ﷺ في بناء المسلمين يقوم على أساس كون الإسلام ديناً يُنظّم الحياة، وما إن وطأت قدماه الشريفتان المدينة المنورة حتّى شرع ببناء الأُسُس التي تقوم عليها الدولة، وتسلمّ هو بنفسه المناصب القياديّة العليا من القضاء والإدارة المدنيّة والعسكريّة والماليّة، وبنى المنظومة الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والعقائدية للمسلمين، وفي ظرف (١٠) سنوات أصبحت دولته من أقوى الدول وأعدلها وأحفظها لحقوق الإنسان وكرامته، وهياً أفضل السبل وأسهلها لبسط العدل وأخذ الحقوق والالتزام بالواجبات، منطلقاً من منظومة إلهية متكاملة أعطته الصلاحيّات الكاملة.

ولنا أن نسأل: ما هي مقوّمات بناء الدولة التي أرادها الإسلام وأسّس لها النبيّ الأكرم ﷺ؟

مما لا شكّ فيه أنّ من المقوّمات الأساسيّة لأيّ دولة هو وجود شعب وأرض وسلطة، إذ لا يمكن قيام دولة بدونها، والسلطة هي التي تُنظّم شؤون الشعب على تلك الأرض ضمن أنظمة وقوانين وعلى مستويات مختلفة، وبمقدار حفظ الدولة للعدل تميّز، وبمقدار إخفاقها فيه تنحدر وتتلاشى.

انحراف مسار الدولة بعد رحيل النبيّ ﷺ:

بعد النبيّ الأكرم ﷺ تعرّض المسلمون إلى انتكاسة كبيرة من عدّة جهات، ومنها تنصيب مَنْ ليس بأهل لإدارة شؤون الدولة، ومن هذا المنطلق تأسّست لدى المسلمين جملة من المفاهيم الخاطئة والمنحرفة عن جادة العدل في بناء الدولة.

استبدلت مفاهيم (العدل، القسط، حرمة الظلم، كره الظالمين) بمفاهيم مغايرة لها تماماً «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِع»^(١)، حتّى إنَّ جملة من الصحابة وبعد واقعة الحرّة في المدينة وتسلط يزيد ابن معاوية على الرقاب - وأخذه البيعة من المسلمين على أن يكونوا عبيداً -، وأنَّ الخروج عليه وخلع طاعته يوجب الميتة الجاهليّة.

فدخل الإسلام في حالة من غياب الوعي لم يستفك منها الأغلب إلى يومنا هذا، حيث بُنيت المنظومة المعرفيّة والسلوكيّة تحت نظر الحاكم الظالم وسياطه.

ولعلَّ أغلب ما يُثار حول الإسلام في زماننا من شُبُهات وتشكيكات منشؤها المنظومة الفكرية الخاطئة التي تأسست على مفاهيم مغلوطة، فنشأ من ذلك تراث منسوب للدين مبني على أسس محجوجة عقلاً وعقلائياً، كان الهدف من ورائها تثبيت سلطة الحاكم الظالم مهما كان الثمن، حتّى إنَّ أبواق السلطة آنذاك كانت تخشى أن تبوح ببعض الحقائق الواضحة^(٢).

لقد تمَّ استخدام الدين أسوأ استخدام لتحصيل مآرب السلطة وديموميّة بقائها، فانقلبت المفاهيم رأساً على عقب، وصدقت على ذلك الزمان مقولة النبي الأكرم ﷺ التي نقلها الخبر الصحيح عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله ﷺ، قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَدَتْ نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ، وَلَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقِيلَ لَهُ: وَيَكُونُ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ، فَقِيلَ

(١) صحيح مسلم (ج ٦ / ص ٢٠).

(٢) عن أبي هريرة، قال: (حفظت عن رسول الله ﷺ [وعاءين، فأما أحدهما فيشته، وأما الآخر فلو بثته قطعت هذا البلعوم). صحيح البخاري (ج ١ / ص ١٠١ / ح ١١٢).

لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمْ
الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا^(١).

فتغيّرت المنظومة من «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» (النحل: ٩٠)،
إلى (أَنَّ العَدْلَ هُوَ مَا يَرَاهُ السُّلْطَانُ)، هذا هو فعلاً ما حصل، فقد بنت السلطة
بالمال والسلاح منظومة معرفية دينية أحادية الطرف، ليس فيها مجال لسماع الرأي
الآخر فضلاً عن العمل به، ومن يجرؤ على المخالفة فسوف تقوم الدولة بسحقه
واستخدام أشد وسائل الإقصاء والتنكيل به وبمن يتبعه.

من هنا صار الخروج على الدولة - وإن كانت تمارس أشد وأقسى أنواع
الظلم - ظلماً ومحرمًا وغير مشروع.

وقد قادت الدولة الفاسدة مشروعها من خلال حروب إعلامية منظّمة
انتهت إلى تكذيب مَنْ يدّعي أَنَّ لديه القدرة على إقامة العدل.

فلاحظ أَنَّ الإمام الحسين بن عليٍّ عليه السلام سبط نبيِّ الإسلام ﷺ وابن
فاطمة عليها السلام يخرج للحرب ومعه حريمه وأولاده وإخوته ولا يخرج معه إلا نفر
قليل، فأبى ماكنة إعلامية ضخمة منعت الناس عن اللحوق به والقتال معه دفعاً
للظلم عن أنفسهم.

في الحقيقة مَنْ ينظر إلى الأحداث التاريخية في تلك الفترة، يؤمن أَنَّ
الإسلام لم يبقَ منه شيء على الأرض سوى الاسم.

من هنا رفع الأئمة عليهم السلام من بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام شعار النصر
لحركته عليه السلام فقط، ولم يدخلوا ميدان الحرب العسكرية، فمن هو الذي يكون
أفضل من الحسين عليه السلام ليقود الإصلاح في أمة جدّه؟! ومع ذلك يُقتل شرّ قتلة
عرفتها البشرية.

(١) الكافي (ج ٥ / ص ٥٩ / باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / ح ١٤).

الحركة الحسينية والبناء الديني لإصلاح المنظومة الفكرية والسلوكية للمجتمع:

بعد الانهيار الكبير لمنظومة الدين على مختلف الصُّعد، لم يكن من بُدِّ إلا أن يخرج الإمام الحسين عليه السلام ليرفع راية الإصلاح وإرجاع الأمور إلى نصابها التي كانت على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولم يكن مهماً له أن يتحقق الانتصار العسكري، بل كان يعلم بعدم تحققه، وأنه مقتول ومن معه لا محالة.

فقد ورد في جملة من الروايات ما يفيد هذا المعنى، ومنها ما رواه الشيخ المفيد سنة عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مِنْ عِنْدَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَغَابَ عَنَّا طَوِيلًا، ثُمَّ جَاءَنَا وَهُوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ وَيَدُهُ مَضْمُومَةٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لِي أَرَاكَ شُعْثًا مُغْبَرًا؟ فَقَالَ: «أُسْرِي بِي فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَى مَوْضِعٍ مِنَ الْعِرَاقِ يُقَالُ لَهُ: كَرْبَلَاءُ، فَأُرِيتُ فِيهِ مَضْرَعَ الْحُسَيْنِ ابْنِي وَجَمَاعَةَ مِنْ وُلْدِي وَأَهْلَ بَيْتِي، فَلَمْ أَزَلْ أَلْقُطُ دِمَاءَهُمْ، فَهِيَ فِي يَدِي»، وَبَسَطَهَا إِلَيَّ، فَقَالَ: «خُذِيهَا وَاحْتَفِظِي بِهَا»، فَأَخَذْتُهَا، فَإِذَا هِيَ شَبَهُ تَرَابٍ أَحْمَرَ...^(١).

خرج عليه السلام وهو يعلم بمصيره وأنه مقتول ويقول: «إِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا مُفْسِدًا وَلَا ظَالِمًا، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلْبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي صلى الله عليه وآله، أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَسِيرُ بِسِيرَةِ جَدِّي وَأَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَمَنْ قَبِلَنِي بِقَبُولِ الْحَقِّ فَاللَّهُ أَوْلَى بِالْحَقِّ»^(٢).

إنَّ الحسين عليه السلام رسم خارطة إصلاح واضحة المعالم.

من هنا نفهم أنَّ الأئمة عليهم السلام عندما كان يُعرض عليهم القيام والنهوض،

(١) الإرشاد (ج ٢ / ص ١٣٠)؛ وهناك نصوص عديدة في هذا الصدد من المناسب مراجعة كتاب

كامل الزيارات للشيخ جعفر بن محمد بن قولويه من (ص ١٢١ - ١٦٠)، للاطلاع عليها.

(٢) بحار الأنوار (ج ٤٤ / ص ٣٢٩ و ٣٣٠).

وذلك عندما يترأى لبعض أن الوقت قد حان، فإنهم يقولون: «مَا أَنْتَ مِنْ رَجَالِي، وَلَا الزَّمانُ زَمَانِي»^(١)، وفي ذات الصدد عندما يأتي أحدهم إلى الإمام الصادق عليه السلام بكتاب أبي مسلم، فيقول عليه السلام له: «لَيْسَ لِكِتَابِكَ جَوَابٌ»^(٢)، وفي نصٍّ آخر أجلى من سابقه يقول المُعلِّى بنُ حُنَيْسٍ: ذَهَبْتُ بِكِتَابِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ نُعَيْمٍ وَسَدِيرٍ وَكُتُبٍ غَيْرِ وَاحِدٍ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام حِينَ ظَهَرَتِ الْمَسْوَدَةُ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ وُلْدُ الْعَبَّاسِ بَأَنَّا قَدْ قَدَرْنَا أَنْ يُؤُولَ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْكَ، فَمَا تَرَى؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِالْكِتَابِ الْأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: «أَفُّ أَفُّ، مَا أَنَا هُوَ لِأَيِّامٍ، أَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُقْتَلُ السُّفْيَانِيُّ»^(٣).

يقول الشيخ المفيد رحمته الله في سيرة الأئمة عليهم السلام على عدم الخروج بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام إلى أن يقوم الإمام الحجّة بن الحسن عليهما السلام: (إنَّ ملوك الزمان إذ ذاك كانوا يعرفون من رأي الأئمة عليهم السلام التقية، وتحريم الخروج بالسيف على الولاية، وعيب مَنْ فعل ذلك من بني عمّهم ولومهم عليه، وأنّه لا يجوز عندهم تجريد السيف حتّى تركد الشمس عند زوال، ويُسمَع نداء من السماء باسم رجل بعينه، ويُحَسَف بالبيداء، ويقوم آخر أئمة الحقّ بالسيف ليزيل دولة الباطل، وكانوا لا يكبرون بوجود مَنْ يوجد منهم، ولا بظهور شخصه، ولا بدعوة مَنْ يدعو إلى إمام، لأنهم مع ذلك من فتق يكون عليهم به، ولا اعتقادهم قلة عدد مَنْ يصغي إليهم في دعوى الإمامة لهم، ويُصدّقهم فيما يُخبرون به من منتظر يكون لهم)^(٤).

(١) المِلَل والنَّحَل للشهرستاني (ج ١ / ص ١٥٤)، ردُّ الإمام الصادق عليه السلام على كتاب أرسله أبو مسلم إليه.

(٢) الكافي (ج ٨ / ص ٢٧٤ / ح ٤١٢).

(٣) الكافي (ج ٨ / ص ٣٣١ / ح ٥٠٩).

(٤) الفصول العشرة (ص ٧٤).

فكان دور الأئمة عليهم السلام منصباً على بيان أن الإمام الحسين عليه السلام قتل الله وقتيل رسوله ﷺ، وأنه مصلح هذه الأمة على امتداد الزمان، فينبغي أن يكون حاضراً عند الناس في كل زمان ومكان، فكانوا عليهم السلام يؤكّدون - كلما سنحت فرصة - على ارتباط الإمام الحسين عليه السلام برسول الله ﷺ وأنه امتداد له، وأن الله تعالى وأنبياءه وملائكته قد لعنوا قاتل الحسين بن علي عليه السلام، وأن قتله كان معلوماً لدى جميع الأنبياء والملائكة، وبكى لذلك جميع ما خلق الله تعالى حتى السماء والأرض، وأكدوا عليهم السلام على إحياء ذكر الحسين عليه السلام بمختلف درجات الإحياء^(١).

فالروايات الشريفة التي نطالعها في هذا الصدد تُبرز هذه الصورة، وأن الحركة الحسينية هي الحركة الوحيدة القادرة على بناء المنظومة الدينية الصالحة لقيادة البشرية نحو الأفضل، وأن ركيزة هذه الحركة هو العدل، وأن الاعوجاج الموجود في كل زمان إنما هو في الابتعاد عن هذه المنظومة.

فإنه وإن كان التعقيم شديداً وقاسياً، إلا أن الأئمة عليهم السلام استطاعوا وبجدارة إيصال المنظومة الحسينية إلينا، بل وإلى البشرية - لو اطلعت -، فما علينا سوى تفعيل المقدار الذي يقع علينا والباقي بعهد الإمام عليه السلام الذي ينتظر أن يقوم الآخرون بأدوارهم في الاستمداد من العطاء الحسيني.

نعم لا زال التعقيم وبحجم كبير يمنع الكثير من أصحاب القلوب النقية من الوصول إلى هذه المنظومة الإلهية، وهنا يأتي دور الرائدین والمخلصين من

(١) من المناسب جداً الاطلاع على فهرست كتاب كامل الزيارات للشيخ جعفر بن محمد بن قولويه عليه السلام، وهو من أعظم الكتب تأليفاً ومؤلفاً، فإن فيه أبواباً كثيرة تُوضّح الصورة التي أبرزها الأئمة عليهم السلام لمقام الإمام الحسين عليه السلام وأهميته في الإصلاح الديني والارتباط القلبي وتجسيد المبادئ التي خرج من أجلها.

العارفين بالحسين ﷺ ونهضته في تعريفها للناس بالأسلوب والطريقة المؤثرة والنافعة.

وهذا ما يحتاج إلى وجود الإمام ﷺ - في إطار منظومة عقائدية متكاملة -، فيكون الطلب بثأر الإمام الحسين ﷺ هو طلب بالثأر للعدل المستلب على مر الزمان، فهل يبقى لمقولة: (إنه انتقام شخصي) وغيرها مما ستسمعه من مقولات وشبهات معنى؟

الشبهات المثارة حول الثأر المهدوي:

أثيرت حول النصوص التي دلت على أن الحجّة بن الحسن ﷺ يأخذ بثأر الإمام الحسين ﷺ عدّة أسئلة وإشكالات يرجع في الغالب غيرها من الإشكالات والشبهات الأخرى إلى واحدة منها.

الشبهة الأولى: الثأر المهدوي نزاع بين قبيلتين:

الصراع بين العلويين والأمويين صراع ممتد إلى زمان النبي الأكرم ﷺ، بل ما قبله، وهذه النصوص التي تتحدث عن الثأر المهدوي إنما تتحدث عن هذا الصراع الشخصي، ولا علاقة لها بالعقيدة والدفاع عنها.

والجواب عن ذلك:

١ - أن الصراع بين بيت النبوة وبني أمية ليس صراعاً قبلياً، بل هو صراع مبادئ، فقد روي عن أبي عبد الله ﷺ، قال: «إِنَّا وَآلُ أَبِي سُفْيَانَ أَهْلُ بَيْتَيْنِ تَعَادَيْنَا فِي اللَّهِ، قُلْنَا: صَدَقَ اللَّهُ، وَقَالُوا: كَذَبَ اللَّهُ، قَاتَلَ أَبُو سُفْيَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَاتَلَ مُعَاوِيَةَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، وَقَاتَلَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ ﷺ، وَالسُّفْيَانِيُّ يُقَاتِلُ الْقَائِمَ ﷺ»^(١).

(١) معاني الأخبار (ص ٣٤٦) / باب معنى قول الصادق ﷺ: «إِنَّا وَآلُ أَبِي سُفْيَانَ أَهْلُ بَيْتَيْنِ تَعَادَيْنَا فِي اللَّهِ ﷻ» / ح (١).

٢ - لو تنزّلنا فما المانع أن يكون الصراع القبلي صراع مبادئ وقيم - مع ذلك يُسمّيه البعض قبلياً -، فليس كلُّ صراع قبلي باطلاً، فهناك من الصراعات القبليّة ما يتشرف به أبناؤها كقبيلتي همدان ومذحج اللتين أبلينا بلاءً قلّ نظيره في نصره الإسلام، فحميّة أبناء القبيلة ونصرتهم للدين والمبادئ حميّة قيميّة وليست تعصبيّة. ويؤكد هذا المعنى أن القبائل في المجتمع الإنساني منطلق لبناء المنظومات التي أسست الدول والقوانين، وتقدّم أن هذه الأنظمة وُجدت لحفظ النظام وعدم التعديّ على الحقوق وتحجيم أو إنهاء أفعال الظلمة، ولولا هذا الوجود القبلي لما كان للوجود الإنساني أن يرى التطوّر والرقّي المدني، فقوانين القبائل هي نواة بناء المجتمعات، ولا زالت تتمتع بمساحة واسعة من الاحترام والدور في بناء النظم وحفظ الحقوق، فليس كلُّ ما يمتُّ إلى القبيلة ممقوتاً ومذموماً.

الشبهة الثانية: أهل البيت عليهم السلام بيت الرحمة والعفو، وهذا لا ينسجم مع الثأر والانتقام:

صدور روايات عن أهل بيت الرحمة والعفو عليهم السلام تطالب بالانتقام والثأر لا نتعلّقه، فمن كانت سمتهم العفو عن ظالمهم وكظم الغيظ عمّن اعتدى عليهم كيف يتصوّر في حقّهم أن يمارسوا الانتقام والثأر؟ إن هذه المقولة لا يصحّ الحديث فيها أمام هذه الذوات المملوءة عطفاً ولطفاً ورحمةً، فهم فيض الوجود وأوسع أبواب الرحمة الإلهيّة. فلا بدّ من رفض هذه الروايات، ولعلّها افتعلت في أزمنة متأخرة من قبل الغلاة لتحقيق أهداف ضيّقة.

قبل الجواب عن هذه الشبهة نستعرض جملة من الروايات الواردة في هذا الصدد والتي تحدّثت عن الثأر لشهادة الإمام الحسين عليه السلام على يد الحجة بن الحسن عليه السلام، وهي:

١ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، قَالَ: «ذَلِكَ قَائِمُ آلِ مُحَمَّدٍ، يُخْرَجُ فَيَقْتُلُ بِدَمِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَوْ قَتَلَ أَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَكُنْ مُسْرِفًا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ لَمْ يَكُنْ لِيَصْنَعْ شَيْئًا يَكُونُ سَرَفًا»، ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَقْتُلُ وَاللَّهِ ذَرَارِيَّ قَتَلَهُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِفِعَالِ آبَائِهَا»^(١).

فعظم المصيبة يستدعي هذا الفعل، أي إنه إن فعل، فليس في فعله إسراف لعظيم ما وقع، ولكنه لا يفعل إلا بما يناسب مقامه وشأنه، فلا يأخذ بالجريمة إلا من يرضي فعال الآباء الذين لو أتحت لهم الفرصة لكرروها.

٢ - عَنْ سَمَاعَةَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، قَالَ: «أَوْلَادُ قَتَلَهُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢).

وقد أفرد الشيخ جعفر بن محمد بن قولويه رحمته الله في كتابه القيم (كامل الزيارات) باباً تحت عنوان (ما نزل من القرآن بقتل الحسين عليه السلام وانتقام الله سبحانه ولو بعد حين)، ومما جاء فيه بسنده عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «... والله لقد قتل قتلة الحسين عليه السلام ولم يطلب بدمه بعد»^(٣).

فالانتقام من الله تعالى.

٣ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حُمُرَانَ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ صَجَّةَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْبُكَاءِ، وَقَالَتْ: يُفْعَلُ هَذَا بِالْحُسَيْنِ صَفِيكَ وَابْنِ نَبِيِّكَ؟»، قَالَ: «فَأَقَامَ اللَّهُ لَهُمْ ظِلَّ الْقَائِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ: بِهِدَا أَنْتِمُّمُ هَذَا»^(٤).

(١) كامل الزيارات (ص ١٣٥ و ١٣٦ / ح ٥ / ١٥٧).

(٢) كامل الزيارات (ص ١٣٦ / ح ٦ / ١٥٨).

(٣) كامل الزيارات (ص ١٣٤ / ح ٢ / ١٥٤).

(٤) الكافي (ج ١ / ص ٤٦٥ / باب مولد الحسين بن علي عليه السلام / ح ٦).

فالمنتقم هو الله تعالى بواسطة الإمام عليه السلام.

٤ - عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:
«الْقَائِمُ وَاللَّهُ يَقْتُلُ ذَرَارِيَّ قَتْلَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام بِفِعَالٍ أَبَائِهَا»^(١).

٥ - وفي الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ صَالِحِ الْهَرَوِيِّ، قَالَ: قُلْتُ
لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرَّضَا عليه السلام: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي حَدِيثِ
رُويٍ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ الْقَائِمُ قَتَلَ ذَرَارِيَّ قَتْلَةِ الْحُسَيْنِ عليه السلام
بِفِعَالٍ أَبَائِهَا»، فَقَالَ عليه السلام: «هُوَ كَذَلِكَ»، فَقُلْتُ: فَقَوْلُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، مَا مَعْنَاهُ؟ فَقَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ، لَكِنَّ
ذَرَارِيَّ قَتْلَةِ الْحُسَيْنِ يَرْضُونَ أَفْعَالَ آبَائِهِمْ وَيَقْتَحِرُونَ بِهَا، وَمَنْ رَضِيَ شَيْئًا كَانَ
كَمَنْ أَتَاهُ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي الْمَشْرِقِ فَرَضِي بِقَتْلِهِ رَجُلٌ فِي الْمَغْرِبِ لَكَانَ
الرَّاضِي عِنْدَ اللَّهِ شَرِيكَ الْقَاتِلِ، وَإِنَّمَا يَقْتُلُهُمُ الْقَائِمُ إِذَا خَرَجَ لِرِضَاهُمْ بِفِعْلِ
أَبَائِهِمْ...»^(٢).

وتوجيه هذا المضمون يظهر جلياً من استعمالات العرب، فهو مَنْ
يخاطبهم بلغتهم، فمثلاً يقال للرجل الذي غزا قومه قوماً آخرين وقتلوهم:
أغرتم وفعلتم كذا، فيقول العربي: فعلنا بني فلان وسببناهم، ولا يريد أنه باشر
ذلك بنفسه، ولكنه يفخر، ولأن هؤلاء الخلف راضون بفعال السلف ويرون
صواب فعلهم، فصح أن يقال: أنتم فعلتم.

٦ - وفي بعض نصوص الأدعية والزيارات وردت مضامين مشابهة لما
ذكرته الروايات بصيغة الدعاء والطلب، منها:

أ - ما في مقطع من زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «... فَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَكْرَمَ

(١) ثواب الأعمال (ص ٢١٧).

(٢) علل الشرائع (ج ١ / ص ٢٢٩ / باب ١٦٤ / ح ١).

مَقَامَكَ أَنْ يُكْرِمَنِي بِكَ، وَيَرْزُقَنِي طَلَبَ ثَارِكَ مَعَ إِمَامٍ مَنصُورٍ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ...»، وفي مقطع آخر منه: «... وَأَنْ يَرْزُقَنِي طَلَبَ ثَارِكُمْ مَعَ إِمَامٍ مَهْدِيٍّ نَاطِقٍ لَكُمْ...»^(١).

ب - وفي مقطع آخر من زيارة الإمام الحسين ﷺ: «... وَأَنْ يُوفِّقَنِي لِلطَّلَبِ بِثَارِكُمْ مَعَ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ الْهَادِي مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ...»^(٢).
بعد هذا الاستعراض يتبين لنا:

١ - أن جملة من الروايات المتقدمة نظمتُ بصورها، فإنكارها دون مبرر مجازفة وقول بلا دليل.

٢ - لا يصح رفض رواية صحَّ صدورها إلا لسبب وجيه، ومنه أن تكون مخالفة للكتاب والسنة، فيستكشف صدورها تقيّة مثلاً، وفي المقام لا يوجد مبرر لرفض هذه الروايات لموافقتها للكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩).

فإن قيل: إن هذا يخالف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤).

قلنا: إن الإمام ﷺ تكفل بجواب ذلك بقوله: «لِرِضَاهُمْ بِفِعْلِ آبَائِهِمْ».
٣ - جميع الإلهيين يعتقدون بأن الله تعالى هو منتهى الرحمة واللطف والرافة، وفي ذات الوقت يعتقدون بأنه أعدل العادلين وأحكم الحاكمين، وأنه لا يضيع حقاً، بل ذرة من عمل، وما حصل مع الحسين ﷺ بوصفه امتداداً طبيعياً للنبي الأكرم ﷺ يقتضي إنزال أشد العقوبات في من أجرم بحقه فعلاً أو قولاً.

(١) كامل الزيارات (ص ٣٢٩ و ٣٣٠ / ح ٩/٥٥٦).

(٢) مستدرک الوسائل (ج ١٠ / ص ٤١٣ / ح ١٦/١٢٢٧٣).

وقد تقدّم وصف قتله وانتهاك حرمة في بعض النصوص السابقة أنه قتل للإسلام، وتعطيل للحلال والحرام، وأنّ على هذا المصاب حزن جميع الوجود، أفلا يحقُّ لهذه الوجودات الحزينة أن تستردَّ حقّها المسلوب طيلة قرون ودهور؟ أليس هذا هو العدل؟

٤ - تقدّم في نصوص عديدة أنّ ما خرج من أجله الحسين عليه السلام ليس منفعة شخصيّة أو حقّاً مغتصباً، إنّما هو إصلاح إنساني ديني، فهو خرج من أجل إرجاع المبادئ إلى نصابها وإعطاء الحقوق لأهلها، فالدفاع عن مظلمته والاقتصاص من قتله هو دفاع عن النظام الإنساني والديني ومبادئ العدل والحقّ.

الشبهة الثالثة: لو قتل أهل الأرض لم يكن مسرفاً وجوابها:

بعض الروايات تقول: لو قتل أهل الأرض لم يكن مسرفاً، وهذا لا يُعقل، إذ لو سلّمنا أنّ الراضي بقتله شريك في الجرم، فليس معنى ذلك أنّ جميع أهل الأرض مشتركون فيه، فكيف ساغ تجويز قتل أهل الأرض جميعاً انتقاماً؟

والجواب عن ذلك:

١ - أنّ ما ورد في هذا النصّ فرض «لَوْ قَتَلَ»، ومع ذلك فهو مقيد بتقييدات كثيرة ذكرناها في الروايات المتقدمة، من قبيل التقييد بـ «لِرِضَاهُمْ بِفِعْلِ آبَائِهِمْ»، كما ذكر المستشكل، فهو من باب ذكر العامّ والمطلق اعتماداً على وجود المخصّص والمقيد.

٢ - أنّ المقصود من هذا النصّ أنّ كلّ مَنْ رضي بهذا الفعل، فلو أنّ أهل الأرض رضوا لكانوا مستحقّين للقصاص.

٣ - الاعتداء على المعصوم ليس هو اعتداء على ذاته فقط، بل على مقامه، ومن له مقام لا يضاهى فيكون قتل العالم أيسر من قتله والتجاوز عليه، ولذلك نجد الإمام عليه السلام في نفس الحديث بعد أن قال: «فَلَوْ قَتَلَ أَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ يَكُنْ

مُسْرِفًا»، أي إنَّ واقع ما حصل على الحسين ﷺ لا يضاهيه شيء، ولا يُسمَّى الانتقام له إسرافاً ولو كان بقتل كلِّ أهل الأرض إن كانوا راضين بفعل القتل، ولكنه في ذات الوقت يقول ﷺ: «لَمْ يَكُنْ لِيَصْنَعْ شَيْئاً يَكُونُ سَرْفًا»، أي هذا منه ليس سرفاً لواقع ما حصل على الحسين ﷺ.

الشبهة الرابعة: رجحان العفو واستحبابه ينافي الأخذ بالتأثر وجوابها:

دلَّت الروايات على رجحان العفو واستحباب العفو عن القاتل من قبل المؤمنين، وأهل البيت عليهم السلام أولى بذلك منهم، وهذا يتنافى مع مقولة التأثر والانتقام التي ينسبها أتباع المذهب إليهم.

والجواب عن ذلك:

١ - أن الروايات التي تحدّثت عن العفو هي تتحدّث عن مقام آخر غير مقام إثبات الحقِّ، فبعد أن يثبت الحقُّ ويتجلَّى حجم الاعتداء ويعترف المعتدي يأتي دور العفو، أمّا مَنْ لا يعترف بذلك ويتمادى ويرضى بفعل الآباء والأجداد، فإنَّ العفو عن أمثال هؤلاء يُعدُّ جبنًا وتخاذلاً، وهو نقص في كمالات الإنسان فضلاً عن المعصوم، فالذي يُعدُّ كما لا ورفعةً هو العفو بعد اعتراف المذنب وإقراره. نعم، لا بدَّ أن يكون الإقرار في ظرف مناسب، وليس بعد فوات الأوان كما حصل مع فرعون ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (يونس: ٩٠ و ٩١).

٢ - أن الحقَّ الذي يطالب بإسقاطه صاحب الشبهة ليس هو حقاً تابعاً لشخص إنما هو حقٌّ عامٌّ، حقُّ الاعتداء على منصب الإمامة.

الشبهة الخامسة: التأثر يُشكِّل أزمة خطاب عالمي:

سَلَّمْنَا أَنْ مَا سَيَقُومُ بِهِ الْإِمَامُ الْمَهْدِي ﷺ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ عَقْلاً

وشرعاً، بل هو لازم لما تقدّم من وجوه، ولكن ذلك لا ينفي أن التصريح به منفّر على مستوى الخطاب العالمي، فإنّ الجمهور العريض من الناس بعيدون عن الدّين ولا يرغبون به لما يتصوّرونه من تقييد الحريّاتهم، فإذا انظمّ إليه أمثال هذا الخطاب العدواني، فإنّه سيؤكّد ما في أذهانهم من شُبّهات حول الدّين، فكان الراجح على المشرّع ترك مثل هكذا خطاب لما فيه من المنفّريّة الظاهريّة.

والجواب عن ذلك:

١ - إذا سلّمنا أنّ هناك حسناً في أخذ الثأر، بل هو كذلك لما فيه من إقامة للعدل ونظم الحياة، فلا وجه للإشكال على ذلك بأنّ إثارته منفّرة منه، مع أنّ أمثال هذه العبارات لا زالت مستعملة إلى يومنا هذا من أكثر الدول والمنظّمات العالميّة التي تتصدّر المشهد الحقوقي العالمي، كما تقدّم.

٢ - الخطاب الدّيني خاضع لضوابط وآليّات، هي في العادة تلاحظ العرف ومرتكزاته وما يتعامل به في خطابه، فهو يستخدم نفس الأدوات والموادّ التي يستعملها الناس في التعبير عن مقاصدهم، واستعماله لهذه المفردات يعني أنّ الطابع العامّ من الناس يألفها ويأنس بها، أمّا أنّها لا تروق للبعض، فالإشكال حينئذٍ في هذا البعض ونظرته الضيقة تجاه الخطاب الدّيني، وفي العادة مهما كان الخطاب موزوناً فإنّه لا يكون مرضياً من قبل الجميع، نعم قد يكون مرضياً من قبل الغالب.

٣ - أنّ الخطاب الدّيني كما يلاحظ عنصر اللفظ وأدائه للمعنى، أيضاً يلاحظ في بعض خطابه البعد المشاعري للخطاب، إذ يقصد من ورائه إيجاد حالة من الارتباط الروحي بقضية معينة فيصدر جملة من الخطابات الوجدانيّة، فالقضية مقصودة للشارع المقدّس وإن لم ترق للبعض.

٤ - لو فرضنا أنّ الشارع أراد أن يُغيّر الخطاب، فما هو اللفظ المناسب لواقع هذه القضية مع المحافظة على بُعدها القانوني والوجداني؟ فإنّ أمثال هذه

القضايا ليست توقيفية، فلكل شخص حرية التعبير بما يراه مناسباً شريطة الحفاظ على المعنى وحيثياته الدخيلة فيه، ولعلنا لا نجد لفظه مناسبة لتأدية هذين الأمرين كالتى استعملها الشارع المقدس.

٥ - نُسَلِّمُ أَنَّ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا الشَّارِعُ الْمُقَدَّسُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ مَقْصَدِهِ هِيَ مَنْحَصِرَةٌ بِزَمَنٍ مُعَيَّنٍ أَوْ أَكْثَرَ مَنَاسِبَةٍ لِلزَّمَنِ الَّذِي صَدَرَ فِيهِ النَّصُّ وَالْقَرِيبُ مِنْهُ، كَمَا فِي لَفْظَةِ (السِّيفِ) كَسَلَاحٍ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِمَامِ ﷺ، فَإِنَّ الْمَتَادُولَ - زَمَانَ النَّصِّ - هُوَ هَذَا، وَلَوْ تَصَدَّى الشَّارِعُ لِبَيَانِ السَّلَاحِ فِي زَمَانِ الظُّهُورِ فَقَدْ يَكُونُ مَنْفَرًا لِعَدَمِ فَهْمِهِ مِنَ النَّاسِ آنَ ذَاكَ، فَجَاءَ بِلَفْظَةٍ تَتَنَاسَبُ وَالْمُسْتَعْمَلِ فِي زَمَانِ النَّصِّ، وَلَا خُصُوصِيَّةَ لَهَا، لَمَا نَجَزِمُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَرِيدُهَا بِعَيْنِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ تَعْبِيرٌ كِنَائِيٌّ عَنِ الْأَلَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ، وَلَعَلَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي مَقَامِنَا بِالنِّسْبَةِ لِلْفِظَةِ (الثَّارِ).

الشبهة السادسة: لماذا لا يثار الشيعة لرسول الله ﷺ ويقتصرون على الثأر للحسين ﷺ؟

الشيعة تنادي دائماً بالثأر للحسين ﷺ «يَا لَثَارَاتِ الْحُسَيْنِ»، ولا تنادي بالثأر لرسول الله ﷺ، فهم يرون أنه انتهك مقامه وحرف الإسلام من بعده، كما أنهم لا ينادون بالثأر لفاطمة عليها السلام مع أنهم يعتقدون أن الاعتداء الذي وقع عليها كبير جداً، كما ولا ينادون بالثأر للإمام علي عليه السلام مع أنهم يرون أن كل المصائب ناشئة من مصيبة إقصاء الإمام علي عليه السلام، كما ولا ينادون بالثأر للإمام الحسن عليه السلام المظلوم، وهكذا بقية الأئمة عليهم السلام، فلماذا لا يكون هناك ثأر لهم كما للإمام الحسين عليه السلام، فهل هو أفضل منهم؟ أو إن ذلك حالة انتقائية؟

والجواب عن ذلك:

١ - الأحكام الصادرة من الشريعة بهدف تنظيم حياة الإنسان استعملت فيها عدّة أساليب، فبعض الأحكام جاء بيانها مع بيان علتها، وبعضها الآخر

أرجع فيها الشارع المقدس إلى العرف بين الناس، وبعض ثالث تعبدنا بالحكم دون أدنى معرفة بالأسباب الموجبة له، ونحن نأخذ به تعبدًا، إيمانًا منّا بكبرى حكمة الشارع المقدس وهادفيته، وأنه بصدد تقديم الأفضل في مقام التشريع للإنسان، فالإيمان بمشرع بهذا المستوى يسدُّ الباب عن السؤال عمًا وراء الحكم من دواع، وهذا موجود لدى الكثير من الدول في تشريعاتها، فجهاز المخبرات في أغلب الدول يُشرع ويبارس قوانين قد يراها الناس أنّها تُقيّد حرّيتهم أو تُضُرُّ بمصالحهم الشخصية، بل وبعض النوعية، ولكنهم لا يسألون عن ذلك بعد الفراغ عن أنّ هناك مصلحة عليا وراء هذا التشريع أو تلك الممارسة.

فإغماض ملاكات التشريعات في بعض الأحيان هو بذاته حكمة، وهكذا في قطاعات عديدة كالجيش أو الصناعات الحربية الدقيقة، بل حتى جملة من الصناعات الطبية أو الهندسية أو الإلكترونية، يتمُّ كتمان الملاك وراء التشريع، ويكتفى بقاعدة أنّ المصلحة العامة تقتضي ذلك. وهنا لعلّ المصلحة العامة للدّين تقتضي ذلك، فما المانع أن يكون الخطاب الدّيني موجّهًا تجاه قضية واحدة ولا يعني ذلك بحال من الأحوال عدم أهميّة القضايا الأخرى؟!!

٢ - أنّ الذي وقع على الحسين عليه السلام في حقيقته عظيم جدًّا، ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ لم يقع مثل ما وقع عليه على أحد أبدًا، باعتبار مقامه السامي من جهة، ودناءة مقام عدوّه من جهة ثانية، وتنوّع الظلم عليه من جهة ثالثة، واستخفاف عدوّه بكلّ مبدأ إنساني وديني في هذه الواقعة، فكلُّ ما يمكن تصوّره من فضائع وفجائع قد وقعت في واقعة واحدة عليه عليه السلام.

فهذه الجهة وجهات أخرى قد لا نلاحظها وغيرها ممّا هو في ذهن القارئ وهي ما كانت وراء إبراز هذه القضية كشخص في المظلومية وضرورة النظر إليها والمطالبة بها على طول الزمان.

٣ - أن الحسين عليه السلام تجسدت فيه المظلومية السابقة واللاحقة، والحادثة المروعة في كربلاء هي بحق تمثل أسوأ المظلومية، فالحسين عليه السلام اجتمعت فيه مظلوميّات من سبق وسيلحقه حتى عبّرت بعض النصوص المتقدمة أنه ثار الله تعالى، وبالثار له يتم الثأر للأنبياء والأولياء.

٤ - لو كانت الخطابات الشرعية موجّهة باتجاهات متعدّدة فخطاب منها باتجاه أخذ الثأر لرسول الله ﷺ، وأخرى باتجاه أخذ الثأر لأمير المؤمنين عليه السلام، وثالث باتجاه أخذ الثأر لفاطمة عليها السلام، وهكذا، فإن أفراد الأمة سوف تتبعثر وتتشتت جهودهم، فلا بد من وجود شخصية تكون فيها المظلومية بارزة وجليّة إلى حدّ يصعب إنكارها من قبل الأغلب إن لم نقل الجميع.

٥ - لا دليل على أن الروايات أغفلت أو أهملت الأخذ بالثار لهم، كما ورد في النص: «أَيْنَ الطَّالِبُ بِذُحُولِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَبْنَاءِ الْأَنْبِيَاءِ»، بل هو كما ترى عامّ يشمل جميع الأنبياء عليهم السلام.

الشبهة السابعة: الثأر مخالف للسيرة العقلائيّة:

أغلب الأمم تعرّضت لحوادث مروعة، وقصص الظلم وانتهاك الحقوق للأفراد والمجتمعات تملأ التاريخ، ومع ذلك فإنّ العالم اليوم تناسى تلك الأحداث التي مرّت عليه وتغلّب على الصعاب والظلم الذي مرّ ليعيش بسلام مع الظالمين له، فسيرة العقلاء تقضي بترك الثأر والابتعاد عن تجسيد حالة الانتقام.

والجواب عن ذلك:

١ - أن قصص الثأر المنسيّة لم يمسحها التاريخ من سجلّاته، ولا زالت تُقرأ في اليوم الواحد آلاف المرّات، فالظلم لا يمسحه التفاوض عنه. إنّ المظلومين عبر التاريخ لم يتناسوا ظالمهم، ولا يزالون يطالبون بحقوقهم، ولكنّ

الظالمين لا زالوا إلى اليوم يمارسون ظلمهم بمنع المظلومين من المطالبة بحقوقهم، وتهديدهم عسكرياً أو اقتصادياً.

٢ - أن هناك ظلماً على فرد، وآخر على أفراد ومجتمع، وثالثاً على مبدأ، ولا نظن أن أحداً يُفَرِّط بالأول أو الثاني، فكيف يُفَرِّط بالثالث؟ فهل فرّطت دولة من الدول في حقها الأولي والأصلي على أرضها أو في سيادتها؟

نجزم أن أيّاً من ذلك لا وجود له، فلماذا يطالب من يستमित بالدفاع عن حقه بالتغاضي عن مبدأ وعقيدة مبنية على إرجاع الحقّ المستلب لشخص فيض الوجود وقطب عالم الإمكان؟

٣ - أنّها يكون للشبهة وجه لو سلّمنا أن الظلم الذي وقع على الإمام الحسين عليه السلام قد انتهى ولا أثر له اليوم، ولكن هذا الظلم لا زال مستمرّاً على أيدي من يرضون بالفعال السابقة، فلو كان قد انتهى لكان هناك وجه في التغاضي عنه، أمّا مع استمراره كيف يطلب التغاضي عنه؟

٤ - أن صاحب الحقّ والمخوّل في التنازل عنه موجود، فليس من الصحيح التحدّث نيابةً عنه في قضية هي من مهامّه، وهو أعرف بما يقوم به، وما ينبغي له فعله أو تركه.

الخاتمة:

أن من يتابع حركة الإمام الحسين عليه السلام وما صدر عنه من أقوال وأفعال يلاحظ أنه عليه السلام يضع إصلاحاً انتظاريّاً: «اللَّهُمَّ فَخُذْ لَنَا بِحَقِّنَا، وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(١)، بعد أن حصر خروجه بـ «إِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ»^(٢)،

(١) بحار الأنوار (ج ٤٤ / ص ٣٨٣).

(٢) بحار الأنوار (ج ٤٤ / ص ٣٢٩ و ٣٣٠).

فهذا الخروج معلوم أنه لا يُعطي ثماره إلا بعد انتظار وصبر، ولذلك سيبقى محرّكاً للحسّ البشري، وداعياً له أن يُمهّد للإصلاح الشامل.

فذلك المصلح المظلوم خرج لإصلاحنا، فلا بدّ أن نرفع من ظلامته ونأخذ بثأره «... إني سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة...»، وأسأله أن يبلغني المقام المحمود لكم عند الله، وأن يرزقني طلب ثاركُم مع إمام مهديّ ناطق لكم...»^(١)، فطلب الثأر رزق من الله تعالى نحصل عليه عندما نستحضر القضية ونتظرها ونمهّد لها، فما لم تفهم حركة الإصلاح الحسيني لا تفهم حركة الإصلاح المهدي، فالدم الحسيني لا يسكن حتى يحصل الثأر ممن سفكه مع يد مصلح آخر الزمان، يقول الإمام الحسين عليه السلام عن ذلك مخاطباً ولده السجّاد عليه السلام: «يا ولدي يا عليّ، والله لا يسكن دمي حتى يبعث الله المهديّ فيقتل عليّ دمي من المنافقين الكفرة...»^(٢).

لذلك نجد الروايات المتكرّرة الملتصقة إلى هذا الترابط كما في اختيار يوم عاشوراء للقيام المهدي «... يقوم في يوم عاشوراء، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن عليّ عليهما السلام، لكأنّ به في يوم السبت العاشر من المحرم قائماً بين الركن والمقام...»^(٣).

وفي نصّ آخر في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ﴾ (الحج: ٦٠) فإنّ الله تعالى سوف ينصر الحسين عليه السلام «يعني بالقائم من ولده»^(٤)، وهذا توصيف جميل جداً لتجسيد حالة الأخذ بالثأر التي تشمل ثقافة الانتظار رجاء ظهور القائم عليه السلام.

(١) كامل الزيارات (ص ٣٢٩ و ٣٣٠ / ح ٩/٥٥٦).

(٢) مناقب آل أبي طالب (ج ٣ / ص ٢٣٨).

(٣) الإرشاد (ج ٢ / ص ٣٧٩).

(٤) تفسير القميّ (ج ٢ / ص ٨٧).

فلا بدَّ من إيقاظ حالة الشعور الدائم بالتقصير والاستعداد للنصرة على حدِّ عبارة الإمام عليه السلام: «فَلَيْنُ أَخْرَتَنِي الدُّهُورُ، وَعَاقَبَنِي عَنْ نَصْرِكَ المَقْدُورُ...، فَلَا تُدْبِنَنَّ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَلَا بَكِينَ عَلَيْكَ بَدَلَ الدَّمُوعِ دَمًا، حَسْرَةً عَلَيْكَ وَتَأْسُفًا عَلَيَّ مَا دَهَاكَ وَتَلَهَّفَا، حَتَّى أَمُوتَ بِلَوْعَةِ المُصَابِ وَعُصْبَةِ الإِكْتِيَابِ»^(١).
فالتأثر المهدي للحسين عليه السلام قضية عقلانية ولغة دينية في استرداد الحقوق وإيقاف عجلة الظلم المستمر على الذات المقدسة.

* * *

«أَيْنَ المَنْصُورُ عَلَيَّ مَنِ اعْتَدَى عَلَيَّ وَافْتَرَى».

جاء في (تفسير فرات الكوفي) بسنده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا»، قال: «الحُسَيْنُ عليه السلام»، «فَلَا يُسْرِفُ فِي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا عليه السلام» [الإسراء: ٣٣]، قال: «سَمِيَ اللهُ المَهْدِيَّ مَنصُورًا كَمَا سَمِيَ أَحْمَدٌ وَمُحَمَّدٌ مُحَمَّدًا، وَكَمَا سَمِيَ عِيسَى المَسِيحَ»^(٢).
البحث عن نصرته الإمام عليه السلام وحدودها يقع في عدة عناوين:

مراتب النصره:

لنصرة الإمام عليه السلام عدة مستويات تختلف باختلاف زمان وجوده بين الناس، وباختلاف الظروف وما يريده عليه السلام من الناس، ففي زمان ظهور رسول الله عليه السلام كانت النصره مطلوبة بكل مراتبها، كاللسان والمال والنفس وكل شيء، ومما دلَّ على وجوب نصرته النبي عليه السلام، بل الأنبياء عليهم السلام عدة آيات، منها:

(١) المزار لابن المشهدي (ص ٥٠١).

(٢) تفسير فرات الكوفي (ص ٢٤٠ / ح ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران: ٨١).

إن قلت: إنَّ النصرَةَ التي كانت مطلوبة في زمان الأئمة والأنبياء ﷺ مختصة بزمان حياتهم ولا تشمل حال الغيبة، لعدم ظهور الإمام الواجب نصرته فيها.
قلت: صحيح أن الإمام في زمان الغيبة ليس بظاهر بين الناس، ولكن هذا لا يعني انتفاء جميع مراتب النصرَة، فإنَّ النصرَة لها مراتب عديدة، وفي كلِّ مرتبة منها أدوار مختلفة تتناسب مع حال الأشخاص والظروف المحيطة بهم وإمكاناتهم واستعداداتهم، وما لا يُدرك كُله لا يُترك كُله، ومن مراتب النصرَة: اللسان، وإن لم يتيسر فنصرة القلب مقدورة للجميع وبدون استثناء.
وهل يا ترى يصحُّ أن يقال: إنَّ الإمام ﷺ غائب، فلا تجب معرفته، ولا يلزم الإيمان به؟
فكما أن لمعرفة الإمام ﷺ مراتب، فكذا لنصرته.

ليست النصرَة غيبية محضة:

إنَّ مراتب النصرَة وظروف الحاجة إليها وإن اختلفت، وهي حسب قدرة الأفراد ومقدار نصرتهم، إلا أنَّها حاضرة وبقوَّة في عدَّة مفردات مهدوية كالانتظار والتمهيد والإعداد، وهذه مفردات مرضية ومقبولة، وتُعبَّر عن واقع يعيشه المؤمن بخروج الإمام ﷺ، ومن يترقَّب حصول ظهور الإمام ﷺ - صباحاً ومساءً - حتَّى وإن لم يتحقَّق ذلك في زمانه فأمله لا ينقطع عند الرجعة.
بعض الروايات الشريفة علَّقت ظهوره ﷺ على وجود حلقة يقوم بها،

وهي على طوائف، منها ما جعلت الخروج معلّقاً عليها مطلقاً، ولعلّها الأكثر اعتباراً من جهة سندها، ومنها ما قيّدت ذلك بالخروج من مكّة، والأمر لا يُؤثّر كثيراً، لأنّ كلامنا في توقّف ظهور الإمام عليه السلام وقيامه على العنصر البشري، وهذا التوقّف الذي لا شكّ فيه يستتبع أن يكون كلُّ فرد من أفراد هذه الحلقة بموصفات خاصّة، وأن يتلبّس بها في إطار القاعدة العامّة من الاختيار، وأنّ الناس لا يُجبرون على كمالهم وملكاتهم خصوصاً المؤثّرة في عقيدتهم وتديّنهم.

النصرة للإمام عليه السلام في كلمات الأعلام:

ذُكرت مفردة (النصرة) على لسان العديد من علماء الطائفة، وليس في خصوص الخطاب الخاصّ بالموالين، بل حتّى في موارد الحجاج مع الخصوص، ممّا يعكس كونها مفردة من المفردات الراسخة والمعروفة في الطائفة حتّى عدّت لوضوحها من المفردات التي يصحُّ الاحتجاج بها مع الخصوم، وممّن ذكر ذلك جماعة، منهم:

* السيّد المرتضى عليه السلام، قال في (الشافى): (وبينّا أنّ سبب الغيبة هو فعل الظالمين وتقصيرهم فيما يلزم من تمكين الإمام فيه والإفراج بينه وبين التصرّف فيهم، وبينّا أنّهم مع الغيبة متمكّنون من مصلحتهم بأن يزيلوا السبب الموجب للغيبة ليظهر الإمام ويتنفّعوا بتدبيره وسياسته)^(١).

* أبو الصلاح الحلبي عليه السلام، قال في (تقريب المعارف): (كيفية الجمع بين فقد اللطف بعدم ظهوره وثبوت التكليف: وأمّا فقد اللطف بظهوره متصرّفاً ورهبةً لرعيّته مع ثبوت التكليف الذي وجوده مرهوباً لطف فيه مع عدمه، فإنّ اختصاص هذا اللطف بفعل المكلف لتمكّنه من إزاحة علّة نفسه بمعرفة الحجّة

(١) الشافى في الإمامة (ج ٣ / ص ١٥٠).

المدلول على وجوده وثبوت إمامته وفرض طاعته وما في ذلك من الصلاح وقدرته على الانقياد، وحسن تكليفه مع تمكين الإمام وإرهابه أهل البغي لطف فيه...، وتكليفه لازم له وإن فقد لطفه بالرئاسة، لوقوف المصلحة في ذلك على إيثاره معرفة الإمام والانقياد له باختياره دون إلجائه^(١).

* الشيخ الطوسي رحمته الله، قال في (تلخيص الشافي): (وما يرجع إلى الإمام هو قبول هذا التكليف، وتوطينه نفسه على القيام به. وما يرجع إلى الأمة هو تمكين الإمام من تدبيرهم، ورفع الحوائل والموانع عن ذلك، ثم طاعته والانقياد له والتصرف على تدبيره. فما يرجع إلى الله تعالى هو الأصل والقاعدة، ولا بد من تقدّمه وتمهّده. ويتلوه ما يرجع إلى الإمام، ويتلو الأمرين ما يرجع إلى الأمة)^(٢).
إن قلت: وجوب تمكين الإمام عليه السلام ونصرته على الأمة عامٌّ، وينصرف إلى خصوص زمان حضوره، فلا يشمل زمان الغيبة وقبل الظهور.

قلت: هذا الانصراف لا معنى له بعد عموم الدليل وعدم وجود مخصّص صريح يُخصّص زمان النصره بزمان دون زمان أو حال دون حال ولو في القدر المتيقّن من النصره، بل صريح كلام السيّد المرتضى وشيخ الطائفة عليهما السلام لزوم النصره للإمام الغائب عليه السلام.

نعم مراتب النصره تختلف باختلاف الأزمان.

نصرة العاجز:

وردت عدّة أسئلة إلى أهل البيت عليهم السلام عن الأشخاص ممّن لا يتمكّن من نصرتهم ويعجز عنها، وهذا الحديث متفرّع على لزومها - ولو في بعض مراتبها - وإلا فلا معنى للسؤال عن مرتبة العجز عن النصره ما لم تكن هناك مراتب أخرى

(١) تقريب المعارف (ص ٤٤٢ و ٤٤٣).

(٢) تلخيص الشافي (ج ١ / ص ١٠٧).

ولازمة. ومما جاء من روايات بيّنت جواب هذا السؤال ووظيفة الناس تجاه النصره ما ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: «قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ عليه السلام: قَوْلُهُ عَلَيْكَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاحة: ٦]، يَقُولُ: أَرْشَدْنَا لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، أَرْشَدْنَا لِلزُّومِ الطَّرِيقِ الْمُوَدِّيِّ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالْمُبْلَغِ إِلَى جَنَّتِكَ، وَالْمَانِعِ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَنَا فَنَعْطَبَ، أَوْ أَنْ نَأْخُذَ بِأَرَائِنَا فَنَهْلِكَ...، ثُمَّ قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: طُوبَى لِلَّذِينَ هُمْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنِّي عَاجِزٌ بِيَدَيَّ عَنْ نُصْرَتِكُمْ، وَلَسْتُ أَمْلِكُ إِلَّا الْبَرَاءَةَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، وَاللَّعْنَ عَلَيْهِمْ، فَكَيْفَ حَالِي؟ فَقَالَ لَهُ الصَّادِقُ عليه السلام: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عليه السلام، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَلَعَنَ فِي خَلَوَاتِهِ أَعْدَاءَنَا، بَلَغَ اللَّهُ صَوْتَهُ بِجَمِيعِ الْأَمْلَاقِ مِنَ الثَّرَى إِلَى الْعَرْشِ، فَكَلَّمَا لَعَنَ هَذَا الرَّجُلُ أَعْدَاءَنَا لَعْنًا سَاعَدُوهُ فَلَعْنُوا مَنْ يَلْعَنُهُ، ثُمَّ ثَنَّوْا فَقَالُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى عَبْدِكَ هَذَا، الَّذِي قَدْ بَدَلَ مَا فِي وَسْعِهِ، وَلَوْ قَدَرَ عَلَى أَكْثَرِ مِنْهُ لَفَعَلَ، فَإِذَا النَّدَاءُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى: قَدْ أَجَبْتُ دُعَاءَكُمْ، وَسَمِعْتُ نِدَاءَكُمْ، وَصَلَّيْتُ عَلَى رُوحِهِ فِي الْأَرْوَاحِ، وَجَعَلْتُهُ عِنْدِي مِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ»^(١).

ورواه العلامة المجلسي رحمته الله في (بحار الأنوار)، والميرزا التقي رحمته الله في (مكيال المكارم)^(٢).

فلو لم تكن النصره واجبة - ولو في بعض مراتبها - لكان الإمام عليه السلام يقول له: لا يجب عليك، ولا معنى لسؤالك عن النصره في حالة العجز. فنصرته ﷺ في زمان غيبته ثابتة وإن حصل كلام في مقدارها.

* * *

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام (ص ٤٤ - ٤٧).

(٢) بحار الأنوار (ج ٣٧ / ص ٢٢٢ و ٢٢٣ / ح ١١)، مكيال المكارم (ج ٢ / ص ٣٩٠ و ٣٩١).

«أَيْنَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يُجَابُ إِذَا دَعَا».

هذا المقطع من دعاء الندبة هو من أكثر المقاطع لهيباً وامتلاءً بالألم والشوق، إذ يُلقي المؤمن بنفسه في بحر الانتظار المومج، ويُطلق من قلبه صيحة الباحث عن مخلصه ﷺ الغائب، فقوله: «أَيْنَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يُجَابُ إِذَا دَعَا...» هو نداء وجودي يتجاوز حدود اللغة والمكان، يُعبّر عن تمزّق الإنسان المنتظر بين وعيه بعظمة الإمام المهدي ﷺ، وحقيقة غيبته التي تُثقل الوجود بأسره.

الإمام ﷺ هو الواسطة بين الخلق والخالق في إيصال الفيض الإلهي، وهو الذي بوجوده تُحفظ الأرض ومن عليها، لكنه الآن في غيبة، غيبة اقتضتها الحكمة الإلهية صوتاً له من بطش الظالمين، وتمحيصاً للأمة.

هذه الغيبة جعلت الإمام ﷺ، من حيث موقعه الكوني، في حالة (اضطرار)، لأنَّ مهمته الكبرى في إقامة العدل معطّلة قهراً، لا عجزاً ذاتياً. فالمضطّر هنا ليس إنساناً مكروباً في زاوية مظلمة، بل هو قلب العالم الذي اختزن فيه الأمل والعدل والفرج، لكنه ينتظر أمر الله تعالى.

أمّا قوله: «الَّذِي يُجَابُ إِذَا دَعَا»، فيضعنا أمام المفارقة المؤلمة: هو المضطّر الذي لو رفع يديه بالدعاء لزلزلت السماء، ولأجاب الله تعالى نداءه، لأنَّه خليفة الله ﷻ وحجّته ومُجري إرادته في الأرض، وهو الذي لا يُردُّ له دعاء. ومع ذلك، فإنَّ الدعاء الذي تنتظره البشرية جمعاء، دعاء الإذن بالظهور، لم يُؤذَن له به بعد! وهذا من أعظم ألوان البلاء للإمام ﷺ والأمة معاً. وهكذا تتشكّل دائرة وجدانية رهيبية: نحن ندعو للإمام، وهو يدعو لنا، ونحن نشعر باضطراره كما يشعر هو بآلامنا، وعيوننا على السماء ننتظر أمر الله ﷻ.

على المستوى الوجداني، هذه العبارة تخرج من حيز الدعاء إلى حيز الصرخة، إنّها ليست مجرد جملة تُقال، بل جرح مفتوح في قلب كل مؤمن. حين

ينطق بها المنتظر، يشعر أنّها تجري من قلبه لا من لسانه، كأنّها اختزال لكلّ مشاعر الغربة والوحدة والخوف من أن يطول الانتظار. يشعر بأنّ العالم متوقّف، معطلّ، مشلول، لأنّ المضطرّ الذي يملك مفاتيح الفرج ما زال غائباً. وكلّما ردّد هذه العبارة، تحوّل قلبه إلى مقام حضور الإمام عليه السلام، يحاكيه، يبكي معه، ينتظره لا كمنتظرٍ خارجي، بل كجزء من منظومة الاضطراب التي تملأ الوجود كلّه.

هذه الجملة أيضاً تحمل بُعداً أخلاقياً، فهي دعوة للمؤمن لأنّ يشعر بالمسؤوليّة تجاه زمن الغيبة، لا أن يكتفي بالندبة والحزن. فالمضطرّ الذي يُجاب إذا دعا ينتظر جيلاً يستحقّ الدعاء، وأُمَّة مهَيَّأة لنزول الفرج. فكلمنا نطق المؤمن بهذه العبارة، سمع صداها يرتدّ عليه سائلاً: هل أنت من المنتظرين الصادقين؟ هل أنت ممن يُمهّدون للفرج أم ممن يُطيلون زمن الغيبة بأفعالهم؟

حديث من قلب كل مؤمن:

إلهي..

أين المضطرّ الذي يجاب إذا دعا؟

أين القلب الذي وسع همّ الأرض فلم يضق به صدره، بل صبّه على أعتابك دموعاً خفيّة؟

أين العين التي لا تنام في جوف الغيب، ترقب عبيدك المتلوّين بألم الفقد،

المشرّبين إلى شمسهم التي حجبتها سُحب الامتحان؟

أين المضطرّ الذي لولا اضطرابه، لركدت السهوات، وانطفأت النجوم،

وغفت الأرض في سبات العدم؟

إلهي..

كيف أشتكى فقدّه، وهو الشاكي إليك فقرنا إليك؟

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٣٩٥

كيف أقول: مضى العمرُ في الانتظار، وأنا ما ذقتُ من الانتظارِ سوى
قشره، أمّا لبُّه، ففي صدره الذي ضاقَ على وسعته، اتَّسعَ لنا وضاقَ عليه؟
إلهي..

أبكي نفسي، أم أذوبُ في بكاءٍ مَنْ بُعثَ ليكونَ رحمةً للعالمين، وغابَ
عني، لا جزءاً من قضاء، بل امتثالاً لأمرِك، انتظاراً لأمرِك، تهيئاً لمشهدِك؟
إلهي..

أليس هو المضطَّرُّ الذي وعدتَ أن تُجيبَ إذا دعا؟

فأينَ وعدك؟

أينَ إجابتك؟

أو تأذنُ لي أن أقول: عَجَل - يا رب - فرجه، فإنَّه وليك في الأرض، وهو

شهيدك الحيُّ فينا؟

مولاي الغائب..

مولاي الذي ما غبتَ إلا عن عيوننا، لا عن قلوبنا..

يا بنَ فاطمة، يا جُرْحَ الله المفتوح في الكون..

أمّا أن لنا أن نسمعَ دعوتك المجهولة في جوفِ الليل؟

أمّا أن لدمعك أن ينهمرَ مطراً علينا، يغسلُ أدرانَ الغيابِ من قلوبنا؟

أمّا أن للكونِ أن يسمعَ صوتك الذي لو خيَّرَ بينه وبينَ كلِّ أصواتِه،

لاختاركَ نطقاً أبداً؟

اللَّهُمَّ..

عَجَلْ لوليِّك الفرج، واجعلنا من شيعته الصادقين، ومن المنتظرين الذين

لا يملُّهم طولُ الغياب، ولا يُنسيهم ليلُ الشوقِ وجهَ النهار.

* * *

«أَيْنَ صَدْرٌ^(١) الْخَلَائِقِ».

يسأل الداعي عن الإمام الذي تجب عليه طاعته، وبه تمام صلاته وصيامه وجميع أعماله على ما تقدّم في عدّة مواضع من هذا الشرح، يسأل عن صدر الخلائق وأولهم وإمامهم، وكيف يتّصل به ويأخذ منه البرّ والخير. فهذه الفقرة من جهة تُبيّن أهميّة الإمامة وأيّها الأوّل من الدّين وصدر كلّ شيء، فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الإمام عليه السلام هو القائد والمبّيّن للحقّ والعدل، بل هو الحقّ والعدل. وممّا لا شكّ فيه أنّه في زماننا هذا قد غاب عن الأمة، فيجب على المكلف أن لا يخل بوظيفته وإن حصلت الغيبة، لأنّ الإخلال بها إخلال بالتوحيد، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى الفقرة مرتبطة بما تقدّم من حديث عن غيبة الإمام عليه السلام، فحيث هو إمام الأمة وصدرها فلا بدّ من وجوده بين أفراد الأمة، والسيرة قائمة على الاتّصال المباشر ورؤية الأئمّة عليهم السلام ممّن سبقوا الإمام عليه السلام، في حين أنّ الغيبة منعت من ذلك.

الحالة القائمة قبل الغيبة هي أنّ من كان من المؤمنين يرغب في لقاء الإمام عليه السلام كان بإمكانه ذلك رغم الصعوبات التي تواجه اللقاء خصوصاً بالنسبة للإمامين العسكريين عليهما السلام، إلا أنّ الحال اختلف بعد رحيل الإمام العسكري عليه السلام.

وترتّب على هذا الاختلاف تكوين نظام دقيق يفني بحاجة الناس ويُقلّل الضرر بمقدار ما يمكن، فتسلّم زمام أمر إدارة بعض شؤون الناس جماعة من أعيان الطائفة عرّفوا بالسفراء والنوّاب الخاصّين للإمام عليه السلام - بتعيين مباشر من قبل الإمام عليه السلام -، واستمرّت نيابتهم الخاصّة ما يقرب من (٧٠) سنة، مارسوا

(١) جاء في العين للفراهيدي (ج ٧ / ص ٩٤ / مادّة صدر: (الصدر: أعلى مقدّم كلّ شيء، وصدر القناة أعلاها، وصدر الأمر أوّله).

خلالها عدّة أدوار من بين أهمّها حفظ المجتمع الشيعي وحفظ عقائده ودينه. وعُرِفَت هذه الفترة بالنيابة الخاصّة، التي أعقبها فترة النيابة العامّة حيث يُنِيب عن الإمام ﷺ في بعض وظائفه وممّا تصحّ النيابة فيه جماعة من الفقهاء ضمن شرائط دقيقة ومحكمة بُحِثت في محلّها من كُتُب علم الكلام والفقّه وغيرهما.

* * *

«أَيُّنَ ابْنُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى، وَابْنُ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى،
وَابْنُ خَدِيجَةَ الْغُرَّاءِ، وَابْنُ فَاطِمَةَ الْكُبْرَى».

هذا المقطع تقدّم الحديث عنه في عدّة مواضع من هذا الشرح حيث أثبتنا

انتساب الإمام ﷺ إلى العترة الطاهرة، ومن بين ما يُذكر في هذا المقام، الآتي:

* ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَهْدِيُّ مِنْ وُلْدِي، اسْمُهُ إِسْمِي، وَكُنْيَتُهُ كُنْيَتِي، أَشْبَهُ النَّاسِ بِي خَلْقًا وَخُلُقًا، تَكُونُ بِهِ غَيْبَةٌ وَحَيْرَةٌ تَضِلُّ فِيهَا الْأُمَّمُ، ثُمَّ يَقْبَلُ كَالشُّهَابِ الثَّقَابِ يَمَلُؤُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا»^(١).

* عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... وَلَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ وُلْدِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُطَالِبُ بِدِمَائِنَا، وَلَيَغَيِّبَنَّ عَنْهُمْ تَمَيِّزًا لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ حَتَّى يَقُولَ الْجَاهِلُ: مَا اللَّهُ فِي آلِ مُحَمَّدٍ مِنْ حَاجَةٍ»^(٢).

* قال رسول الله ﷺ: «الْمَهْدِيُّ مِنْ عِترَتِي مِنْ وُلْدِ فَاطِمَةَ»^(٣).

* * *

(١) كمال الدين (ص ٢٨٦ / باب ٢٥ / ح ١).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ١٤٣ / باب ١٠ / ح ١).

(٣) الغيبة للطوسي (ص ١٨٥ و ١٨٦ / ح ١٤٥).

المبحث الثاني:

ارتباط الإمام المهدي عليه السلام

بأجداده الطاهرين عليهم السلام

الفقرة الثانية والثلاثون

«يَا ابْنَ السَّادَةِ الْمُقَرَّبِينَ، يَا ابْنَ النَّجْبَاءِ الْأَكْرَمِينَ، يَا ابْنَ الْهَدَاةِ
الْمُهْتَدِينَ [الْمُهْدِيِّينَ]، يَا ابْنَ الْخَيْرَةِ الْمُهْدِيَّينَ، يَا ابْنَ الْغَطَارِقَةِ^(١)
الْأَنْجَبِينَ، يَا ابْنَ الْخَضَارِمَةِ^(٢) الْمُنْتَجِبِينَ، يَا ابْنَ الْقَمَاقِمَةِ^(٣)
الْأَكْرَمِينَ [الْأَكْرَبِينَ]، يَا ابْنَ الْأَطَايِبِ الْمُعْظَمِينَ الْمُطَهَّرِينَ
[الْمُسْتَظْهِرِينَ]، يَا ابْنَ الْبُدُورِ الْمُنِيرَةِ، يَا ابْنَ السُّرُجِ الْمُضِيئَةِ، يَا
ابْنَ الشُّهْبِ الثَّقِيْبَةِ، يَا ابْنَ الْأَنْجُمِ الزَّاهِرَةِ، يَا ابْنَ السُّبُلِ
الْوَاضِحَةِ، يَا ابْنَ الْأَعْلَامِ اللَّائِحَةِ، يَا ابْنَ الْعُلُومِ الْكَامِلَةِ، يَا
ابْنَ السُّنَنِ الْمَشْهُورَةِ، يَا ابْنَ الْمَعَالِمِ الْمَأْثُورَةِ، يَا ابْنَ الْمُعْجَزَاتِ
الْمَوْجُودَةِ، يَا ابْنَ الدَّلَائِلِ الْمَشْهُودَةِ، يَا ابْنَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ،

(١) الغطريف السيد الشريف، قاله غير واحد، راجع: العين (ج ٤ / ص ٤٦٥ / مادة غطرف). وفي تهذيب اللغة (ج ٨ / ص ١٩٨): (السخيُّ السريُّ الشابُّ). وعلى هذا فيكون معناه إمَّا شرفاء السادة وإمَّا سُخَاتِهِمْ. وهذا ما تقدّم ذكره في عدّة مواضع، وهكذا في جملة من الفقرات التي يتكرّر فيها ذكر عدّة أوصاف لأهل البيت عليه السلام، لبيان سموّ مقامهم وعلو شأنهم وحيازتهم لأعلى المقامات وأسمى الصفات وأعلىها.

(٢) الخضم يأتي بمعنى كثير الماء، على ما ذكره غير واحد، منهم الخليل عليه السلام في العين (ج ٤ / ص ٣٢٩ / مادة خضم).

(٣) تأتي بعدّة من المعاني، منها: السيّد، ومنها: البحر، ومنها: الكثير. يراجع لذلك عدّة مصادر، منها: العين في عدّة مواضع، وتهذيب اللغة، وغيرهما. ولعلّ المقصود منها هنا إمَّا السيّد أو البحر أو المركب منها كما لو أُريد به الكناية عن السيّد صاحب الخير الكثير كالبحر بنحو تعدّد الدالّ والمدلول.

يَا ابْنَ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ، يَا ابْنَ مَنْ هُوَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَى اللَّهِ عَالِيٌّ
حَكِيمٌ، يَا ابْنَ الْآيَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ، يَا ابْنَ الدَّلَائِلِ الظَّاهِرَاتِ، يَا
ابْنَ الْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَاتِ الْبَاهِرَاتِ، يَا ابْنَ الْحُجُجِ الْبَالِغَاتِ،
يَا ابْنَ النَّعَمِ السَّابِغَاتِ، يَا ابْنَ طَهِّ وَالْمُحْكَمَاتِ، يَا ابْنَ يَسٍ^(١)
وَالذَّارِيَاتِ، يَا ابْنَ الطُّورِ وَالْعَادِيَاتِ، يَا ابْنَ مَنْ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى دُنُوًّا وَاقْتِرَابًا مِنَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى...».

هذه الفقرة تتضمن عدّة مقاطع تمّ التطرّق إلى معظمها في طيّات بحوث
الفقرات المتقدّمة من جهة أوصاف الأئمّة عليهم السلام وانتسابهم للنسب الطاهر
المعظم، وبيان حقائقهم الملكوّية بمقدار ما بيّنته الروايات الشريفة، وكيفية
تفرّعهم وعلومهم وخصائصهم وغير ذلك.

ومما تضمّنته أيضاً بنحو التأكيد أو التأييد أو التوسعة، هو الحديث عن
العديد من الألقاب والمفاهيم التي توضح عظمة الإمام عليه السلام ومقامه الرفيع عند
المولى عليه السلام، هذه الألقاب تؤكد على سموّ مكانته، وترمز إلى صفاته الإلهية وعلاقته
العميقة بالله تعالى ورسالاته.

* ابن مَنْ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى: عبارة تشير إلى مقام عظيم
للإمام عليه السلام، وهي مأخوذة من سورة النجم حيث وصف الله تعالى ما حصل من
قرب النبي عليه السلام إلى الحضرة الإلهية بقوله (جَلَّ مِنْ قَائِلٍ): ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩)، فهي تُعبّر عن القرب اللامتناهي بلحاظ بقیّة
المخلوقات، وليس هو من القرب المكاني، على ما مرّ عليك في بحث عوالم الأكوان.

(١) ذكرنا في شرح زيارة آل يس في معرض بيان جملة من هذه المعاني العديد من المفاهيم اللغويّة
والقرآنيّة، فراجع.

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٤٠٣

وعندما نقول: ابن مَنْ دنا فتدلَّى فكان قاب قوسين أو أدنى، نشير إلى ذلك المعنى من القرب، فالإمام ﷺ هو بتلك المثابة من القرب من رسول الله ﷺ.

فالإمام - وبمقتضى ما تقدّم من مقامات مرّت عليك في هذا الدعاء - قد ارتقى إلى مقام روحي ومعنوي عظيم لا يمكن أن يدانيه أحد، حيث جسّد القرب الكامل والمطلق من النبي ﷺ، فاستحقّ بهذا القرب أن ينال هذا المقام الذي تحدّث عنه الدعاء المبارك.

الفقرة تشير إلى العلاقة العميقة والفريدة بينها، وفي كلّ شيء فهو التجسيد الحيّ له، وهو الامتداد الطبيعي لمقامه وصفاته وخصائصه - سوى ما دلّ الدليل على اختصاصها به ﷺ -، فليس فقط يُراد من القرب هو القرب النَّسَبِي، بل مطلق القرب.

فتدلَّى، معنى عميق وعجيب قد لا يفهم بهذه السهولة، هذه الكلمة تُبرز حركة تدنٍّ أو اقتراب بشكل لا يخطر على القلب، هذا القرب يُعبّر عن مقام لا نظير له.

فقاب قوسين أو أدنى، استعارة عن درجة من القرب التي لا يمكن لأيّ كائن بشري أن يصل إليها سوى النبي ﷺ.

الفقرة بجميع مقاطعها تحمل دلالات كبيرة على المكانة السامية للإمام ﷺ، وتكشف عن عظمة نسبه، وصفاته، وعلاقته بالله تعالى، والأنبياء عليهم السلام، والنبي الخاتم ﷺ، والعترة الطاهرة عليهم السلام.

ومما يناسب تأكيده وبحثه في إطار مقاطع هذه الفقرة الأمور التالية:

الأنساب أصول هذا العالم:

بها يُحتَرز عن الخطأ في نسب الناس، وتحظى بأهميّة بالغة لدى الأمم والشعوب على امتداد الزمان، خصوصاً لدى العرب حيث كان لهم اهتمام بالغ

بها، إذ كانوا يُقَسِّمون النَّسَبَ إلى ما عُرِفَ عندهم بطبقات الأنساب، حتَّى تَمَيَّزوا عن غيرهم بذلك، حتَّى بلغ أمر اهتمامهم أن لكلِّ قبيلة منهم نسبة خاصاً بهم. وفي الأديان برز الاهتمام جلياً بالنَّسَبِ حتَّى وردت فيه العديد من النصوص، فقد أشار القرآن الكريم إلى أهميَّة الأنساب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣).

ويبدو أن لدى الإنسان غريزة تدفعه لمعرفة جذوره وأصوله، حيث يترتب عليها العديد من الآثار الاجتماعية والدينية والمالية، قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وقال تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة: ٢١٥).

معنى النَّسَبِ:

اتِّصال شيء بشيء وانتسابه إليه من القرابة والعلَّة، ومن خلاله يتعارف الناس فيما بينهم ويعرفون درجة القرابة والعلَّة مع بعضهم. ومن شدَّة الاهتمام به تشكَّل ومنذ القِدَم علم خاصُّ به يُعرَف بعلم الأنساب له قواعده وأصوله، وعلى أساس هذه الأصول بُنيت التركيبات الاجتماعية التي تطوَّرت من العائلة والأسرة إلى البطون والعشائر والقبائل وغيرها، حتَّى انتهى نَسَب العرب مثلاً إلى رجلين: عدنان وقحطان.

من الآثار المترتبة على النَّسَبِ:

هو اعتباره في إمامة الأئمة عليهم السلام، قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ، عُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لَا تَصْلُحُ عَلَيَّ سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ أَوْلَادُهُ مِنْ غَيْرِهِمْ»^(١).

(١) نهج البلاغة (ص ٢٠١ / الخطبة ١٤٤).

من هنا نجد الأئمة عليهم السلام عندما كانوا يتحدثون عن خصائص الإمام وصفاته كانوا يذكرون الأنساب الطاهرة، وأن الإمام ﷺ بما له من وظيفة لا بد أن تكون فيه خاصية النسب الطاهر في الأصلاب إلى آدم عليه السلام، فعن رسول الله ﷺ: «إني وأهل بيتي كنا نوراً يسعى بين يدي الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الله ﷻ آدم عليه السلام بأربعة عشر ألف سنة، فلما خلق آدم ﷻ وضع ذلك النور في صلبه وأهبطه إلى الأرض...، ثم لم يزل الله ﷻ ينقلنا من الأصلاب الكريمة إلى الأزحام الطاهرة، ومن الأزحام الطاهرة إلى الأصلاب الكريمة من الآباء والأمهات، لم يلتق واحد منهم على سفاح قط»^(١).

وفي عدة زيارات للأئمة عليهم السلام، ومنها زيارة الإمام الحسين عليه السلام ورد هذا التعبير: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأزحام المطهرة»^(٢). وفي زيارة أخرى لهم عليهم السلام: «لم تزالوا بعين الله ينسخكم في أصلاب كل مطهر، وينقلكم في أزحام المطهرات»^(٣).

إلا أننا نجد - مع الأسف - بعضاً ممن لا يعي ما يقول أو يتربص بأهل الطهارة في أنسابهم تغطية على دناءة أنساب غيرهم ممن تقدمهم بغير وجه حق، نجد من هؤلاء الطعن في إيمان أطهر نسب عرفته البشرية، فينال من عبد المطلب وعبد الله وآمنة وأبي طالب والسيدة نرجس والدة الحجة بن الحسن عليه السلام. القراءة الأولية للموروث الديني تُنبئ بوضوح أن هذه الأسماء نقيّة طاهرة من الدنس أو الشك أو غير ذلك^(٤).

* * *

(١) كمال الدين (ص ٢٧٥ / باب ٢٤ / ح ٢٥).

(٢) مصباح المتهجد (ص ٧٢١).

(٣) الكافي (ج ٤ / ص ٥٥٩ / باب زيارة من بالقيع).

(٤) وسيأتي التعرض لإثبات طهارتها وإسلامها بعدة أدلة في فقرة لاحقة.

المبحث الثالث:

افتداء الداعي للإمام عليه السلام بنفسه، ولوعة
الفراق والشوق إلى اللقاء وتهيئة نفسه
لاستقبال الإمام عليه السلام وتصوير ظهوره

الفقرة الثالثة والثلاثون

«لَيْتَ شَعْرِي أَتَيْنَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوَى، بَلْ أَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّدُ
أَوْ تُرَى [أَوْ الثَّرَى]، أَبْرَضَوَى أَمْ غَيْرَهَا أَمْ ذِي طُوَى، عَزِيزٌ
عَلَيَّ أَنْ أَرَى الْخَلْقَ وَلَا تُرَى، وَلَا أَسْمَعُ لَكَ حَسِيساً وَلَا
نَجْوَى، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ لَا تُحِيطَ بِ دُونِكَ الْبَلْوَى [تُحِيطُ بِكَ
دُونِي الْبَلْوَى]، وَلَا يَنَالُكَ مِنِّي صَحِيحٌ وَلَا شَكْوَى، بِنَفْسِي
أَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَخْلُ مِنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَازِحٍ مَا يَنْزَحُ
[نَزَحَ] عَنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ أُمْنِيَّةٌ شَائِقٌ مَمِّي [يَتَمَنَّى] مِنْ مُؤْمِنٍ
وَمُؤْمِنَةٍ ذَكَرَا فَحَنَّا، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ عَقِيدٍ عَزٌّ لَا يُسَامَى،
بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ أَثِيلٍ مَجْدٍ لَا يُجَازِي [يُجَازِي] [يُجَازِي]، بِنَفْسِي
أَنْتَ مِنْ تِلَادٍ نَعَمٌ لَا تُضَاهَى، بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَصِيفٍ شَرَفٍ
لَا يُسَاوَى، إِلَى مَتَى أُجَارُ [أَحَارُ] فِيكَ يَا مَوْلَايَ، وَإِلَى مَتَى
وَأَيَّ خِطَابٍ أَصِفُ فِيكَ وَأَيَّ نَجْوَى، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أُجَابَ
دُونَكَ وَأُنَاغَى [أَوْ أُنَاغَى]، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَبْكِيكَ وَيُخَذُّكَ
الْوَرَى، عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْكَ دُونَهُمْ مَا جَرَى، هَلْ مِنْ
مُعِينٍ فَاطِيلٍ مَعَهُ الْعَوِيلُ وَالْبُكَاءُ، هَلْ مِنْ جَزُوعٍ فَاسَاعِدْ
جَزَعَهُ إِذَا خَلَا، هَلْ قَدِيتُ عَيْنٌ فَتَسْعُدْهَا [فَسَاعِدْتَهَا] عَيْنِي
عَلَى الْقَدَى، هَلْ إِلَيْكَ يَا بَنَ أَحْمَدَ سَبِيلٌ فَتُلْقَى، هَلْ يَتَّصِلُ
يَوْمَنَا مِنْكَ بَعْدَهُ فَنَحْطَى، مَتَى نَرُدُّ مَنَاهْلَكَ الرَّوِيَّةَ فَتَرَوَى

[فَنَرَوِي]، مَتَى نَنْتَفِعُ [نَنْفَعُ] مِنْ عَذْبِ مَائِكَ فَقَدْ طَالَ
 الصَّدَى، مَتَى نُغَادِيكَ وَنُرَاوِحُكَ فَتَقَرَّ عِيُونُنَا [فَنَقَرَّ مِنْهَا
 عَيْنًا]، مَتَى نَرَانَا [نَرَانَا] وَنَرَكَ وَقَدْ نَشَرْتَ لِيَوَاءِ النَّصْرِ، تُرَى
 أَتَرَانَا [أَتَرَانَا] نَحْفُ بِكَ وَأَنْتَ تَوْمُ الْمَلَأَ، وَقَدْ مَلَأْتَ الْأَرْضَ
 عَدْلًا، وَأَذَقْتَ أَعْدَاءَكَ هَوَانًا وَعِقَابًا، وَأَبْرَتِ الْعَتَاةَ وَجَحْدَةَ
 الْحَقِّ، وَقَطَعْتَ دَابِرَ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَاجْتَنَنْتِ أَصُولَ الظَّالِمِينَ،
 وَنَحْنُ نَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

تُعتبر هذه الفقرة من الدعاء من أعمق الفقرات في التعبير عن شدة الحنين
 والتطلع لظهور الإمام عليه السلام حيث تظهر فيها المشاعر عند الداعي، وهي تُعبّر عن
 الألم والحزن العميق، وعن الأسى واللوعة لغياب الإمام عليه السلام، ويعكس الداعي
 من خلال مقاطع الدعاء مشاعره في فقدان والتوق إلى اللقاء به عليه السلام.
 وإليك توضيحاً لبعض المقاطع الرئيسة في هذه الفقرة:

«لَيْتَ شَعْرِي أَيْنَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوَى».

تنطلق هذه الكلمات من قلب يعتصره الشوق والألم والأسى والتفجع،
 فالداعي يتمنى لو يعلم أين انتهى بمولاه المسير، وأي أرض تخفيه عن أبصار
 المؤمنين. لكن كيف للأرض أن تخفيك عن قلوب المؤمنين، وأنت النور الذي لا
 يُجَبِّبُ؟!

إنَّ غيابك سيدي عن الأعين لا يعني غيابك عن القلوب التي تنبض
 بحبِّك، ولا الأرواح التي تتوق للقياك، فالجهل بمكانك يزيد من وطأة الغيبة،
 ويُعمِّق الجراح والآلام في النفوس المثقلة بألم الفراق والحيرة.

وكأنه كتب على هذه النفس أن تتخبط في ظلمات البعد عنك، عاجزة عن الاهتداء إلى طريقك، فتظل متلهفة لحضورك، متعطشة لظهورك. سيدي إنه سؤال يُعبر عن الحيرة والأسى، وكأن الجهل بمكانك يزيد من وطأة الغيبة على قلوبنا.

هذه الكلمات من دعاء الندبة تفيض بشوق عميق وحنين موجه للإمام الغائب ﷺ حيث يقف المؤمن المحروق القلب أمام غيابه حائراً بين ألم الفقد وأمل اللقاء، فهي كلمات تُعبر عن غربتين: غربه الإمام ﷺ في غيبته، وغربة المؤمن في انتظاره.

يُجسد السؤال: «أَيْنَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوَى، بَلْ أَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّكَ أَوْ تَرَى، أَبْرَضَوَى أَمْ غَيْرَهَا أَمْ ذِي طُوَى» حيرة المشتاق الذي يبحث في كل مكان عن حسيس إمامه ﷺ، إنها ليست مجرد كلمات عاطفية، بل صرخة وجدانية تعكس حاجة الإنسان إلى عدالة رجل السماء الموعود، وتحمل في عمقها رجاء حاراً وثقة مطلقة بوجوده وتديره لنا، بل وبعودته وظهوره الذي سيعيد العدل والقسط إلى الكون.

حين يسأل المؤمن فهذه الكلمات ليست مجرد استفسار مكاني، بل تعبير عن حيرة عاطفية وروحية كبيرة وعميقة لا تسعها الكلمات يبحث من خلالها هذا الداعي المؤمن عن أثر الإمام في كل زاوية من الأرض، وقد مرّت عليك في عدّة فقرات من هذا الشرح الوجد والألم والحنين إلى الإمام وطلب بعض المؤمنين اللقاء به ﷺ، نحن نعلم يقيناً أن الإمام الحجّة ﷺ يتردد بيننا ويمشي في أسواقنا ويطأ فرشنا ولكن لا نعرفه.

هذه الفقرة من الدعاء كالبركان الذي يغلي في روح المنتظر لإمامه ﷺ، وهو يُعبر عن علاقة إيمانية ووجدانية أعلى من مستوى العلاقة العلمية والمعرفية

المجرّدة - والتي هي حسنة ومطلوبة جزماً -، فهو ينبض بروح التعلّق بالإمام عليه السلام كما تعكسه روايات عديدة مرّ بعضها، وممّا جاء فيها: «إِذَا أَدْرَكَتَ هَذَا الزَّمَانَ فَادْعُ بِهَذَا الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ صَلَّيْتُ عَنْ دِينِي»^(١).

فهذا الدعاء يشير إلى أنّ معرفة الإمام ليست مسألة فكرية فقط، بل هي مسألة وجدانية.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَخِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليهما السلام، قَالَ: قُلْتُ: مَا تَأْوِيلُ قَوْلِ اللَّهِ تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ» [المملك: ٣٠]، فَقَالَ: «إِذَا فَقَدْتُمْ إِمَامَكُمْ فَلَمْ تَرَوْهُ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟»^(٢).

* * *

«أَيُّ أَرْضٍ تُقَلِّكَ أَوْ تُرِي».

هذا التعبير يرتقي بألم الغياب إلى مستوى الانهيار الروحي والكارثة النفسية، فهو تصوير وجداني بالغ التأثير، يُجسّد حالة العجز والانكسار أمام غياب الإمام عليه السلام.

أَيُّ تَرَابٍ يَنَالُ شَرَفَ قَرْبِكَ؟

هذه هي نفوس المؤمنين التي أضناها الفقد، وأظمأها غيابك، فازدادت شوقاً واحترقاً بنورك الموعود.

(١) الكافي (ج ١ / ص ٣٣٧ / باب في الغيبة / ح ٥).

(٢) الإمامة والتبصرة (ص ١٢٥ / ح ١٢٤).

أمّا نفوس أهل الظلم والانحراف، فهي منذ أن حادت عن هديك، لا تزال غارقة في ظلمات الجور والابتعاد، تتخبّط في أودية العصيان، بعيدة كلّ البُعد عن سبيل الحقّ والنور.

إنّ غيبتك يا سيّدي ليست غياباً فقط عن المكان، بل هي ألم حاضر في الزمان، جرح مفتوح في قلوب المحبّين، لا يلتئم إلّا بظهورك الذي تنتظره الأرض والسماء ليعود للكون اتزانها، وللحقّ نوره، وللإنسانية خلاصها.

الحياة - في ظلّ هذه الغيبة - امتلأت ظلماً وجوراً، فغابت معاني الطمأنينة، وتكاثرت الآلام، ولولا وصيّة أهل البيت عليهم السلام بالصبر والانتظار لكان هذا الألم الحارق اللاهب كافياً ليهوي بنفوسنا وأرواحنا إلى الهلاك. وكيف لا يكون كذلك وهو غيبات للطف الله ورحمته ورأفته عنّا.

الداعي يعجّ متسائلاً عن المكان الذي يوجد فيه الإمام عليه السلام، وهل هناك أرض معيّنة اختارها لتكون موضع غيبته، كي يذهب إليها ويسكن فيها عسى أن يحظى بنظرة منه عليه السلام، أو أنّه في مكانه البعيد عن الأعين، تخفيه حكمة الباري تعالى؟

إنّه تساؤل تملؤه الحيرة والشوق، حيث يودّ قلب كل مؤمن أن يدرك أين يستقرّ مولاه، وأين محطّ تلك الرحمة الإلهية التي تحملها روحه، كي تكون ملاذاً للأرض ومنّ عليها.

* * *

«عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ أَرَى الْخَلْقَ وَلَا تُرَى».

يُعبرُ هذا النداء عن ألم لا يُوصف يعتصر قلب الداعي حيث شعورٌ مريئٌ حين يرى الخلق يمضون في حياتهم، بينما الإمام عليه السلام - الذي هو النور الإلهي

والقائد الربّاني - غائب عن أنظاره. إنّه عذاب يمزج بين البعد عن الإمام عليه السلام والحسرة على حرمان العالم من حضوره الذي يحمل معه الهداية والعدل.

* * *

«بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ مُغَيَّبٍ لَمْ يَجُلْ مِنَّا».

آه.. يا صاحب الغيبة، يا غائباً حاضراً، يا ساكناً في طيّات الأرواح، وإن حُجِبَتْ عنكَ الأبصار.. أفديك بنفسي، أسلمك روعي، أضع وجودي كله بين يديك، لا عن تصنع، بل عن حُبِّ استغرفني حتّى ما عدتُ أرى لنفسي وجوداً إلا بك، ومنك، وإليك.

أنت غائب، نعم، لكنك حاضرٌ فينا بما لا تُدرِكه العيون، حاضرٌ في أقدارنا، في لطف الله تعالى الساري في تفاصيل حياتنا، حاضرٌ في تأييدك، حاضرٌ في لطفك الخفي الذي يمنع الأرض أن تميد بأهلها، حاضرٌ كالشمس إذا جَلَلها السحاب، نراها بنورها وإن حجبته عيوننا.

غيبتك امتحاناً لنا، لكن حضورك رحمةٌ مدخرةٌ في غيبتك، أنت الغائب الحاضر، الذي لا تخلو منه القلوب المتيقظة، ولا الأرواح المستظلة بظلّ الله عز وجل، ولا الأيام التي تحمل في باطنها خيوط تدبيرك المتظّر.

أيُّ مقام هذا الذي يُسنده إليك الدعاء؟

مقام من غاب عن أعيننا، لكنه لم يغب عن ذواتنا، مقام من احتجب سترًا، لا بعداً، مقام من لو خلا منا لهلكنا، ولو خلا قلب مؤمن من ذكره لتزلزلت عليه دنياه.

إنه غيابٌ ممزوج بالحضور، وإنه احتجابٌ لا يقطع شعاع الوصل، بل يُريينا، يُري أشواقنا، يُعظم هفتنا، يُنضح انتظارنا.

وهنا تتجلى اللوعة:

يا مولاي.. غبت عنا لتكون فينا أعظم حضوراً، واحتجبت لتكون في القلوب أرسخ سلطاناً. لولا غيبتك، لركننا إلى العيان، ولولا غيبتك، ما عرفنا قيمة الشوق، ولولا غيبتك، ما ذقنا طعم الرجاء.
غيبتك امتحان، لكنّها نعمة، لأنك ما غبت إلا لتتم مشيئة الله تعالى في نصرك، وما احتجبت إلا لتشرق في قلوبنا شمس الولاء الخالص، وما احتجبت إلا ليكون ظهورك عيداً لا يُضاهيه عيد.

سيدي أنت أولى بي من نفسي، أنت معنى حياتي، أنت الغائب الذي بدونك أشعر بالغرابة وإن كنت بين أهلي، وبلقياك أشعر بالوطن وإن كنت في المنافي.

أنت الذي لم يخل منّا..

لأنك في صلواتنا، في دعائنا، في بكائنا، في رجائنا، في أحلامنا، في هواجس قلوبنا، في تفاصيل يومنا..

بنفسي أنت..

أي كلمة هذه التي تقف فيها النفس خاشعة، كأنّها تسلخ نفسها من ذاتها لتقول: أنت، لا أنا..

أنت الروح حين تجف الأرواح.

أنت النبض حين ينطفئ القلب.

أنت الرجاء الذي لا يموت، وإن ماتت الآمال الصغيرة في دروب

الانتظار.

بنفسي أنت من مغيب لم يخل منّا..

لم تخل الأرض من أثر قدمك، وإن غابت خطاك عنها.

لم تخلُ القلوبُ من بردِ ظلكَ، وإن لم تتركِ العيونُ.
لم تخلُ الأرواحُ من اسمك، وإن نسيتَه الألسنُ.
آه يا مولاي..

أيُّ غيابٍ هذا الذي صارَ فيه الغائبُ أقربَ من كلِّ حاضرٍ.
أيُّ حجابٍ هذا الذي صارَ فيه المحجوبُ شمساً لا تجبو تحت سُحبِ
الغيابِ.

أيُّ ابتلاءٍ هذا الذي صارَ فيه الفقدُ ميدانَ الحضورِ الخالصِ، لا حضورَ
الجوارحِ، بل حضورَ الأرواحِ.
مولاي..

في كلِّ ركعةٍ أسجدُها، تسري أسماؤك في وجداني.
في كلِّ دمعةٍ أذرفُها، يرتسمُ وجهك في قلبي.
في كلِّ انتظارٍ أعيشه، تكتملُ صورتك التي لم أبصرها قطُّ، لكنني أحملها
نقشاً على جدارِ النفسِ.
مولاي..

لم تخلُ منا، بل نحنُ الذين خَلَونا من أنفسنا حين نسيناك.
نحنُ الذين غَبنا عنك حين اعتقدنا أننا نراك في المحسوسات فقط.
أنتَ حاضرٌ، حضورَ الرمزِ في التاريخِ، حضورَ الرجاءِ في قلوبِ اليائسينِ،
حضورَ الأملِ في صلواتِ المتعبينِ.

هذا، وتحدثتُ جملةً من الآياتِ الكريمة عن رقابة الله تعالى والنبيِّ
الأكرم ﷺ على هذه الأمة - وكذا عن رقابة الإمام ﷺ رغم غيابه فهو الرقيب
الشاهد -، من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝۱﴾ (النساء: ١)،
وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

عين الله تعالى في خلقه:

ويجدر بنا قبل الحديث عن الذي يراقبنا أن نبحث عن مسألة أُخرى في غاية الأهميّة حاصلها: هل نحن بحاجة إلى مَنْ يراقبنا؟
قد يقول بعضنا: إنني أملك شهادةً عاليةً أو سلطةً ونفوذاً أو جاهاً، وما إلى ذلك من الأمور التي تغنيني عن أن أقع تحت سلطة الرقابة.
فالعلم مثلاً قد يُصوّر لصاحبه - أي العالم - أنك لا تحتاج لمن يراقبك!
وحسن الخلق قد يُصوّر للشخص أنّه لا يحتاج إلى مَنْ يراقبه ليضبط إيقاعات تصرّفاته!
وهكذا قد يرد هذا التساؤل.

والجواب:

في الحقيقة لا يمكن أن نتصوّر شخصاً مهما كانت مكانته يستغني عن وجود رقيبٍ يضبط له مفاهيمه وتصرّفاته.
وقد يطالب البعض بالدليل على هذه المقولة.
وإنّما هو الوجدان، فإنّنا نشعر بوجداننا أنّنا مهما امتلكننا من علم أو سلطة أو جاه فإنّنا بحاجة إلى الرقابة.
وما سيرة العقلاء بيننا في جعل جميع إدارات مفاصل الدولة تحت الرقابة إلا لاستشعارٍ بضرورة ذلك.
إذا اتّفقنا على ضرورة الرقابة، فتعالوا معي لنلقي نظرة على أصنافها المختلفة، ونلاحظ حاجتنا وإلى أيّ رقيبٍ نثق أن نركن وبرقابه نأمن؟
إنّ للرقابة أصنافاً مختلفة:

١ - إلهية أشارت إليها الآية الأولى.

٢ - نبوية أشارت إليها الآية الثانية.

٣ - وتنبثق من هذه الرقابة رقابة ولوية للإمام عليه السلام بمقتضى ولايته على الأمة وهدايتها لها.

وقد دلت نصوص عديدة على ذلك، منها هذا المقطع: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا عَيْنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ»، وهو جزء من زيارة الإمام المهدي عليه السلام يوم الجمعة^(١).

٤ - وهناك رقابة ذاتية ينبغي أن يكون عليها الإنسان، تشير إليها جملة من الآيات أيضاً، كقوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤). بل إنَّ القرآن الكريم يُحدِّثنا عن شهادة بعض جوارحنا على أنفسنا ولولا كون هذه الجوارح تُدرِك أفعالنا وتُسجِّلها علينا لما كان من وجهٍ للحديث عن شهادتها علينا، إذ يقول تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥).

فالآية ظاهرة في أنَّ الجارحة تراقب تصرُّفات الإنسان وتضبط حركاته وسكناته، بل وتضبط وجهة الحركة ومقصدتها.

والذي يتابع هذا المضمار يجد أنَّ علم الاجتماع يتناول هذه المسألة بشكل جدِّي أكثر، واستفيد منها في الواقع الاجتماعي فضلاً عن الفردي بشكل أكبر، ونتج عن ذلك أفكار رائعة في التخلص من مشاكل ذاتية أو اجتماعية كان يصعب إلى حدِّ كبير السيطرة عليها.

فَضْبُطُ الإنسان لإيقاعاته يدخل في هذا المضمار، سواءً كان هذا الضبط ناشئاً من أعماقه من دون أن يكون هناك مؤثِّر خارجي، أو كان بواعز المؤثِّر الخارجي، لا فرق من هذه الجهة.

ونستعين هنا لأجل ذلك بجملة من الآداب التي نتحلَّى بها في قضايا دينية

(١) جمال الأسبوع (ص ٤١).

أو اجتماعية لتقريب فكرتنا في ضرورة استشعار رقابة الإمام المهدي ﷺ في زماننا، وجعلها مؤشراً يضبط إيقاع أفكارنا ومعتقداتنا وسلوكياتنا. تنص جملة من الآداب الدينية في كثير من العبادات الشرعية على أن هناك تصرفات وهيئات ينبغي أن يتحلّى بها الشخص ليحصل الرتبة السامية من عمله الذي يقوم به.

مثلاً في الصلاة بعد تجاوز مرحلة أداء الواجبات والشرائط التي بها يكون امتثال التكليف من قبل العبد.

تأتي مرحلة الآداب التي تسمو بهذا العمل إلى أعلى رتبة، أو تنخفض به إلى أدنى رتبة، وهو ما يُعبّر عنها في اللسان الفقهي بمستحبات الصلاة ومكروهاتها، فهذان الحدان يقومان بتغيير الحقيقة الصلاة من كونها فعلاً يُلَفُّ بخرقة - كما روي ذلك عن النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الصَّلَاةِ يُقْبَلُ مِنْهَا نِصْفُهَا، وَثُلُثُهَا، وَرُبُعُهَا، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلْقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا»^(١)، بل في بعض الأخبار أن الصلاة تدعو عليه وتقول له: «ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللَّهُ»^(٢) - إلى كونها فعلاً يوجب أن يكون العبد يسمع بسمع الله ويصره ببصره وينظر بنظره^(٣)، وإنه لفارق كبير. وليس هذا الفارق الكبير إلا بسبب آداب هي إلى حدٍّ ما تُشكّل مظاهر خارجية للصلاة. ومن هذه الحالة ننطلق إلى الآداب الاجتماعية التي انعقدت عليها عادات المجتمعات وتقاليدهم فصارت أعرافاً ملزمة يُستهجن، بل يُعاقب من يتجاوزها، وهي في ذات الوقت مظاهر خارجية على مستوى الحديث أو الملبس وأمثالها.

(١) عوالي اللئالي (ج ١ / ص ٤١١ / ح ٧٨).

(٢) الكافي (ج ٣ / ص ٢٦٨ / باب من حافظ على صلاته أو ضيّعها / ح ٤).

(٣) راجع: الكافي (ج ٢ / ص ٣٥٢ و ٣٥٣ / باب من آذى المسلمين واحتقرهم / ح ٧ و ٨).

إنَّ المجتمع يهتمُّ ولا أقلَّ يراقب:

١ - المظهر الخارجي للأشخاص.

٢ - الكلام والألفاظ المعبرة عن المعاني.

فهما يُشكِّلان عندنا - بل حتَّى عند الشريعة - قيمةً عاليةً، ولعلَّ ذلك لأجل أنَّ للمظهر والألفاظ قابليَّة الكشف عن الحقائق الداخليَّة بنسبة ما، ولذا قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩).

ولا يخفى على مَنْ لَامَس علم البيان والبديع أنَّ الألفاظ لها آداب، ولحسن الحديث وأدبه ممَّا شغل أهل هذا الفنَّ طويلاً، وجعلهم يضبطون أوضاعه ويُنظِّمونه في إطار قواعد كلِّما طبَّقناها أكثر اقتربنا من الهدف.

وكذلك فيما يرتبط بالمظهر وخصوصاً في زماننا هذا نجد أنَّ هناك مؤسَّسات تُدرِّس هذا الفنَّ، وأنَّ الشخصيات الكبيرة اجتماعياً تخضع لنظام تدريسي وتديبي، وأنَّ هناك أموالاً طائلة تُصَرَّف في سبيل ضبط المظهر. وهنا سؤال: لماذا نقصد المظاهر والألفاظ ونتابعها؟

في الحقيقة إنَّنا نجهل الأشخاص المحيطين بنا، ولأجل التعرُّف عليهم أكثر نتشبَّث بالمظاهر والألفاظ لتكشف لنا بعض حقيقة هؤلاء.

ومن زاوية أخرى فإنَّ الانجذاب للمظهر الحسن والكلام الجميل يُعدُّ من الأمور الوجدانيَّة، لاحظ معي قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧)، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يتحدَّث في مقام التفضُّل على عبده أنَّه زاده بسطةً في جسمه، بل إنَّ في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ (القصاص: ٧٩) إشعاراً لما للزينة من أثر في النفس والانجذاب والميل إلى صاحبها والتأثر به، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا فَإِنَّ الْمَرْءَ مَحْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»^(١).

(١) نهج البلاغة (ص ٥٤٥ / ح ٣٩٢).

فالمظهر غالباً كما الألفاظ كاشفٌ عن الأشخاص.

ومن هنا يحسنُ بنا إدارة الكلمات كما المظهر ونعرف متى نتكلم، وكيف نتكلم، وبماذا نتكلم، لأنّه بضبط ذلك نضبط مقدار تأثيرنا في الناس.

والسؤال الآخر: كيف لي أن أملك هذه الأشياء؟

في الحقيقة أنّ رقابة المجتمع كلّما كانت صارمة ومنضبطة كانت قادرة على إيجاد هذه الأشياء في الناس المتفاعلين معها، فلو أنّ شخصاً طُلب منه أن يتكلم في مجتمع معيّن، تراه يقوم باستعدادات وتهيئة مقدمات وتدرّيات كثيرة لكي ينجح في هذه المهمّة، لماذا؟ لأنّنا نراقبه.

وليكن، وما تأثير رقابتنا عليه؟!

في الحقيقة أنّ الرقابة التي يتمتّع بها المجتمع تُشكّل أهميّة كبيرة، لأنّ هذا الشخص لو فشل في هذه المهمّة فإنّه سيخسر وضعاً اجتماعياً ونفسياً وربّما مالياً.

لو حاولنا نقل هذه الحقيقة التي نمارسها لمّرات عديدة في اليوم الواحد إلى

علاقتنا بالإمام المهدي ﷺ، فما الذي سنرى؟

نحن نعرف جيّداً أنّ الإمام ﷺ هو المرآة التي تعكس وجودنا بجميع

حيثيّاته إلى الله سبحانه وتعالى، لأنّه هو العين التي تراقبنا، فعلى هذا الأساس إذا

أردنا أن نعرف صحّة فعلٍ من أفعالنا أو بطلانه أو رفض عملٍ أو قبوله فإنّنا لا بدّ

أن نستكشف ذلك من خلال علاقتنا بالإمام ﷺ، ومتى ضُبطت هذه العلاقة

حقيقةً وشكلاً ولفظاً فإنّها ستنتج أطيب النتائج المرجوة، وعلى سبيل المثال، فإنّ

الإمام الرضا عليه السلام عندما أراد أن يتحدّث عن أثر الإمام في الأعمال - وبطبيعة

الحال أنّ الإمام عندما يتحدّث وانطلاقاً من وظيفته فإنّه يتحدّث عمّا يؤثّر على ضبط

العلاقة بين الإنسان وربّه في الجانب العبادي -، فنراه يقول ﷺ: «بِالإِمَامِ تَمَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ...»^(١).

فإذا سألنا: لماذا به تمام الأعمال؟ لماذا لا يكون تمام الصلاة بالمظهر الذي نلقى به الله تعالى عندما نكون في الصلاة، وبالألفاظ التي تأتي بها عندما نُؤدّيها؟ لماذا يكون الإمام ﷺ هو تمام الصلاة والزكاة والصيام؟ فإننا نجد الجواب على لسان الإمام الصادق ﷺ حيث يقول: «نَحْنُ شُهَدَاءُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ»^(٢).

فلا بدّ لنا عند القيام بأيّ عملٍ أن نستشعر رقابة الإمام ﷺ علينا وعينه الناظرة إلينا على مستوى روحنا وضبط العلاقة معه، وعلى مستوى مظهرنا وما يُؤثّر في تلك العلاقة، وعلى مستوى ألفاظنا وكيف تكون مقويّة لتلك العلاقة وضابطة ومؤثّرة فيها.

والله تعالى يقول: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)، فالإمام ﷺ يرى كلّ ما نقوم به من أعمال ويراقد حقيقة العمل ومظهره، وينبغي بعد استحضار هذه الحقيقة في نفوسنا أن نجعل أعمالنا من أجمل ما يمكن أن يراه الإمام ﷺ حتّى نصير مصداقاً لقول الإمام الرضا ﷺ عندما سأله ابن الجهم: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَشْتَهِي أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ، قَالَ: «أُنْظِرْ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ»^(٣).

* * *

(١) الكافي (ج ١ / ص ٢٠٠ / باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته / ح ١).

(٢) الكافي (ج ١ / ص ١٩٠ / باب في أن الأئمة شهداء الله ﷻ على خلقه / ح ٢).

(٣) عيون أخبار الرضا ﷺ (ج ٢ / ص ٥٤ / باب ٣١ / ح ١٩٢).

«عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُحِيطَ بِكَ دُونِي الْبَلَوَى».

لفظة تتكسر على مذاق الشفاه كقطرة المطر على شفير الوجود، تحمل في طياتها أسرار العقيدة وأشواق القلب.

ليست كلمة تقال، بل هي دمعة الكون على خدّ الزمان، وصرخة الروح في مهبط الغيبة.

«عَزِيزٌ عَلَيَّ» تنزل هذه الكلمة كالندى على أوراق القلب اليابسة، فتحمل في حرفها الأول أسرار الوجود، وفي حرفها الأخير دمعة الماضي الحائر بين يدي المصير. هي زفرة القدر تتدفق بين ضلوع الزمان، وأنشودة الحنين تتردد في أزقة الغيبة الطويلة.

«عَزِيزٌ عَلَيَّ» هذا النداء الموجه يحمل في طياته حقيقة الوجود بأكمله: أن تكون الحقيقة غائبة والأمل حاضراً، أن تكون القدوة محجوبة والولاية ظاهرة.

الإمام ﷺ في غيبته كالشمس وراء السحب، يُنير ولا يُرى، يحفظ ولا يُحاط به، يشعر بألمنا ونحن نعجز عن إدراك ألمه.

المفارقة العميقة تكمن في أن هذه الإحاطة بالبلوى ليست إلا اختباراً لقدرتنا على الفهم والصبر.

فكلما ازدادت المحنة حول الحجّة ﷺ، كان ذلك دليلاً على عمق حاجتنا إليه، وكلما عظمت الغيبة، كان ذلك برهاناً على ضعفنا وحاجتنا للتكامل.

في هذا المشهد الأسير بين الألم والأمل، تتجلى أسمى درجات العبودية: أن تشعر بالعجز فتسلم، وأن ترى البلوى فتصبر، وأن تدرك الغيبة فتشكر. فالغيبة ليست عقوبة عند البعض، بل هي رحمة متجددة، لأنها تحمل في طياتها درساً عميقاً في معنى الولاية الحقيقية: أن تؤمن بما لا ترى، وأن تُحِبَّ مَنْ لا تلتقي.

«عَزِيزٌ عَلَيَّ» ليست شكوى من قدر، بل هي صرخة إيمان بأنَّ هذا الفراق لن يدوم.

إنَّها دموع تُروي أرض الانتظار، فكلُّ دموعٍ تُسقى بها الأرض تُنبت زهرة أملٍ بقرب اللقاء.

في عمق هذا النداء، يُؤكد سرٌّ عجيب: فكلَّما اشتدَّ الحصار، ازدادت القلوب تعلقاً. وكلَّما طال الانتظار، تعمَّق الإيمان. الغيبة ليست غياباً، بل حضورٌ مختلف. البلوى ليست نهاية، بل بدايةٌ لصحوة. الألم ليس عقوبة، بل محكٌّ يُظهر صدق العبودية.

«عَزِيزٌ عَلَيَّ» هذه الكلمة العظيمة تحمل في داخلها جميع أصوات العُشاق على مرِّ التاريخ: صرخة زينب عليها السلام في كربلاء، وأنين الصادقين في زمن الغيبة، ودعاء المؤمنين على أظافر السحر.

جميعها تجتمع في هذه العبارة التي تصف ألم الوجود وحسرة العجز. إنَّ البلوى المحيطة بالإمام عليه السلام هي امتداد لبلوى الأمة، فما يعانیه هو يعكس ما تعانیه الرعيّة. هذه العلاقة التبادليّة تكشف عن سرِّ العقيدة في ارتباط مصير الإمام بالأمة.

والعجز عن حماية الإمام عليه السلام ليس نقصاً في المؤمن، بل هو جزء من حكمة الابتلاء الإلهي، حيث يصبح الشعور بالعجز دافعاً للتكامل الروحي والعملي.

«أَنْ تُحِيطَ بِكَ دُونِي أَلْبَلَوَى» الإحاطة هنا تحمل بُعداً وجودياً، فكما أنَّ الله ﷻ محيط بكلِّ شيء، فإنَّ الإمام - بحسب معتقدنا - محيط بأُمور الأمة والناس وغير ذلك، وهذه الإحاطة تكشف عن عمق العلاقة الوجودية بين الإمام والمأموم.

وهذا النداء يعكس إشكالية العلاقة بين القدرة الإلهية والإرادة البشرية، حيث يبقى المؤمن في حالة توازن دقيق بين التسليم لقضاء الله ﷻ والسعي لنصرة إمامه.

إذا رجعنا إلى المفهوم من مقولة الداعي «تُحِيطُ بِكَ دُونِي» نجدها تطرح إشكالية الغيبة من منظور علم الكلام، إذ كيف يجمع الإمام بين كونه حجة الله على خلقه وكونه غائباً عنهم؟
الجواب يكمن في أن الغيبة ليست غياباً عن الوظيفة، بل هي تحوُّل في كيفية أدائها.

ومفهوم «الْبَلَوَى» يتجاوز المعنى اللغوي إلى المعنى الكلامي، حيث يصبح الابتلاء وسيلة لإثبات حاجة الأمة إلى الإمام، والإمام إلى الأمة، في دائرة من التكامل الوجودي.

في زاوية من زوايا الروح والوجدان نجد أن هذا المقطع يرسم لوحة بأنامل الحنين وألوان الشوق الممزوج بالدموع، حيث يقف المؤمن على شاطئ الغيبة، يرى سفينة النجاة - إمام زمانه ﷺ - تتمايل في بحر من المحن، وهو واقف على الشاطئ مكتوف اليدين. يا للقسوة! أن ترى الشمس تُحجَّب بالسُّحُب، وأنت تعلم أن بإمكانك إزالة السُّحُب، لكن الأقدار قيَّدت يديك!
أيها الوله المشتاق اعلم أن البلوى ليست حدثاً عابراً، بل هي زلزالٌ يهزُّ أركان الولاية. فكيف يُحاصر البحرُ بقطراته؟

وكيف تُحيط الظلماتُ بالنور المبين؟

إنَّها معجزة المعاناة، حيث يصبح الحجاب نفسه محنة، والغيبة عين البلاء. الألم ليس في ابتلاء الإمام ﷺ، بل في أن نكون نحن سبب بلواه، بأن نكون غائبين عنه وهو الحاضر، ضائعين وهو الهادي، عاجزين وهو القويُّ.

وهنا تتساقط الكلمات كنجومٍ في ليل الغيبة الطويل، كلُّ كلمةٍ منها شهادةٌ حُبِّ ترفض اليأس.

هذه الكلمات هي مرآة تعكس أسمى معاني الولاية: أن نُحِبَّ حَتَّى لو لم تلمس، أن تنتظر حَتَّى لو طال الزمن، أن تؤمن حَتَّى لو احتجبت الأنوار. إنَّها قصيدةٌ قلبٍ يخفق بين جرح الحاضر وأمل المستقبل، بين ألم الفراق ووعده اللقاء. في النهاية، تتحوَّل الأثَّة إلى نشيد، والدموع إلى بصائر، والغيبة إلى شمسٍ تُشرق من وراء الأفق. فما كان النداء إلا بداية الطريق، وما كان الألم إلا مقدِّمة الفرج. فليستمرَّ النداء، وليتواصل العطش، فكلُّ صرخةٍ شوقٍ تُقرب موعد اللقاء، وكلُّ دمعةٍ حينئذٍ تُسرِّع بزمان الظهور.

وحقُّ لكلِّ متلهِّفٍ ولِه أن يقول: اللَّهُمَّ اجعلني من الذين إذا اشتدَّت بحجَّتكَ البلوى، كانوا أحقَّ بحملها دونه، وإذا احتجب نوره، كانوا أولى باستضاءة ذكره. واجعل غيبته لي ميراث صبر، وانتظاره لي وسيلة قرب، حَتَّى أَلج من باب الحُبِّ إلى رحاب اللقاء، ومن ظلمات الغيبة إلى نور الظهور.

* * *

«بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ نَارِحٍ مَا يَنْزَحُ [نَزَحَ] عَنَّا».

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ حضورك في الأرواح لا يغيب..
«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ فيك تطمئنُّ الأرواح وتسكن الأوجاع، يا مَنْ إذا ذكرته القلوب انتفضت، وإذا نادته الأفئدة استجاب صداها من أقاصي الوجود.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ كنت الشوق الذي لا ينطفئ، ومُنَى العيون التي لا تكتمل إلا بـلقائك.

أنتَ المعنى الذي يعجز الفهم عن إدراكه، والعطر الذي يملأ الأرجاء
رغم المسافات، وأنت في غيبتك أزهى من كل بزوغ، وأطهر من كل نور، يا من
قلب الأرض يشتاقر لرؤيتك، وعيون الناس تترقب طلعتك، وكل نفس تؤمن
أنك النور الذي يُبَدِّد الظلام.

مولاي.. كيف للسماء أن تغلق أبوابها إذا تنفست أنفاسك في جنباتها؟
يا من اشتاقت إليك الأكوان، فكيف إذا تساءل الزمان: متى يكون
الفرج؟!

يا من غيبتك الزمان، وما غبت عن قلوب المحبين..
أنت سر الوجود الذي لا يدركه غير القلب الطاهر..
يا من سكنت في كل مهبط من مهاب الرياح، وفي كل ثنية من زوايا
الأرض.

«بنفسي أنت»، يا من عشت في ضمير الكون، وتغلغلت في كل فكرة حيّة،
وملأت أفق الزمان بأطيافك.
أنت الغائب الذي إذا حضر امتلأ الزمان به، وإذا غاب امتلأ المكان
لشوقك، ولا يغفل عنك قلب إلا اشتاق.
أنت الحقيقة المخفية في خبايا الحياة، والتي لا تنكشف إلا لعين أضاءها
نورك.

«بنفسي أنت»، لأنك السر الذي به حياة كل موجود، وأنت اليقين الذي
لا يُخطئه العقل، لأنك الغيب الذي تراه العيون بين ثنايا الظلام، وأنت في كل
لحظة، في كل شوق، في كل أمنية.

«بنفسي أنت»، يا سر الله في أرضه، يا عين الله الناظرة، يا باب الله الذي
منه يُوتى.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ تَحَمَّلْتَ جَفَاءَنَا، وَجُبْتَ فِي لَيَالِي الْغَيْبَةِ تَنْظُرَ إِلَيْنَا،
تَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ لَا نَخَافُ عَلَى أَنْفُسِنَا، تَشْتَاقُ إِلَيْنَا وَنَحْنُ فِي لَهْوِنَا غَافِلُونَ.
«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ بِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْقُلُوبَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبِكَ يَبْصُرُ الْعَيُونَ
بَعْدَ عَمَاهَا.

مولاي.. أَنْتَ الْغَائِبُ أَمْ نَحْنُ؟!
أَنْتَ الْمَهَاجِرُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ هَجَرْنَاكَ؟!
وَاللَّهِ مَا غَبْتَ إِلَّا عَنْ عَيْنِ أَغْشَى عَلَيْهَا، وَمَا نَزَحْتَ إِلَّا عَنْ قَلْبِ خَرِبٍ لَاهٍ
تِيهَانٍ، وَمَا احْتَجَبْتَ إِلَّا مِنْ نَفْسٍ غَاصَتْ فِي وَحْلِ الْعَصِيَانِ.
سَيِّدِي، لَوْ أَنْجَلْتَ حُجْبِنَا لِرَأْيِنَاكَ مَعْنَا، بَيْنَ أَنْفَاسِنَا، فِي زَوَايَا وَحَدْتِنَا، فِي
قَلْقٍ لَيْلِنَا وَسَكِينَةٍ سَحَرْنَا.

مولاي، «بِنَفْسِي أَنْتَ»، أَي نَفْسِي الَّتِي لَا قِيَامَ لَهَا إِلَّا بِذِكْرِكَ، وَلَا أَمَانَ لَهَا
إِلَّا تَحْتَ جَنَاحِكَ، نَفْسِي الَّتِي تَاهَتْ فِي مَفَاوِزِ الْعَمْرِ وَمَا اهْتَدَتْ إِلَّا إِلَيْكَ، نَفْسِي
الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الرُّكُونَ إِلَّا فِي ظِلِّ حُبِّكَ، نَفْسِي الَّتِي تَتَقَطَّعُ شَوْقًا إِلَيْكَ وَتَتَلَطَّى
اِنْتِظَارًا لِنُورِ طَلْعَتِكَ.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يَا بَقِيَّةَ اللَّهِ، يَا مَنْ تُحْيِي الْمَوَاتَ بِنَظَرَةٍ، وَتَسْكِبُ عَلَى الْجِرَاحِ
شِفَاءً، يَا مَنْ يَمَلَأُ الْأَرْضَ قَسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، يَا مَنْ نَنْتَظِرُهُ لَا اِنْتِظَارَ الْغَائِبِ
فَحَسْبُ، بَلْ اِنْتِظَارَ الْغَايَةِ الْكَبْرَى، اِنْتِظَارَ النُّورِ الَّذِي يُبْعَثُ فِي الْعُرُوقِ فَيُعِيدُ
لِلْوُجُودِ بَهَاءَهُ، اِنْتِظَارَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَتُصْفَى بِهَا الْأَرْضُ مِنْ شَائِبَةِ ظَلَمِهَا.

سَيِّدِي، اغْفِرْ لِي تَقْصِيرِي، وَاغْفِرْ لَوْجُودِي الْمَشُوبَ بِالنَّقْصِ، وَعَلَّقْنِي
بِحُبِّكَ حَتَّى لَا أَرَى لِنَفْسِي ذَاتًا إِلَّا فِي ظِلِّكَ، وَلَا أَرْجُو فَوْزًا إِلَّا بِلِقَائِكَ، وَلَا
أَرْتَقِبُ صَبْحًا إِلَّا طُلُوعَكَ، وَلَا أُرْتَلُ دَعَاءً إِلَّا بِاسْمِكَ، وَلَا أُقِيمُ صَلَاةً إِلَّا
بِخُشُوعِ حُضُورِ مَعِكَ.

مولاي، علّني بك حتّى لا أحتاج إلى دليل، واملأني بنور حضورك وإن طال الغيبة، فقد علمت أنّك ما غبت عن قلب أحياك، ولا نزحت عن قلب سكن هواك، بل كنت دائماً أقرب من القريب، وأحنّ من الأمّ، وأرأف من الأب، وأعطف من كلّ ناصح ووليّ.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ لو علمت أنّك تغيب طرفة عين عني، لانطفأ كلّ قنديل في داخلي، وارتجّ كياني حتّى لا أستقيم بعدها أبداً.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، لأنّك سرّ اشتعال قلوب المحيّين، يا مَنْ سُميت غائباً وما غبت، بل نحن الذين غبنا عنك، حجبتنا بغفلتنا، وسجنتنا جهلنا، وطوّقنا عجزنا، فصرنا نفتش عنك بين الأزمنة، وأنّ حضورك لا يُقاس بالمسافة، بل يُقاس بالبصيرة.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، لأنّك معنى الوجود الخالص، النور الذي تشعّ به خزائن الغيب، اليد التي تمتدّ بالرحمة للقلوب المستوحشة، القلب الذي يخفق لكلّ مظلوم ومهموم، أنت ملاذ كلّ مَنْ ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأفق كلّ مَنْ استحکم اليأس في صدره.

يا مَنْ لا يغيب عنك صوت ملهوف ولا أنين موعج، يا مَنْ صبرت على شيعتك، وتحملت أعباء الغيبة من أجلهم.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، لأنّك بقيّة الله في أرضه، واليد المدخّرة لنصرته.

«بِنَفْسِي أَنْتَ»، لأنّك البرهان الناطق بأنّ الله لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتركهم سدّي، لأنّك الشاهد القائم بيننا وبين الغيب، لأنّك ميزان العدل، ومكيال الحقّ، وسراج الهداية.

أنت الغائب الذي بتوقك يتهجّد الصالحون، وباسمك ترتفع الأدعية والأنات، في كلّ خلوة وسحر ومحضّر.

يا مَنْ إذا ذكرك، طابت لي الدنيا، وإن نسيّتك، استوحشت الأرض وإن

٤٣٠ شرح دعاء الندبة

ازدحمت، يا مَنْ اشتياقي إليك ليس نزق نفس، بل توق روح عرفت مقامها،
وفهمت سرّ انشدادها إليك.

فإنّي بك وإليك، وقلبي ما عرف الأمان إلا حين ارتبط بذكرك، ولا طمع
في النجاة إلا في ظلّ رايتك.

مولاي.. يا شمساً لا تأفل، يا بدرأ لا يحتجب، يا أمل الأرض والسماء،
«بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ سكنت شغاف القلب حتّى صار خافقه باسمك، «بِنَفْسِي
أَنْتَ»، يا مَنْ لا تهدأ روعي إلا عند تذكرك، ولا تطمئن نفسي إلا حين أناجيك،
ولا تشرق شمسي إلا إذا رفعت إليك ندائي.

مولاي.. كيف لا أذيب ذاتي في حُبِّك، وأنت عطر كلّ المعاني الجميلة،
وصوت كلّ الصلوات الصاعدة، وأمل كلّ مهموم في ظلماء ليله؟

مولاي.. ما بال الدهور تتعاقب، وأنت ما زلت موعوداً تُردّد اسمك في
قلوبنا، وتبكيك أعيننا، وتشتاق إليك أرواحنا؟ ما بال الأرض تضيق بما رحبت،
وما بال السماء تنتظر أمر ربّها، ونحن بين هذا وذاك نذيب أعمارنا في انتظارك؟!
مولاي.. هل تأذن لنا بلحظة بوح لا يقاطعها ظنٌّ، ولا يشوبها وجلٌّ، ولا
يجبها شيء من شوائب الدنيا؟

مولاي.. «بِنَفْسِي أَنْتَ»، يا مَنْ إن حلت في الزمان فتحت خزائن الغيب،
وانكشفت الأسرار، واستوى على سوقه حلم الأنبياء، ويا مَنْ إذا أقبلت،
اكتملت حلقات الحقّ، وانجبر كسر المظلومين، ومُدَّت يد العدل إلى القلوب
المحطّمة، ورفرفت راية النور على هامات الناس أجمعين.

مولاي.. علّمني أن أكون من المنتظرين حقاً، لا بلسان يُردّد اسمك ثمّ
ينساک، بل بقلب يجيئ بك في كلّ نبضة، وجوارح تسابق الساعات في نصرتك.

* * *

«بِنَفْسِي أَنْتَ أُمْنِيَّةٌ شَائِقَةٌ يُتَمَنَّى».

تعبير يفيض بالوجد والشوق، حيث يضع الداعي نفسه في مقام الفداء للإمام المهدي الذي يُمثل أمل الحياة الكبرى، والحلم الذي يراود القلوب المتعطشة لرؤيته.

هذه الفقرة تختزل في كلماتها القليلة كل معاني الولاء والتقديس، وأعلى قيم الفداء والتضحية، فالإمام ليس مجرد قائد غائب، بل هو الأمانة الأسمى والغاية القصوى التي يتمنى تحقيقها كل مؤمن، وتسكن في أعماق قلوبهم، وتظل حاضرة في كل لحظة من حياتهم، مهما طال غيبة إمامهم.

فالإمام هو الرمز للأمل الذي لا ينطفئ، والنور الذي لا يغيب. إنَّ التمني هنا ليس مجرد رغبة عابرة، بل هو تضحية دائمة وحب عميق ينساب في أرواح المحبين الصادقين، وكأنَّ حياتهم ذاتها معلقة على تحقيق هذه الأمانة التي تمثل لقاء الإمام في ظهوره.

هذا التعبير يُبرز مدى التعلق الروحي والعاطفي بالإمام، حيث يصبح الحلم بلقائه - في ظل غيبته الطويلة - مصدراً للقوة والصبر، ورمزاً لاستمرار الأمل والانتظار وسط الظلمات والآلام التي يعيشها المؤمن في غيابه. إنَّه نداء ينبض بالولاء، يُردّد صداه كلُّ قلب شائق، متلهّف لليوم الذي تتجلى فيه أمنيته بروية إمامه المنقذ.

* * *

«بِنَفْسِي أَنْتَ مِنْ عَقِيدٍ عَزٌّ لَا يُسَامَى».

هذا التعبير يُجسّد مكانة الإمام كرمز للعزة المطلقة والقوة الإلهية التي

لا تُدانيها أيُّ قوَّةٍ بشريَّةٍ أو مكانةٍ دنيويَّةٍ، فهو ﷺ قَمَّةُ المجد والفخر، عقيدةً وإيماناً، ومثلاً أعلى لا يمكن لأبيِّ شخص أن يبلغه أو أن يقترب منه.

فقول الداعي: «عَقِيدِ عِزِّي»، يبرز من خلاله المعنى العميق لارتباطه بعزَّةِ الله تعالى التي ترفع أوليائها، فهو ﷺ ليس فقط رمزاً للعدل، بل تجسيداً للعزَّةِ الإلهيَّةِ التي تُثير دروب المؤمنين وتدفعهم للتمسُّك بالحقِّ والثبات أمام المحن.

وقول الداعي: «لَا يُسَامِي»، هذا يُؤكِّد على تفرُّد هذه العزَّةِ وعلوِّ مقام الإمام ﷺ، فلا شيء في هذا العالم يمكن أن يضاهي مكانته، ولا أحد يستطيع أن يدنو من سموِّه، إنَّه مصدر الفخر للمؤمنين، تاجٌ يُزيِّن رؤوسهم، وقوَّةٌ تجعلهم صامدين في وجه الظلم والجور، بانتظار ظهوره المبارك الذي سيُعيد للكون عدلته ولإنسانيَّةِ كرامتها.

بهذا التعبير يتجسَّد الإمام المهدي ﷺ كرمزٍ لا يُضاهى للعزَّةِ الربانيَّةِ التي تمنح أتباعها الأمل في تحقيق النصر والخلاص من الظلم والفساد، ليظلَّ مناراً مضيئاً في قلب كلِّ مؤمن، وعنواناً للعزِّ الذي لا ينقطع.

* * *

«إِلَى مَتَى أَحَارُ فِيكَ يَا مَوْلَايَ».

هذا التعبير يفيض بالشوق والتلهُّف، حيث يرفع الداعي صوته متسائلاً، متألماً من طول الغياب، ومشتاقاً للحظة الظهور.

إنَّه سؤال يحمل بين كلماته معاناة المؤمنين الذين يثنون تحت وطأة الظلم والفساد، متطلِّعين إلى منقذهم ومخلصهم. هذا التساؤل ليس مجرد استفسار عن الوقت، بل هو نداء يحمل وجداناً مليئاً بالحبِّ والاحترق، وكأنَّ القلب يخاطب

الإمام ﷺ مباشرة: إلى متى ستظلُّ الغيبة جاثمة على أرواحنا؟ وإلى متى سنبقى ننتظر عودتك يا سيدي لتملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً؟

* * *

«هَلْ مِنْ مُعِينٍ فَأُطِيلُ مَعَهُ الْعَوِيلَ وَالْبُكَاءَ».

تساؤل يفيض بالألم والوحدة، حيث يُعبّر الداعي عن شعور عميق بالعجز في مواجهة المحنة الطويلة التي طالت بغياب الإمام ﷺ، إنّه نداء يبحث فيه الداعي عن رفيق في الحزن، ومعين يواجه معه هذه الغيبة الموحجة، ليشركه البكاء والتضرُّع، وكأنَّ البكاء نفسه يصبح وسيلة للتخفيف من ثقل هذه المعاناة، إنَّ هذا السؤال ليس مجرد طلب للمساعدة، بل هو تصوير لحالة وجدانية من الوحدة التي يشعر بها المؤمن في غياب الإمام ﷺ، وكأنّه يقول: هل هناك من يشاركني هذه الحرقة؟ هل هناك من يعينني في هذه المحنة التي تكاد تستهلكني؟ إنّه شعور بالضياع في عالم يفتقد العدالة والقسط، حيث يصبح البكاء تعبيراً عن الشوق والاحتياج الملحّ لعودة الإمام ﷺ، وفي هذا التعبير أيضاً تكمن دعوة للتأزر، فالداعي لا يبحث فقط عن مَنْ يشاركه الألم، بل أيضاً عن مَنْ يعينه على البكاء والعويل، ليحمل معه عبء الانتظار والحنين، فيكون البكاء صورة من صور التضامن الروحي والوجداني في وجه المحنة.

هذا النداء يُبرز بوضوح كيف أنّ الغيبة ليست مجرد غياب جسدي، بل محنة وجودية تحمل أثقالها النفوس المحبّة، وتتحول معها الدموع إلى لغة مشتركة تُعبّر عن الحنين، والألم، والأمل الذي لا ينطفئ في قلوب المنتظرين.

* * *

«مَتَى نَرِدُ مَنَاهِلَكَ الرَّوِّيَّةَ فَنَرَوِي».

عبارة تحمل شوقاً عميقاً وتوقاً صادقاً إلى تلك اللحظة التي يلتقي فيها الداعي بإمامه عليه السلام، ليغترف من معين علمه وحكمته، ويُشبع ظمأ روحه التي أنهكها طول الغياب.

فالمناهل الرويَّة، هي منابع الحكمة والمعرفة التي يمتلكها الإمام عليه السلام، وهي منابع عذبة، متدفقة، لا تنضب، يرتوي منها كلُّ مَنْ تآقت نفسه للحقِّ وأرهقه التيه في ظلمات الجهل والباطل، وهي ليست مجرد معرفة عقلية، بل هي نور يُجيب الأرواح، وعدل يروي العطشى من منهل نهر اليقين بعد ظمأ طويل. وهنا الداعي يرى في الإمام عليه السلام ذلك الغيث الموعود الذي سيُحيي قلوب الأمة، فيمنحها حياة جديدة مليئة بالعدل، والرحمة، والهداية.

هذا المقطع، تعبير عن توق عميق إلى اليوم الذي تعود فيه الأرض إلى استقامتها بظهور الإمام عليه السلام، وأنَّ هذا الارتواء المرتقب سيمحو آثار العطش الذي طال أمده، ليبقى الأمل مشرقاً في القلوب، رغم كلِّ محن الغياب.

* * *

«مَتَى تَرَانَا وَنَرَاكَ وَقَدْ نَشَرْتَ لِيَوَاءَ النَّصْرِ».

هذا التعبير ينبض بالشوق والرجاء، حيث يطرح الداعي تساؤلاً ملؤه الأمل والتوق إلى اللحظة التي يلتقي فيها بالإمام عليه السلام، في ظلِّ عودته الظاهرة التي يرفع فيها لواء النصر، ويُحقِّق العدل في الأرض.

إنَّه تساؤل ينبثق من أعماق قلب مؤمنٍ يشقُّ إلى رؤية إمامه المنتظر عليه السلام وهو يقود الأمة إلى الفتح الكبير، ويستعيد الحقوق المسلوبة، ويُعيد التوازن للعالم الذي اختلَّ بفعل الظلم والفساد.

هذا المقطع، يشير إلى لحظة تحقق النصر الإلهي، حيث يحمل الإمام ﷺ راية الحق، ويفتح طريق العدل الذي يغمر الأرض ويُطهرها من جور الطغاة. يقول المقطع على لسان الداعي: إنه ليس مجرد نصر سياسي أو دنيوي، بل هو نصر من نوع آخر، نصر يبعث في القلوب السكينة، ويُطهر النفوس، ويُعيد للأمة كرامتها وسؤدها.

الداعي يتمنى أن يعيش هذه اللحظة المرتقبة، التي يجتمع فيها الحق والعدل، وينطمس فيها الجور والظلم، ويُطوق فيها عنق الأرض لواء النصر الإلهي، إنه أملٌ يُحيي فيه الروح، وتستجيب له أعماق أمانى المؤمنين الذين يرقبون ظهور الإمام ﷺ ليضعوا أقدامهم على أرض تملؤها العدالة، وتغمرها الرحمة، وتشرق فيها شمس الغائب. هذا النداء يُعبر عن حالة انتظار مليئة باليقين، بأن ذلك اليوم سيتحقق، وأن النصر الذي يُنتظر ليس بعيداً، بل هو وعدٌ قريب سيأتي على أيدي الإمام ﷺ، ليشرق العالم من جديد بنور الهداية الإلهية.

* * *

«أَتَرَانَا نَحْفُ بِكَ وَأَنْتَ تَوُمُّ الْمَلَأَ».

هذه الفقرة تحمل بين ثناياها أسمى آمال الداعي وأعمق أمانيه، حيث يُعبر عن حلمه الكبير في أن يكون من الذين يحيطون بالإمام ﷺ، يرافقونه ويسيروا في ركب نصره وعزته، هو يتمنى أن يراه ﷺ وهو يقود العالم إلى العدل، يُحقق النصر الذي طال انتظاره، ويقضي على كل مظاهر الجور والفساد. الفقرة تُعبر عن الرغبة العميقة في أن يكون المؤمن قريباً من الإمام ﷺ، يعايش لحظات الظهور ويشارك في تحقيق هذه المرحلة العظيمة المنتظرة، وفي الروايات ما يُعبر عن بعض ذلك، ومنها ما رواه العلامة المجلسي رحمه الله: عَنْ

الْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «لَهُ كَنْزٌ بِالطَّلَقَانِ مَا هُوَ بِذَهَبٍ، وَلَا فِضَّةٍ، وَرَايَةٌ لَمْ تُنَشَّرْ مُنْذُ طُوبَيْتٍ، وَرِجَالٌ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ زُبُرُ الْحَدِيدِ، لَا يَشُوبُهَا شَكٌّ فِي ذَاتِ اللَّهِ، أَشَدُّ مِنَ الْحَجَرِ، لَوْ حَمَلُوا عَلَى الْجِبَالِ لَأَزَالُوهَا، لَا يَقْصِدُونَ بَرَايَاتِهِمْ بَلَدَةً إِلَّا خَرَبُوهَا، كَأَنَّ عَلَى خِيُولِهِمُ الْعِقْبَانَ، يَتَمَسَّحُونَ بِسَرَجِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ، وَيَحْتُمُونَ بِهِ، يَقُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ فِي الْخُرُوبِ، وَيَكْفُونَهُ مَا يُرِيدُ فِيهِمْ، رِجَالٌ لَا يَنَامُونَ اللَّيْلَ، لَهُمْ دَوِيٌّ فِي صَلَاتِهِمْ كَدَوِيٍّ النَّحْلِ، يَبْتَئُونَ قِيَامًا عَلَى أَطْرَافِهِمْ، وَيُضْبِحُونَ عَلَى خِيُولِهِمْ، رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ لِيُوثَّ بِالنَّهَارِ، هُمْ أَطْوَعُ لَهُ مِنَ الْأَمَّةِ لِسَيِّدِهَا، كَأَلْمَصَابِيحِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمُ الْقَنَادِيلُ، وَهُمْ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ مُشْفِقُونَ، يَدْعُونَ بِالشَّهَادَةِ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يُقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، شِعَارُهُمْ: يَا لثَارَاتِ الْحُسَيْنِ، إِذَا سَارُوا يَسِيرُ الرَّعْبُ أَمَامَهُمْ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، يَمْشُونَ إِلَى الْمَوْلَى إِرسَالًا، بِهِمْ يَنْصُرُ اللَّهُ إِمَامَ الْحَقِّ»^(١).

إنَّ الحَفَّ بالإمام ﷺ لا يعني مجرد التواجد الجسدي حوله، بل يعني الانخراط في مشروعه الإلهي، واحتضان قيمه من العدالة والإصلاح والمساواة والقسط، والوقوف في صفه لتحقيق الأمن والسلام ونشر الإسلام الأصيل على الأرض.

هناك - قريبا إن شاء الله تعالى - حيث الإمام ﷺ هو قائد الملائم، يحكم بالعدل ويقود العالم.

الداعي لا يتمنى فقط أن يكون قريبا من الإمام ﷺ، بل يتمنى أن يكون جزءاً من هذه الملحمة الكبرى، التي يرى فيها الإمام ﷺ وهو يسود الأرض بالعدل، ويعيد الحق إلى نصابه.

هذه الكلمات النديبة المباركة تمثل أسمى درجات التمني والانتظار، فهي

(١) بحار الأنوار (ج ٥٢ / ص ٣٠٧ و ٣٠٨ / ح ٨٢)، عن سرور أهل الإيمان (ص ٩٦ و ٩٧).

تعبير عن الفخر والشرف الكبير الذي ينتظره المؤمنون في اللحظة التي سيقف فيها الإمام ﷺ، قائداً للعدل، ومنقذاً للبشريّة، ويكونون هم من المقربين والحافين حوله، يشاركونه في بناء العالم الجديد، والذي تنسّم فيه الأرض عبير السلام والإيمان والإسلام الحقّ.

نظرة المؤمن للحياة:

وَجِدَ النَّاسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَصِيرَهُمْ إِلَىٰ غَيْرِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِئًا لَّهِئًا لِّأُولَئِكَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (العنكبوت: ٦٤).

يُدرِكُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ جَمِيعَ النَّاسِ، إِلَّا أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ لَهَا هَمَّ أَقْلٍ الْقَلِيلِ. نَحْنُ عَلَيَّ يَقِينٌ تَامٌّ أَنَّنَا سَنُغَادِرُ هَذِهِ الْحَيَاةَ إِلَىٰ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ رَغْمَ شِدَّةِ تَمَسُّكِنَا

بِهَا.

نَسِيرُ جَمِيعاً إِلَىٰ تِلْكَ الدَّارِ، وَكُلُّ سَاعَةٍ تَنْقُضِي مِنْ أَعْمَارِنَا تُقَرِّبُنَا إِلَىٰ دَارٍ مُسْتَقَرًّا.

هَذِهِ الْحَقِيقَةُ النَّاصِعَةُ الْحَاضِرَةُ فِي وَجْدَانٍ وَمَرْتَكِزَاتٍ جَمِيعَ بَنِي آدَمَ، يَتَمُّ تَغْيِيبُهَا بِقَصْدٍ أَوْ بَغَيْرِهِ.

وَكَمْ مِنْ نَظِيرٍ لِهَذَا فِي الْكَثِيرِ مِنْ قَضَايَا الْإِنْسَانِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، الدِّيْنِيَّةِ أَوْ الدُّنْيَوِيَّةِ. وَمِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْقَضَايَا الْوَاضِحَةُ الْحُضُورُ وَالْإِرْتِكَازُ، وَالْمَغْيِبَةُ فِي ذَاتِ الْوَقْتِ، هِيَ الْعَقِيدَةُ بِالْإِمَامِ الْحُجَّةِ بْنِ الْحَسَنِ ﷺ، فَهُوَ الْإِمَامُ الْحَاضِرُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيَّ النَّاسِ الْإِيْمَانَ بِإِمَامَتِهِ الْفَعْلِيَّةِ وَالْيَقِينَ بِحُضُورِهِ مَعَنَا، وَلَكِنْ بَعْضُ مَنْ يُوْمِنُ بِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ لَا يَسْتَحْضِرُهَا، وَلَا يَرَىٰ حُضُورَ الْإِمَامِ ﷺ فِي نَفْسِهِ وَوَجْدَانِهِ فَضْلاً عَنْ أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَهُ ﷺ بِأَنَّهُ حَاضِرٌ وَيَر_اقِبُ النَّاسَ وَيُوجِّهُهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ، قَالَ ﷺ: «نَحْنُ وَإِنْ كُنَّا نَاوِينَ بِمَكَانِنَا النَّائِي عَنِ مَسَاكِنِ الظَّالِمِينَ، حَسَبَ الَّذِي أَرَانَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَنَا مِنَ الصَّلَاحِ

وَلِشِيعَتِنَا الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ مَا دَامَتْ دَوْلَةُ الدُّنْيَا لِلْفَاسِقِينَ، فَإِنَّا نَحِيطُ عِلْمًا بِأَنْبَاءِكُمْ، وَلَا يَعْزُبُ عَنَّا شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَمَعْرِفَتُنَا بِالذَّلِّ الَّذِي أَصَابَكُمْ مُذْ جَنَحَ كَثِيرٌ مِنْكُمْ إِلَى مَا كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ عَنْهُ شَاسِعًا، وَنَبَدُّوا الْعَهْدَ الْمَأْخُودَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. إِنَّا غَيْرُ مُهْمِلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ، وَلَا نَاسِينَ لِذِكْرِكُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَنَزَلَ بِكُمْ اللَّأْوَاءُ أَوْ اصْطَلَمَكُمُ الْأَعْدَاءُ، فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَظَاهِرُونَا عَلَى انْتِيَاشِكُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَدْ أَنَافَتْ عَلَيْكُمْ، يَهْلِكُ فِيهَا مَنْ حَمَّ أَجْلَهُ، وَيُحْمَى عَنْهَا مَنْ أَدْرَكَ أَمَلَهُ، وَهِيَ أَمَارَةٌ لِأُزُوفِ حَرَكَتِنَا، وَمُبَاتَّتِكُمْ بِأَمْرِنَا وَمَهِينَا، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ...»^(١).

ورغم أن المهدوية قد دلت عليها الأدلة اليقينية القطعية، إلا أننا نشعر

بالوجدان غيابها عند بعض الناس.

حتى عبرت بعض الروايات بأن جملة من هؤلاء يصل به التشكيك إلى حد إنكار الولادة وعدم الإيذان بها، كما جاء في ما رواه المفضل بن عمر، قال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالتَّوْبَةَ، أَمَا وَاللَّهِ لَيَغَيِّنَنَّ إِمَامَكُمْ سِنِينَ مِنْ دَهْرِكُمْ، وَلَيَمَحَّصَنَّ حَتَّى يُقَالَ: مَاتَ، قُتِلَ، (هَلَكَ)، بَأَيِّ وَادٍ سَلَكَ؟ وَكَتَمَعَنَّ عَلَيْهِ عِيُونَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَتَمَفَنَّ كَمَا تَكْفَأُ السُّفُنُ بِأَمْوَاجِ الْبَحْرِ، فَلَا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَهُ، وَكَتَبَ فِي قَلْبِهِ الْإِيْمَانَ، وَأَيَّدَهُ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَكَتَمَفَنَّ اثْنَتَا عَشْرَةَ رَايَةً مُسْتَبَهَةً لَا يُدْرِي أَيُّ مِنْ أَيٍّ»، قَالَ: فَبَكَيْتُ، وَقُلْتُ: فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ»، وَنَظَرَ إِلَى الشَّمْسِ دَاخِلَةً إِلَى الصَّفَةِ، قَالَ: «فَتَرَى هَذِهِ الشَّمْسَ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «وَاللَّهِ لَأَمْرُنَا أَيْبُنُ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ»^(٢).

في مقابل هؤلاء هناك من يرى وجود الإمام عليه السلام حاضراً في كل زاوية

(١) الاحتجاج (ج ٢/ ص ٣٢٢ و ٣٢٣).

(٢) الغيبة للطوسي (ص ٣٣٧ و ٣٣٨/ ح ٢٨٥).

ومقطع من وجوده، فيرى ما لا يراه غيره، ويستشعر ما لا يستشعره الناس، ويتعامل مع وجود الإمام الغائب على أنه عين الله تعالى في الخلق، والرقيب عليهم، فعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «نَحْنُ الْمَثَانِي الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَنَحْنُ وَجْهَ اللَّهِ تَقَلَّبَ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، وَنَحْنُ عَيْنُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَيَدُهُ الْمَبْسُوطَةُ بِالرَّحْمَةِ عَلَى عِبَادِهِ، عَرَفْنَا مَنْ عَرَفْنَا، وَجَهَلْنَا مَنْ جَهَلْنَا...»^(١).

وفي الزيارة المخصوصة به ﷺ في يوم الجمعة: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا حُجَّةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا عَيْنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا نُورَ اللَّهِ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ الْمُهْتَدُونَ، وَيَفْرَجُ بِهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُهْتَدِبُ الْخَائِفُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْوَلِيُّ النَّاصِحُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا سَفِينَةَ النَّجَاةِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا عَيْنَ الْحَيَاةِ...»^(٢).

وهؤلاء القلة من الناس ممن يملك هذا الإيمان، قد وصفتهم بعض الروايات بأنهم أعز من الكبريت الأحمر، لأنهم يؤمنون به سواداً على بياض، ولكن هذا الإيمان العلمي كان حافزاً لهم على تجسيده والتماسه في كل زاوية من زوايا وجودهم، فإنهم يرون ما لا يرى الناس بسبب عقيدتهم بالإمام ﷺ على حدّ تعبير أمير المؤمنين عليه السلام حينما قال: «فَكَأَنَّهَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأَنَّهَا اِطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةَ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ...»^(٣).

العين الثانية، هكذا يجب أن تُقرأ القضايا ذات الاهتمام الكبير، والتي تُؤثر

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٤٣ / باب النوادر / ح ٣).

(٢) جمال الأسبوع (ص ٤١).

(٣) نهج البلاغة (ص ٣٤٢ و ٣٤٣ / ح ٢٢٢).

٤٤٠ شرح دعاء الندبة

على تغيير مسار الإنسان من زاوية الواقع لا بعين واحدة، أي إنَّ الإنسان لا بدَّ أن يقرأ ما يُؤثر في بناء عقيدته وسلوكه بعين ثانية.

ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ هذه الحالة هي التي تحرف الإنسان وتجعله أسير أفكار لا تمتُّ بصلة للعقيدة التي ينبغي أن يتحلَّى بها، ويُنظَّم على أساسها ممارسات تقوده إلى طريق النجاة.

فينبغي لنا لوزن الأحداث وضبط الأفكار وعدم انفلات أيٍّ منها وانبعث أفكار متأثرة بواقع آنيٍّ، أن ننظر بعين ثانية.

* * *

«وَقَدْ مَلَأَتِ الْأَرْضَ عَدْلًا، وَأَذَقْتَ أَعْدَاءَكَ هَوَانًا وَعِقَابًا، وَأَبْرَتِ
الْعُتَاةَ وَجَحَدَةَ الْحَقِّ، وَقَطَعْتَ دَابِرَ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَاجْتَشَّتْ أُصُولَ
الظَّالِمِينَ، وَنَحْنُ نَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

هذه الفقرة تُعبِّر عن الأمل العميق في أن يشهد الداعي لحظة ظهور الإمام عليه السلام، حيث يملأ الأرض بالعدل الذي يُطفئ نيران الظلم، ويُعيد حقوق المظلومين. كما يتمنى أن يرى أعداء الحقِّ وقد نالوا جزاءهم العادل، معذَّبين ومهزومين، إذ إنَّ هذا العقاب ليس مجرد عقوبة دنيوية، بل هو انتصارٌ لحقِّ إلهي يُستعاد، وذُلٌّ على الطغاة الذين ظلموا البشرية وعبثوا بالأرواح والحقوق طيلة عهود متهادية.

وفي النهاية، تكتمل الصورة التي يرنو إليها الداعي: لحظة النصر والتسليم الكامل لله تعالى، حيث تُرفع الأفواه بالشكر والامتنان لله الذي قضى بهذا الفرج، واستجاب لدعوات المؤمنين وانتظارهم.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، هذا التعبير عن الشكر العميق للرحمة الإلهية التي جلبت النصر، وإعلاناً عن رضا المؤمنين وسعادتهم برؤية الحق قد تحقّق، وملاً الأرض بركاتٍ وسلاماً بعد فترة طويلة من الشدائد والانتظار. إنَّها لحظة نهاية الظلم وبداية الحق، حيث تتنفس الأرض هواءً جديداً، وتستعيد البشريّة طهارتها وأمانها وسلامها وإسلامها الأصيل.

حكومة المستقرّ وخاتمة الأمر:

لا يمرُّ يوم من الأيام في زماننا هذا إلا ونجد للقفزات العلميّة والتطوُّر النوعي الهائل صدًى أو خبراً يُحدِّثنا عن زاوية حصل فيها ابتكار، أو برنامج لو أخبرنا به قبل مشاهدته لكان ضرباً من الخيال، وأتّهماً للمتحدّث به بالجنون. فبين أيدينا التطوُّر الهائل في وسائل الاتّصال ونقل المعلومات إلكترونيّاً، وفي مجال الفضاء واكتشاف الكواكب والمجرّات، إذ يقف العقل مذهولاً لما توصل إليه الإنسان من اكتشافات وحصل عليه من معلومات، والمسيرة في تقدّم متسارع منقطع النظير، فلا يكاد يمرُّ يوم، بل ساعة إلا وهناك قفزة علميّة واكتشاف في مجال ما.

وإذا رجعنا إلى الروايات التي تتحدّث عن التقدّم العلمي في زمن الظهور المبارك لصاحب الزمان ﷺ نجد أنّ بعضاً منها تتحدّث عن نسبة ما يصل إليه العالم من العلم قبل الظهور، ونسبة ما سيصل إليه بعده، وأخرى تُحدِّثنا عن جوانب من ذلك التطوُّر أو الانقلاب الكوني الهائل في عصر الظهور.

وأبحاث من هذا القبيل لا يمكن الوقوف عليها والتماس نتائجها إلا بالاستعانة بالروايات التي تُمثّل بالنسبة لها المجسّات والكواشف التي تطلُّ على الواقع ويُبصر من خلالها بمقدار ما تحدّثت عنه الروايات، إذ بمعزل عن ذلك لا يمكن للفرد أن يلتمس الحقائق مجرّدة عنها.

وإذا سرّحنا النظر في هذين النموذجين من الروايات، نجد أنّ النموذج الأوّل الذي يجري عمليّة المقايسة بين ما قبل وما بعد الظهور يُعطي نسبة الأربعة عشر ضعفاً لما وصل إليه العالم قياساً بما قبل، فخذ أيّ نموذج من النماذج التي تلحظ فيها تطوّراً متزايداً، ويكاد كلُّ نحو من أنحاء هذا التطوُّر يُوقف العقل ذهولاً، فإذا أردت مقايستها بما بعد الظهور فاضربها بأربعة عشر مرّة تطوّراً لتلمس الحالة التي سيكون عليها التطوُّر في عصر الظهور المبارك. والأمر متروك لك في اختيار النماذج ومقايستها بهذه النسبة، وهي في حدّ ذاتها نسبة لا يمكن الجزم بأنّها هي فقط دون غيرها زيادة، إذ إنّ الأحاديث التي أرادت المقايسة بين ما قبل وما بعد تحدّث بعضها عن أنّ للعلم سبعاً وعشرين جزءاً، وقالت: إنّ جميع ما قبل الظهور هو بجزئين سينضمّان إلى الخمسة والعشرين جزءاً وسيبئها القائم ﷺ جميعاً في العالم حين ظهوره، وتلك الأجزاء - غير الاثنين - فسرّح عنان الفكر في استخراج النتائج.

فَعَنْ أَبِي بَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ جُزْءًا، فَجَمِيعٌ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ جُزْءَانِ، فَلَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ حَتَّى الْيَوْمِ غَيْرَ الْجُزْءَيْنِ، فَإِذَا قَامَ الْقَائِمُ أَخْرَجَ الْخَمْسَةَ وَالْعِشْرِينَ جُزْءًا فَبَثَّهَا فِي النَّاسِ، وَصَمَّ إِلَيْهَا الْجُزْءَيْنِ حَتَّى يَبْتَهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرِينَ جُزْءًا»^(١).

بينما نجد النموذج الثاني الذي يتحدّث عن زوايا ضيقة جدّاً في لوحة الظهور الكبيرة، فيُعطي لنا صوراً نلتمس بها الواقع آنذاك، فانخفاض كلِّ مرتفع وارتفاع كلِّ منخفض يعني زلزلة جميع الموازين، ولكنها زلزلة علميّة حتّى يصل الحال إلى أن يُصوّر لك الكون - بل هو الواقع وليس صوراً - أنّه كشعرة في راحة يده.

(١) الخرائج والجرائح (ج ٢ / ص ٨٤١ / ح ٥٩).

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ إِذَا تَنَاهَتْ الْأُمُورُ إِلَى صَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ رَفَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ مُنْخَفِضٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَخَفَّضَ لَهُ كُلَّ مُرْتَفِعٍ مِنْهَا حَتَّى تَكُونَ الدُّنْيَا عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ رَاحَتِهِ...»^(١).

ثمَّ تُعطينا الأحاديث صورة أُخرى لما سيكون عليه التطوُّر في زمن الظهور، فُتَبْرز لنا أن الرؤية بالعين المجردة بعد الظهور تختلف عنها عمَّا قبله، فالذي هو بالمشرق سيتجاوز نظره إبان الظهور المشرق كلَّه إلى المغرب.

فَعَنْ أَبِي الرَّبِيعِ الشَّامِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ قَائِمَنَا إِذَا قَامَ مَدَّ اللَّهُ ﷻ لِشِيعَتِنَا فِي أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَائِمِ بَرِيدٌ...» الحديث^(٢).

ثمَّ تنقلنا روايات أُخرى إلى مقطع آخر، إلى اللباس وشؤونه، فَتُحَدِّثنا بأنَّ لباس المؤمن يختلف عمَّا قبل، فهو يتغيَّر بتغيُّر الذي يلبسه، فإذا طال الإنسان طالت ملابسه معه، وكذا إذا قصر، ويتغيَّر لونها تغيُّراً لِحَبِّه ومشيئته وإرادته، فإذا أراد الملابس السوداء تحوَّلت ملابسه إلى اللون الأسود، وإذا أراد البيضاء فكذلك، وهي على هذا المنوال تتغيَّر تلوُّناً ومقاساً ونوعياً حسب رغبته وإرادته^(٣).

(١) كمال الدين (ص ٦٧٤ / باب ٥٨ / ح ٢٩).

(٢) الكافي (ج ٨ / ص ٢٤٠ و ٢٤١ / ح ٣٢٩).

(٣) عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا قَامَ الْقَائِمُ ﷺ اسْتَنْزَلَ الْمُؤْمِنُ الطَّيْرَ مِنَ الْهَوَاءِ، فَيَذْبَحُهُ، فَيَشْوِيهِ، وَيَأْكُلُ لَحْمَهُ، وَلَا يَكْسِرُ عَظْمَهُ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: إِخِي يَا ذِي اللَّهِ، فَيَجِيءُ وَيَطِيرُ، وَكَذَلِكَ الطُّبَّاءُ مِنَ الصَّحَارِيِّ، وَيَكُونُ ضَوْءُ الْبِلَادِ نُورَهُ، وَلَا يَحْتَابُونَ إِلَى شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ، وَلَا يَكُونُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤَذٍ، وَلَا شَرٌّ، وَلَا إِثْمٌ، وَلَا فَسَادٌ أَصْلًا، لِأَنَّ الدَّعْوَةَ سَمَّاءِيَّةٌ، لَيْسَتْ بِأَرْضِيَّةٍ، وَلَا يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ فِيهَا وَسْوَسةٌ، وَلَا عَمَلٌ، وَلَا حَسَدٌ، وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْفَسَادِ، وَلَا تَشْوُكُ الْأَرْضُ وَالشَّجَرُ، وَتَبْتَقِي زُرُوعَ الْأَرْضِ قَائِمَةً، كُلَّمَا أَحَدَ مِنْهَا شَيْءٌ نَبَتَ مِنْ وَقْتِهِ،

تلك الصور المتلوّنة التي هي جزء صغير، ونافذة محدودة، عكسها لنا أهل البيت عليهم السلام عن شكل ما سيكون عليه الكون أيام الظهور المبارك. والظاهر أنّ ذلك يكون في إطار الأسباب والمسببات، ولا يحتاج إلى الكرامات إلاّ بمقدار استدعاء الضرورة به. فهذا التطوّر الهائل سيحدث في نطاق الحالة الطبيعيّة للرقبيّ الحاصل في ذلك الزمن المبارك.

اليوم العالمي للقيام المهدوي:

إدارة شؤون الكون وتنصيب الأفراد المؤهلين لها حقيقة نزعت إليها النفس البشريّة منذ وُجِدَتْ على هذه البسيطة، دونها حاجة إلى تشريع وإيجاد، وإذا كان ثمة ما يستدعي ذلك فإنّما هو موازين الاختيار وضوابط تلبية تلك الحاجة، فإذا ما رُوِعيت تلك الموازين ونُصِبَ الفرد المؤهل لها تحقّقت للبشريّة الحياة الرغيدة والسعادة المنشودة.

وعلى هذا النمط، ولأجل هذا النزوع جرت سيرة الناس والسُنَنَ الإنسانيّة على اعتبار يوم التنصيب، واتّخاذ القادة من أعيادها. فلا نجد أمةً أو شعباً تتاح له فرصة الوقوف خلف قائده المختار، إلاّ ويتخذ ذلك اليوم عيداً ورمزاً وطنياً أو دينياً أو قومياً. ونحن أتباع أهل البيت عليهم السلام ينبغي علينا أن ندأب على ذلك لما في هذا

⇒ وَعَادَ كَحَالِهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْسُو إِيَّاهُ الثَّوْبَ فَيَطُولُ مَعَهُ كُلَّمَا طَالَ، وَيَتَلَوَّنُ عَلَيْهِ أَيَّ لَوْنٍ أَحَبَّ وَشَاءَ، وَلَوْ أَنَّ الرَّجُلَ الْكَافِرَ دَخَلَ جُحَرَ ضَبٍّ، أَوْ تَوَارَى خَلْفَ مَدْرَةٍ، أَوْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، لَأَنطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ السِّرُّ الَّذِي يَتَوَارَى فِيهِ، حَتَّى يَقُولَ: يَا مُؤْمِنُ، خَلْفِي كَافِرٌ فَخُذْهُ، فَيَأْخُذُهُ وَيَقْتُلُهُ، وَلَا يَكُونُ لِإِبْلِيسَ هَيْكَلٌ يَسْكُنُ فِيهِ، وَاهْيِكُلُ: الْبَدَنُ، وَيُصَافِحُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَيُوحِي إِلَيْهِمْ، وَيُحْيُونَ وَيَجْتَمِعُونَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ إِلَّا بِالْكَوْفَةِ، أَوْ يَحْنُ إِلَيْهَا». دلائل الإمامة (ص ٤٦٢ و ٤٦٣ / ح ٤٤٣ / ٤٧).

الفصل الثالث: الندبة للإمام ﷺ ٤٤٥

التجسيد من تجذير وتعميق لروح الولاء وعقد الطاعة في يوم تنصيب وليّ الله الأعظم ﷺ واتّخاذه من قبل السماء قائداً وإماماً للبشريّة، لتحقيق الأُمْنِيّة العالميّة في سيادة العدل.

فإنّ يوم تنصيب مهدي آل محمّد ﷺ خليفة لله على عباده هو العيد العالمي واليوم الأُمّمي.

وهو اليوم الذي اجتمعت فيه أحلام البشريّة، واقتربت من التحقُّق. وعلى المحبّ التوّاق لهذا الفتح الإلهي، والانقلاب الكوني أن يُجِدِّد العهد مع هذا القائد السماوي، وأن يتّخذ من هذا اليوم عيداً له.

* * *

المبحث الرابع:

التوسُّل بالنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام والصديقة
الطاهرة عليهم السلام لتعجيل فرج المولى ﷺ والدعاء
لامتثال أوامره وطاعته وتحقيق رغبته ﷺ،
والختم بالدعاء لقبول الأعمال وقضاء الحوائج
الدنيوية والأخروية بوساطة الإمام ﷺ

الفقرة الرابعة والثلاثون

«اللَّهُمَّ أَنْتَ كَشَّافُ الْكُرْبِ [الْكُرُوبِ] وَالْبَلْوَى، وَإِلَيْكَ
أَسْتَعْدِي فَعِنْدَكَ الْعُدْوَى، وَأَنْتَ رَبُّ الْأَخِرَةِ وَالْأُولَى، فَأَغِثْ يَا
غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ عَيْبِكَ الْمُبْتَلَى، وَأَرِهْ سَيِّدَهُ يَا شَدِيدَ الْقُوَى،
وَأَزِلْ عَنْهُ بِهِ الْأَسَى وَالْجَوَى، وَبَرِّدْ غَلِيلَهُ يَا مَنْ هُوَ عَلَى الْعَرْشِ
اسْتَوَى، وَمَنْ إِلَيْهِ الرَّجْعَى وَالْمُنْتَهَى، اللَّهُمَّ وَنَحْنُ عَيْبُكَ
التَّائِقُونَ إِلَيْكَ، الْمَذْكُرُ بِكَ وَنَبِيِّكَ، خَلَقْتَهُ لَنَا عِصْمَةً
وَمَلَاذًا، وَأَقَمْتَهُ لَنَا قَوَامًا وَمَعَاذًا، وَجَعَلْتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَّا إِمَامًا،
فَبَلَّغَهُ مِنَّا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، وَزِدْنَا بِذَلِكَ يَا رَبِّ إِكْرَامًا، وَاجْعَلْ
مُسْتَقَرَّهُ لَنَا مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَأَتِمِّمْ نِعْمَتَكَ بِتَقْدِيمِكَ إِلَيْهِ أَمَانًا
حَتَّى تُورِدَنَا جَنَّاتِكَ [جَنَاتِكَ] وَمُرَافِقَةَ الشُّهَدَاءِ مِنْ خُلَصَائِكَ،
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى حُجَّتِكَ وَوَلِيِّ أَمْرِكَ، وَصَلِّ عَلَى جَدِّهِ مُحَمَّدٍ
رَسُولِكَ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ، وَصَلِّ عَلَى عَلِيِّ أَبِيهِ السَّيِّدِ الْقَسْوَرِ،
وَحَامِلِ اللَّوَاءِ فِي الْمَحْشَرِ، وَسَاقِي أَوْلِيَائِهِ مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ،
وَالْأَمِيرِ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ، الَّذِي مَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدْ ظَفَرَ [شَكَرَ]،
وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَقَدْ [وَمَنْ أَبَا فَقَدْ] خَطَرَ وَكَفَرَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى أَخِيهِ وَعَلَى نَجَلِهَا الْمَيَامِينِ الْغُرَرِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا
أَضَاءَ قَمَرٌ، وَعَلَى جَدَّتِهِ الصَّديْقَةِ الْكُبْرَى فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ بِنْتِ
مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى، وَعَلَى مَنْ إِصْطَفَيْتَ مِنْ آبَائِهِ الْبَرَّةِ، وَعَلَيْهِ

أَفْضَلَ وَأَكْمَلَ وَأَتَمَّ وَأَدْوَمَ وَأَكْبَرَ وَأَوْفَرَ مَا صَلَّيْتَ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْ
 أَصْفِيَائِكَ وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَصَلِّ عَلَيْهِ صَلَاةً لَا غَايَةَ
 لِعَدَدِهَا، وَلَا نِهَايَةَ لِمَدِيدِهَا، وَلَا نَفَادَ لِأَمْدِهَا، اللَّهُمَّ وَأَقِمِ [أَعِزَّ] بِهِ
 الْحَقَّ، وَأَدْحِضْ بِهِ الْبَاطِلَ، وَأَدِلْ [أَدِلَّ] بِهِ أَوْلِيَاءَكَ، وَأَذِلِّ بِهِ
 أَعْدَاءَكَ، وَصِلِ اللَّهُمَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ وَصَلَّةً تُؤَدِّي إِلَى مُرَافَقَةِ سَلَفِهِ،
 وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَأْخُذُ بِحُجْرَتِهِمْ، وَيُمَكِّنُ [وَيَمَكِّثُ] فِي ظِلِّهِمْ،
 وَأَعِنَّا عَلَى تَأْدِيَةِ حُقُوقِهِ إِلَيْهِ، وَالْإِجْتِهَادِ فِي طَاعَتِهِ، وَالْإِجْتِنَابِ
 عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَأَمُنْ عَلَيْنَا بِرِضَاهُ، وَهَبْ لَنَا رَأْفَتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَدُعَاءَهُ
 وَخَيْرَهُ مَا نَنَالُ بِهِ سَعَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَفَوْزًا عِنْدَكَ، وَاجْعَلْ صَلَاتِنَا
 [صَلَوَاتِنَا] بِهِ مَقْبُولَةً، وَذُنُوبَنَا بِهِ مَغْفُورَةً، وَدُعَائِنَا بِهِ مُسْتَجَابًا،
 وَاجْعَلْ أَرْزَاقَنَا بِهِ مَبْسُوطَةً، وَهَمُومَنَا بِهِ مَكْفِيَةً، وَحَوَائِجَنَا بِهِ
 مَقْضِيَةً، وَأَقْبِلْ إِلَيْنَا بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَأَقْبِلْ تَقَرُّبَنَا إِلَيْكَ، وَأَنْظِرْ
 إِلَيْنَا نَظْرَةَ رَحِيمَةٍ نَسْتَكْمِلُ بِهَا الْكِرَامَةَ عِنْدَكَ، ثُمَّ لَا تَضْرِبُهَا عَنَّا
 بِجُودِكَ، وَأَسْقِنَا مِنْ حَوْضِ جَدِّهِ ﷺ بِكَأْسِهِ وَيَدِهِ رَبًّا رَوِيًّا
 هَيِّنًا سَائِعًا لَا ظَمًا [أَظْمًا] بَعْدَهُ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

فقرات لا تحتاج إلى شرح نكتفي بذكر بعض معانيها، ونعتمد على ما تقدم
 من بحوث في بيان مضامينها:

«اللَّهُمَّ أَنْتَ كَشَّافُ الْكُرْبِ وَالْبَلَوَى، وَإِلَيْكَ أَسْتَعْدِي فَعِنْدَكَ
 الْعُدْوَى، وَأَنْتَ رَبُّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى».

في هذا المقطع وبهذه الكلمات العميقة التي تخرج من قلب الداعي،
 يلتقي التوسل بأسمى معاني الإيمان والتوكل والرجاء، حيث يُظهر العبد

حالته النفسية التي تتأرجح بين الألم الشديد والتطلع إلى رحمة الله تعالى وفضله، هو يتوجه إلى ربه سبحانه، ولا يرجو سواه، طالباً الفرج والنصر بإظهار أمر سيده ﷺ بعد أن اشتدت أوقات الغم وتعسر المخرج، ليتنفس صدره بأمل جديد.

هذه الكلمات ليست مجرد دعاء، بل هي صرخة من قلب يعصره الحزن، متمنياً أن يرفع البلاء ويستجاب الرجاء، فالذي لا يعجزه شيء هو الله تعالى، وهو وحده القادر على إزالة الأحزان والهموم التي تثقل الأرواح والنفوس والأبدان، وهو (عزَّ اسمه) وحده القادر على إجابة الدعوات التي ترتفع من على شفاه قلوب المؤمنين المحزونة المغمومة.

يتوجه الداعي إلى مَنْ بيده وحده حلُّ الأزمت وتسكين الأوجاع، فهو القادر على رفع البلاء في أي لحظة شاء.

يتوجه الداعي إلى الله تعالى المالك الحقيقي لكل الأمور في الدنيا والآخرة، والذي لا شيء يحدث إلا بإرادته، ولا مخرج من الضيق إلا بتقديره، فهو وحده (عزَّ اسمه وجلَّت عظمته) الذي يملك زمام التغيير، وييده مقاليد الأمور، وإذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، هذا التوسل يعكس إيماناً عميقاً بأن الله تعالى هو الوحيد القادر على تغيير الحال في لحظة.

وهكذا، في قلب هذه الكلمات، يكمن أمل عميق في أن الله سبحانه وتعالى سيكشف الغمة عن المؤمنين، ويُعجل بظهور الفرج، ليخرج إمامهم ووليهم من غيبته، وينشر العدل في الأرض.

«فَأَعِثْ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ عُبَيْدَكَ الْمُبْتَلَى، وَأَرِهْ سَيِّدَهُ يَا شَدِيدَ الْقُوَى، وَأَزِلْ عَنْهُ بِهِ الْأَسَى وَالْجَوَى، وَبَرِّدْ غَلِيلَهُ يَا مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، وَمَنْ إِلَيْهِ الرَّجْعَى وَالْمُنْتَهَى».

في هذه الكلمات التي تفيض من أعماق وجود الداعي، تعبيراً عن أقوى أنواع التوسُّل وأشدّها توقفاً إلى الفرج وطلب التعجيل بفرج المولى ورؤيته ظاهراً ناشراً راية عدله وقسطه، حيث يتوجّه الداعي إلى غياث المستغيثين الذي لا يلجأ إليه أحد في الشدائد إلاّ أمده بالعون، فهو أقرب إلى الإنسان - خصوصاً المؤمن - من حبل وريده وروحه التي بين جنبيه، فلا يردُّ سائلاً، ولا يُحَيِّب رجاءً. في هذا النداء يطلب الداعي المدد من الله تعالى والعون، بل يصرخ مستغيثاً من أعماق قلب أنهكه الزمن ووطأته غيبات الأمل، يستغيث بالله تعالى من البلاء الذي طوّقه، علّه يمدُّ بمعونة إلهية ترفع عنه المعاناة، وتريه الفرج عن سيّده. هنا وفي هذا الموقع من الدعاء يتوجّه الداعي إلى الله سبحانه وتعالى بأسمى آيات التوسُّل، رافعاً يديه بالدعاء ليكشف الغمّة عن الأمة، ويزيل الهمّ عن قلوب المؤمنين، خاصّةً في غيبة إمامهم الحجّة بن الحسن عليه السلام، ففي هذه الكلمات يظهر النداء العميق من عبدٍ مبتلىٍ بقلبٍ محزونٍ ينتظر الفرج العظيم. فقد زادت وتزداد معانات المؤمنين بغياب الإمام المهدي عليه السلام الذي هو سبب الأمل والفرج.

يتوسّل الداعي إلى الله تعالى ليُري إمامه وسيّده عليه السلام في يوم ظهوره، حيث يتحقّق العدل، ويتنصر الحقُّ، ويزول الظلم.

هذه الكلمات تُترجم أسمى أمانٍ وتطلّعات من قلوب المؤمنين الذين يتوقون لرؤية الإمام المنتظر عليه السلام وقد أقام دولة العدل والقسط، التي سيزول بها كلُّ ما علق في القلوب من أسىٍ وحزنٍ جراء الغيبة المستمرّة الممتدّة للإمام عليه السلام.

في هذه الدعوة يُعبّر المؤمن عن أمله العميق في انتظار الفرج، وهو أمل لا ينقطع رغم طول الغيبة، عسى أن يبرد الألم الحارق في القلب الذي لا يطفئه إلا ظهور الإمام ﷺ.

* * *

«اللَّهُمَّ وَنَحْنُ عِبِيدُكَ التَّائِقُونَ إِلَىٰ وَوَلِيِّكَ، الْمَذْكُورِ بِكَ وَبِنَبِيِّكَ، خَلَقْتَهُ لَنَا عِصْمَةً وَمَلَاذًا، وَأَقَمْتَهُ لَنَا قَوَامًا وَمَعَاذًا، وَجَعَلْتَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَّا إِمَامًا، فَبَلَّغَهُ مِنَّا نَحِيَّةً وَسَلَامًا، وَزِدْنَا بِذَلِكَ يَا رَبِّ إِكْرَامًا، وَاجْعَلْ مُسْتَقَرَّهُ لَنَا مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، وَأَتِمِّمْ نِعْمَتَكَ بِتَقْدِيمِكَ إِيَّاهُ أَمَانًا، حَتَّىٰ تُوْرِدَنَا جَنَّاتِكَ، وَمُرَافِقَةَ الشُّهَدَاءِ مِنْ خُلَصَائِكَ».

هذه الكلمات تفيض بالحبِّ والولاء للإمام المهدي ﷺ، وتُعبّر عن أسمى درجات التوجُّه إلى الله سبحانه وتعالى في طلب العون والفرج والنصرة. في هذه الدعوة يظهر التوسُّل العميق والتضرُّع الصادق من المؤمنين الذين يتطلَّعون إلى لقاء إمامهم ﷺ الذي هو عِصْمَتُهُمْ وَمَلَاذُهُمْ، وهو القائم على شؤونهم والمصلح لأحوالهم.

في هذه الفقرة يظهر الخضوع التام لله تعالى، حيث يُعلن المؤمنون عن أنفسهم كعبيدٍ مخلصين، يتوقون إلى الخلاص والعدل الذي يُجسِّده الإمام ﷺ، هذا التوق يُعبّر عن الافتقار المستمرُّ إلى الإمام المنتظر ﷺ، الذي هو أملهم ومرجعهم في مواجهة الظلم والفساد.

في هذا المقطع يتوجَّه الداعي نحو الله سبحانه وتعالى، طالباً تذكير العالم بوجود الإمام المهدي ﷺ الذي هو الركيزة التي تُذكر الناس بهدى الله تعالى على ما تقدّم مكرراً.

فالإمام عليه السلام - وكما تقدّم - هو العصمة التي تحمي المؤمنين من الضلال، والملاذ الآمن الذي يلجأون إليه في زمن المحن، وهو مصدر الأمان للمؤمنين في غيبته، وهو الذي يقيهم من التشّت والفرقة، وهو الذي جعله الله تعالى لتثبيت الأمة على الهدى، ليطلب الداعي من الباري (عزّ اسمه) إبلاغ مولاه عليه السلام التحية والسلام: «فَبَلِّغْهُ مِنَّا تَحِيَّةً وَسَلَامًا...»، إلى آخر مقاطع هذه الفقرة.

الختام هو أن نُسقى من حوض نبيّنا محمد عليه السلام شربة لا نظماً بعدها أبداً، كما ورد في الدعاء: «وَأَسْقِنَا مِنْ حَوْضِ جَدِّهِ عليه السلام بِكَأْسِهِ وَيَدِهِ رِيًّا رَوِيًّا هَنِئِيًّا سَائِغًا لَا ظَمًا بَعْدَهُ».

وبهذا نختم هذه السفارة الروحية والمعنوية، التي حملت بين سطورها ودواخلها معاني عميقة من الوجدان، ومن العقيدة الراسخة، ومن السلوك المستنير، وهي دعوة أن نعيش على تلك المبادئ السامية، ونأمل أن نكون على هديها في كل لحظة من حياتنا.

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - الابتعاد عن عقوبة الإعدام (الحُجَج، التوجُّهات، الآفاق): إيفان شيمونوفيتش.
- ٣ - إثبات الوصيَّة للإمام عليِّ بن أبي طالب: عليُّ بن الحسين بن عليِّ الهذلي المسعودي / ط ٣ / ١٤٢٦هـ / أنصاريان / قم.
- ٤ - الاحتجاج: أحمد بن عليِّ الطبرسي / تعليق وملاحظات: السيّد محمّد باقر الخراسان / ١٣٨٦هـ / دار النعمان / النجف الأشرف.
- ٥ - الاختصاص: الشيخ المفيد / تحقيق: عليُّ أكبر الغفاري والسيّد محمود الزرندي / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد للطباعة والنشر / بيروت.
- ٦ - إرشاد القلوب: الحسن بن محمّد الديلمي / ط ٢ / ١٤١٥هـ / مطبعة أمير / انتشارات الشريف الرضي / قم.
- ٧ - الإرشاد: الشيخ المفيد / تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليه السلام / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.
- ٨ - الاستذكار: ابن عبد البرّ / تحقيق: سالم محمّد عطا ومحمّد عليّ معوض / ط ١ / ٢٠٠٠م / دار الكُتُب العلميَّة / بيروت.
- ٩ - اشتقاق أسماء الله: عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي أبو القاسم الزجّاجي / تحقيق: عبد الحسين المبارك / ط ٢ / ١٤٠٦هـ / مؤسّسة الرسالة.

٤٥٦ شرح دعاء الندبة

- ١٠ - الأصول الستة عشر: عدّة محدّثين/ تحقيق: ضياء الدّين المحمودي/ ط ١ / ١٤٢٣هـ/ دار الحديث.
- ١١ - أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية: ناصر بن عبد الله بن عليّ القفاري/ ط ٢ / ١٤١٥هـ.
- ١٢ - أضواء على دعاء كميل: السيّد عزّ الدّين بحر العلوم/ ط ٢ / دار الزهراء/ بيروت.
- ١٣ - الاعتقادات في دين الإمامية: الشيخ الصدوق/ تحقيق: عصام عبد السيّد/ ط ٢ / ١٤١٤هـ/ دار المفيد/ بيروت.
- ١٤ - الإفصاح في فقه اللغة: حسين يوسف موسى وعبد الفتّاح الصعيدي/ ط ٤ / ١٤١٠هـ/ مكتب الإعلام الإسلامي/ قم.
- ١٥ - إقبال الأعمال: السيّد عليّ بن طاوس/ تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني/ ط ١ / ١٤١٤هـ/ مكتب الإعلام الإسلامي.
- ١٦ - الأمالي: الشيخ الصدوق/ ط ١ / ١٤١٧هـ/ مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة/ قم.
- ١٧ - الأمالي: الشيخ الطوسي/ تحقيق: مؤسّسة البعثة/ ط ١ / ١٤١٤هـ/ دار الثقافة/ قم.
- ١٨ - الأمالي: الشيخ المفيد/ تحقيق: حسين الأستاذولي وعليّ أكبر الغفاري/ ط ٢ / ١٤١٤هـ/ دار المفيد/ بيروت.
- ١٩ - الإمامة والتبصرة: ابن بابويه/ ط ١ / ١٤٠٤هـ/ مدرسة الإمام الهادي عجلال الله له/ قم.
- ٢٠ - أنوار الحقيقة وأطوار الطريقة وأسرار الشريعة: السيّد حيدر الأملي/ تحقيق وتصحيح: السيّد محسن الموسوي التبريزي/ ط ١ / ١٣٨٢ش/ الناشر: نور على نور/ قم.

- ٢١ - الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة (شرح آل كاشف الغطاء):
عبد الله شبر/ ط ١ / ط ١ / ١٤٠٣ هـ / مؤسّسة الوفاء/ بيروت.
- ٢٢ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار: العلامة
المجلسي/ تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني وعبد الرحيم الربّاني الشيرازي/
ط ٢ / ١٤٠٣ هـ / مؤسّسة الوفاء/ بيروت.
- ٢٣ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد: ابن رشد/ تنقيح وتصحيح: خالد
العطار/ طبعة جديدة منقّحة ومصحّحة / ١٤١٥ هـ / دار الفكر/ بيروت.
- ٢٤ - البداية والنهاية: ابن كثير/ تحقيق وتدقيق وتعليق: عليّ شيري/
ط ١ / ١٤٠٨ هـ / دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
- ٢٥ - البرهان في تفسير القرآن: هاشم البحراني/ مؤسّسة البعثة/ قم.
- ٢٦ - بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد عليهم السلام: محمد بن الحسن
ابن فروخ (الصفار)/ تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوجه
باغي / ١٤٠٤ هـ / منشورات الأعلمي / طهران.
- ٢٧ - البيان في تفسير القرآن: السيّد الخوئي / ط ٤ / ١٣٩٥ هـ / دار
الزهراء/ بيروت.
- ٢٨ - تاج المواليد في مواليد الأئمّة ووفياتهم: الشيخ الطبرسي / ط
١٤٠٦ هـ / مكتبة آية الله المرعشي / قم.
- ٢٩ - تاريخ بغداد أو مدينة السلام: الخطيب البغدادي/ دراسة وتحقيق:
مصطفى عبد القادر عطا/ ط ١ / ١٤١٧ هـ / دار الكُتب العلميّة/ بيروت.
- ٣٠ - تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة: السيّد شرف
الدّين عليّ الحسيني الأسترآبادي/ ط ١ / ١٤٠٧ هـ / مدرسة الإمام
المهدي عليه السلام / قم.

- ٣١ - التبيان في تفسير القرآن: الشيخ الطوسي / تحقيق: أحمد حبيب قصير
العالمي / ط ١ / ١٤٠٩هـ / مكتب الإعلام الإسلامي.
- ٣٢ - تحف العقول عن آل الرسول: ابن شعبة الحرّاني / تصحيح وتعليق:
عليّ أكبر الغفاري / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة
المدرّسين بقم المشرفّة.
- ٣٣ - تحفة الأزهار وزلال الأمهار في نسب أبناء الأئمّة الأطهار عليهم السلام:
ضامن بن شدقم / ط ١ / ١٣٧٨ش / دفتر نشر ميراث مكتوب / طهران.
- ٣٤ - تصحيح اعتقادات الإماميّة: الشيخ المفيد / تحقيق: حسين
دركاهي / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.
- ٣٥ - تفسير الإمام العسكري عليه السلام: المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام /
ط ١ محقّقة / ١٤٠٩هـ / مدرسة الإمام المهدي عليه السلام / قم.
- ٣٦ - تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): فخر الدّين محمّد بن عمر التميمي
البكري الرازي الشافعي / ط ٣.
- ٣٧ - تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): محمّد بن جرير
الطبري / تقديم: الشيخ خليل الميس / ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل
العطار / ١٤١٥هـ / دار الفكر / بيروت.
- ٣٨ - تفسير العياشي: محمّد بن مسعود العياشي / تحقيق: السيّد هاشم
الرسولي المحلّاتي / المكتبة العلميّة الإسلاميّة / طهران.
- ٣٩ - تفسير القمّي: عليّ بن إبراهيم القمّي / تصحيح وتعليق وتقديم:
السيّد طيّب الموسوي الجزائري / ط ٣ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة دار الكتاب / قم.
- ٤٠ - تفسير الميزان (الميزان في تفسير القرآن): العلامة الطباطبائي /
مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفّة.

- ٤١ - تفسير فرات الكوفي: فرات بن إبراهيم الكوفي / تحقيق: محمد الكاظم / ط ١ / ١٤١٠هـ / مؤسسة طبع ونشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي / طهران.
- ٤٢ - تقريب المعارف: أبو الصلاح الحلبي / تحقيق: فارس الحسون / ط ١٤١٧هـ.
- ٤٣ - تلخيص الشافي: الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٣٨٢ش / انتشارات المحيّن / قم.
- ٤٤ - تنقيح المقال في علم الرجال: الشيخ عبد الله المامقاني / تحقيق: الشيخ محمد رضا المامقاني / ط ١ / ١٤٣١هـ / مؤسسة أهل البيت عليه السلام لإحياء التراث / قم.
- ٤٥ - تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي / تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان / ط ٣ / ١٣٦٤هـ / دار الكتب الإسلامية / طهران.
- ٤٦ - تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري / تعليق: عمر سلامي وعبد الكريم حامد / ط ١ / ١٤٢١هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- ٤٧ - ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق / تحقيق: محمد مهدي الخرسان / ط ٢ / ١٣٦٨ش / مطبعة أمير / منشورات الشريف الرضي / قم.
- ٤٨ - جمال الأسبوع: ابن طاوس / تحقيق: جواد القيومي / ط ١ / ١٣٧١ش / مطبعة اختر شمال / مؤسسة الآفاق.
- ٤٩ - جواهر الكلام: الشيخ الجواهري / تحقيق: عباس القوجاني / ط ٢ / ١٣٦٥ش / مطبعة خورشيد / دار الكتب الإسلامية / طهران.
- ٥٠ - حوار مع فضل الله حول الزهراء (سلام الله عليها): السيد هاشم الهاشمي / ط ٢ / ١٤٢٢هـ / دار الهدى / قم.

٤٦٠ شرح دعاء الندبة

- ٥١ - الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي / بإشراف: السيّد محمد باقر الموحّد الأبطحي / ط ١ / ١٤٠٩هـ / مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام / قم.
- ٥٢ - الخصال: الشيخ الصدوق / تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري / ١٣٦٢ش / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفّة.
- ٥٣ - خلق أفعال العباد: محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي / ط ١ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة الرسالة / بيروت.
- ٥٤ - الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي / دار المعرفة / بيروت.
- ٥٥ - الدعوات (سلوة الحزين): قطب الدين الراوندي / ط ١ / ١٤٠٧هـ / مطبعة أمير / مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام / قم.
- ٥٦ - دلائل الإمامة: محمد بن جرير الطبري الشيعي / ط ١ / ١٤١٣هـ / مؤسّسة البعثة / قم.
- ٥٧ - رجال الطوسي (الأبواب): الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٤١٥هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي.
- ٥٨ - رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال): الشيخ الطوسي / تحقيق: السيّد مهدي الرجائي / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.
- ٥٩ - رجال النجاشي (فهرست أسماء مصنّفي الشيعة): أبو العبّاس أحمد ابن عليّ بن أحمد بن العبّاس النجاشي الأَسدي الكوفي / ط ٥ / ١٤١٦هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفّة.
- ٦٠ - الرواشح السماويّة: السيّد محمد باقر الداماد (الميرداماد) / تحقيق: غلامحسين قيصريةها ونعمة الله الجليلي / ط ٢ / ١٤٢٢هـ / دار الحديث.
- ٦١ - روضة الواعظين: محمد بن الفتّال النيسابوري / تقديم: السيّد محمد مهدي السيّد حسن الخرسان / منشورات الشريف الرضي / قم.

المصادر والمراجع..... ٤٦١

- ٦٢ - زاد المعاد: العلامة محمد باقر المجلسي / تعريب وتعليق: علاء الدين الأعلمي / ط ١ / ١٤٢٣هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.
- ٦٣ - سرور أهل الإيمان في علامات صاحب الزمان عليه السلام: السيّد بهاء الدين عليّ النيلي النجفي / ط ١ / ١٤٢٦هـ / دليل ما / قم.
- ٦٤ - سعد السعود: ابن طاوس / ١٣٦٣هـ / مطبعة أمير / منشورات الشريف الرضي / قم.
- ٦٥ - سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي / إشراف وتخرّيج: شعيب الأرنؤوط / تحقيق: حسين الأسد / ط ٩ / مؤسّسة الرسالة / بيروت.
- ٦٦ - الشافي في الإمامة: الشريف المرتضى / ط ٢ / ١٤١٠هـ / مؤسّسة إسماعيليان / قم.
- ٦٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحيّ العكريّ الدمشقي (ابن العماد الحنبلي) / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- ٦٨ - شرح أصول الكافي: مولى محمد صالح المازندراني / تعليق: الميرزا أبو الحسن الشعرائي / ضبط وتصحيح: السيّد عليّ عاشور / ط ١ / ١٤٢١هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- ٦٩ - الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربيّة): إسماعيل بن حمّاد الجوهري / تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار / ط ٤ / ١٤٠٧هـ / دار العلم للملايين / بيروت.
- ٧٠ - صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي / ط ٢ / ١٤١٠هـ / أوقاف مصر.
- ٧١ - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري / دار الفكر / بيروت.

٤٦٢ شرح دعاء الندبة

- ٧٢ - الصحيفة السجّادية: تحقيق: محمد باقر الأبطحي / ط ١ / ١٤١١هـ / مطبعة نمونه / مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، ومؤسّسة الأنصاريان / قم.
- ٧٣ - علل الشرائع: الشيخ الصدوق / تقديم: السيّد محمد صادق بحر العلوم / ١٣٨٥هـ / منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبتها / النجف الأشرف.
- ٧٤ - عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الأحسائي / تحقيق: مجتبي العراقي / ط ١ / ١٤٠٣هـ / مطبعة سيّد الشهداء عليه السلام / قم.
- ٧٥ - العين: الخليل الفراهيدي / ط ٢ / ١٤٠٩هـ / مؤسّسة دار الهجرة.
- ٧٦ - عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ الصدوق / تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.
- ٧٧ - الغارات: إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي / تحقيق: السيّد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث.
- ٧٨ - الغيبة: ابن أبي زينب النعماني / تحقيق: فارس حسّون كريم / ط ١ / ١٤٢٢هـ / أنوار الهدى.
- ٧٩ - الغيبة: الشيخ الطوسي / تحقيق: عبد الله الطهراني وعليّ أحمد ناصح / ط ١ / ١٤١١هـ / مطبعة بهمن / مؤسّسة المعارف الإسلاميّة / قم.
- ٨٠ - فرحة الغريّ في تعيين قبر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: السيّد عبد الكريم بن طاوس الحسنّي / تحقيق: السيّد تحسين آل شبيب الموسوي / ط ١ / ١٤١٩هـ / مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة.
- ٨١ - الفردوس الأعلى: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء / تعليق: السيّد محمد عليّ القاضي الطباطبائي / ط ٣ / ١٤٠٢هـ / مكتبة فيروزآبادي / قم.
- ٨٢ - الفصول العشرة: الشيخ المفيد / تحقيق: الشيخ فارس الحسّون / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.

المصادر والمراجع..... ٤٦٣

٨٣ - الفصول المختارة: الشيخ المفيد / ط ٢ / ١٤١٤هـ / دار المفيد / بيروت.

٨٤ - الفضائل: شاذان بن جبرئيل القمي (ابن شاذان) / ١٣٨١هـ / منشورات المطبعة الحيدرية ومكبتها / النجف الأشرف.

٨٥ - فقه الصادق عليه السلام: السيد محمد صادق الروحاني / ط ٣ / ١٤١٤هـ / مؤسسه دار الكتاب / قم.

٨٦ - فلاح السائل: رضي الدين علي بن طاوس.

٨٧ - قاموس الرجال: الشيخ محمد تقي التستري / ط ٢ / ١٤١٠هـ / مؤسسه النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٨٨ - القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.

٨٩ - قصص الأنبياء: قطب الدين الراوندي / تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني / ط ١ / ١٤١٨هـ / انتشارات الهادي.

٩٠ - الكافي: الشيخ الكليني / تحقيق: علي أكبر الغفاري / ط ٥ / ١٣٦٣ش / مطبعة حيدري / دار الكتب الإسلامية / طهران.

٩١ - كامل الزيارات: جعفر بن محمد بن قولويه / تحقيق: الشيخ جواد القيومي / ط ١ / ١٤١٧هـ / مؤسسه نشر الفقاهة.

٩٢ - كتاب سليم: سليم بن قيس الهلالي الكوفي / تحقيق: محمد باقر الأنصاري الزنجاني / ط ١ / ١٤٢٢هـ / دليل ما.

٩٣ - كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: علي بن أبي الفتح الإربلي / ط ٢ / ١٤٠٥هـ / دار الأضواء / بيروت.

٩٤ - كشف المحجّة لثمرة المهجة: السيد علي بن طاوس / ١٣٧٠هـ / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.

٤٦٤ شرح دعاء الندبة

٩٥ - كفاية الأثر في النصّ على الأئمة الاثني عشر: أبو القاسم عليّ بن محمد الخزاز القميّ الرازي / تحقيق: السيّد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي / ١٤٠١هـ / انتشارات بيدار.

٩٦ - كمال الدّين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق / تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري / ١٤٠٥هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفّة.

٩٧ - كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدّين عليّ المتّقي بن حسام الدّين الهندي البرهان فوري (المتّقي الهندي) / ضبط وتفسير: الشيخ بكري حيّاني / تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السّقا / ١٤٠٩هـ / مؤسّسة الرسالة / بيروت.

٩٨ - لسان العرب: أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ابن منظور) / ١٤٠٥هـ / نشر أدب الحوزة / قم.

٩٩ - مثير الأحزان: محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلّي / ١٣٦٩هـ / المطبعة الحيدريّة / النجف الأشرف.

١٠٠ - مجمع البحرين: الشيخ فخر الدّين الطريحي / ط ٢ / ١٣٦٢ش / مرتضوي.

١٠١ - مجمع البيان في تفسير القرآن: أمين الإسلام أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي / قدّم له: السيّد محسن الأمين العاملي / ط ١ / ١٤١٥هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.

١٠٢ - مجمع الرسائل (موسوعة السيّد الخوئي): السيّد الخوئي / ط ٤ / ١٤٣٠هـ / مؤسّسة إحياء آثار الإمام الخوئي / قم.

١٠٣ - مجموعة الفتاوى: ابن تيميّة / طبعة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم.

- ١٠٤ - المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي / تصحيح وتعليق: السيّد جلال الدين الحسيني المحدث / ١٣٧٠هـ / دار الكُتُب الإسلاميّة / طهران.
- ١٠٥ - المحتصر: حسن بن سليمان الحلّي / تحقيق: سيّد عليّ أشرف / ط ١ / ١٤٢٤هـ / انتشارات المكتبة الحيدريّة / مطبعة شريعت.
- ١٠٦ - مختصر بصائر الدرجات: الحسن بن سليمان الحلّي / ط ١ / ١٣٧٠هـ / منشورات المطبعة الحيدريّة / النجف الأشرف.
- ١٠٧ - المزار الكبير: محمد بن جعفر المشهدي / تحقيق: جواد القيّومي الأصفهاني / ط ١ / ١٩١٩هـ / نشر القيّوم / قم.
- ١٠٨ - المسائل العشر في الغيبة: الشيخ المفيد / تحقيق: فارس تبريزيان الحسّون / مركز الأبحاث العقائديّة / قم.
- ١٠٩ - مستدرک الوسائل: الميرزا النوري / ط ١ المحقّقة / ١٤٠٨هـ / مؤسّسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث / بيروت.
- ١١٠ - مسند أحمد: أحمد بن حنبل / تحقيق عدّة محقّقين / ط ١ / ١٤١٦هـ / مؤسّسة الرسالة / بيروت.
- ١١١ - مصباح الفقاهة: تقرير بحث السيّد الخوئي للتبريزي / ط الأولى المحقّقة / مكتبة الداوري / قم.
- ١١٢ - مصباح التهجد: الشيخ الطوسي / ط ١ / ١٤١١هـ / مؤسّسة فقه الشيعة / بيروت.
- ١١٣ - المصنّف: أبو بكر عبد الرزّاق بن همام الصنعاني / عني بتحقيق نصوصه وتخرّيج أحاديثه والتعليق عليه: حبيب الرحمن الأعظمي.
- ١١٤ - معاني الأخبار: الشيخ الصدوق / تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري / ١٣٧٩هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفّة.

٤٦٦ شرح دعاء الندبة

- ١١٥ - معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي / ١٣٩٩هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت.
- ١١٦ - معدن الجواهر ورياضة الخواطر: أبو الفتح الكراجكي / تحقيق: السيد أحمد الحسيني / ط ٢ / ١٣٩٤هـ.
- ١١٧ - المغني: ابن قدامة / دار الكتب العربي / بيروت.
- ١١٨ - مفاهيم القرآن: الشيخ السبحاني / ط ٤ / ١٤٢١هـ / مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام / قم.
- ١١٩ - المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني / تحقيق: صفوان عدنان داوودي / ط ٢ / ١٤٢٧هـ / طليعة النور.
- ١٢٠ - مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني / تقديم وإشراف: كاظم المظفر / ط ٢ / ١٣٨٥هـ / منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها / النجف الأشرف.
- ١٢١ - مقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ابن أبي الدنيا / ط ١ / ١٤١١هـ / مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة / قم.
- ١٢٢ - مكارم الأخلاق: حسن بن الفضل الطبرسي / ط ٦ / ١٣٩٢هـ / منشورات الشريف الرضي.
- ١٢٣ - مكيال المكارم: ميرزا محمد تقي الأصفهاني / تحقيق: عليّ عاشور / ط ١ / ١٤٢١هـ / مؤسّسة الأعلمي / بيروت.
- ١٢٤ - ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار: العلامة المجلسي / تحقيق وتصحيح: السيد مهدي الرجائي / ط ١ / ١٤٠٦هـ / مكتبة آية الله المرعشي / قم.
- ١٢٥ - الملل والنحل: الشهرستاني / دار المعرفة / بيروت.

- ١٢٦ - الملهوف على قتل الطفوف: السيّد عليّ بن طاوس/ ط ١ / ١٤١٧هـ/ أنوار الهدى/ قم.
- ١٢٧ - من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق/ تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري/ ط ٢ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفّة.
- ١٢٨ - مناقب آل أبي طالب: محمّد بن عليّ بن شهر آشوب المازندراني/ ١٣٧٦هـ/ المكتبة الحيدريّة/ النجف الأشرف.
- ١٢٩ - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: عبد الرحمن بن عليّ بن محمّد ابن الجوزي/ دراسة وتحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا/ راجعه وصحّحه: نعيم زرزور/ ط ١ / ١٤١٢هـ/ دار الكُتب العلميّة/ بيروت.
- ١٣٠ - نهاية الأحكام في معرفة الأحكام: العلامة الحليّ/ تحقيق: السيّد مهدي الرجائي/ ط ٢ / ١٤١٠هـ/ مؤسّسة إسماعيليان/ قم.
- ١٣١ - النهاية في غريب الحديث والأثر: مجدّ الدين ابن الأثير/ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمّد الطناحي/ ط ٤ / ١٣٦٤ش/ مؤسّسة إسماعيليان/ قم.
- ١٣٢ - نهج البلاغة: خطب أمير المؤمنين عليه السلام/ ما اختاره وجمعه: الشريف الرضيّ/ تحقيق: الدكتور صبحي صالح/ ط ١ / ١٣٨٧هـ، وبشرح محمّد عبدة/ ط ١ / ١٤١٢هـ/ دار الذخائر/ قم.
- ١٣٣ - وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة): الحرّ العاملي/ ط ٢ / ١٤١٤هـ/ مؤسّسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث/ قم.
- ١٣٤ - ينابيع المودّة لذوي القربى: سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفيّ/ تحقيق: السيّد عليّ جمال أشرف الحسيني/ ط ١ / ١٤١٦هـ/ دار الأسوة.

الفهرس

٣	مقدّمة المركز
٧	إهداء
٩	شكر وامتنان
١١	مقدّمة المؤلّف
١٥	تمهيد: أهمّيّة الدعاء عموماً والدعاء المهدوي خصوصاً
١٧	الدعاء سبيل إلهي رغم مخالفة البعض
٢٢	الدعاء لبُّ التوحيد ومُنحُ العبادة
٢٤	كيف يقوم الدعاء بعملية التأثير؟
٢٥	المعرفة للإمام عَلِيٍّ مَوْجِبَةٌ لدعاء غير محبوب
٢٩	نماذج صُرِّحَ فيها بدعاء الأئمّة عَلَيْهِ السَّلَامُ للأصحاب
٣٣	الدعاء بتعجيل الفرج
٣٣	الدعاء من الإمام عَلِيٍّ مَوْجِبَةٌ للأشخاص وأثره
٣٤	الدعاء على عروة بن يحيى النخّاس الدهقان وأحمد بن هلال العبرتائي
٣٧	البحث السندي في دعاء الندبة
٤١	الفصل الأوّل: الوساطة بين السماء والأرض وخصائص الأنبياء ودرجاتهم
٤٣	النقطة الأولى: بيان معنى الحمد
٤٥	النقطة الثانية: بيان معنى الصلاة
٤٦	حقيقة سيادة النبي ﷺ

٤٧٠	شرح دعاء الندبة
٤٦	روايات السيادة
٤٩	المبحث الأول: المشاركة الإلهية مع الأنبياء وآثار الوفاء بها
٥١	النقطة الأولى: البعد العقائدي
٥١	القضاء والقدر في القرآن والروايات
٥٤	القضاء والقدر في عالم التشريع والاعتبار
٥٤	القضاء والقدر في عالم التكوين
٥٥	النقطة الثانية: البعد القيمي والأخلاقي التربوي
٥٦	النقطة الثالثة: البعد المعرفي والمفاهيمي
٦٠	علم الله تعالى وعالم الذرّ
٦٢	قبول المشاركة وثبوت الوفاء من أهل البيت <small>عليهم السلام</small> والتقديم من الله تعالى ...
٦٥	الذكر العليّ والثناء الجليّ
٦٦	الملائكة وجودهم وحقيقة معناهم وما هي أدوارهم، وأصنافهم؟
٦٩	هل ينزلون على غير الأنبياء؟
٧٠	محلّ الملائكة من الأنبياء والأولياء <small>عليهم السلام</small>
٧٢	«وجعلتهم الذريعة إليك»
٧٣	الوسيلة إلى الرضوان
٧٧	المبحث الثاني: خصائص الأنبياء <small>عليهم السلام</small> ممّن ذكروا في الدعاء
٧٩	إشارات تاريخية إلى أهمّ خصائص ومقامات الأنبياء <small>عليهم السلام</small>
٨٠	قصة آدم <small>عليه السلام</small> وكيفيّة خلقه <small>عليه السلام</small>
٨٢	أين جنة آدم <small>عليه السلام</small> التي خرج منها؟
٨٣	شبهة معصية آدم <small>عليه السلام</small> وجوابها
٨٤	شبهة التناسل في أبناء آدم <small>عليه السلام</small> وجوابها

٤٧١	الفهرس.....
٨٦	قصة نوح <small>عليه السلام</small> واسمه <small>عليه السلام</small> وبعض خصائصه.....
٨٧	رواية الوصاية في أعقاب الأنبياء وذرائعهم.....
٨٩	شباهاة الإمام الحجّة <small>عليه السلام</small> بالنبي نوح <small>عليه السلام</small>
٩١	قصة إبراهيم خليل الرحمن <small>عليه السلام</small>
٩٢	قصة إبراهيم <small>عليه السلام</small> في الروايات.....
٩٣	فوائد من سيرة إبراهيم <small>عليه السلام</small> وشباهاة الإمام المهدي <small>عليه السلام</small> لإبراهيم <small>عليه السلام</small>
٩٤	الإمامة في إبراهيم <small>عليه السلام</small> وذريته.....
٩٨	شبهة الشك في الله تعالى وجوابها.....
٩٩	شبهة كذب إبراهيم <small>عليه السلام</small> والجواب عنها.....
١٠٠	قصة موسى كليم الرب <small>عليه السلام</small>
١٠٢	قصة عيسى <small>عليه السلام</small>
١٠٢	علة خلقه <small>عليه السلام</small> من غير أب.....
١٠٣	شباهاة الإمام الحجّة <small>عليه السلام</small> بعيسى <small>عليه السلام</small>
١٠٣	أهميّة هذه الأدوار في التأثير على الإيمان واكتساب التدين.....
١٠٧	المبحث الثالث: ضرورة إقامة المنذر في كل قوم.....
١٠٩	بيان معنى الشريعة والمنهاج.....
١١٠	قاعدة في المقام: الشريعة تحتاج إلى قانون ونظام.....
١١٢	الاستحفاظ وتخيّر الأوصياء من مدّة إلى مدّة.....
١١٣	قاعدة في المقام: وجود الشريعة سنّة إلهيّة.....
١١٦	بحث قرآني وروائي مرتبط بمقام إقامة الحجّة والهادي والمنذر.....
١١٧	إشكاليّة نفي عموم الإنذار والجواب عنها.....
١٢١	المبحث الرابع: اصطفاء النبي الأكرم <small>عليه السلام</small> وخصائصه ووظائفه.....

٤٧٢	شرح دعاء الندبة
١٢٣	ضرورة النبوة
١٢٤	النبي محمد ﷺ أفضل الخلق جميعاً
١٢٥	خصائص الأنبياء ونبوته ﷺ بالخصوص، وهي:
١٢٦	العصمة والوحي
١٢٦	العلم الخاص، وعلم الغيب
١٢٦	التزُّه عن دناءة الآباء وعهر الأمهات
١٢٧	سلامة الخلقة وكمال العقل
١٢٨	وظائف الأنبياء عليهم السلام
١٢٩	بعثة النبي ﷺ عامة شاملة
١٣٠	صفات النبي ﷺ وآثارها
١٣١	وطء النبي ﷺ للمشاركة والمغارب
١٣٣	البراق وآليات التسخير الإلهية
١٣٥	العروج بالنبي ﷺ
١٣٦	حقيقة العلم المودع في النبي ﷺ
١٣٩	المبحث الخامس: الدين الإسلامي خاتم الأديان
١٤١	التسخير بالرعب والنصر والإظهار بأهل البيت عليهم السلام
١٤٣	تبوء النبي ﷺ مَبْوَأَ الصَّدَق
	الفصل الثاني: أهل البيت عليهم السلام في دعاء الندبة (الخصائص، الآثار،
١٤٥	الكمالات)
١٤٧	تفرُّع أهل البيت عليهم السلام عن النبي ﷺ وارتباطهم بإبراهيم عليه السلام
١٤٩	ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم
١٥٠	ما ورد عنهم في الروايات الشريفة

٤٧٣	الفهرس
١٥١	أهميّة المكان في العقيدة
١٥٢	في أفضليّة أرض كربلاء
١٥٣	ارتباط الإمام <small>عليه السلام</small> بالكعبة
١٥٣	أهل البيت <small>عليهم السلام</small> ودعوة إبراهيم <small>عليه السلام</small>
١٥٧	آية التطهير وتمييز أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
١٦٠	تفسير آية التطهير روائياً وحصرها بأهل البيت <small>عليهم السلام</small>
١٦٢	الإرادة الإلهيّة في إذهاب الرجس
١٦٤	هل آية التطهير تشمل غير أهل البيت <small>عليهم السلام</small> ؟
١٦٦	الأجر على مودّة الأُمّة لأهل البيت <small>عليهم السلام</small>
١٦٨	الأجر هو للناس
١٦٩	الأجر هو اتّخاذ الإسلام الحقيقي سبيلاً لله تعالى
١٧٠	اتّخاذ السُّبُل إلى الله تعالى وتهمة الشرك
١٧١	إمامة أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small> هي السبيل الوحيد للارتباط بالله بعد النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>
١٧٣	خصائص خطّ الهداية
١٧٥	خصائص وصفات الخليفة بعد النبي <small>صلى الله عليه وآله</small> محمد <small>صلى الله عليه وآله</small>
١٧٥	أن يكون هو الهادي بعد النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>
١٧٦	إخراج الناس عن ولاية أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small> من مصاديق القتل العمد
١٧٧	أهل البيت <small>عليهم السلام</small> الحجّة على العباد
١٧٩	بقاء الحقّ في الأُمّة ببقاء الإمام <small>عليه السلام</small>
١٨٠	سُنّة إرسال الرُّسُل والهداية في كلّ أُمّة
١٨٢	الإمام عليّ <small>عليه السلام</small> هو الوليّ بعد النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>
١٨٣	أمير المؤمنين وأهل البيت <small>عليهم السلام</small> من شجرة النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>

٤٧٤ شرح دعاء الندبة

- ١٨٤ إحلال النبي ﷺ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام محله
- ١٨٧ خصائص فاطمة الزهراء عليها السلام ومقامها وكونها كفوّاً لعليّ عليه السلام
- ١٩١ بعض خصائص وفضائل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام
- ١٩٤ اشتراك النبي ﷺ والوليّ عليّ عليه السلام في خصائص محدّدة من المسجد النبوي
- ١٩٥ إيداع العلم والحكمة النبويّة في الإمام عليّ عليه السلام
- ١٩٧ الإمام عليّ عليه السلام أخو النبي ﷺ ووصيه ووارثه
- ١٩٨ الإيمان مخالط للحم ودم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام
- ٢٠٠ الإمام عليّ عليه السلام خليفة النبي ﷺ، ومنجز عداته
- ٢٠٠ مجاورة شيعة الإمام عليّ عليه السلام للنبي ﷺ
- ٢٠٢ بالإمام عليّ عليه السلام يُعرف أهل الإيمان
- ٢٠٥ الإمام عليّ عليه السلام الهادي من الضلال وحبل الله المتين وصراطه المستقيم
- ٢٠٩ الإمام عليّ عليه السلام يدافع عن الدين
- ٢١٣ كيد أعداء الإسلام لرسول الله ﷺ في أمير المؤمنين وفي أهل بيته عليهم السلام
- ٢١٧ تظاهر الأمة على الإمام عليّ عليه السلام بعد رسول الله ﷺ وبكاؤه عليه
- ٢٢١ إخبار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن صفين والنهروان
- ما وقع على أهل البيت عليهم السلام بعد النبي ﷺ وبعد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من أنواع البلاء
- ٢٢٣ البلاء
- ٢٢٦ سنة قتل الهداة والأولياء سنة قديمة
- ٢٢٦ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام السدّ المنيع عن التعدي على أهل البيت عليهم السلام
- بين الأمر بلزوم المتابعة لأمير المؤمنين والعترة الطاهرة عليهم السلام وبين شدة الإقصاء
- ٢٢٧ الإقصاء
- ما جرى على أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام في النصوص الروائيّة والتأريحيّة
- ٢٢٧ ما جرى على أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام في النصوص الروائيّة والتأريحيّة

الفهرس.....	٤٧٥
روايات الدفن في الغريّ.....	٢٣٠
أهميّة استعراض مسيرة الأئمّة عليهم السلام في التضحية وبناء العقيدة الحقّة.....	٢٤٢
ما ينبغي للمؤمنين تجاه أهل البيت عليهم السلام في مواساتهم بما حلّ فيهم.....	٢٤٧
البكاء على الأطائب من أهل البيت عليهم السلام.....	٢٤٩
مشروعيّة البكاء على سيّد الشهداء وأهل البيت والصدّيقة الطاهرة عليهم السلام.....	٢٥٣
الروايات الشريفة تُجيز البكاء.....	٢٥٤
البكاء على الميّت مباح وجائز شرعاً.....	٢٥٤
الإجماع على جوازه، بل التواتر.....	٢٥٥
ذرف الدموع على مصائب أهل البيت عليهم السلام.....	٢٥٦
ضحجج النفوس المكلومة بالألم.....	٢٥٨
نداء: أين الحسين عليه السلام؟.....	٢٦١
الفصل الثالث: الندبة للإمام عليه السلام	٢٧٥
صفات الإمام في الدعاء وما تفرّع عليها من خصائص وآثار ودلالات.....	٢٧٧
عدم خلوّ الأرض من إمام معصوم من أهل البيت عليهم السلام.....	٢٨٠
هل يمكن اللقاء بالإمام عليه السلام؟ وأين موطن الإمام عليه السلام بعد غيبته؟.....	٢٨٣
المعدُّ لقطع دابر الظلمة.....	٢٨٦
هل الإمام آلة للقتل والحرب؟.....	٢٨٨
حالة الانتقام في روايات الظهور لا تنسجم مع العدل الإلهي.....	٢٨٩
هل يهاجم الدعاء العرب؟.....	٢٩٠
حال العرب في لسان روايات المستقبل عند الشنّة.....	٢٩١
انتظار خروجه عليه السلام صباحاً ومساءً.....	٢٩٢
آثار تُسجّلها الروايات الشريفة للمتتظّر والانتظار.....	٢٩٣

٤٧٦	شرح دعاء الندبة
٢٩٥	حقيقة التنزيل للانتظار
٢٩٦	كيف يتحقق الانتظار؟
٢٩٨	مقام المنتظرين
٣٠٠	التفكير الإستراتيجي في طريق العقيدة المهدويّة
٣٠٢	إشكاليّة تعطيل حدود الكتاب ومعالم الدّين
٣١٣	طمس الإمام <small>عليه السلام</small> لأهل الزيغ لغة رجعيّة لا تنسجم مع تعاليم الدّين
٣٢٢	وجه الأولياء
٣٢٢	الروايات الشريفة تسفر عن معنى كون الإمام <small>عليه السلام</small> هو الوجه واليد
٣٢٤	نزول البركات على يد الحجّة <small>عليه السلام</small> لا ينافي حجّة الأئمّة <small>عليهم السلام</small> والرسول <small>صلى الله عليه وآله</small>
٣٢٨	الوسائط بين السماء والأرض منهج إلهي
٣٣١	خطوات في طريق يوم الفتح
٣٣١	كيف يعرف الإمام <small>عليه السلام</small> أنّ وقت خروجه قد حان؟
٣٣٢	كيف يمكن لنا أن نعرفه <small>عليه السلام</small> إذا خرج؟
٣٣٣	علامات الظهور من أين جاءت؟ وما هي دلالتها؟
٣٣٤	تقسيم العلامات إلى المحتوم وغيره
٣٣٥	العلامات المحتومة
٣٣٧	العلامات غير الحتميّة
٣٣٩	أين يكون الإمام <small>عليه السلام</small> أوائل ظهوره؟
٣٣٩	اجتماع الـ (٣١٣)
٣٤٠	خطبة الإمام <small>عليه السلام</small> في مكّة
٣٤٠	بلوغ ملكه جميع الأرض
٣٤١	أيها الموالي لا تُوقّت وتُطبّق ما لم تجزم

٤٧٧.....	الفهرس
٣٤٢.....	التوقيت وأدلة ذمّه
٣٤٥.....	تطابق الأسماء لا يعني العلامة
٣٤٦.....	الإمام <small>عليه السلام</small> هو الساعة
٣٤٧.....	عنصر المفاجأة في الظهور
٣٤٧.....	علامة الصيحة بعيدة عن التلاعب
٣٤٨.....	الاستعداد التام لظهور الإمام <small>عليه السلام</small> بلا توقيت وتطبيق
٣٤٩.....	تأثير الفرد المهدي في المجتمع
٣٥٣.....	بعض خصائص دولة الصلاح والرضا
٣٥٤.....	إقامة العدل، والحكم بين أهل الأديان في بداية الدولة بكتبهم
٣٥٤.....	اكتمال العقول وانتشار دين الإسلام
٣٥٥.....	كثرة البركات وطول الأعمار
٣٥٥.....	يُعلم الأحكام والقرآن كما نزل
٣٥٥.....	إخراج العلم المكنون وبثه بين الناس
٣٥٦.....	اختلاف حساب السنين ونزول الملائكة على المؤمنين وخدمتهم لهم
٣٥٦.....	شبهة حكم المهدي <small>عليه السلام</small> بغير شريعة الإسلام وجوابها
٣٥٨.....	شبهة أن دولة الإمام المهدي <small>عليه السلام</small> تخالف أحكام الإسلام
٣٥٩.....	شبهة أن الإمام المهدي <small>عليه السلام</small> سيغير كتاب الله <small>تعالى</small>
٣٦٢.....	إشكالية الثأر بطلب دم الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> من قبل الإمام الحجة <small>عليه السلام</small>
٣٦٣.....	الثأر عند الأمم ومراحل تطوره
٣٦٥.....	الثأر والقصاص عند أهل الكتاب
٣٦٧.....	روايات القصاص في كتاب (وسائل الشيعة)
٣٦٨.....	الثأر وعقوبة الإعدام في مسلات القوانين

٤٧٨.....	شرح دعاء الندبة
٣٦٨... ٣٦٩.....	مقومات بناء الدولة في الإسلام وعلاقتها بما جرى على سيّد الشهداء <small>عليه السلام</small>
٣٧٢... ٣٧٥.....	انحراف مسار الدولة بعد رحيل النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>
٣٧٥.....	الحركة الحسينية والبناء الديني لإصلاح المنظومة الفكرية والسلوكية للمجتمع
٣٧٥.....	الشُّبهات المثارة حول الثأر المهدي
٣٧٥.....	الشبهة الأولى: الثأر المهدي نزاع بين قبيلتين
٣٧٦.....	الشبهة الثانية: أهل البيت <small>عليهم السلام</small> بيت الرحمة والعفو، وهذا لا ينسجم مع الثأر والانتقام
٣٨٠.....	الشبهة الثالثة: لو قتل أهل الأرض لم يكن مسرفاً
٣٨١.....	الشبهة الرابعة: رجحان العفو واستحبابه ينافي الأخذ بالثأر
٣٨١.....	الشبهة الخامسة: الثأر يُشكّل أزمة خطاب عالمي
٣٨٣.....	الشبهة السادسة: لماذا لا يثار الشيعة لرسول الله <small>صلى الله عليه وآله</small> ويقتصرون على الثأر للحسين <small>عليه السلام</small> ؟
٣٨٥.....	الشبهة السابعة: الثأر مخالف للسيرة العقلانية
٣٨٦.....	الخاتمة
٣٨٨.....	مراتب النصر
٣٨٩.....	ليست النصر غيبية محضة
٣٩٠.....	النصرة للإمام <small>عليه السلام</small> في كلمات الأعلام
٣٩١.....	نصرة العاجز
٣٩٤.....	حديث من قلب كل مؤمن
٣٩٩.....	ارتباط الإمام المهدي <small>عليه السلام</small> بأجداده الطاهرين <small>عليهم السلام</small>
٤٠٣.....	الأنساب أصول هذا العالم
٤٠٤.....	معنى النسب

٤٧٩.....	الفهرس
٤٠٤.....	من الآثار المترتبة على النَّسَب
٤٠٧.....	افتداء الداعي للإمام ﷺ بنفسه، ولوعة الفراق والشوق إلى اللقاء وتهيئة نفسه لاستقبال الإمام ﷺ وتصوير ظهوره
٤١٧.....	عين الله تعالى في خلقه
٤٣٧.....	نظرة المؤمن للحياة
٤٤١.....	حكومة المستقرِّ وخاتمة الأمر
٤٤٤.....	اليوم العالمي للقيام المهدي
٤٤٧.....	التوسُّل بالنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام والصديقة الطاهرة عليها السلام لتعجيل فرج المولى ﷺ
٤٥٥.....	المصادر والمراجع
٤٦٩.....	الفهرس

* * *